في عمق البحر حيث لا تُلمس الأرض

فابيو جينوفيزي

مكتبة 1306





ترجمة: أماني فوزي حبشي



في عمق البحر
حيث لا تلمس الأرض



الكاتب: فابيو جينوفيزي

عنوان الكتاب: في عمق البحر حيث لا تُلمس الأرض

ترجمة: أماني فوزي حبشي

العنوان باللغة الأصلية: Il mare dove non si tocca

الكاتب: Fabio Genovesi

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-63-2

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022

2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

فابيو جينوفيزي

في عمق البحر
حيث لا تُلمس الأرض

رواية

ترجمة

أماني فوزي حبشي



المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

إلى معلميَّ غريبي الأطوار

الجزء الأول

الرب يبارك القارب المحطم

الذي يمكنه أن يعيدنا من حيث أتينا.

جاسون إيزبيل

(١)

اللعنة



كيف بدأت؟ لا أحد يعرف. ربما دَنَّس أحد أسلافنا مقبرة أحد الفراعنة، ربما أغضب ساحرة ما أو قتل غدرًا حيوانًا مقدسًا لدى أحد الآلهة المنتقمة، الشيء الوحيد المؤكد أنه منذ تلك اللحظة حملت عائلتنا على كاهلها لعنة مخيفة.

الأمر سيئ ولكنه كذلك، وكان الشيء الأول الذي تعلمته من المدرسة.

بل لا، الشيء الأول الذي تعلمته بمجرد دخولي إلى الفصل، هو أنه في العالم يوجد أطفال آخرون كثيرون في سني، وأولئك الأطفال لديهم فقط ثلاثة أو أربعة أجداد لكل منهم. أما أنا فلدي عشرة.

لأن جدي من جهة أمي كان لديه الكثير من الإخوة العُزَّاب، الذين لم يتزوجوا قَط، ولم يقبضوا قَط على يد امرأة، ولهذا، من هذه العائلة الضخمة لم يخرج سواي، وكنت أنا حفيد الكل.

في الواقع يتشاجرون يوميًّا ليقرروا من سيأخذني في نزهة، وعندما مات جدي، ازداد الأمر سوءًا، لذلك علقت جدتي جوزيبينا ورقة على شجرة الدلب في بداية الطريق، كتبت عليها الأدوار خلال الأسبوع: الاثنين صيد السمك مع الجد ألدو، الثلاثاء صيد الحيوانات مع الجد آتوس، الأربعاء آيس كريم مع أديلمو، الخميس البحث عن الطيور مع الجد آراميس، وهكذا حتى ترضيهم جميعًا. الوحيد الذي لم يكن يصل قَط إلى التقويم هو يوم العطلة، الذي يمكن أن أقضيه مع أطفال في مثل عمري. لأنهم كانوا يتقابلون فيما بينهم، ويعرفون العديد من الألعاب المجنونة والتي في ذلك الصباح في المدرسة سمعت عنها للمرة الأولى: الغميضة، الجرس، سرقة العلم. كان يكفيهم أن يقولوا اسم إحداها وعلى الفور يبدأ الجري والقفز تبعًا للقواعد العبثية بالنسبة إليَّ ولكن بالنسبة إليهم طبيعية جدًّا، بل وكانوا ينظرون إليَّ بتعجب إذا سألتهم كم سمكة شبوط صادوها هذا الصيف، أو إذا كان لديهم بعض ريش بري للتبادل.

ولكنهم لم يروا ديكًا بريًّا قَط، ولم يكونوا يعرفون ما الماعز، إذن مكثت اليوم الأول لأراقبهم من بعيد، تلك المخلوقات الغامضة ذات الألعاب الكثيرة والأجداد القليلين، وكأنني هبطت على كوكب مارس في فصل مع كائنات فضائية.

في الواقع، في نهاية اليوم الأول من المدرسة، وفي طريق عودتي إلى المنزل وأنا أبدل الدراجة خلف أمي، شعرت بأنني بالفعل مثل

رائد الفضاء الذي يعود من مهمته في الفضاء، من مكان بعيد جدًّا ومستحيل، إلى حد أنني بالعبور من الطرق المعتادة خشيت ألَّا أعثر على الطريق إلى عالمي. والذي كان يقع في شارع ضيق نهايته مغلقة، حيث كل جد قد بنى منزله الصغير ولا يعيش فيه أحد سوانا. في الواقع على بداية الشارع توجد لافتة خشبية مكتوب عليها بخط اليد:

مرحبًا بكم في قرية مانشيني

ممنوع الدخول

ومثل عودة رائد الفضاء، في الشارع الصغير وجدت في انتظاري حشدًا كبيرًا: فها هي عائلتي، والتي لم تتركني أنزل من على الدراجة، أحاطوا بي وأرادوا معرفة كيف كان يومي، بماذا شعرت وإذا آذاني أحدهم.

لم أقل لهم بماذا شعرت، لأنني لم أكن أعرف ذلك. نظرت إليهم واحدًا واحدًا فقط، أجدادي العديدين، وبدا لي أنني أراهم للمرة الأولى. ثم سألتهم إذا كان في إمكاني منذ اليوم أن أدعوهم أعمامي.

صرخوا في أمي: إليكِ! هل رأيتِ؟ لم يكن علينا إرساله إلى المدرسة!

وكنت أوافقهم الرأي، في الحقيقة لم أكن أريد العودة إليها قَط. إلا أن أمي قالت لي إذا لم أذهب فسيأتي العساكر ويأخذونني إلى السجن. طلبت أن يشرحوا لي كيف يكون السجن، وفي الحقيقة

كان يشبه المدرسة كثيرًا، مع فارق أنه لا بد من الذهاب حتى مدينة لوكًا. إذا أصررت على المدرسة، أصبحت تلك الكائنات الفضائية رفاقي في الفصل وأصبح أجدادي الكثيرون هم أعمامي: العم ألدو، والعم آتوس، آراميس، أديلمو، أرنو، وهكذا. كانت أسماؤهم جميعًا تبدأ بحرف الألف، مثل والديهما اللذين كان اسمهما أرتورو وأركيلدا، حتى المولود الأخير الذي كان جدي الحقيقي، والذي كان يجب أن يسمياه رولاندو. درسا الموقف طويلًا وتشاجرا لمدة تسعة أشهر، وفي النهاية أطلقا عليه اسم أرولاندو.

أُقسم، سموه أرولاندو. ولماذا كان يجب أن يدعوه رولاندو؟! لا أحد يعرف. عائلتي هكذا، خلف كل حماقة توجد قصة لا نهاية لها، آلاف من الحكايات التي تتناثر من كل مِلِّيمتر من مسيرتنا المعوجة، مع تفاصيل دقيقة جدًّا بالأطنان. ولكن لا أحد يعرف شيئًا، عن الأشياء المهمة بالفعل. لا أحد يتحدث عنها، وبسبب عدم الحديث عنها توقف الجميع عن معرفتها، وهكذا تحولت الأسرار إلى غموض.

مثل السبب الذي جاء منه رولاندو-أرولاندو، بل والأهم مثل حكاية اللعنة تلك التي نحملها، والذي لا يعرف أحد كيف بدأت ولماذا. ثم إنني لم أكن أعرف حتى بوجودها حتى تلك الظهيرة من عام ١٩٨٠، عندما كنت في السادسة من عمري وكنت قد بدأت المدرسة لتوِّي.

كنت في متجر السيدة تريزا، أنزع الغلاف عن مصاصة آيس كريم بالليمون، بينما تتحدث معها أمي بعيدًا عند منضدة الدفع.

كان المتجر بالقرب من قرية مانشيني، وتقريبًا كبرت بداخله. وهذا بالمعنى الحرفي، فمنذ أن وُلدت والسيدة تريزا تضعني على الميزان الذي تستخدمه في وزن اللحوم المقددة والمرتديلا، وتقول لأمي كم جرامًا اكتسبت.

ويبدو أنني في ذلك اليوم لم أكن كبرت بالدرجة الكافية، لأنها هي وأمي أخذتا تتحدثان فيما بينهما بكلمات متقطعة حتى لا أفهم، لتبعداني عن ذلك السر الذي سيتسبب في تقدمي المفاجئ في السن.

عبارات وجيزة وغريبة، أصوات من الحنجرة ونظرات، كلمات تتطاير هنا وهناك وكأننا في مباراة تنس، حيث كنت أنا الشبكة وكل معلومة لا بد أن تمر فوقي دون أن تلمسني. ومثل التنس، من حين لآخر يخرج موضوع قصير أكثر من اللازم ويسقط فوقي، وعندئذ استطعت الإمساك بأجزاء ذات معنى، مثل: *أمام الفصل كله يا تريزا*. أو: *يا للخجل، أقل شيء يجب أن تبلغ عنه المدرسة، يا للخجل!*

كنت ألعق مصاصة الآيس كريم وعيناي في الهواء، في محاولة لأن أُركب تلك الأجزاء معًا، وشعرت بالغضب بعض الشيء لأن أمي والسيدة تريزا لا ترغبان في أن أفهم حوارهما. إلا أنني في الوقت نفسه شعرت بالرغبة في الضحك، لأن تلك القصة التي تحاول لاعبتا التنس أن تخفياها عني أعرفها أنا أفضل منهما ومن العالم كله.

لأنني للأسف، ذلك الصباح، كنت موجودًا في المدرسة.

كانت المعلمة تشرح حقبة ما قبل التاريخ، ووصلت إلى الكهوف حيث كان يعيش الرجال المُشعرون الذين يسيرون منحنين ويبدون كالقرود، وكنت أنا في ذلك الوقت أرسم في دفتري ديناصورًا عملاقًا، فقد كنت أشعر بالأسى الشديد لأنه في لحظة ما اختفت جميع الديناصورات، ولذلك أرسم ذلك الديناصور قويًا للغاية، برئتين للتنفس أسفل المياه، وبجناحين ليطير بعيدًا عن الأخطار، وهكذا إذا حدث الطوفان الكوني، أو أي كارثة أخرى، يمكنه أن ينجو. وعندما ستظهر على الأرض الكارثة الأكثر رعبًا من الجميع، أي الآدميين، يمكنه أن يمحيهم من العالم في لحظة.

وفي اللحظة التي كنت أرسم فيها الأسنان الطويلة والكثيرة جدًّا في فمه المفتوح، والتي كانت لحظة حرجة وتحتاج إلى الدقة الشديدة، فُتح باب الفصل بعنف، وضرب بقوة في الجدار وكأنه القنبلة، وتسببت الهزة في زحلقة يدي، وأدى ذلك إلى رسم خط طويل بطول الورقة وفساد عمل صباح بأكمله.

إلا أن الهزات تسير بهذه الطريقة، تصيبك وتوقف قلبك لثانية، ثم تهدأ ويعود كل شيء كما كان عليه. إلا أن هذا لم يحدث، بعد الهزة رفعت عينَي ورأيت ماذا يحدث، وعندئذ تضاعف خوفي مائة مرة. لأن العم ألدو كان يقف خلف الباب المَوارب، سيجارته في فمه، وعيناه الضيقتان اللتان تظهران عندما يحدث شيء ما يغضبه، مثل مذاق النبيذ الذي يصبح كالخل أو إشارة مرور تصبح حمراء.

وربما تعرف المعلمة أيضًا تلك النظرة لأنها في البداية قفزت من مكانها وسألته، وحضرتك من تكون؟! ولكن العم أشار لها نحو المقاعد فأتت وهي منحنية الرأس لتجلس في الصف الأول معنا.

قال العم، بصوت يبدو كمنفضة سجائر من الرخام ارتطمت بجدار من ورق الزجاج: «إذن يا أطفال، انتبهوا جيدًا. هذا الصباح لا بد وأن تنسوا كل الحماقات التي يعلمونها لكم هنا. هذا الصباح سنتحدث عن الأشياء الجادة. اصمتوا ولا تقرفوني، وتعلموا بسرعة وجيدًا، مفهوم؟».

نومئ كلنا بالإيجاب والمعلمة أيضًا.

- حسنًا، إذن سنبدأ. أعطوني الشبكة الحديدية.

لا توجد شبكة حديدية هنا.

- لا بأس، يمكن أيضًا استخدام سلك حديدي.

في الفصل ليس لدينا هذا أيضًا.

- ماذا؟ أليس لديكم أي شيء في هذا الفصل! إذن اسمعوا لأشرح لكم شفهيًا كيف يمكن عمل هذا، ولتصمتوا وتثبتوا في أماكنكم وإلا غضبت وتسببت في فوضى عارمة.

ضغط على السيجارة بإصبعيه، وأخذ نفسًا قويًا جدًا إلى حد أن طرف السيجارة لمع واشتعل، ثم نزعها من فمه، وبقرصةٍ أطارها من النافذة. إلا أن النافذة كانت مغلقة، فلطمت السيجارة الزجاج وطارت حتى سقطت أسفل مقعد ميركو توريني. وكان ميركو على

وشك إبعادها، ولكن العم صاح: «قلت اصمتوا واثبتوا»، عندئذ مكث هكذا، ثابتًا على قدر استطاعته محاولًا أن يختنق في هدوء.

وبينما يبدأ العم في التحدث عن المكان الصحيح لبناء حظيرة دجاج، ولا بد أن تكون بعيدة عن المنزل لأن براز الدجاج سيئ الرائحة، وفي الوقت نفسه ليس بعيدًا جدًّا لأنك لن تسمع صوت الذئاب والسمُّور، وأخذ الجميع يستمعون إليه باهتمام، حتى وإن لم يفهموا كلمة واحدة. الجميع فيما عداي، حيث إنني أفهم جيدًا جدًّا، لأننا تحدثنا عن كيفية بناء حظيرة الدجاج تحديدًا بالأمس، لأن العم أراد أن يأخذني لنسرق ثمار الكاكي من حقل العم أرنو. والحقل في نهاية شارعنا، وإذا رآه أرنو فسيطلق عليه طلقات من البندقية المحشوة بالملح، ولكن سأكون أنا أيضًا معه. وإذا بدأ العم الضرب بالبندقية وأنا موجود، يصيح العم ألدو: الطفل معي، الطفل معي! وبالتالي سيسدد العم أرنو طلقاته في الهواء، ويصرخ: لص، لص ملعون! وأثناء بحثه عن العصا، نهرب نحن.

إلا أنني بالأمس لم أتمكن من الذهاب، حيث يجب أن أنهي درسي.

- ماذا؟

- الدرس.

- وما هذا الشيء الجديد؟

- الآن أنا أذهب إلى المدرسة يا عمي، والمعلمة تعطينا دروسًا لنقوم بها في المنزل.

- وكم تدفع لك المعلمة لتقوم بهذا الدرس؟

- لا شيء، على ما أعتقد. أفعله مجانًا.

- إليك، إذا كنت تؤديه مجانًا، يمكنك أن تفعله وقتما تريد، وربما لا تفعله على الإطلاق.

- ولكن المعلمة ستغضب.

- بأي حق؟ إذا لم تكن تدفع لك فلا يمكنها أن تطالبك بشيء. اسمع، هي لا تعمل في المدرسة مجانًا، فهم يدفعون لها.

- حقًّا؟

- بالتأكيد، وإلا لن تأتي. في الواقع لا بد أن تقوم هي بالدرس، ولكنها لا رغبة لديها وبالتالي تلقيه عليك. لا تدع أحدًا يخدعك، لتدع هذا الهراء ولنذهب.

- ولكنني لا أستطيع يا عمي، لا أرتاح لهذا. أمامي فقط مسألة الحساب تلك، دعني أنهيها ثم نذهب.

- يا للزهق! حسنًا، هيا، أطلعني عليها لنحلها معًا. لقد علمتك الكتابة ويمكنني أيضًا أن أعلمك الحساب.

وموضوع الكتابة هذا حقيقي. عندما كنت صغيرًا جدًّا، كنت أمضي الأمسيات مع كل الأجداد الآخرين والجد أرولاندو، الذي كان حيًّا وقتها، وكان يقطع معنا حروفًا كثيرة من بكرة من الورق الأصفر، حروفًا كبيرة، وقد كنا نعلقها الواحدة خلف الأخرى

على لوحة حمراء ونُكوِّن الكلمات، وكانت تُستخدم كلافتات في قاعات الحزب الشيوعي. وهكذا تعلمت أن أكتب، كانوا يطلعونني كيف يُكتب حرف الألف، وكنت أقطع منه الكثير، ثم الباء والثاء، وهكذا. في الواقع عندما بدأت المدرسة وشرحت لنا المعلمة الحروف الأبجدية كنت أنا أعرفها بالفعل جيدًا جدًّا. حتى وإن كنت أشعر بالارتباك حيث ينقص حرفان. ولكنها نفت هذا وقالت إن الحروف كلها موجودة من أول حرف إلى آخر حرف، عندئذ أدركت أنه على الرغم من أن الأعمام كانوا يجعلونني أقصها كثيرًا فإن المنجل والمطرقة لم يكونا من الحروف الهجائية. ومنذ تلك اللحظة لم تكن لدي أي مشكلة مع اللغة الإيطالية.

إلا أن لدي مشكلة مع الحساب، ومشكلة كبيرة جدًّا. ليس فقط لأنني لا أفهمه، إنما لأن الحساب يتسبب لي في الحزن، يكفيني أن أفكر في أنه موجود، وأشعر بشيء مُر في حلقي، كما يحدث عندما تقع بين يدَي صورة للجد أرولاندو مبتسمًا، وأنا أحبه كثيرًا ويبدو لي أنه من غير العدل أنه قد اندثر مثل الديناصورات ولن يعود أبدًا. وما لن يعود أبدًا في حالة الحساب، هو الفترة من الحياة التي نلقي بها بعيدًا بينما نحاول أن نحل مسائل عبثية، مثل مسألة الأمس:

يملك بينو الفلاح ٢٠ دجاجة، كل يوم تنتج ١٠ بيضات طازجة. وفي صباح أحد الأيام، استيقظ بينو واكتشف هروب ٥ دجاجات من الحظيرة، وخمس أخرى خطفها الذئب. كم بيضة يمكن لبينو المسكين أن يأخذ اليوم إلى السوق؟

قرأتها بصوت مرتفع، ولوهلة تمنيت أن يقول لي العم الإجابة. بلا شرح ودون أن يجعلني أصل إلى فهم السبب، فقط عدد البيضات وتنتهي الواجبات. ثم رفعت عينَي ورأيت عينيه جاحظتين في الفراغ، وفهمت أن الأمر لن ينتهي كذلك. بدأ يهز رأسه وتعبير الاستياء على فمه، نزع الدفتر من يدي، وأمسكه بقوة وكأنه رقبة شخص ارتكب أمرًا سيئًا.

- ما هذا الشيء إذن؟! كيف يمكن أن تهرب منك خمس دجاجات في ليلة، وكيف يمكن لذئب أن يسرق خمس دجاجات مرة واحدة؟! هذا البينو أحمق. ماذا يعلمونكم في المدرسة؟

- لا أعلم يا عمي، ولكن هل تعرف الحل؟

- بالتأكيد أعرفه! الحل هو صفر! بينو الأحمق هذا لن يبيع بيضة واحدة، فشخص غبي مثله سيضل الطريق ولن يصل حتى إلى السوق!

قال هذا، وأخذ القلم ورسم لي صفرًا كبيرًا على الصفحة بحجم رأسي. وأخذ يعيد عليه كثيرًا وبقوة حتى بدا عجلة تجري بجنون، ثم هوة تدور وتدور يعصف بها الغضب، ولم يتوقف إلا عندما ثقب الورقة، وبعض الأوراق أيضًا أسفلها. ثم أمسك بذراعي وجذبني بعيدًا، إلى الخارج في الهواء الطلق المليء بالعصافير والتي نظرًا لأنها خبيثة، طارت بعيدًا عنه، وحررني من قبضته فقط عندما وصلنا إلى نهاية الطريق، حتى نستلقي أرضًا ونعبر أسفل شبكة العم أرنو.

إلا أن العم ألدو كان ما زال يفكر في الأمر، لأنه بينما نتزحلق مثل الثعابين في وسط الحقل، استمر في الهمس: *عشر دجاجات مرة واحدة! يا للغباء! أطفال مساكين، ماذا يعلمونكم؟! أطفال مساكين.*

ثم انتهى اليوم، وحل الليل، وفي عائلتي لا يجلب الليل النصيحة أبدًا، بل يزيد الأشياء سوءًا، لهذا في قرية مانشيني، إذا حدث شيء يغضبك، وستفعل شيئًا سيئًا، فمن الأفضل أن تفعله على الفور دون أن تفكر في الأمر، لأنه إذا حل الليل فستغلي أكثر، وفي صباح اليوم التالي سيكون الأمر أسوأ مائة مرة. وبالفعل كان الصباح هو صباح اليوم، وها هو العم قد أتى إلى المدرسة، احتل الفصل وشرح لنا كيف يمكن بناء حظيرة فعلية.

- على قمتها ضعوا سلكًا شائكًا حولها، بل اجعلوه يدور مرتين، أو حتى ثلاث مرات، فالسلك الشائك لا يكفي أبدًا. وهكذا، إذا على سبيل الخطأ حاولت دجاجة الهرب، أو حاول أي حيوان أن يدخل، تعثرون عليه في صباح اليوم التالي معلقًا يتدلى، وستحلون أيضًا مشكلة ما يمكن تناوله على العشاء. هل فهمتم يا أولاد؟ هل فهمتم أم لا؟!

وأومأ الجميع بالإيجاب مرات عديدة، حتى المُدرسة، بينما أحاول أنا أن أختبئ خلف كتفي زميلتي التي تجلس أمامي، وهو أمر شديد الصعوبة لرأس طبيعي، فما بالكم برأسي المنتفخ بالشعر المجعد الذي يبرز من كل الجهات! ولكن يجب وأن أنجح في هذا،

لأن العم ألدو إذا رآني وصافحني فسيتضح أنني حفيده، وأعرف أن هذا ليس أمرًا جميلًا بصفة عامة، وبالأخص هذا الصباح.

- حسنًا، إذن فنحن على ما يرام فيما يتعلق بالحظيرة، الآن يمكننا الحديث عن البستان. كيف يمكن أن نضع البذور جيدًا؟ لنبدأ بالطماطم، خذوا...

- أوه، ماذا يحدث هنا؟

ومن الباب وصل هذا الصوت الآخر الذي أوقفه. كان صوتًا ضخمًا مثل صوته، حيث إن الفراش ماورو ضخمٌ هو الآخر، يدخل الفصل بالمريلة المفتوحة لأنها لا تُغلق بسبب حجم بطنه.

يلتفت العم فجأة، وتفعل المُدرسة بالمثل، ثم تنهض من فوق المقعد:

- ماورو أخيرًا! من فضلك أبعد هذا الشخص، دخل بعنف وأخذنا كرهائن.

نظر ماورو إليه، نظر إلى عمي بجدية شديدة، ورفع يديه وذهب نحوه وهو يصيح:

- ألدو العظيم، ماذا تفعل هنا؟!

تعانقا وأخذ كل منهما يربت للآخر على كتفيه.

- لا شيء يا ماورو، أُعلم هؤلاء الأطفال أشياء مفيدة.

- آه، أحسنت، حان الوقت!

صاحت المُدرسة:

- حان الوقت كيف! ماورو، هل جننت أنت أيضًا؟

أجاب العم وعيناه جاحظتان:

- لا، إنما أنتم المجانين! ماذا تُعلمون هؤلاء الصبية؟ تصنعون فلاحين تافهين لا يستطيعون القيام بعملهم، يُضيعون أمسياتهم لحل مسائل لا تفيد في شيء. هنا بدلًا من التقدم إلى الأمام تعيدونهم إلى الخلف. في فترة ما كنا نعرف أشياء كثيرة، والآن لم يعد أحد يعرف أي شيء. بعد قليل سيبدأ القرن العشرون وسيدخل إليه هؤلاء الصبية بهذه الطريقة.

- اسمع، إننا دخلنا بالفعل القرن العشرين منذ زمن.

- آه، هذا يزيد الأمر سوءًا! إذن هذا الصباح قلت يكفي هذا، أتيت إلى هنا والأشياء التي تفيد هؤلاء الأطفال بالفعل سأُعلمها أنا لهم.

يقول ماورو:

- آمين. كلمات مقدسة. ولماذا إذن اخترت اليوم بالتحديد؟

- لماذا؟ ماذا يحدث اليوم؟

- ولكن كيف ماذا يحدث اليوم؟ اليوم أوريستي يذبح الخنزير، أليس كذلك؟ وعليّ أن أمكث هنا حتى منتصف اليوم ثم سأذهب مُسرعًا إلى هناك.

حدق فيه الجد لوهلة فقط، ثم وضع يده على فمه. ولكنه من خلفها أخذ يطلق العديد من اللعنات، الواحدة ملتصقة بالأخرى، أهان الرب والعذراء، وكل من حولهما في إطار الكنيسة.

- لقد نسيت هذا الأمر تمامًا يا ماورو، يا لقذارة الـ.....، لقد نسيته! أوريستى يذبح الخنزير وأنا هنا، أضيع وقتي مع هؤلاء الفشلة!

قال هذا ثم اندفع نحو الباب واختفى دون أن يحيينا. بل، يا ليت هذا ما حدث. بدل من أن يفعل ذلك توقف هناك، والتفت من جديد نحو الفصل، وأشار إليَّ بإصبعه:

- أوه ماورو، هل ترى هذا الطفل القبيح بكل ذلك الشعر المجعد؟ إنه حفيدي، انتبه إليه.

فقط بعد تلك الكلمات هرب العم ألدو مبتعدًا، والتفت الجميع نحوي، بما فيهم المُدرسة. زرعتُ عيني على الخشب المستهلك للدكة، وأردت فقط أن أتسلل إلى الداخل وكأنني سوسة خشب، أن أحفر لنفسي خندقًا صغيرًا وأعيش في العمق، هادئًا إلى الأبد، لأنك لا ترى سوسة الخشب أبدًا، ولأن سوسة الخشب ليس لديها كل هذا الشعر المجعد على رأسها، بل ليس لديها شعر على الإطلاق، والأهم أنها ليس لديها أهل. تختفي سوسة الخشب ولا تترك أثرًا، فيما عدا ثقب صغير جدًّا.

إلا أن أحدًا لم يختفِ هنا سوى العم، وماورو الذي يصرخ

خلفه: حسنًا، سأعتني به، وعليك أن تحتفظ لي جانبًا بجزء من السجق! بينما تعود المعلمة إلى منصتها وتقول له ألا يصيح، ثم تقول لنا الشيء نفسه، لأن الجميع في الفصل أخذوا يرددون كل الكلمات البذيئة التي سمعوها من العم، وخاصة السباب، والذي ظل في ذهنهم أكثر من التعليمات الخاصة بالحظيرة الكاملة، ولم يستطيعوا نسيانه قَط.

لذلك، ربما لم يكن هذا بالتحديد ما يفكر فيه العم ألدو، ولكن نستطيع أن نقول إنه في ذلك الصباح علمنا شيئًا بالفعل.

بل إن درسه نجح نجاحًا كبيرًا حتى تسلق سور المدرسة وانتشر في جميع أنحاء البلدة، في الواقع أسمع منه أجزاء الآن في مباراة التنس بين أمي والسيدة تريزا.

وكلما زادت مناقشتهما حماسًا، قل انتباههما لأن تتخطياني، ومرت كلماتهما بالقرب من رأسي، تكاد تلمسني، وفي النهاية حانت اللحظة المؤثرة التي فيها فهمت تلك العبارة، بكاملها وبوضوحها ورعبها أيضًا. عندما قالت أمي: *لحسن الحظ لم يستدعوا الشرطة، لم أعد أعرف ماذا أفعل*، ورفعت السيدة تريزا يديها إلى السماء وتنهدت: *ليس أمامنا ما يمكن عمله يا ريتا، أنت تعرفين، فهذا بسبب اللعنة*.

أقسم إن هذا ما قالته، وتوقفت أنا عن لحس مصاصة الآيس كريم بالليمون، وتوقفت عن التنفس، ثم بالنفس الأخير الذي بقي بداخلي سألت: أي لعنة؟

وفجأة توقفت لاعبتا التنس عن اللعبة، وخفضتا عيونهما عليَّ وضربت السيدة تريزا فمها. إلا أنها قالت ما قالته بالفعل، وأنا سمعته، وبدأ الآيس كريم يتساقط بين أصابعي في خيوط كثيرة متلاصقة مثل أقدام الأخطبوط التي تلتف حول اليد والمعصم والذراع وتصل بالتدريج حتى القلب. والأخطبوط حيوان غاية في الذكاء، كان العم آراميس يقول إن كل أسماك البحر، حتى سمكة القاروص، الأكثر دهاءً، حمقى أمام الأخطبوط. في هذه الحالة لا حاجة إلى نكون أكثر ذكاءً من الأخطبوط، لقد استطعت أنا أيضًا فهم أن أمر اللعنة ذلك شيء شديد الخطورة، ولا بد أن أعرف المزيد عنه.

- ماما، أي لعنة؟
- إيه؟ ماذا تقول؟ أي لعنة؟
- لعنة العم ألدو، قالت ذلك السيدة تريزا.
- ولكن لا، لقد أسأت الفهم.
- هل العم ألدو ملعون؟
- إنه شيء أحمق يقولونه في البلدة منذ زمن عن عائلتنا. شيء لا يهمك.
- بل يهمني كثيرًا إذا تعلق بالعائلة حيث بها العديد من الأشخاص الذين أحبهم كثيرًا. أنتِ أيضًا من العائلة يا ماما.
- أجل، لا دخل لي أنا، لا تقلق.

- آه، لحسن الحظ. إذن لا دخل لي أنا أيضًا.

قلت لها. وهذا من نوع العبارات التي عندما تلقي بها بهذه الطريقة، لا بد وأن يجيبك الآخرون على الفور: *ولكن لا، لا تقلق، لا دخل لك، لا دخل لك على الإطلاق!*

إلا أن أمي ظلت صامتة لوهلة. نظرت إليَّ، ثم إلى السيدة تريزا، ثم إليَّ مرة أخرى:

- إنه شيء أحمق يا فابيو، إنها مجرد حدوتة.

- حسنًا، إذا كانت مجرد حدوتة، قصيها عليَّ.

- لا، إنها حدوتة سيئة وغبية.

سألت:

- إنها العم ألدو، العم ألدو له دخل، أليس كذلك؟

لم يحتج الأمر إلى أي إجابة، كان يكفي النظر لوجهَي لاعبتَي التنس لأفهم أن العم ألدو له دخل كبير، وتقريبًا متورط تمامًا.

- إذن عندما نعود إلى المنزل سأطلب منه أن يحكيها لي!

أقسم إنني لم أدرس ما قلته، ولم أَقُلْه كنوع من الاستراتيجية، أو بأي خبث داخلي، إنني فقط أردت أن أعرف بالفعل، ولذلك إذا صمت الآخرون فسأسأله هو. وكان هو سيقول لي كل شيء وبأكثر طريقة مرعبة ممكنة. عندئذ تنفست أمي بقوة، ووضعت الخبز والحليب والقطع الأخيرة من المشتريات في الكيس وناولتني

إياه، أمسكته بيدي الملتصقة بالآيس كريم.

قالت للسيدة تريزا أن تضع كل شيء على الحساب، ولي:

- لا شيء يا فابيو، إنها قصة غبية، عن رجال عائلتنا. تقول القصة إنهم إذا وصلوا إلى سن الأربعين دون أن يتزوجوا، يُصابون بالجنون. هذا كل ما في الأمر.

ثم توجهت نحو الدراجة، وصعدت على المقعد والتفتت لترى إذا كنت خلفها. ولكنني كنت شيئًا ثابتًا، قاسيًا، مزروعًا أمام المتجر.

لم أفهم تلك القصة الخاصة بذكور عائلتنا الذين يصيبهم الجنون فهمًا جيدًا، حيث يوجد أشخاص كثيرون أحبهم جدًّا. يا للشقاء، أنا أيضًا منهم! وإذا وُجدت طريقة عبثية لختم إعلان مرعب كهذا، فهي بالتحديد «هذا كل ما في الأمر» التي وضعتها أمي في نهاية عبارتها، في محاولة منها للابتسام.

- أجل يا ماما، لكن... لكن أربعين عامًا كثيرة جدًّا، أليس كذلك؟ أي أن المرء يكون مسنًّا في سن الأربعين، وإذا أصابه الجنون، لا يلحظ أحد هذا، أليس كذلك؟ إنه من الصعب الوصول إلى هذا العمر على أي حال. حتى أنت يا ماما، ينقصك الكثير قبل أن تصلي إلى سن الأربعين، أليس كذلك؟

نظرت هي إليَّ، ثم أطالت النظر قليلًا:

- حاول أن تنسى.

ورحلت.

رحلت خلفها، والكيس معلق على أحد طرفي المقود، كل شيء ملتصق وبطعم الليمون. وبعد تبديل مرة واثنتين، ابتعد المتجر خلفنا، وتمنيت أن تظل قصة اللعنة تلك هناك، بعيدة عني، وأن تبتعد دائمًا.

تأتي الحكايات مثل الديناصور الذي لا يمكن هزيمته، والذي كنت أرسمه ذلك الصباح في المدرسة، قبل أن يصل العم ألدو ويُسبب الفوضى. تأتي تلك الحكايات من بعيد، ولكنها تتنفس تحت المياه، ولها أجنحة عملاقة لتصل إليك أينما ذهبت.

مثل تلك الصرخة اليائسة التي هاجمتني من الخلف، بقوة شديدة، حتى إنني كنت سألتفت في كل حال، حتى إن لم تدعُني باسمي. كانت السيدة تريزا، على باب المتجر، وذراعاها موجهتان للسماء:

- تزوج يا فابيو. يكفي أن تتزوج وكل شيء سيسير على ما يرام. تزوج يا فابيو، بحق السماء.

(٢)

أبي هو توني الصغير

على قمة الجبل، وفي ظلام الغابة، يوجد ضوء خافت. إنها نيران تشتعل، وشعلاتها الأولى ترتعش وكأنها قلب يدق مرتعدًا فوق الأشجار، وحتى الأغصان الملتوية العالية، تشبه أعصابًا معقدة تنتفخ أسفل الجلد الأسود لليل وترتفع نحو العين البيضاء لتشير إلى القمر، يشير إلى الرعب الذي يصعد مع تلك الصرخة المخيفة.

النار تصعد من كومة الحطب، فوقها امرأة مربوطة في عمود، ترتدي الأسود، كما أن شعرها أسود فاحم، وعيناها تصعدان نحو السماء بينما تصرخ، وتأكل النيران قدميها. ثم تعود نظرتها إلى هنا، وتتسمر على وجوه الرجال العشرة الواقفين أمامها قاتمي اللون، يحرقونها. يمسكون بالمذاري والمناجل، يرتدون صلبانًا في رقابهم، وملابس تشبه ملابس مدمار سيينا. إنهم أعمامي.

وبينما تتصاعد النيران لتأكل صدرها، رفعت الساحرة ذراعها لتنقذها للحظة أخرى من اللهب، وتشير إليهم واحدًا واحدًا.

- إنني ألعنكم يا إخوة مانشيني. سأذهب إلى الجحيم، ولكنني سآخذكم معي إلى جحيم الجنون.

ويلتوي فمها في ضحكة شريرة.

- هذه اللعنة ستقع عليكم وعلى أبنائكم الذكور، وعلى أبناء أبنائكم، وعلى أبناء أبناء أبنائكم، وعلى أبناء أبناء أبناء أبنائكم، وعلى أبناء أبناء أب...

قال الرجل الأقرب إلى المحرقة، والذي بالنظر إليه جيدًا يشبه العم ألدو:

- نعم نعم، فهمنا.

ثم ألقى بالمزيد من القش على النيران فابتلعت دفعة من اللهب الساحرة، ولوهلة ظل صدى صرختها: ملاعين، ملاعين! صعدت إلى الهواء وتشابكت مع كل الأغصان الجافة المرتفعة، والتي تشابكت مثل أيادٍ من الهياكل العظمية في عناق مميت فوق الليل وفوق الأعمام، وفوق كل شيء.

وفوقي أنا أيضًا، وأنا لم أكن موجودًا في الحلم، ولكنني على الرغم من ذلك كنت أحاول أن أقول للساحرة إن هذا ليس عدلًا، وإنني ابن الأبناء لمن لا أعلم عددهم، ولكنني لم أكن أعرف أي شيء عن قصة المحرقة تلك. المرة الوحيدة التي فيها ذهب أعمامي إلى الكنيسة فعلوا ذلك عن طريق الخطأ، في إحدى ليالي رأس السنة عندما خرجت شاحنتهم عن الطريق واصطدمت بها. فلنتخيل

كيف يمكن أن يكون أسلافي متدنيين إلى حد حرق الساحرات. لم يكن الذنب ذنبي فأنا لم أكن موجودًا في تلك الحقبة الزمنية، ولن أولد قبل مرور زمن طويل، إذن فلا دخل لي بهذه اللعنة. بل إنني سمعتهم يتحدثون عنها فقط اليوم في العصر، بالمصادفة في متجر السيدة تريزا بينما ألعق الآيس كريم، ذلك الاختراع الحديث جدًّا والحلو جدًّا والذي كان يمكنني أن أقدم قضمة منه للساحرة بكل سرور كعربون سلام، ولكنني أعرف أن هذا كان أمرًا عسيرًا؛ تناوُل الآيس كريم بينما تأكلك النيران.

إلا أن الأمر لم يكن خطئي، لم يكن ذنبي. أخذت أصرخ في النيران والغابة وفي القمر الكامل في أعلى السماء، والذي كان يحدق فيَّ دون أن يجيب، وأخذ يزداد بياضًا ويكبر حجمه أكثر ويتسطح، حتى تحول إلى سقف حجرتي. وبدلًا من أغصان الغابة التي كانت تهتز، شعرت بشيء ما يهزني؛ يدان حقيقيتان وقويتان، أخذتا توقظانني وتنزعانني من هذا الكابوس. نهضت بجذعي، مبللًا بالعرق ومتقطع الأنفاس، ونظرت إلى وجه منقذي، وعانقت توني الصغير بقوة.

وبمجرد قول هذا أشعر أنني خرجت من حلم عبثي لأغوص في آخر أكثر جنونًا، أعلم هذا، ولكنني أقسم إن الأمر كذلك: أبي كان المغني المعروف توني الصغير، إلفيس بريسلي الإيطالي.

أو على الأقل هذا ما كنت أصدقه بشدة، لأن أمي فعلت ما بوسعها حتى تجنبني المآسي والإحباطات. كانت تقول إن الحياة

ستفكر في منحي إياها كثيرًا، ولذلك طالما أمكنها ستقف بيننا، في محاولة لأن تحفظ لي سعادتي.

في أحد الأيام في التلفاز كان يوجد برنامج لكبار السن، حيث كانوا يُظهرون من جديد مغنين قدامى، يغنون منذ فترة طويلة، عندما لم يكن أحدهم مسنًا. وفي لحظة ما صعد على خشبة المسرح فتى ذو قصة شعر أمامية عملاقة، وسترة رائعة الجمال مليئة بالنجوم، وجن جنون الفتيات وأخذن يصرخن باسمه؛ ليتل توني. وكان توني الصغير يشبه أبي حد التماثل.

كان شديد الوسامة، الأجمل في البلدة وكل ساحل نهر ماجرا، حتى نهر أرنو أسفل الوادي. كان أبي مشهورًا بوسامته الشديدة. وما جعله لا يُقاوم أكثر كونه لا يهمه شيء. كان يتجول بشاحنته ثلاثية العجلات ويذهب ليصلح الصنابير والأدشاش والسخانات، دون أن يدرك وجود الصبايا اللاتي ينظرن إليه في أثناء مروره، ويرغبن كثيرًا في أن يصلحهن هن أيضًا. كن يعقدن أياديهن على صدورهن ويتنهدن باسمه بصوت منخفض، جورجو، أوه جورجو، والذي كان الاسم المناسب جدًّا لأنه لكي تنطقه لا بد وأن تضم شفتيك وكأنك ترسل قبلة لأحدهم. إلا أن جورجو لم يكن يُقبِّل أي واحدة. ولم يكن حتى يتكلم ولا يبتسم، لأنه لكي يبتسم أحدهم لك، لا بد وأن يدرك وجودك، أما بالنسبة لأبي فلم يهتم سوى بعمله. ثم في أحد الأيام وعندما كدن جميعًا أن يستسلمن، ومن لا شيء، تزوج أبي بأمي، ومنذ تلك

اللحظة امتنعت الفتيات عن تحيتها. الجميلات منهن كن يكرهنها لأنهن اعتقدن أنها لا تستحقه، وأولئك القبيحات كان يمكنهن أن يفهمن ما حدث إذا كان جورجو قد تزوج بفتاة شديدة الجمال، حيث إن تلك هي قوانين العالم، ولمرة واحدة سمح العالم باستثناء لتلك القواعد عديمة الرحمة، وها هو ذلك الرجل الرائع الشبيه تمامًا للمطرب المشهور ليتل توني يتزوج ريتا. وكان يشبهه إلى حد أنني عندما رأيته على شاشة التلفاز جحظت عيناي ووضعتهما على أمي وعلى جدتي:

- ولكن... ولكن هل هذا الرجل هو أبي.

وهما بعد دقيقة قالتا:

- هذا هو ليتل توني.

عندئذ اتسعت عيناي أكثر، حتى آلمتاني بالفعل.

- هل هذا حقيقي؟ أبي هو ليتل توني؟

نظرتا إليَّ، ولا بد أنهما رأتا في نظرتي سعادة مضيئة بشدة، لامعة بشدة، فلم تتمكنا من أن تطفئاها بذلك الدلو البارد الذي يسميه الناس الحقيقة. التفتت أمي إلى جدتي، ثم من جديد نحوي، ثم أجابت: نعم.

مكثت أنا بفقاعة من الهواء في حلقي لا تصعد ولا تنزل. كان أبي نجمًا مشهورًا؛ شيء لا يُصدق في حد ذاته، ولا يُصدق أكثر في حالة أبي، والذي في الحياة العادية كان أبكم عمليًا.

كان يتحدث بالإشارة، يشير، تخرج كلمة واحدة فقط من فمه، ولكنها عادة ضائعة ووحيدة، ولمنحها معنى يلزم بعض الخيال: يقول *متأخر*، وربما يقصد أنني تأخرت عن المدرسة أو فصل التربية الكنسية. يقول جوع وربما يريد أن يقول إنها ساعة الغداء أو العشاء. يقول *ماء* وربما يقصد أنه ظمآن أو يقدم لك لتشرب، أو أنها بدأت تُمطر. هكذا كان بابا، وليس بدافعٍ شرير. بالعكس، بينما يجيبك بالإشارة كان ينظر إليك بعينيه الخضراوين وكأنهما آنيتان زجاجيتان في وسط البحر تتدفقان طيبة. كان يتفق مع الجميع، ولا يتفق مع الكلمات. يتحدث بالتصرفات، وطريقته المفضلة في التحدث كانت أفعاله. كان يقول: الكلمات لا تدق المسامير في الجدار. بل لا، كان جدي هو قائل هذه العبارة، بينما أبي يشير إليه ويومئ موافقًا برأسه.

وها هو الآن، على ذلك المسرح في التلفاز، يرقص منطلقًا ويملأ الميكروفون بصوت رائع وبلا نهاية.

– ولماذا يمكث دائمًا صامتًا في المنزل؟

قالت أمي:

– لا بد من ذلك. الدافع بسيط، بسيط جدًّا.

وبدلًا من أن تقوله لي نظرت إلى الجدة، التي قالت:

– لأنه يدخر صوته، أليس كذلك؟ هذا الكلام لك أنت فقط يا فابيو، أباك يعمل على تنظيم عودة كبيرة، حفل موسيقي

كبير للوداع، ويدخر صوته لهذا. ولكنني أوصيك، هذا سر، لا تخبره لأحد.

أشرت أنا بالإيجاب، ثم بلا، وضيقت فمي، ثم أطبقت عليه يدي. لأغلق على السر الرهيب بداخله، مع كل التأثر والفخر بأبي. ومنذ ذلك اليوم كنت أفكر أنا كيف يمكنني حمايته، مثل حارس شخصي طوله متر وعشرة. كنت أذهب إلى البار، أو إلى محل السمك، أو الحداد، وعندما نقف في صف كنت أحاول أن أبعد الأشخاص وأقول: «وسعوا وسعوا، اجعلوا ليتل توني يمر». وكان هو يهز رأسه، لأنه كان مشهورًا ولكنه أيضًا متواضع ويريد أن يقف في الصف مثل الجميع، وعندما يصل إلى الخزانة يدفع مثل الناس العاديين، حتى وإن كان نجمًا كبيرًا. بل، النجم الأكبر من كل النجوم، لأنه ربما يوجد العديد من المغنين الذين في استطاعتهم إثارة جنون جمهورهم، ولكن مَن غيره يذهب حتى منازل معجبيه، ويصل إلى أحواضهم ومراحيضهم؟ فقط أبي، هو الفنان الشامل. مطرب كبير ورجل عظيم، والذي هذه الليلة عثر أيضًا على الوقت ليأتي إلى هنا، إلى حجرة ابنه، حتى يوقظني من كابوس بشع، ومليء بالساحرات واللعنات.

عانقته بقوة: أشكرك يا بابا، أشكرك من قلبي. أنا لا دخل لي، أنا لم أحرقها، بل حينئذ لم يكن لي وجود، إنها العصور الوسطى.

أومأ هو بالإيجاب، ثم قال لي: نَم.

لكنني لم أعد أستطيع، لأنه لم يكن مجرد حلم سيئ، منذ تلك

الظهيرة كنت أعرف أنها إدانة حقيقية وبشعة، وأنني سأحملها على كاهلي إلى الأبد، في المنام وفي اليقظة. لذلك لم أستطع أن أنام الآن.

عندئذ أخذني أبي من ذراعي، وجذبني خارج الفراش وقال لي: تعالَ معي. وفقط في هذه اللحظة أدركت أنه لم يكن بالبيجاما، كان يرتدي سترة وجوارب وحذاء العمل. سألته إلى أين نحن ذاهبان، التفت برأسه إلى الجهة الأخرى وأجاب: الخارج.

- الخارج أين، كم الساعة الآن؟

رفع إصبعين.

- الساعة الثانية؟ وأين سنذهب في الساعة الثانية ليلًا؟

أخذ جواربي من فوق المدفأة وفتح الخزانة، وأعطاني البنطال وسترة ثقيلة.

- الجو بارد.

قال وهو يمسكني من ذراعي ويساعدني لأرتدي ملابسي فوق البيجاما، ثم خرجنا في ذلك الجو البارد، كما قال عنه.

كانت هذه هي الحال، من لحظة كنت في الفراش، متدثرًا في الأغطية ومتدفئًا بمحرقة مشتعلة في وسط العصور الوسطى، والآن هأنذا، فجأة، هنا في البرد في ليلة من ليالي أكتوبر في قرية مانشيني، في مكان ما في القرن الواحد والعشرين.

إذا نظرت إليها من الشارع الرئيسي حيث تمر السيارات وباقي

العالم أسفل ضوء أعمدة الإضاءة، كان يمكن أن تبدو لك مجرد شارع بنهاية مغلقة. وكانت تكفي خطوة واحدة، الخطوة الأولى نحو الظلام، وستفهم أنك دخلت بالفعل إلى مكان مستقل بذاته، قرية حقيقية لا مكان لها على الخريطة، إلا أنها موجودة هنا، بل وبها لافتة ترحب بك وفي الوقت نفسه تطلب منك أن تبتعد.

في البداية ستجد نفسك أمام منزل الجدة جوزيبينا، وأمامه المنزل الذي نعيش فيه أنا وماما وبابا. بعد منزلينا، إذا استجمعت قواك وتقدمت إلى العمق، تجد منازل الأعمام واحدًا بعد الآخر، بعيدة أكثر عن الإضاءة العمومية، وعن ضوء المنطق. منزل العم أوريليو، وهو منزل فارغ لأنه الآن يعيش في العالم الآخر، ومنزل العم آدامو، لأنه هو أيضًا انتقل إلى مانتوفا، ولم يعد قَط، ولا يتصل أبدًا، فقط في عيد الميلاد يرسل قطعة «سالامى» عن طريق البريد بلا أي بطاقات، بلا أي شيء، وكان ذلك السالامى بالنسبة إلينا هو الفارق الوحيد بين كونه في مانتوفا وكونه ميتًا. وأبعد قليلًا، متناثرة في الظلام، توجد منازل العم ألدو وآتوس وآراميس وأديلمو وهكذا. حتى نهاية الطريق حيث يوجد حقل العم أرنو، حيث يجلس مع كلبه بوفيرا، في كارافان محطم تمامًا، ولكي يتأكد أنه لن يبتعد نزع عنه العجلات.

والآن اتجهنا بالتحديد نحو تلك الجهة، بالقمر الكامل الممتد فوق القرية، المشابه تمامًا لذلك الذي في الحلم السابق. كان يجعلني أعيد التفكير في الغابة المظلمة، في الشعلات، في عيني وكلمات

الساحرة. عندئذ وسعت خطوتي حتى ألتصق بأبي، والذي لم أكن أعرف ماذا يفعل في الخارج في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وبالنسبة إليه دافع كل شيء هو واحد في كل الحالات: العمل. ربما استدعوه في أمر عاجل، مثل الأطباء، فقط بدلًا الشخص المتألم، يوجد صنبور يُسرب أو مدفأة لا تُسخن، ويهرع هو للمساعدة. حتى في الساعة الثانية ليلًا، حتى وإن كانت هذه الليلة هي ليلة عيد ميلاده. لأنه يصلح كل شيء، على الفور وطوال الوقت، كانت هذه هي رسالة أبي.

وفي الوقت نفسه كانت حكم إدانة أمي. في الواقع، المرة الوحيدة التي سمعتهما يتشاجران فيها كانت في مساء أحد الأيام، بينما هما ذاهبان إلى العشاء لدى سيدة من كورال الكنيسة، وقبل أن يخرجا أوقفت أمي أبي على الباب وقالت له: جورجو من فضلك، ما هذا الشيء أسفل سترتك؟

خفض أبي عينيه نحو السترة، كانت منتفخة بعض الشيء من إحدى الناحيتين، وهز رأسه.

- جورجو، أطلب منك، من فضلك، هذه الأمسية لا، على الأقل هذه الأمسية.

نظر هو إليها، ونظر إليَّ، ثم رفع عينيه الخضراوين نحو السماء التي كانت تبدأ هناك على الفور بعد باب المنزل، وفتح السترة ونزع كيسًا من البلاستيك توجد فيه مفكات، ومفاتيح إنجليزية، وحبل، وكماشة، وزردية. وضعها على طاولة المطبخ. برطمت أمي بشيء ما

ثم كادت تخرج، ولكنه وضع يده في الجيب الخلفي للجينز وأخرج أيضًا بطاريتين، وسلكًا كهربائيًّا، وعلبة صغيرة مليئة بالمسامير المتنوعة. نظرت إليه أمي بجدية شديدة، ثم قاومت للحظة، ثم فلتت ضحكاتها، وتوجهت نحو الشارع وأخيرًا ذهبنا إلى العشاء.

وفي كل الأحوال، بالأدوات أو من دونها، ينتهي الأمر دائمًا بهذه الطريقة. حول المائدة يأكل الجميع ويثرثرون فيما عدا أبي الذي لم يكن يتحدث بل يسمع فقط. ثم في لحظة ما يتوقف حتى عن الاستماع، لأنه سمع النداء اليائس لبالوعة تسعل، لصنبور يبكي، لرشاشات في الحديقة لا ترش جيدًا. وإلى هذا النداء يستجيب أبي.مكتبة سُر مَن قرأ

يطلب الذهاب إلى الحمام، ويخرج من الحجرة ولا يعود أبدًا. في البداية تلاحظ أمي فقط، بخليط من الغضب والخجل، ثم يقول أحدهم: *ماذا حدث لجورجو، هل سقط داخل المرحاض؟* ويضحك الجميع، حتى أمي، ولكنها تضحك أقل، وتتظاهر بذلك، لأنها كانت تعرف أنه لم يسقط في المرحاض، ولكنهم إذا ذهبوا ليفتشوا عنه فسيجدونه مستلقيًا أسفله، في وسط المواسير المفككة، والكنزة النظيفة قد اتسخت تمامًا بالشحم. وبالتالي فالذهاب إلى العشاء معه مثله مثل ذهابها بمفردها، وفي نهاية الأمسية كانت تحيي أصحاب المنزل وهي تعتذر وهم يجيبون: *على ماذا يا ريتا؟ لقد أصلح لنا منزلنا، نشكرك من قلبنا!* وكان أبي يبتسم، ويذهب، وترحل أمي فحسب.

مثلما نذهب أنا وهو الآن، صامتين في قلب الليل، بطول الطريق الصغير لقرية مانشيني، وصولًا إلى الفناء الخلفي للعم ألدو، حيث كانت توجد مقاعد بلاستيكية خالية حول نيران مشتعلة.

هل سيكون القمر الكامل؟ هل تلك هي الشعلات التي ترتعش فوق نباتات الدفلي وأقصاب البامبو، وأيضًا فوقنا؟ في هذه اللحظة شعرت أنني عدت إلى كابوسي. إلا أنه في محل المحرقة كان يوجد فرن من الغاز، وبدلًا من الساحرة، كانت تحترق كرة مليئة بالجرابًا.

أي أن الكرة المنتفخة كانت مليئة بشيء يشبه قشر الفاكهة أو بواقي العنب وأشياء من هذا القبيل، وبفضل الغليان تتحول إلى بخار يمر من أنبوب طويل رفيع وكثير التعاريج، ويدور كثيرًا في الداخل، وهكذا يبرد. وفي نهاية الأنبوب الرفيع، وبفعل معجزة ما، تتساقط قطرة قطرة في دلو أسفله، كأنه بكاء مشتعل للجرابًا بصوت «بليب بليب» في ظلام الليل.

جلس أبي بجوار النار، أخرج جهاز التحكم، ولوهلة فكرت في أن العم ألدو وضع تلفازًا في الحديقة، بالتأكيد لم يكن أبي يرغب في استخدام جهاز التحكم، فهو يرغب فقط في إصلاحه: مثل الرجال الآخرين الذين يحضرون معهم سجائر أو شيئًا يمضغونه، يحتفظ في جيبه دائمًا بشيء يصلحه. فتح ذلك الشيء البلاستيكي وأطلعني عليه، ليعلمني ما يجب عمله، ولكنني أعرف أنني لم أرث موهبته لأنني لم أفهم أي شيء، بالإضافة إلى أنني كنت أشعر بالبرد

الشديد وأرغب في الاقتراب من النار. إلا أن الكرة المتفخة أخذت تبرطم وتنفث، وخفت من أن تنفجر، عندئذ مكثت في مكاني، وسط الطريق بين الموت من البرد أو من الانفجار.

وكان بطني يؤلمني أيضًا بعض الشيء، وكان هذا بسبب كل الآيس كريم الذي تناولته على العشاء. كان عيد ميلاد أبي وأكمل لتوه أربعين عامًا بالتمام، مثل تلك التي في اللعنة، إلا أنه متزوجًا بالفعل ثم إنه لا يحمل الدم الملعون لعائلة مانشيني، وبالتالي نجا مرتين. وبالفعل تناول عشاءه بهدوء وبلا أي جنون، معكرونة إسباجيتي بالمحار، ومقليات بحرية متنوعة، وفي النهاية كيكة عيد الميلاد، والتي مثل كل عام لم تكن كيكة، إنما سلطانية ضخمة من الآيس كريم كله بالكريمة. وهو أمر عجيب، لأنه من الصعب أن تضع الشموع في الآيس كريم، ثم إنه هو وأمي لم يكونا يحبانه. في الواقع كنت آكلها أنا بمفردي، نصف السلطانية كلها في بطني بينما ينظر إليَّ أبي مبتسمًا وينهي آخر قطع المقليات المتنوعة.

أعيد التفكير في الأمر الآن أمام بالون الجرابًا، وأردت جدًّا أن أسأله لماذا يُحضِر كل يوم ذلك الآيس كريم بالكريمة إذا كان يعجبني أنا فقط. ولكن أبي هو ليتل توني، ويدخر صوته رائع الجمال لحفل الوداع الكبير، وبالتالي لم أسأله عن شيء، قلت فقط: بابا، تعجبني الكريمة، ولكن يعجبني أكثر البندق، والقشدة. في رأيي، العام القادم يمكننا أن نبتاع مذاقات مختلفة، في كل الأحوال آكلها أنا بمفردي.

مجرد عبارة، ألقيتها هكذا، دون أن أتوقع إجابات، فقط لأمنح بعض الصوت للدخان الخارج من فمي بينما أتنفس. وبعد لحظة، ربما بسبب النبيذ الأبيض الذي تناوله على العشاء، أو بسبب بخار الجرابَّا الذي يملأ الهواء، وربما بسبب أنه في ذلك اليوم أكمل أعوامه الأربعين ويؤثر فيه هذا، في كل الأحوال، وضع أبي جهاز التحكم على الأرض، رفع عينيه وغرسهما في عينَي للحظة استمرت طويلًا حتى زعزعت كل الساعات وكل التقويمات في العالم كله. ثم، أُقسم بأصابعي الموضوعة كصليب على قلبي، فُتح فوه ومن هنا هربت كلمة، ثم أخرى، ثم أخرى أيضًا.

كان... عمري... ستة أعوام...

مثل النقاط الأولى لعاصفة مفاجئة، وفي الواقع نظرت إلى أبي وشعرت أنني لا بد وأن أتشبث أكثر بمقعدي، بينما شفتاه تنطلقان في إعصار عصف بي، وبالمقعد، وبالحقل المحيط بنا، وأخذنا بعيدًا، إلى عالم آخر، إلى زمن آخر.

«كان عمري ستة أعوام. مثل عمرك الآن. وأيضًا ذلك اليوم كان يوم عيد ميلادي. كنت أساعد أجدادي في الحقل، وكنت أحب هذا. إلا أنني في السادسة مساءً كنت أشعر بالضيق لأنني أسمع من بعيد أجراس الباريسي الذي يمر بشاحنته ثلاثية العجلات البيضاء ويبيع الآيس كريم. كان يبيعه في وسط البلدة للأطفال الخارجين من المدرسة والذين يمكنهم ابتياعه، أما هنا لدينا فكان يمر فقط من الطريق ليعود إلى منزله. كان طريقًا من الحصى، معوجًا وسط

أشجار الزيتون، ولم يكن فيه العديد من الأطفال، إلا أنهم لم يكن لديهم نقود ولم يكن في إمكان أي منهم الحصول على الآيس كريم. فقط من حين لآخر إذا ظهرت بيضة زائدة في المنزل، ربما تعطيها أمي لي لأعطيها للباريسي، والذي في المقابل يعد لي قمعًا صغيرًا بالكريمة. إلا أن هذا لم يحدث قَط. ولذلك عندما كنت أسمع الجرس كان يقرصني بطني من الرغبة، فأستلقي على الحقل وأسد أذني بقوة. وخاصة في الصيف، عندما كانت الحرارة تمزق الحقول، وتُفتح الأرض وبداخلها ترى النمل والدود والحشرات الأخرى التي ماتت مشوية. إلا أن رجل الآيس كريم لم يكن موجودًا. ولا حتى في ذلك اليوم الذي انتهى فيه الصيف، يوم عيد ميلادي. لم تكن لدينا نقود لهدية، ولكن أمي، التي هي جدتك، عثرت على شريط أحمر في درج وربطته على جبهتي وقالت لي «كل سنة وأنت طيب يا جورجو». واعجبتني الهدية. تظاهرت بأنني «تيكس»[1] عندما يذهب إلى القرية في «نافايو»، هل تعرفه! عندما يصل كان يخلع ملابس رعاة البقر ويرتدي الزي الهندي ويضع العصابة على رأسه. إلا أنني بعدها سمعت جرس الباريسي وانتهت اللعبة، فمن الواضح أنني لست «تيكس». أقل شيء كان يمكن لـ«تيكس» أن يفعله هو أن يطلق الرصاص على عجلات الشاحنة الصغيرة ويقلبها، وهكذا يمكن لكل أطفال الشارع أن يجروا ويحصلوا على

(١) Tex Willer شخصية قصة مصورة إيطالية بعنوان تيكس، تدور أحداثها في الغرب الأمريكي القديم.

الآيس كريم. لأن هذا هو العدل، لأن هذا جيد، لأنه عيد ميلادي، يا للشقاء. إلا أنني على حافة الطريق، ولم يكن أمامي سوى الاستلقاء أرضًا، وأن أفكر في كل الأشياء السيئة، مثل كيف أن الباريسي عندما يعد الآيس كريم لا يغسل يديه، بأنه يتفل بداخله ويتبول عليه. ولكن لا فائدة، كنت أريده على الرغم من ذلك، كنت أريده بشدة. وعلى الرغم من أنني صممت أذني فقد كنت أسمع صوت الشاحنة ثلاثية العجلات ترعش عظامي، أسمعها تقترب مني أكثر، تصل أمامي وتتوقف. فتحت عينَي، وجدت الباريسي وهو ينظر إليَّ وذراعه خارج النافذة.

– أيها الطفل، ماذا بك، هل أنت متألم؟

أشرت له بلا، دون أن أنظر إليه.

– هل أنت متأكد؟

أشرت بنعم.

– وماذا يوجد فوق رأسك؟

لوهلة لم أفهم، ثم تذكرت الشريط الأحمر. قلت له إنها هدية، فاليوم عيد ميلادي.

– آه، اليوم عيد ميلاد؟

أشرت بالإيجاب.

– إذن خالص التهاني! كم عمرك؟

قلت له: ستة. وأشرت أيضًا للرقم بأصابعي.

- أحسنت، هذا يوم خاص. هل تعرف كيف يمكن الاحتفال بيوم خاص كهذا؟ بآيس كريم جميل. هل لديك بعض المساحة في بطنك؟

أشرت بالإيجاب، بقوة شديدة، حتى كاد رأسي ينفصل عن جسدي ويتدحرج حتى الشاحنة ثلاثية العجلات ليأكل الآيس كريم قبل باقي جسدي. أجل، لدي مساحة في بطني، ورغبة في الآيس كريم لا تنتهي أبدًا.

- أحسنت أيها الصبي، وهل لديك البيضة لتعطيها لي؟

لا، ليس لدي البيضة، كانت هي الشيء الوحيد الذي لا أملكه. توقفت عن أن أومئ بالإيجاب، ومرة واحدة، بالكاد، هززت رأسي بالنفي.

وقال الباريسي: أي! يا خسارة! وداعًا أيها الطفل، وتمنياتي السعيدة!

وبابتسامة ملأت وجهه، ابتعد مع ضوضاء المحرك وذلك الجرس الملعون. اختفت العربة الصغيرة في الشارع بين الأتربة التي ارتفعت ودارت وتحولت إلى سحابة، وداخل تلك السحابة مكثت أنا واقفًا وثابتًا، لا أعرف كم مر من الزمن، على الأقل مرت ساعة أو اثنتان. وأُقسم إنني بكيت كل تلك الفترة. بكيت هكذا كثيرًا وبقوة شديدة، ربما أكون يومها أنهيت كل الدموع التي كانت لي

ذخيرة في حياتي كلها، وفي الواقع لم أبكِ بعدها قط. وأيضًا لم آكل الآيس كريم بالكريمة بعدها قَط، كانت تكفي رائحته لتصيبني بالغثيان. إلا أنني منذ ذلك اليوم بدأت أعمل كثيرًا، كثيرًا جدًّا، ولم أتوقف قَط. حتى اليوم الذي أصبحت فيه في الأربعين من عمري. أربعون عامًا، يا للشقاء، إنها تبدو لي لحظة واحدة، أتعرف هذا؟ كان عمري وقتها مثل عمرك الآن، عندما كلَّت عيناي بسبب التراب الذي رفعه الباريسي، وفجأة، هأنذا. الآن يتسبب لي الآيس كريم بالكريمة بالقرف، ولكنني أريده على المائدة في يوم عيد ميلادي؛ سلطانية مليئة به. لأنه، أتعرف ماذا يسعدني كثيرًا يا فابيو، كثيرًا جدًّا جدًّا؟ يعجبني أن أجلس أمام المائدة مثل مساء اليوم، أن أجلس مستريحًا وبيدي كأس نبيذ بارد، أنظر إلى ابني الصغير وهو يتناول كل الآيس كريم الذي يريده. يسعدني هذا كثيرًا. أعرف أنني أحمق، ولكنني أيضًا سعيد، ولهذا كل شيء يسير على ما يرام».

كل هذا حكاه لي أبي، بالقرب من نيران تلك الليلة العجيبة. نظر إليَّ لحظة أخرى من لحظاته تلك اللا نهائية، ثم أنزل عينيه إلى يديه وتعجب من أنهما فارغتان، ثابتتان، لا تعبثان بشيء ما.

أنا أيضًا مكثت ثابتًا، أستمع إليه دون أن أتمكن من التنفس، أستمع كأنني أشرب، أبتلع كل صوته الذي عمليًّا، أسمعه للمرة الأولى. وأردت ألَّا يتوقف، أن يستمر ويحكي المزيد والمزيد. إلا أن الأمور لا تسير بهذه الطريقة. ليس أنك ترفع عينيك إلى السماء

وفي تلك اللحظة يمر مُذنب «هيلي»، وأنت تقول *جميل جدًا، تهاني، الآن دُر للخلف ومُر ثانية*. لا، إنها أعجوبة تعيش داخلها لحظة خاصة، وتعرف كم أنت محظوظ لأنك وُجدت في هذا المكان في تلك اللحظة، تلك اللحظة الوجيزة والرائعة التي تجعلك تتساءل إذا كانت حقيقية أم أنك حلمت بها، بينما عاد أبي بالفعل إلى صمته وجهاز التحكم عن بعد.

أخذ يرتب الأجزاء الصغيرة البلاستيكية الموجودة بداخله، ولا أحد سواه في العالم يعرف ماذا تفعل في الداخل. ومن المؤكد أن الجهاز خلال بضع دقائق سيعمل من جديد مثل السابق، بل وأفضل مما كان، ربما سيصبح سوبر جهاز تحكم، والذي إذا ضغطت على قناة عن طريق الخطأ فسيعيدك إلى القناة التي أردتها بالفعل.

ولكن، لإنهاء هذه المعجزة كان ينقصه مفك. نهض وتحسس الألف جيب التي في بنطاله وسترته، ولم يكن معه، عندئذ قال لي إنه سيذهب لثانية لإحضاره. أي أنه قال لي فقط في الحقيقة «سأحضر المفك»، وأشار إلى منزلنا وذهب.

أردت أن أتبعه، حيث كان يسوءني أن أتركه وحده بعد ذلك الشيء البشع الذي حدث له وهو في مثل عمري. مرت سنوات كثيرة بالفعل ولكنها بدت لحظة واحدة. وضايقني أيضًا أنني أكلت فقط نصف سلطانية الآيس كريم، وأنني تركت النصف الآخر في المبرد للأيام التالية. كنت أشعر بالبرد، ولكنني بخير بجوار النار. ثم فتح هو يده ليقول لي أن أمكث هنا وإنه سيعود على الفور.

أومأت بالإيجاب، وجلست بارتياح، وطلبت منه أن يحضر لي ما تبقى من آيس كريم، لأنني فجأة شعرت بأنني أريده، أريده بشدة.

نظر لي أبي، وابتسم وأشار بالإيجاب، ثم اختفى من ضوء النار حتى نباتات الدفلي. ومكثت أنا وحيدًا في دفء الشعلات أسفل البالون المنتفخ، وفي ظل صدى صوته الرائع. وفهمت ما يشعر به ملايين الأشخاص الذين يحتشدون في الاستادات ليستمعوا إليه، وشعرت كم أنا محظوظ لأنني ابنه، وأنه في يوم عيد ميلاده يمنحني الهدية؛ سلطانية مليئة بالآيس كريم، وحفلًا موسيقيًّا خالصًا لي أنا فقط.

كان شيئًا رائع الجمال إلى حد أن الشك ساورني أنني ما زلت أحلم: في البداية كابوس مع الساحرة التي تحترق، ثم الآن حلم رائع مع أبي الذي يتكلم ويحكي لي عما حدث له وهو في سني.

وكان الأمر هكذا يسير على أحسن الأحوال. عندما تحدث أمور رائعة تكون الأحوال جيدة دائمًا، ولو كان هذا مجرد حلم. يكفي ألَّا نستيقظ منه أبدًا.

(٣)

عشر أصابع أكثر من اللازم

ذهب أبي ليحضر المفك، ومرت فترة ولم يعد. ربما لم يستطع العثور على المفك المناسب، أو ربما في أثناء وجوده في ورشته سمع صوت صنبور أو ماسورة تطلب مساعدته لا أحد يعلم من أين. أو ربما ذهب فقط لدقيقة واحدة وبدت لي فترة طويلة، لأنني بالمكوث بمفردي في الظلام زاد خوفي، والشيء الذي كان يحتاج إلى مساعدة أكثر هذه الليلة هو أنا.

أخذ اللهب يتراقص أسفل بالون الجرابًا ويملأ العالم بالظلال السوداء والمرتعشة والمخيفة، وخاصة ظلال الدفلي ذات الأشواك التي أخذت تصعد وتهبط على جدار العم ألدو، مثل العديد من الأسنان الحادة التي تقشر جلد الأشياء حتى تجد نفسك أسفل أسرارها.

ومع الظلال كانت الرائحة النابعة من البالون تدير الرأس، ومن لحظة إلى أخرى توقعت أن أرى ساحرة كابوسي تصل إلى هنا بحثًا عن أعمامي لتنتقم. ولكنها لم تعثر عليهم وبالتالي انتقمت

مني أنا حفيدهم، وحتى إذا كان ما زال ينقصني الكثير لأصل إلى أربعين عامًا، فلا معنى للانتظار كل هذه الفترة، نظرًا لأن نهايتي واحدة: أن أكبر مع أعمامي وأن أزداد شبهًا بهم، وأصبح مجنونًا.

ولكن أن أصبح مجنونًا حقيقيًّا وليس مثل من يقولون: *آه أنا مجنون، آكل الآيس كريم في الشتاء*، أو *أرتدي السترة المربعة مع البنطال المخطط*. لا، هؤلاء أناس عاديون جدًّا، عاديون إلى حد أنهم يحلمون بأن يكونوا غريبي الأطوار، وإذا قلت لهم إنهم مجانين فهذا هو أعظم إطراء يمكنك منحه لهم. إنما أتحدث عن الأشخاص الذين يذهبون للنوم على الجبال شتاءً، وسط الجليد، لأنهم هكذا يفعلون كما يحدث للطعام في المبرد ويُحفظون لفترة أطول. أتحدث عن الرجال الكبار الذين يرتدون زي رعاة البقر؛ القبعة الكبيرة والحذاء ذا الرقبة، ويمكثون طوال اليوم مختبئين خلف ملتقى الطريق السريع في انتظار هجوم قبائل الموهيكان. وعن أولئك الأشخاص، الذين إذا قلت لأحدهم أنت مجنون، لا يعجبه هذا على الإطلاق. بل يصمون آذانهم ويشيرون بلا برؤوسهم بقوة شديدة، يهربون بعيدًا وكل منهم يصيح: *ليس هذا حقيقيًّا، أنا لست مجنونًا، لست مجنونًا!*

وهم أشخاص أعرفهم جيدًا، أعرف أسماءهم واحدًا واحدًا: تبدأ أسماؤهم جميعًا بحرف الألف، لأن جميعهم أجدادي أو أعمامي، أو كما يقرر العالم ماذا عليَّ أن أدعوهم.

وأنا أحبهم جدًّا، إلا أنني لم أكن أفهم كيف يجب أن يكونوا بهذه الغرابة. هم وأصدقاؤهم أيضًا، مثل الإخوة بينيللي الثلاثة،

الذين أسماؤهم مارتي وأورانو وجينو. حتى إنني في إحدى المرات سألت جينو: لماذا بدلًا من اتباع هذا النظام الشمسي وأن يسموه مثلًا جوفى أو ساتورنو، سموه جينو؟ نظر إليَّ بطريقة بدت وأنه لم يفكر في الأمر قَط، رفع كتفيه، وأجابني: لا أعرف، لا بد وأن تسأل أبي وأمي عن هذا، ولكن فات الأوان لأن كليهما الآن أسفل الأرض. أو ربما يكون الأمر مبكرًا جدًّا لأنك يمكنك أن تطرح عليهم سؤالك هذا عندما تلحق أنت أيضًا بهما أسفل الأرض.

وأجبت أنا بنعم، فقط حتى لا أحرجه، لأنه في رأيي عندما أموت توجد أشياء كثيرة جدًّا لأكتشفها في العالم الآخر، وأماكن كثيرة لأزورها، وأشخاص من كل العصور لأتعرف عليهم، وأيضًا إذا مكثت هناك إلى الأبد فلن يكون لدي الوقت، في كل الأحوال، لأذهب إلى أبويه وأسألهما، لماذا سمياه جينو.

الخلاصة، كانت لأصدقائهم أسماء غريبة بل هم أيضًا غريبي الأطوار، ولكن ليس مثل أعمامي. والذين كانوا على هذا الحال من البداية، ثم مات جدي، وزاد الأمر سوءًا. لأنه تزوج من جدتي ونجا من اللعنة، وعلى الرغم أنه أصغرهم إلا أنه كان يستطيع أن يهدئهم وينصحهم دائمًا، والآن يفتقده الجميع بشدة. يفتقدونه هم، ولكن تفتقده الجدة أكثر، والتي حتى الآن في وقت الغداء ووقت العشاء تعد له مكانه المفضل. أنا أيضًا أفتقده، إلا أنني أتذكر وجهه فقط بمساعدة الصورة. ولكنني كنت أحبه كثيرًا، بل أتمنى أن يكون هنا

ليساعد أعمامي على النظام، حيث تقول لهما أمي وجدتي كل يوم: *إذا استمررتم هكذا فستنتهي بكم الحال في مادجانو!*

وفي كل مرة أسمع هذا الاسم تصعد رعشة من آخر ظهري حتى حنجرتي، حتى الآن في الظلام أمام البالون، لأن مادجانو هو المكان الواقع فوق الجبل الذي فيه يحبسون المجانين، مكان جدرانه قاتمة ومظلم تمامًا في الغابة، لم أرَه قَط ولكن قص لي أعمامي عن أشياء شديدة البشاعة تحدث هناك، إذا رأيتها تصبح أنت أيضًا مجنونًا. وفي الواقع نصف المرضى كانوا ممرضين سابقين بدأوا يعملون في المكان ثم بالتدريج أصبح مكانهم هم أيضًا في العنابر. بالتأكيد لأنه بالمكوث مع المجانين تصبح أنت أيضًا مجنونًا، وبالتالي فأنا ضائع بلا محال، لأنني أمكث مع أعمامي كل ثانية. لذلك، عندما سمعت أخيرًا الخطوات التي تأتي من الشارع الواقع خلف المنزل، نهضت على قدمي سعيدًا وكدت أجري نحو أبي، وأعانقه بقوة.

إلا أن الخطوات تعددت جدًّا، وأصبحت صاخبة وملتوية ومختلطة بكلمات أكثر اعوجاجًا، أصوات من الحنجرة وصرخات تقتل ركلًا صمت الليل. لم يكن أبي، كانوا هم، أعمامي الذين أتوا جميعهم معًا من الظلام، ممسكين بصبي مجهول.

دخلوا في النور، ولم يكن معهم صبي، بل قنينة ضخمة يمتلئ نصفها بالجرابًا. ونظرًا لأنها كانت على ذراع الأعمام، كانت قنينة نصفها فارغ.

- أوه، انظروا مَن هناك.

تمتم العم ألدو، وأخذني في حضن قوي للغاية حتى أن عينَي خرجتا بعض الشيء من ثقبيهما.

- أحسنت القيام بدور الحارس! وأين وضعت أباك؟

كان هو والعم آتوس وخلفهما آراميس الذي كان يدفع العم أديلمو على عربته.

قلت: سيعود بابا على الفور. وتمنيت ذلك جدًّا.

ولكنهم تقريبًا لم يسمعوني، آتوس كان منحنيًا بالفعل على نهاية الأنبوب حيث تنقط الجرابًا في الدلو، ووضع أسفلها أصابع يده اليسرى ثم لعقها هي الأربع. أربع لأن الإصبع الوسطى كان قد فقدها في آلة قص الحشائش.

- جميل! يا إلهي كم هو جميل، إنه رائع!

ولم يكن رأيه يهم كثيرًا؛ بالنسبة للعم آتوس كل شيء رائع، كل شيء وطوال الوقت. في البداية لم يكن كذلك، بل كان على النقيض، كان دائمًا عصبيًّا ومتجهمًا، لم يكن يعجبه أي شيء، ولم يكن متفقًا مع أحد، حتى إذا أعطيته كل الحق. ثم في أحد الأيام كان يقلم السياج مع العم آراميس، وقال كلمة غريبة لم يفهمها آراميس جيدًا، سقط على الأرض وقضي الأمر. أخذوه إلى المستشفى، وقال الأطباء إنها جلطة، إلا أنها مرت بسلام. في الواقع عاد العم آتوس على قدميه، مثلما كان قبل أن يذهب تمامًا،

فيما عدا أحد حاجبيه كان مرتفعًا عن الآخر، وإيماءة في الوجه كابتسامة أبدية، والأهم عاد بطابع جديد تمامًا: مسرور دائمًا وفرح، وكل شيء كان مثيرًا للعجب والاهتمام والانفعال، ولا يستطيع المكوث دقيقة واحدة دون أن يخبرك بأنه يحبك، وبأنه سعيد بمعرفتك، وبأنه سعيد بتلك الصدمة التي ذهبت بعقله، لأنها في رأيه كانت السر في حياة رائعة.

«رائع!» كان يردد الآن وهو يلحس الجرابًا من على أصابعه. «ذق هنا يا آراميس، ذق». ومد له الأصابع نفسها، كان توأمه، إلا أنهما لم يكونا متشابهين في أي شيء. نظر إليه آراميس للحظة، ثم فضل أن يذهب إلى الأنبوب، ويذوقها مباشرة من هناك.

- إنهاا حـ... للـ...وة! ومـ مـ مـ، إنها ممـ...

لأن آراميس عندما يتحدث يلزم الصبر: كانت الكلمات بالنسبة إليه سباق بالموانع، يبدأ العبارات مقتنعًا جدًّا ثم يتعرقل في حرف صعب، يستطيع أن يتسلقه ولكنه يصطدم في ذلك الذي يليه، يحاول أن يتقدم ولكنه يتزحلق هنا وهناك، وفي النهاية الطريقة الوحيدة التي بها يمكنه أن يقول ما يريده هو أن يلتقط أنفاسه ويبدأ في الغناء:

- إنها ممتازة، رائعة، استثنائية، تلك الجرابًا هي جرابَّة الملوك.

بيدٍ على قلبه وصوت لن يكون أبدًا مثل صوت أبي ليتل توني، ولكنه لم يكن سيئًا.

- برافو آراميس، يا لها من أغنية جميلة!

قال آتوس بل وصفَّق أيضًا. بينما قال العم أديلمو من فوق كرسيه ذي العجل إنه بدا كالديك المخنوق. وطلب قنينة الجرابَّا وغرسها في حنجرته، ثم نظَّف شفتيه بظهر يده ومدها للآخرين. بل وإليَّ أنا أيضًا.

- ذق هنا يا صبي، ذق كم هي رائعة جرابَّة مانشيني.

أما أنا فقد أغلقت شفتي وأشرت بلا، لأنني بمجرد أن أشتمها أشعر بأنهم وضعوا عود ثقاب مشتعلًا في حنجرتي. ثم إن الجرابَّا المصنوعة في المنزل خطيرة، الشيء الأول الذي يأتي هو السم، وأحد أصدقاء الأعمام والذي كان عطشان جدًّا ولم يستطع الانتظار، تجرعها ومات. إنما أنا، إن أمكن، لا أريد أن أموت، أريد أن أكبر وأقوم بأشياء كثيرة، ألف العالم وأرى أمريكا والهنود والثيران الأمريكية، والصينيين حيث يعيشون، في آخر العالم، ورؤوسهم لأسفل. ولكن أول شيء أريد أن أراه على الفور أبي يعود إلى هنا وينقذني.

- آيا فابيو، آيا.

قال العم أديلمو وشرب رشفة أخرى.

- كيف لن تجرب أبدًا، هل تخاف؟ انظر، إن الخوف هو عدونا الوحيد، كما تعرف. إن الخوف أسوأ من الوحوش، أسوأ من الثعابين. لأن تلك تقتلك على الفور أما الخوف فلا يجعلك

تعيش حياتك. ثم إنه لن يفيد في شيء. انظر إليَّ على سبيل المثال، هل ترى حالي؟ هل تعرف كيف انتهى بي الأمر في هذا المكان؟

ثم لمس قدميه على الكرسي المتحرك، جافتين وساكتين، تبدوان وكأنهما اصطناعيتان مثل تلك التي للعرائس. تجرع المزيد من القنينة، ثم:

- في أحد أيام شهر سبتمبر كنت في «كويرشيتا» أحمل الحطب، وكنت حريصًا على ألَّا يكون بين الخشب أي عناكب. آه، لا أستطيع فعل شيء في هذا، اسخروا مني كما تريدون، فالعناكب تثير اشمئزازي، كل تلك الأقدام المُشعرة، وتلك الحركات المفاجئة، فأنت لا تعرف أبدًا أين تذهب العناكب، لا تعرف ذلك على الإطلاق! على كل حال، كنت أنقل الخشب ببطء، وبكل حذر، بذلك الخوف من العناكب في رأسي، وفي الوقت نفسه تقف فوق، في الطابق الخامس عجوز تسقي زرعها، وسقط منها نبات جيرانيوم بالأصيص كله، سقط على رأسي تمامًا، وهأنذا. هل فهمت؟ شخص يخاف من العناكب يقضي ساعة بحثًا عن بعض الحطب، وهكذا كان أمام عجوز حمقاء متسع من الوقت لتُسقِط أصيصًا غبيًّا، وقضي الأمر. هل فهمت كيف يعمل الخوف يا فابيو؟ الخوف لا معنى له، إنه مجرد حماقة. الخوف هو شبكة عنكبوت تشتت انتباهك، بينما تضع لك الحياة العنكبوت في مؤخرتك.

اختتم العم أديلمو حواره هكذا، ثم تجرع رشفة جرابًا أخرى. وأنا أومأت بالإيجاب، لأنني ربما فهمت، وبالأخص لأنني أشعر بالحزن بسبب قصة العنكبوت المنحوسة تلك والجيرانيوم على رأسه. كما أشعر بالأسى بسبب آلاف القصص الأخرى التي تحكي كيف انتهى أمر العم على الكرسي المتحرك، والتي كان كل يوم يحكي لي واحدة مختلفة منها. كانت المفضلة تلك التي تدور أحداثها في البحر، أثناء عمله حارس إنقاذ، مثل تلك القصة التي فيها انقذ سائحة ألمانية وعقرت سمكة قرش ظهره، أو عندما هبت عاصفة بحرية وكسرت المظلة فوق عنقه. قصص يحكيها ليشرح أنه لا معنى لأن نشعر بالخوف، إلا أن تلك القائمة اللا نهائية من المآسي التي حدثت له تحكي النقيض، أي أن العالم هو جحيم مليء بالمكائد، حيث يمكن في أي لحظة أن يحدث لك شيء ما مرعب، ووداعًا. عندئذ نحن على حق في أن نشعر بكل ما يمكننا من خوف.

وفي الواقع، جرابًا مانشيني بالتأكيد حلوة جدًّا ولكنني لن أشربها. أغلقت فمي بقوة وهززت رأسي، بينما يُقرب العم أديلمو مني أصابعه المبللة بها ويُقربها من وجهي. «هيا، هيا»، يقول بإصرار، وأنا أحدق في يده العملاقة والخشنة وأشعر أن مستشفى مجانين مادجانو بعيدة في الغابات، ولكنها في الوقت نفسه قريبة جدًّا، مثل أصابعه المعوجة، والتي كانت أربعًا أيضًا، مثل أصابع آتوس. والشيء نفسه بالنسبة للعم ألدو، والآن عندما أفكر في الأمر، يد العم آراميس ليس بها سوى ثلاث أصابع.

عندئذ بمجرد أن استطعت أن أهرب من يد أديلمو سألت، كيف حدثت مذبحة الأصابع تلك.

- لماذا؟

قال ألدو:

- ما الغريب في ذلك، كم إصبع يجب أن تكون لدى الشخص؟

- عشر!

وضحكوا هم بشدة.

- هذا شيء مبالغ فيه! عشر أصابع أكثر من اللازم! أنت تبدأ بعشر، ثم بكل الأعمال والمجهود والحوادث، على الأقل تفقد واحدة أو اثنتين. وهذا أمر طبيعي، لهذا فهي عشر، لأنه من المعروف أنك ستفقد بعضًا منها. عندما يموت شخص ما، لتعرف إذا كان قد عاش بالفعل يكفي أن تنظر إلى يديه. القديس بطرس يفحصها لك، وإذا كانت أصابعك كلها لا تزال موجودة يقول لك: *ماذا فعلت أنت بالأصابع التي أعطيناها لك؟ لم تفعل أي شيء، لقد أضعتها هكذا. هيا إلى أسفل، إلى الجحيم.* لأنه لا يوجد ذنب أعظم من ألَّا تكون قد عشت حياتك.

أومأت بالموافقة، ونظرت إلى أياديهم وإلى يدَي، الأصغر بكثير وبيضاء اللون، وأصابعي كلها موجودة، وجديدة. وتساءلت أيتها سأفقد خلال الأعوام، وكيف. بدا الأمر عبثيًّا، ولكنه لم يكن

كذلك بالنسبة إلى أعمامي. بالنسبة إليهم الأمر يشبه فقدان الشعر، والذي بالنسبة إليَّ يبدو شيئًا مستحيلًا. كان لدي منه الكثير جدًّا، وخصلات كثيرة وكثيفة، والتي إذا وضعت فيها أصابعي لا يمكنني نزعها. ربما سأفقده يومًا ما، وربما أفقد الأصابع أيضًا التي أضعها في وسطه. وحتى إن لم تكن لحظة جميلة إلا أنني أريد أن أصل إليها، أريد أن أعيش، في الواقع، ابتعدت وكررت أنني لن أشرب الجرابًا وهذا أمر نهائي.

قال أديلمو:

- ممم، بمن تأثرت! لا أحد يدري. لا بد أن تمكث معنا وقتًا أطول أيها الصغير. لا بد أن تمكث مع أجدادك.

لأنهم كانوا يصرون أن يطلقوا على أنفسهم أجدادي، ويرددون هذا الشيء؛ أنني لا بد وأن أمكث أكثر معهم. ولكنني أمكث معهم دائمًا، ولا يمكنني حتى أن أتخيل طريقة أمكث بها أكثر من هذا.

أحيانًا يأخذني العم ألدو إلى صيد الحيوانات، وعندما نعود يكون آتوس على أول الطريق متوترًا لأن الوقت تأخر ولا بد أن نذهب لصيد السمك معًا، وآراميس يوصيه بألَّا يتأخر لأنه ما زالت أمامنا ثمار الصنوبر لنسرقها من الغابة. وفي تلك الأيام المليئة بالمغامرات أتعلم دائمًا مليون شيء، ولا مجال لأن أشعر بالملل، حتى إن أردت هذا. إلا أنني الآن أذهب إلى المدرسة واكتشفت وجود العديد من الأطفال في سني، وهم يتقابلون ويلعبون معًا. وأعرف الآن أيضًا عن اللعنة التي تتأرجح فوق رأسي.

وتلك بالتحديد تشعرني بالخوف أكثر من الجرابًا القاتلة، لأنه حقيقي أن أربعين عامًا لا تزال بعيدة، وحياتي بالفعل مختلفة كثيرًا عن حياة رفاقي في الفصل. فهم يطلعونني على ألعاب تعمل بالبطارية، وأنت فيها عصا صغيرة ومعك كرة تنط فوقها، أو كرة صغيرة تأكل الكرات الأخرى الأصغر منها، أو ثعبان داخل متاهة، أو يسألونني إلى أي مستوى وصلت في لعبة باكمان Pacman، وعندما أسألهم ما هو الباكمان، ينظرون لي باستغراب ويسألونني: *وأنت كم عمرك؟* وكنت أنا ألتزم الصمت، أو أقول *مثلكم*، وربما الإجابة الأصح هي أن عمري *تقريبًا أربعون*.

ولذلك بدلًا من أن أفهم كيف يمكنني قضاء المزيد من الوقت مع أعمامي الملعونين، من الأفضل أن أكتشف طريقة لأقضي وقتًا أقل.

قال العم ألدو للآخرين: أجل يا شباب، حقيقي أن الطفل صغير بعض الشيء، ولكن إذا ساء الأمر بهذا الشكل فهذا ليس خطأه، إنه خطأ مدرسة الحمقى تلك!

- يع! المدرسة.

فعل هذا العم أديلمو، كأن شيئًا شديد المرارة دخل فمه.

- تمامًا، أنتم لا تعرفون الأشياء الغبية التي يدرسونها له. من حسن الحظ أنني ذهبت إلى هناك هذا الصباح، وشرحت لهم بعض الأشياء. لم أُنهِ الحديث عن الطماطم، ولكن لا بأس.

قال أديلمو:

- الطماطم؟ وأنت ماذا تعرف عن الطماطم؟

- أعرف كيف أغرسها وكيف أُنميها.

- أقصى شيء تعرفه أنت، هو كيف تسرقها من حقل أرنو.

- وما دخل هذا! لديه الكثير ويفيض، إنها خسارة.

- أجل، إنما المزارعين هما آتوس وآراميس. أنت تقود الشاحنة، يمكنك أن تشرح لهم بعض الميكانيكا. ربما في المرة القادمة تذهب إلى المدرسة بالشاحنة وتطلعهم عليها، وهكذا يتعلمون شيئًا.

وعند فكرة العم أديلمو هذه شعرت أن الهواء اختفى من حولي. لأن هذا لا يجب أن يحدث، لا يجب أن تكون هناك مرة قادمة. قلت:

- شكرًا لكم جميعًا، فهم لا يعلمون تلك أشياء في المدرسة.

- بالتحديد، هذه هي المشكلة! وماذا تفعلون إذن إذا ثُقب إطار السيارة في طريق ناءٍ؟

- ولكننا لا نعرف حتى القيادة.

- ماذا؟

قال العم آتوس وقد وضع يده أمام فمه:

- أوه، ولكنهم بالفعل لا يعلمونكم شيئًا!

ثم بابتسامة ثابتة قال بقوة:

- هل تعرفون ماذا يحدث؟ غدًا صباحًا سآتي أنا أيضًا إلى المدرسة!



- إذن سـ... سـ... آت...

وتوقف العم آراميس هناك، ولكن للأسف فهمت أنه هو أيضًا يريد الذهاب غدًا إلى المدرسة.

فقال أديلمو:

- أجل، وعليكم أن تأخذوني أنا أيضًا!

- وأنت ماذا ستعلمهم؟

- أنا عندي العديد من الأشياء أيها الحمقى! ثلاثون عامًا أعمل حارس إنقاذ، أستطيع أن أشرح لهم مليون شيء عن البحر، وعن الطبيعة بصفة عامة. على سبيل المثال عن العناكب. هل تعرفون أنه يوجد عنكبوت اسمه عنكبوت الموز، إذا عضك تموت، ولكن قبل ذلك يستقيم قضيبك لساعات طويلة؟ يؤلمك من قسوته، ثم تموت هكذا.

- لا أصدق هذا!

قال آتوس، ثم ضحك بقوة.

- أقسم لك! أرأيت أنك لم تكن تعرف هذا، وبالتأكيد لا يعرفه الأطفال بدورهم، غدًا سآتي إلى المدرسة وأعلمهم هذا!

بدأ الأعمام يتحدثون فيما بينهم هكذا، ليفهموا كيف يمكن أن يقسو القضيب ويمكث مستقيمًا حتى بعد الموت، وكيف يمكن إدخال الميت في الصندوق بهذا الوضع.

أخذت أنا أستمع إليهم دون أن أفهم أي شيء.

ولم يكن هذا خطئي، إنها الحياة التي تدور وتدور وتلفنا، ولا وسيلة لفهمها: فهي جُبلت بطريقة، وبعدها بلحظة تتحول إلى شيء آخر تمامًا. مثل هذا الصباح، عندما أتى العم ألدو إلى المدرسة ليتحدث عن حظيرة الدجاج، وبدا لي الأمر بشعًا، والآن فجأة أصبح الموضوع مجرد حماقة، أمر لا أهمية له مقارنة بما ينتظرني صباح الغد، بكل أعمامي مجتمعين في الفصل، يتشاجرون ويتناقشون عن الطماطم المسروقة، والقضبان القاسية للأشخاص الميتين.

والآن أرى أمامي عينة منه، وهم يناقرون بعضهم ويتشاجرون على الزجاجة التي لا يرغب العم أديلمو في تركها، وبسبب أنه يمسكها بقوة، انقلب الكرسي ذو العجلات وها هو ملقى على الأرض. انفجر الآخرون في الضحك بينما يصرخ هو «أوغاد»، ولكنه بعد ذلك بدأ يضحك هو أيضًا بشدة، على ضوء النار التي بدت لي الآن أشد، وتُحرك البالون كما كانت تُحرك الساحرة في كابوسي. الشعلات نفسها ينبثق منها نور مجنون فوق نباتات الدفلي، على المقاعد نصف المكسورة، على وجوه أعمامي الحمراء والملتوية، وهم يضحكون ويضحكون، ويكفي النظر إليهم في تلك اللحظة لفهم أن اللعنة كانت حقيقية وقوية وأنهم في أعماقها، ملتفين بها

مثل ضوء تلك الشعلات التي تحرقهم جميعًا وتقترب مني، وتقترب أكثر.

عندئذ، بمجرد أن رأيت أبي يظهر من خلف المنزل، هادئًا ممسكًا بالمفك في يده وسلطانية الآيس كريم بالكريمة في يده الأخرى، جريت نحوه وعانقته بقوة، أبي يصلح كل شيء، أبي الصامت، أبي المغني المشهور، أبي رائع الجمال، أبي السوي.

أو على الأقل الطبيعي أكثر منهم، وهذا في حد ذاته أمر مهم. لأنني أعلم أنه في قرية مانشيني، وفي كل هذا العالم الذي يدور ويترنح في الكون، كون المرء سويًا هو أغرب شيء يمكن حدوثه.

(٤)

الآن تعرف السباحة

مر عامان، وبدأ صيف عام ١٩٨٢، وبدأ كأس العالم لكرة القدم. وربما لا يتذكر جانكارلو أنطونيوني ذلك الهدف الذي لغوه له وهو يلعب ضد البرازيل، إلا أنه غيَّر لي ولعائلتي حياتنا.

لم أكن أشاهد حتى هذه المباراة المشهورة. كان الكبار جميعهم في كوخ حارس الإنقاذ يصرخون أمام التلفاز، بينما نحن الأطفال نلعب ألعاب المطاردة على الشاطئ المهجور، والآن وقد أصبح عمري ثمانية أعوام وفي الصف الثاني الابتدائي، تعلمت تلك اللعبة.

ثم ألغوا هدف أنطونيوني الصحيح جدًّا، وانطلق حارس الإنقاذ ريناتو خارجًا، ومعه سحابة سوداء من اللعنات ومشدود القبضتين، وحنجرته منتفخة من الغضب الذي إذا لم يُنفث عنه على الفور فسينفجر. رآنا ونحن نلعب بسعادة، وكأننا لا نبالي بالظلم الذي وقع للتوِّ على كابتن فريق فيورينتينا، تقدم نحونا بعينَي المجانين ومد يديه الضخمتين نحونا. توقف قبلها لحظة يتفحصنا: إنه غاضب بشدة، هذا حقيقي، ولكن يوجد أطفال لا يمكن المساس

بهم، فهم أبناء رجال صناعة، وقضاة ونبلاء وسياسيين، وموظفي بنوك. ثم أنا، فأنا آتٍ للسباحة لأن جدتي تنظف تلك المنازل، عندئذ من السهل إدراك ما حدث، لا أحتاج حتى أن أنظر. أخفض رأسي وأغمض عينَي، وأشعر بريناتو وهو يمسكني من ذراعي، ويرفعني عن الأرض، يلقي بي نحو السماء مثل قناديل البحر عندما يُعثر عليها بالقرب من الشباك، وهو يصرخ: حكم *ملعووون!*

يصعد الصراخ معي ويلفني، ولوهلة اعتقدت أننا سنحلق معًا. إلا أن كلًّا منا اتبع مساره الطبيعي، استمر هو نحو السماء الزرقاء للفضاء، بينما اتجهت أنا نحو الرمال التي عندما يقول لنا أحدهم إنها مصنوعة من الحصى الذي أصبح ذرات رمال عبر آلاف السنين، لا نصدق، ولكنني أسقط فوقه، وعندئذ أفهم أن هذا حقيقيًّا لأنني أشعر بألم شديد وكأنني سقطت على الحصى، بل إنه يكسرك أيضًا. قال الطبيب، عظمة الترقوة، ووضع لي جبيرة على ذراعي بدت وكأنها درع. طلب ريناتو الحارس الصفح من جدتي (من جدتي، وليس مني)، وأُقسم إن جدتي أجابته: لا بأس يا رينا، فهي أشياء تحدث، ثم إن الهدف كان صحيحًا.

وهكذا، بينما كانت إيطاليا تربح تلك المباراة الصاخبة حتى من دون هدف أنطونيوني، وفي ذلك الصيف الذي لا يُنسى تفوز إيطاليا بكأس العالم، تحول صيفي إلى جحيم.

كان مثل وضع الذراع بثبات في فرن، دون إمكانية إخراجها أو فعل أي شيء على الإطلاق. لا يمكن الاستحمام، لا يمكن اللعب

على الشاطئ، لا يمكن الذهاب في مغامرات مع الأعمام، والذين في الواقع كانوا يحيونني ويتركونني في المنزل، وقد مكثت لأشاهد التلفاز لدى جدتي أو أحرق النمل بالعدسة المُكبرة، والذي كان أمرًا صعب التنفيذ بيدي اليسرى حيث كانت تهرب جميعها، وكنت أنا أمكث هكذا، وحيدًا، حزينًا، مهزومًا حتى من حفنة نمل.

والأسوأ كان حال أبي، والذي كان يعود في المساء ويجدني في تلك الحالة، ويشعر بالقلق الشديد. لأنك كما تعلم، عندما تكبر تصبح ما حدث لك في صغرك، فإذا بكيت كثيرًا في طفولتك تصبح شخصًا تعيسًا، وإذا قرأت كثيرًا تصبح سخيفًا، وإذا قضيت إجازتك الصيفية في محاولة حرق النمل، أقل شيء هو أن تصبح معتوهًا. عندئذ، لينقذ مستقبل ابنه الوحيد، فعل أبي شيئًا، بالنسبة إليه يشبه الخيال العلمي، أخذ إجازة.

وهو الأمر الذي لا وجود له في المدن الساحلية، أي الذهاب في إجازة صيفًا. إنه مثلما يذهب في إجازة فترة عيد الميلاد من يصنعون البانيتونى، أو أطباء قسم الطوارئ يوم ٢١ سبتمبر، وعندما يعد الأعمام وأصدقاؤهم عيد النبيذ. في الواقع الإجازة بالنسبة لأبي معناها هو أنه يذهب إلى عمله في الفجر مثلما يفعل دائمًا، ويهرب بعد الغداء. يعمل هو وشخص آخر، اسمه أنطونيو، لدى سباك أكبر سنًّا، والذي في ذلك الصيف لم يكن يشعر أنه بخير، ولم يكن موجودًا قَط، لذلك الهروب سهل. ولكنه كان سهلًا في كل الأحوال، لأنه لا يخطر ببال أي شخص أن يتأكد إذا كان أبي يعمل

أم لا: عندما ترسله في الصباح إلى فيلا ما ليصلح الدُّش الذي يسرب، الشيء الوحيد الذي يجب أن تتأكد منه هو أنه مكث حتى ساعة متأخرة من الليل، يُصلح كل تسريب وكل مقبس كهرباء، وكل حجر مُفكك في الأرضية. لأن أبي لم يكن يعدها مهنة، بالنسبة لأبي كان إصلاح كل شيء لا يعمل هو مُهمة. ولهذا كان في ذلك الصيف، كل يوم بعد الغداء، يقفز على شاحنته ثلاثية العجلات، ويهرب ليأتي إليَّ، لأن شيئًا ما كان مسدودًا أكثر من أي بالوعة، ومعيوبًا أكثر من أي وصلة تيار، ومفكوكًا أكثر من أي أرضية، وهذا الشيء هو أنا.

لم يكن إصلاحي أمرًا هينًا، فلم يكن في إمكاني عمل أي شيء بذراعي في الجبس، لا يمكنني صيد السمك ولا الحيوانات، ولا أي شيء من الأمور المثيرة التي يفعلونها منذ بدأت القردة الأولى في السير معتدلة، واختُرعت الأيدي. عندئذ فكر أبي، برهة، في الأمر، ثم وجه شاحنته الصغيرة نحو الطريق وذهبنا حتى نهاية غابة صنوبر «فيرسيليانا»، أخرج سلة صغيرة وبدأنا البحث عن عيش الغراب.

لأننا لا نحتاج إلى اليدين هناك، تكفي قدمان وعينان وكل شيء يسير على ما يرام، وحتى إذا لم تعثر على شيء فستكون تمشية جميلة. ولكننا بعد خطوتين أو ثلاث خطوات في قلب الغابة اكتشفنا شيئًا رهيبًا، ضخمًا جدًّا، حتى إننا لنأخذه إلى المنزل لن تكفينا كل سلال العالم، وهو أنني كنت بطلًا خارقًا.

بالضبط، بطل خارق ولدي قدرات خاصة خارقة، لأن الرجل العنكبوت يلتصق بالجدران، وسوبر مان يطير في الفضاء، والمرأة الخفية كانت خفية بالتأكيد. أما أنا فقد كنت أرى الفُطر.

ولكنني كنت أراه بطريقة عجيبة، كان يلمع أمامي وكأنه ألعاب نارية في وسط الغابة. في الواقع شرح لي أبي في اليوم الأول أين ينمو والمكان الأفضل للبحث عنه، ربما عند أقدام شجر الحور، أو بين الأوراق الساقطة أو فوق عناقيد بعض الأشجار الميتة، وأنا بهدوء: فهمت، مثل هذا الفطر هناك، أو هذا، أو كل ذلك الموجود بعيدًا.

نظر لي أبي نظرة غريبة، ثم نظر حيث قلت له ولم ير شيئًا. ثم ضيَّق عينيه وذهب، على الرغم من هذا، حيث قلت له أن يفتش، ومع كل فطر ينزعه من الأرض كان يفحصني بغرابة، بينما أنا أفحص السلة وأفكر في أنها لن تكفي أبدًا كل الفطر المحيط بنا، والذي كنت أرى أنه كثير جدًّا وضخم ولامع، والأهم من ذلك، أنني كنت الوحيد الذي يراه.

أعلم أن هذا يعود إلى واقع أنني مصاب بعمى الألوان، ولا أرى الألوان إلا مصادفة. إنه شيء وراثي، يأتي من جهة أمي، إلا أن عمى الألوان يصيب الذكور فقط، ولهذا فهي غير مصابة به، إنما جميع الأعمام مصابون به. تتدخل في ذلك الكروموزومات، وهو حوار علمي لم أفهمه وربما لا يفهمه الآخرون، يقوله فقط العلم، وبالتالي يصدقه الجميع. لعنة عائلة مانشيني أيضًا هكذا، تشبه هذا

بالتمام، موروثة في العائلة وتتعلق فقط بالذكور، مع الفارق الوحيد أن العلم لم يكتشفها بعد. لذلك لا فائدة من محاولة مواساتي بأن تقولوا لي بأن اسمي ليس مانشيني، وأن اسمي لا يبدأ بحرف الألف: إن الأسماء شيء نخترعه نحن وهو مجرد أمر تافه، يلزم فقط للغياب في المدرسة أو مساعدة ساعي البريد ليحضر لنا البريد، الشيء الوحيد الذي له قيمة فعلية هو الدم، ودمي هو نفسه دم الأعمام. وبسبب هذا الدم لا نتعرف على الألوان، وعندما نصل إلى الأربعين دون زواج لا نتعرف حتى على الفارق بين الأفكار العادية وتلك المجنونة. العلم لا يُخطئ، الدم لا يغفر، وأنا محكوم عليَّ مرتين. لا أحد منا يصاب بالجنون ويرى الألوان الخاطئة كما يحلو له، في الواقع عطية عيش الغراب تلك أتمتع بها أنا فقط. اكتشفتها في اليوم الأول من الإجازة مع أبي، والذي معه في ساعةٍ ملأنا السلة وكيسًا من البلاستيك وقميصه العسكري. كنا نختار لهذا الغرض المناطق الممهدة جدًّا، والتي مر عليها للتوِّ آلاف خبراء البحث عن عيش الغراب، وأنا بالسير في المدقات نفسها تقفز نحوي كل خيرات الله المفقودة. ويضحك أبي، يضحك ويجمعها، ولكنه في نهاية اليوم نظر إليَّ بجدية شديدة وقال:

- لا تقل شيئًا للأعمام.

- لا أقول لهم ماذا يا بابا؟

- عن ذلك الحظ الذي لك.

شعرت أنا ببعض الإهانة: بابا هذا ليس حظًّا، إنه قوة خارقة.

لأن هذا كان يعجبني كثيرًا، أن أكون بطلًا خارقًا. اخترعت أيضًا لنفسي اسمًا، كنت مترددًا بين سوبر بيوبنيو، الرجل الكمأة، وأسماء أخرى أقل جاذبية، وفي النهاية اخترت اسم فونغومان[1]، والذي يبدو عالميًّا أكثر. ولو أنني بدلًا من تضييع الوقت في تلك التفاهات كنت سألت أبي لماذا لا يجب أن أقول هذا للأعمام، ربما كان قد شرح لي وكنت استمعت إليه ولم أدمر نفسي بمفردي، وحولت نفسي من بطل خارق إلى شيء شبيه بالعبد.

لأنه بمجرد أن عرف الأعمام بدأوا يأتون للبحث عن عيش الغراب معنا، وتعاملوا معي وكأنني كلب فُطر. كانوا يجذبونني من الشاحنة الصغيرة، ويربتون على عنقي ويقولون لي: هيا يا جميل، اذهب! ومع كل فطر يداعبون بقوة خصلات شعري، ليرسلوني للبحث عن المزيد، حتى فقدت أنفاسي. ثم في المساء، في بار لا غاتزيللا، يتباهون كثيرًا جدًّا مع الأصدقاء، وبعض الناس كانوا يقدمون لهم أواني نبيذ أو النقود ليستعيروني نصف يوم. في البداية كان الأعمام يرفضون، ثم بدأوا يتفاوضون حول السعر، وعندئذ قرر أبي أنه من الأفضل الابتعاد بسرعة عن الفطر وعن غابة الصنوبر وعن الأرض بأكملها. وهكذا كل ظهيرة كان يأخذني إلى البحر، يضعني على قارب بدال ونهرب إلى عزلة الماء.

القارب بالبدال كان رائعًا: ليسير لم أكن بحاجة إلى ذراعَي، بالإضافة إلى أن ريناتو الحارس كان يتركنا نركبه مجانًا، لأنه كان

---

(١) فونغو بالإيطالية Fungo تعني فُطر، عيش الغراب.

يقول: بطريقة ما *إصابة الصغير هي خطئي*. وكنت أنا أرغب بشدة في أن أسأله، وبأي طريقة لم يكن خطأه، وكان القارب بالبدال يعجبني جدًّا ولذلك التزمت الصمت وبدلت.

كنت أبدل بقوة شديدة حتى يصبح البحر رغاوي عندما نشقه، وتصبح ضوضاء الشاطئ خلفنا كرة صوت وحيدة تقفز بالتدريج لتبتعد حتى تختفي. وتختفي معها الرمال والمظلات والأكواخ، وتبقى فقط الجبال المرتفعة، والتي في الجو شديد الحرارة تصبح جميعها زرقاء. ربما أكون أنا من يراها هكذا، حيث كانت خضراء أو بنية أو أي لون آخر تكونه الجبال، المهم أنه من على هذه المسافة لا يمكن أن أرى فوقها ومضات الفطر، وبالتالي أستطيع أن أستمتع بالهدوء.

كنت أدرس قناديل البحر التي تدور على جانبها، وبعض أسماك الأنشوجة الضالة، وعصيًّا وأكياسًا بلاستيكية تتجول بعشوائية في البحر. ثم تصبح المياه قاتمة ومسطحة، فنتوقف، لأن هذا يعني أن المياه هنا عميقة، وتوجد أسماك أكثر، ونبدأ في الصيد. فكر أبي في كل شيء، كان يجهز صنارتين، يضع فيهما الطعمين ويقذف بهما، وكنا عندما تبدأ السمكة في التهام الخيط القريب مني، يعني هذا أنني أنا من اصطدتها. عندئذ كنت أحدق في العوامة، وأضيق عينَي، وأحاول أن أجعلها تختفي في المياه القاتمة والعميقة، في الوقت نفسه أتشبث بقوة في المقعد، لأن البحر حيث لا يمكن لمس الأرض يخيفني كثيرًا.

أحيانًا ترتفع نظرتي وحدها نحو مراكب الصيد البعيدة في الأفق، والتي بواسطة شباك الجر تُمشط وتُفرغ البحر وبالتأكيد مملوءة أسماكًا بالأطنان، بينما نحن لا نصيد أي شيء. عندئذ يضحك أبي ويجيبني بألا أقلق، وأن أهدأ لأنه: *في كل الأحوال، سمكتك لن يأخذها أحد يا فابيو.*

وكان يقول لي هذا الشيء دائمًا، ولم أكن متأكدًا من أنني أفهمه جيدًا، ولكنني كنت أعتقد أن تلك السمكة هي سمكتي وحدي، وكنت سعيدًا أنها ستأتي إليَّ. حتى وإن بدا لي أنها لن تحضر أبدًا.

وبالتالي، في هذه الحقبة كنا نتسلى على الرغم من ذلك، كنا نستمتع كثيرًا جدًّا. كنا نطعم طيور النورس، ويقضي أبي على قناديل البحر بالمجاديف، ونتناول وجبة خفيفة من الخيار المحفوظ باردًا في المياه. ثم كنا نستلقي لننظر إلى الطيور التي تحلق في السماء وإلى أعلى أكثر إلى خطوط الطائرات، وربما إلى أعلى أكثر حيث الفردوس، الذي كان ينعكس على المياه الهادئة وعلينا، والذي في لحظة معينة ننام حتى نحلم به بطريقة أفضل، ونودع الصيد. وليس في ذلك أي مشكلة، لأن الجو صيف والبحر هادئ والشمس لا تغرب أبدًا، كان أمامنا متسع كبير من الوقت.

إلا أن الوقت، بهدوء شديد، أيضًا يمر. اقترب شهر سبتمبر وانصلح عظمي، ونزعوا عني الجبس وبدا لي أنه بدلًا من ذراعي أصبحت لدي ريشة، ريشة نورس خفيفة وناصعة البياض. ولكن في الوقت نفسه، استدعى رئيس أبي في العمل أبي وصديقه أنطونيو.

شرح لهما أنه ليس بخير وأنه سيتوقف عن العمل، والخلاصة أنهما أصبحا الرئيسان. كانت اللحظة التي انتظراها منذ زمن، منذ أن بدأ أبي العمل لديه قبلها باثني عشر عامًا. جبل من الزبائن الأغنياء يمتلكون فيلّات مليئة بالحمامات والنافورات الجاهزة لتُكسر في أي لحظة، في فترة يلقون فيها النقود فوقك بدلًا من الكزبرة. وها هو يصل الكثير من العمل، والكثير من الربح، وها هي الحياة الجديدة تبدأ.

ولم يكن أبي ينام في الليل.

كنت أسمعه يتحدث مع أمي بصوت منخفض، ثم أصبحت الأصوات أكثر خفوتًا في كل مرة، وفي النهاية صرخت هي: «كفى، افعل هذا يا جورجو، افعل هكذا ولا تفكر كثيرًا في الأمر، وإلا ستُصاب بالجنون! فنحن في نهاية الأمر غير معتادين على الثراء، ربما يتسبب أيضًا في إيذائنا. افعل هذا يا جورجو، افعله».

وبالفعل فعل أبي هذا. ودع رئيسه وزميله، ودخل في مسابقة ليصبح عاملًا في البلدية، وفاز في كل التخصصات؛ كهربائي، كناس، جنائني، كل التخصصات. ولكنه اختار أن يصبح سباك المجاري، وهو الأمر الأقرب لما كان يفعله دائمًا. إلا أن الراتب أقل كثيرًا، ولكن أيضًا ساعات العمل تدع له كل الأمسيات حرة، يقضيها كما يريد. وأراد أبي باستمرار أن يقضيها معي.

وهكذا استمرت أمسياتنا في البحر، شهر سبتمبر بأكمله، وحتى اليوم السابق للمدرسة، عندما هبت رياح غريبة وعصبية فوق المياه،

وظهر بوضوح شديد أنها النفحة الأخيرة للصيف، وإذا لم تستفد بها حتى النهاية فلن تستحق البقاء في العالم.

في هذه المرة لم يكن لدينا القارب بالبدال، كنا قد خرجنا بالطوف الذي هو وسيلة أكثر جدية بكثير، وتركنا القارب ذا البدال للسياح الذين لا يعرفون التجديف. تماثلت ذراعي الآن للشفاء ويمكنني أن أصطاد أنا أيضًا بالفعل، ترقص عوامتي بخفة في الماء القاتم وأفكر كم هو عمق الماء في الأسفل، وكم الأشياء العملاقة والغريبة التي يمكنها أن تعيش في العمق دون أن يراها أحد، وكنت أشعر برغبة في أن أُبعد قدمَي عن المياه حرصًا.

عندئذ مكثت كالخشبة مثل الطوف، عندما قال لي أبي من اللا شيء: أوه، الآن سنغطس.

ماذا؟ نغطس هنا، في عمق الهاوية؟ أجبت بما تبقى لي من أنفاس قليلة بأنه ربما من الأفضل ألا نفعل هذا. سألني هو لماذا، وقلت له إن المياه باردة.

ضحك أبي، عندئذ أضفت أنني ربما أشعر ببعض الخوف «البعض القليل جدًّا، ولكن بعض الشيء أجل».

- خوف من ماذا؟

- مما يمكن أن يوجد في العمق: أسماك القرش، الحوت القاتل، الحبار العملاق، الحيتان، الأخطبوط العملاق.

وبينما أُعدد كل تلك الوحوش البحرية، سألني أبي، كيف مع كل

تلك الأشياء التي تدور هناك في عمق البحر، لا تلتقط صناراتنا أي شيء. لم أكن أعرف، وكنت أشعر بها تقترب، إنها تحيط بي، وتأخذني إلى العمق مع مائدة من الأعشاب البحرية اللزجة والمتلاصقة، وأُقسم إنني كدت أتشبث بالمجدافين وأعود على الفور إلى الشاطئ. إلا أنه في تلك اللحظة تحركت عوامة صنارتي.

رعشة، دائرة من المياه حولها، وربما حانت بالفعل اللحظة المناسبة. ربما بعد هذا الصيف كله أتت سمكتي، ومن يدري كم حجمها وربما تكون مخيفة. ولكن كل شيء سيسير على ما يرام، لأن ذراعي طابت وأنا مستعد للمعركة. توقفت عن التنفس، ووضعت يدي على القصبة وانتظرت أن تختفي العوامة أسفل المياه.

وكما هي العادة، بينما تنتظر شيئًا يحدث شيء آخر.

أتت القوى المخيفة بالفعل، ولكنها أمسكتني من كتفَي، ورفعتني، وأطارتني في السماء. درت ثم درت ولم أستطع التشبث بأي شيء، لا دعائم ولا أي أمل، فقط الهواء المحيط والبحر أسفله، وقلب يجن لأنه لن يستطيع أن يخفي سري البشع: عمري ثمانية أعوام ولا أعرف العوم بعد.

أعرف العوم قليلًا، ولكن فقط في المياه الخفيضة، وهذا لا يُسمى سباحة. إنه مثل قيادة الدراجة ذات العجلات الصغيرة، ومثلما أن تكون جميلًا في عينَي أمك. فقط حيث لا تُلمس الأرض تكون السباحة الحقيقية ممكنة. وأنا لم أكن أعرف السباحة على الإطلاق.

بل إنني كنت قد قررت أن الوقت قد تأخر لأتعلم، وأنني سأستمر هكذا إلى الأبد، حتى عندما أصبح قبطان سفينة عندما أكبر، والذي كان أول حلم في قائمتي، بل وإنني أعددت لذلك إجابة جيدة، عندما يأتي أحدهم إليَّ في كابينة القيادة ويسألني: يا قبطان، كيف يمكن أن تقود السفينة وأنت لا تعرف العوم؟ أجيب بابتسامة عريضة ومليئة بالثقة: معذرة، وهل كل من يقودون طيارات يعرفون الطيران؟

أجل، تمامًا، إجابة بسيطة ورائعة، ولا توجد أي مشكلة في الأفق. إلا أنه توجد مشكلة واحدة: إن المرء ليصبح قبطانًا ينقصه الكثير. إلا أنني لم أكن أرغب في أن يكتشف أبي سري. كان هو شديد المهارة في عمل كل شيء، ولا يجب حتى أن يتخيل أن ابنه لم يكن يعرف السباحة، لا يجب أن يعرف هذا أبدًا.

ولكن أبي كان يعرف هذا، كان يعرفه جدًّا، ولم أفهم سوى الآن، بينما أطير في الفراغ بذراع غامقة والأخرى بيضاء وأنا أحاول أن أتشبث بالسماء. مثلما حدث عندما قام الحارس بإلقائي بعيدًا بسبب هدف أنطونيوني المُلغى، إلا أن آنذاك تلقفتني الأرض بينما الآن ينتظرني البحر وهذا أسوأ، مائة مرة، لأن الأرض تلطمك بينما البحر يبتلعك.

ألمسه وأنزل إلى الأسفل، إلى هاوية سوداء لا نهاية لها، مليئة بأسماك القرش والحيتان القاتلة والحبارات العملاقة، والتي سوف تمسكني بمجساتها وتعقرني بذلك الشيء الشبيه بفك الببغاء الموجود

في وسط الخصلات المساكة والشريرة. إنه الشعور الأكثر بشاعة في العالم، الرفس بالساقين والبحث بالقدمين عن موضع لا وجود له، الذهاب إلى العمق والشرب وربما الموت. ومن حين لآخر عندما أعتقد أن كل شيء قد انتهى، أجدني قد صعدت إلى السطح بطريقة ما، أتنفس، وأرى أبي على الطوف وهو ينظر إليَّ ويُدخن. يقول شيئًا ما ولكنني لا أفهم، لأنني أذهب إلى الأسفل من جديد، ومن جديد أشرب. أشعر برغبة في التقيؤ، وأفكر أن الموت تقيؤ نهاية مقرفة حتمًا. وإذا تمكنت من التفكير، فمعنى هذا أنني ما زلت أتنفس، لأنني بسببٍ ما لا أغرق. لا يوجد أي شيء تحت قدمَي، إلا أنني لا أذهب إلى العمق. يظل رأسي خارج المياه، يصارع جسدي فأطفو، وفي النهاية، ها أنا هنا أنظر إلى الحياة التي ظلت متشبثة بي، مبتلة كلها ومتوترة ولكنها ممتلئة بالحياة أكثر من أي وقت مضى.

انتهى أبي من سيجاره، ومد يده، وابتسم وجذبني إلى أعلى مرة واحدة.

- الآن تعرف السباحة، هل أنت سعيد؟

وأنا لم أُجبه، لأنه في حنجرتي حل الماء مكان الهواء، وآنذاك لم أفهم ماذا حدث. لا أعرف أي شيء الآن، لم أكن حتى واثقًا بأنني ما زلت حيًّا، كيف يمكنني أن أعرف إذا كنت سعيدًا؟

إلا أنه بعد ذلك، عندما عدنا إلى المنزل بالشاحنة الصغيرة الضيقة، وفي لا نهائية الغروب الذي أغرق كل شيء باللون البرتقالي، بدا لي أنني سعيد. وقلت له هذا، وابتسم أبي لأنه يشعر بالسعادة،

بينما ينظر إلى ابنه نصف المبتل، بخصلات شعره كلها ملتصقة برأسه، ولكن أخيرًا تم إصلاحه.

وعلى بعد بضعة منحنيات من منزلنا قابلنا زميله السابق أنطونيو، والذي أخذ الشركة لنفسه وكان يقود شاحنة كبيرة جديدة وعملاقة، واسمه مكتوب عملاق أكثر على جانبها. نزلا هو وأبي وتعانقا وأخذا يربتان كل منهما على كتف الآخر ويصيحان: مبارك عليك، لا مبارك عليك أنت، لا لا أنت المحظوظ. وهكذا عدة مرات حتى إنني في النهاية لم أفهم من هو المحظوظ بالفعل.

ثم عاد أبي إلى الشاحنة ثلاثية العجلات وعدنا مرة أخرى إلى طريقنا البرتقالي تمامًا، والذي لا أحد يعرف إلى أين يأخذنا، ولكنه بدأ آنذاك، في صيف ١٩٨٢. عندما جعلت الأهداف إيطاليا بطل العالم في كرة القدم، وغير الهدف الذي تم إلغاؤه عمل أبي، وعلمني السباحة، وتسبب في ميلاد أسطورة بطل خارق في غابات توسكانا يُدعى فونغومان.

لأن سمكتك لن يأخذها منك أحد.

سواء كانت تسبح بطريقة غريبة، أم تسبح بطريقة عشوائية، في النهاية تصل إليك.

(٥)
لحم مقدد ليسوع الطفل

كانت تماثيل القديسين ترتعش كلها في ضوء شموعها، كانت سيقانها من البلاستيك ونقاط شمع مرسومة، ومكان الشعلة يوجد مصباح ضعيف يرتعش، ولكنه يمنح التأثير نفسه. يمكنك أن تختار القديس الذي يستمع إليك أكثر، تضع مائة ليرة في الثقب وأسفله تشتعل شمعة تنير وجهه وعينيه، تشخص إلى السماء في أعلى وكأنها ترغب في أن تقول: *سيدي، أنت ترى ماذا يفعلون بي، أنا قديس بالفعل*! لأنه في تلك الفترة كان أحدهم يضربه أو يجلده أو يغرز له السيف في صدره. وفي رعشة الشموع الاصطناعية تبدو التماثيل حقيقية بالفعل، حتى القديس يوحنا المعمدان الذي يصل حتى رقبته وينقصه الرأس.

ولكن بدوا أحياء أكثر من الرجال الذين كانوا يعملون هناك في أسفل في صمت الليلة. ينقلون أجولة من الرمال وأجولة من الدقيق، وألواحًا خشبية وطوبًا وأسلاكًا كهربائية، وأضواء وصناديق مبقعة بالعفن، مكتوب عليها بقلم عريض: **أغنام وحيوانات، رعاة، منازل**

وطواحين. وبينما يمررون فيما بينهم تلك الأشياء كانوا يقولون كلمات بصوت منخفض، والتي من الدكة حيث جلست لم تبدُ محادثات وإنما تمتمات طويلة، شيء يشبه مراثي الرهبان، وجميعها متشابهة وبالتالي هي أكثر شيء خطأ يمكن الاستماع إليه، عندما تحاول ألا تنعس.

لأنه نظريًّا، كان لا بد من وجود العديد ممن هم في عمري، وأن نتسلى بأن نساعد الكبار في بناء المغارة. ولكن لا يوجد أحد سواي، ولم أستطع أن أمد يد المساعدة، نظرًا لأنها كانت أول أمسية وعليهم أن يقوموا بالعمل الضخم؛ نشر الخشب وتثبيته بالمسامير، وبناء القاعدة ليضعوا فوقها قرية بيت لحم. ولذلك عليَّ المكوث للمشاهدة فقط، أن أكسر فكَّي بسبب التثاؤب، وأن أنتظر.

هكذا هو عيد الميلاد، انتظار تام: تنتظر اليوم الذي تنتهي فيه المدرسة وتبدأ الإجازة، ثم تنتظر الليلة التي فيها يصل بابا نويل ليُحضِر لك الهدايا، ثم الصباح التالي الذي فيه يمكنك فتحها. وأنا، حتى وإن كان عمري الآن تسعة أعوام ونصف، وفي الصف الرابع الابتدائي، ما زلت، ليس فقط أصدق وجود بابا نويل، بل إنني أحبه حبًّا جمًّا.

بل إنني أقلق عليه؛ شخص مسن عليه أن يعمل كثيرًا جدًّا في التجول حول العالم. في الواقع حتى لا أتعبه كثيرًا كنت أختار هدايا سهل العثور عليها، وليست ثقيلة ليتمكن من نقلها، حتى إذا كنت في النهاية أُصاب بالإحباط دائمًا. مثل تلك المرة التي

أردت فيها بشدة إحدى سفن البلاي موبيل[1]، سفينة قراصنة رائعة ذات أشرعة عديدة ومدافع تبرز من كل الجهات، والقراصنة مُسلحون بالسيوف العريضة. بدلًا من السفينة أحضر لي قارب بلاي موبيل، زورقًا طوافًا حيث يوجد بالكاد مكان لاثنين بلاي موبيل موضوعين بصعوبة: كنت أحلم بأن أكون قرصانًا على متن بحار المحيط الهادئ، إلا أنني وجدت نفسي غارقًا على شاطئ محيط الحزن.

وفي الواقع بعد مرارات كثيرة مثل هذه، لم أعد متأكدًا بالفعل إذا كان بابا نويل حقيقيًّا. في المدرسة كنت قد سمعت حكايات بشعة عنه، إلا أنني لم أستطع أن أسأل رفاقي لأنني بالفعل كنت غريبًا جدًّا في نظرهم ولم أرغب في أن أزيد الوضع سوءًا. الوحيدة التي كان يمكنها أن تقول لي الحقيقة هي أمي، إلا أنها خاصمت الحقيقة في طفولتها، وكانت تفعل كل ما في وسعها لتبعدها عني.

المرة الأخيرة حدثت بالفعل في تلك الأيام، قبل أكثر من شهر على عيد الميلاد وكنت أبحث عن قفازي الصوفي على قمة إحدى الخزانات. للوصول إلى فوق صعدت فوق الفراش، وأخذت أفتش بين طبقات الكنزات القديمة والمغطاة والتي تفوح منها رائحة العطن والنفتالين، ووسطها عثرت على تيشيرتات وجوارب مفردة، موزعة وكأنها مُكتشفون في ظلام كهف. شعرت بالأسى

(١) Playmobil ماركة ألعاب تركيب مشهورة.

كثيرًا على التيشيرتات، والتي وُلدت لتوجد في الهواء الطلق بين الشمس والبحر، جذبتها خارجًا واحدًا تلو الآخر وأقسمت إنه بمجرد أن يهل الحر سأرتديها كلها. شعرت أسفل رف الصوف والقطن بشيء قاسٍ وحاد الزوايا، فتشت لأرى ما هو وفجأة نسيت التيشيرتات والقفاز وكل شيء في العالم. لأنه في خزانة أبوَي، توجد هدايا عيد الميلاد، مغلفة ولامعة ومستحيلة، مجهزة بالفعل ومخبأة في عمق الخزانة.

نزعت آخر الملابس الموضوعة فوقها بإصبعين فقط، وحرصت على ألا ألمس ورق التغليف، وكأنه شيء مقدس، وكأنني لو لمست الورق يمكنني أن أغتال عيد الميلاد إلى الأبد. وربما كان هذا ما يحدث بالتحديد. لا أعرف كم من الوقت مكثت في مكاني بجذعي مغروسًا في الخزانة، حيث كدت أن أفقد وعي بسبب كمية ما استنشقته من نفتالين. إلا أن أمي وصلت بعدها، وجاء صوتها من خلفي وهي تسألني عما أفعله.

- ماما، هنا... هنا توجد هدايا عيد الميلاد.

لم تقل أي شيء، صعدت بجواري فوق الفراش، ونظرنا إليها معًا.

- لماذا توجد هنا؟ هل وضعتموها أنتم؟

ظلت صامتة تحدق في الهدايا. كانت تلمع بشدة حتى بدت وكأنها حريق داخل الخزانة.

- ماما، اسمعي. بابا نويل لا وجود له، أليس كذلك؟

قلت هذا، وفجأة بدا لي شيئًا غاية في الوضوح، يلمع أكثر من تلك الهدايا أسفل شمس الحقيقة.

بعد لحظة وليغطي هذه الشمس جاء صوت أمي، بطيئًا ولكنه كامل كالخسوف، كظل ناعم ومُعطر من الأشياء الطيبة والهادئة التي تلف كل شيء:

- ولكنه بالتأكيد موجود يا فابيو، بابا نويل موجود بالفعل. بل، لا تقل هذا وإلا سيتضايق منك.

- الهدايا موجودة هنا بالفعل، هل ترينها؟ من الذي وضعها؟

- حسنًا، بالتأكيد هي هنا، واضح. وضعها هو، أليس كذلك؟

- هه؟

- فكِّر في الأمر جيدًا يا فابيو. بابا نويل لا بد وأن يحضر الهدايا لكل الأطفال في العالم، وفي ليلة واحدة فقط. هل تتخيل كم التعب؟ وهو أيضًا مُسنٌّ، المسكين، ثم كيف سيتمكن من أن يحملها كلها معًا على زلاجة واحدة؟ والأيائل المسكينة كيف ستتمكن من جذب كل تلك الحمولة؟ لذلك بابا نويل ينظم نفسه قبلها بفترة، ويقدم موعد العمل. قبل عيد الميلاد بشهر، يقوم بجولة ويخبئ الهدايا في منازل الأطفال، وهكذا ليلة الميلاد يرحل خفيفًا، وينزل من المدفأة ويفتح الخزانات ويأخذ الهدايا ويضعها أسفل الشجرة. هل فهمت؟

لم أُجبها. أردت بشدة أن أهز رأسي بالإيجاب، ولكن أصابني عطب ما سافر بشكل أفقي ولم أقل شيئًا.

- ثم لا تنسَ أن بابا نويل سويدي، فهو شخص دقيق.

- ولكن أليس من لابلاندا؟

- حسنًا، بالقرب منها. أناس الشمال جميعهم مُنظمون. هل يبدو لك أن واحدًا مثله سينتظر ويفعل كل شيء في آخر لحظة مثلنا؟

لا، أجل. لا أعرف. كيف يمكن أن يكون المرء متأكدًا من شيء ما، في هذا العالم المليء على آخره بأشياء عجيبة وإحباطات متتالية؟ منذ فترة وجيزة اكتشفت أن أبي لم يكن بالفعل ليتل توني: يتشابهان مثل التوأمين أحدهما يغني والآخر يُصلح الحمامات، دون أن يضايق أحدهما الآخر. وبعدها ببضعة أشهر حكوا لي أيضًا كيف يُولد الأطفال، ولم يكن في ذلك أي دخل لطائر اللقلق ولا أي حيوان آخر، ولكنها حيوانات أخرى صغيرة جدًّا تشبه الشرغوف تعيش في قضيب الرجال، ثم منه تدخل إلى المرأة ومثل الشرغوفات الحقيقية تبرز لها أذرع وأقدام، وبعد تسعة أشهر يولد الطفل. وبالتالي كيف يمكن للمرء أن يثق بأي شيء؟ كيف يمكن أن يعيش في هدوء في هذا العالم المجنون؟

والآن بصفة خاصة قد اقترب عيد الميلاد من الأبواب، والذي هو عيد ميلاد يسوع الطفل، لكنه في الوقت نفسه مهرجان العبث.

المغارة على سبيل المثال، والتي هي في حد ذاتها سر غير مفهوم، في الواقع نهضت من فوق الدكة وبدأت أدرسها حول أعمامي وأبي والسادة الآخرين الذين يعملون على بنائها. كنت أنظر إلى الصناديق الضخمة التي تحمل بداخلها أشجار النخيل والرعاة والفلاحين، ومع كل خطوة كنت أقول «ممم» أو «بوه». إلا أن الرجال جميعهم مشغولون ولا يعيرونني اهتمامًا. عندئذ أعدت القول بصوت أقوى: بوه، بوه! بوه بوه! وأخيرًا قال لي السيد أورانو: بوه ماذا يا صغيري!

- لا شيء، ولكن غريبة.

- ما الغريبة!

- المغارة.

- كيف يمكن لمغارة أن تكون غريبة؟

- إنها مكان عجيب جدًّا. توجد أشجار النخيل ومعها الثلج، وتوجد الصحراء وبجوارها توجد غابة بها شلال مياه وبحيرة، والجِمال تعيش مع الأبقار، ومع الغنم والبجع. في النهاية، أين بحق السماء وُلد الطفل يسوع؟

قال العم آتوس، بابتسامته المتقدة دائمًا:

- بالفعل، هذا حقيقي، إنه مكان غريب جدًّا، غريب ورائع!

إلا أن العم أديلمو لم يكن يبتسم قَط، كان يحمل أجولة الرملة وهو يرتدي المريلة، على عربة يدوية كأنها عربة آدمية، وفي أثناء مروره قال لي:

- يسوع الطفل يولد حيث يحلو له، والناس تذهب لتراه وتحضر له هدايا كثيرة.

قلت بسرعة:

- بالفعل، حتى تلك الهدايا...بوه!

- بوه ماذا؟!

قال أورانو من جديد:

- انظروا إلى ما يحضرون له: سمك مملح، قطع من الجبن، سجق، قوارير نبيذ، أفخاذ كاملة... هل هذه هدايا تُقدم لمولود؟

- حسنًا، وماذا يجب عليهم أن يهدوه؟

- لا أعلم، ملابس ثقيلة، بعض الأغطية ربما. فقد اضطر لأن يتدفأ بأنفاس البقرة والحمار، لذا في رأيي أن الغطاء أفضل من اللحم المقدد.

- لح... لح...

حاول العم آراميس أن يتحدث ثم وضع يده على قلبه واختار أن يغني:

- لحم مقدد بالنسبة ليبي، هدية عظيمة إيبييه.

قلت أنا:

- أجل، عندك حق، ولكن...

- لكن، لا شيء.

تدخل العم ألدو:

- اللحم المقدد والنبيذ ليسا هدايا ليسوع الطفل، بل ليوسف المسكين. وهو يستحقها، فهو يعاني مع زوجته التي لا تزال عذراء، وطفل ليس ابنه، على الأقل دعوه يأكل ويشرب كما يحلو له! ثم إن المغارات تُعد هكذا منذ مليون سنة، فتأتي أنت وتريد تغييرها؟

- في الحقيقة يا عمي الأمر لم يتجاوز ألفي عام.

- الأمر سيان، المغارات هكذا، وسنعدها بالطريقة نفسها نحن أيضًا، وهذا آخر القول. يكفي أننا هنا نضيع وقتنا، فهذا أمر لا يهمنا!

وهكذا أنهى العم ألدو الحوار. لأن هذا كان حقيقيًّا، فهم لا يهتمون بهذه الأشياء، بل إن هذا الأمر من بين كل الأشياء الموجودة في العالم كان هو الأبعد عنهم، وفي الواقع كان أمرًا غريبًا جدًّا رؤيتهم في الكنيسة ذلك المساء، أغرب من رؤية الجمال في الغابة والشلالات في الصحراء.

ففي أسرتي، كما في كل البلدة، يسير الأمر بهذه الطريقة: إذا كنت امرأة فأنت تهوى الأبرشية وتذهب بانتظام إلى الكنيسة، بينما الرجال لا يضعون أقدامهم فيها أبدًا ويصبحون جميعًا شيوعيين إلى أقصى حد.

وأنا، كنت أصغر بكثير من أن أكون شيئًا محددًا، وبالتالي كان يمكنني أن أجلس بهدوء، وفي الواقع كنت أتعب تعبًا مضاعفًا لأنهم كانوا يجذبونني سواء إلى تلك الناحية أم إلى الأخرى، وأصبحت أيامي تتسبب لي في دوار البحر.

ربما مررت في العصر على فناء الكنيسة، لأقطف بتلات الأزهار لأكتب بها «تعيش ماريا» في الشارع عندما تمر المسيرة. ثم يصل أحد الأعمام مصادفة ويقول للنساء إنهم ليس لديهم سوى حفيد واحد ولا يمكن المجازفة بأن يصبح قسًّا. يأخذني ويلقي بي في صندوق الشاحنة الصغيرة مع الأقمشة الثقيلة والجواريف، وفي خمس دقائق هأنذا أمام احتفال الاتحاد أعد طاولة الفودكا والسجق، حيث الفودكا هي الجرابَّا التي يصنعها الأعمام في قرية مانشيني والسجق هو بالفعل سجق، تصحبني موسيقى ثلاثة صبية من المنطقة يعزفون مرتدين بونشو وقبعة مكسيكية على رؤوسهم، تحت اسم فينتي إلِّيماني[1].

كل هذه الأشياء كانت تختلط في أيامي وفي ذهني، حيث الكنيسة والنزعة الشيوعية كانتا أمرًا واحدًا. لأن القصة هي تقريبًا نفسها، من جهة يوجد القديسون ومن الجهة الأخرى الأبطال، وفي كل مكان يوجد العديد من المثاليات والشهداء، ومستقبل ساطع ينتظرنا على بُعد خطوة. إلا أن هذا المستقبل بالنسبة للنساء يبدأ بعد

(١) الاسم مستوحى من اسم فرقة فلكلورية من أمريكا اللاتينية Inti Illimani ولكنهم بالإيطالية أضافوا حرف الـF في بداية الكلمة ليصبح معناها النسخة وليس الحقيقية.

الموت، بينما الرجال لأنهم لا صبر لديهم يرغبون فيه على الفور. وبالنسبة لي يسير الأمر على ما يرام هكذا: في حفلات الاتحاد نعمل لكي ننقذ أنفسنا هنا، وفي الكنيسة لننقذ أنفسنا في العالم الآخر، نوع من التتابع المنظم جيدًا، حيث لينين والعذراء شريكا سباق متحابان، ولهذا لا أفهم لماذا لا يحب مشجعوهم بعضهم البعض، بل يحرصون على ألا يتقابلوا أبدًا.

لم يحدث قَط، حتى ذلك المساء، بالفعل، والذي ينقص فيه شهر على عيد الميلاد، أن يكون رجال البلدة هنا بهذه الطريقة العجيبة، أسفل سقف الكنيسة. ربما يمكن أن يرى أحدهم هذا الأمر كإحدى معجزات الميلاد، مثلما في تلك الأفلام التي يكون فيها الناس أشرارًا ويكره أحدهم الآخر، ثم يعزف ملاك جرسًا صغيرًا ويتعانق الجميع ويتبادلون التهنئة وتبدأ رقائق الثلج بالتساقط وتبدو كأنها خيوط السكر. ولكن لا، هذا الوضع جديد وغير عادي، ومصدره أسباب مختلفة تمامًا، إنه خليط من المرارة والغضب وعطش شديد للانتقام.

بدأ كل شيء في العام السابق، بسبب أبرشية وسط المدينة، وهي الأكثر ثراءً حيث يتردد عليها السكان القادرون وأصحاب الفيلات الذين يأتون إلى البحر صيفًا. اقترح قس أبرشية وسط المدينة على الأبرشيات الأخرى في البلدة معرضًا صغيرًا للمغارات، كل أبرشية تبني واحدة، وهكذا يمكن للمؤمنين في المساء أن يتجولوا في الأحياء الأربعة ويشاهدوها.

قال دون سيريو:

- يجب أن تكون شيئًا بسيطًا بحق السماء، وليس مبهرجًا. فكرة بسيطة لتكريم يسوع الطفل، وطريقة لنجمع بها السكان. ما رأيكم يا إخوتي؟

وافقت أبرشيتا كارانًا وفيانا، وأيضًا أبرشيتنا فيتوريا أبوانا. طلب الأب دومنينكو مساعدة ستيليو حافظ غرفة المقدسات، والمُكرسة[1]، وراهبين من الدير. إلا أن أحدهم، وهو الأب إيميديو، في التسعين من عمره، ولم يكن أحد يعرف عمر الأب ماورو، إلا أن الأب إيميديو يسميه الشيخ. إذن المُكرسة، كان دورها هو السير خلفهما، والحافظ لم يكن في إمكانه سوى تقديم يد المساعدة، وأقصد يدًا واحدة، لأنه فقد الثانية في صباه عندما كان يعمل في مناجم الرخام.

إلا أنهم استجمعوا شجاعتهم وخلال أمسيتين أقاموا مغارتهم. شيء بلا ادعاء، بسيط، مثل الأبرشيات الأخرى في المدينة، والتي فعلت هذا جميعها فيما عدا أبرشية وسط المدينة، والسبب في الواقع هو أن دون سيريو وفريقه من البنائين كانوا قد فتحوا موقعًا للبناء في نهاية الصيف وبدأوا مشروعًا غاية في الفخامة بدعم من نقود السياح الأثرياء. وهكذا ليلة الميلاد تحولت جولة المغارات الأربع إلى خبرة مبالغة وممزقة، مثل زيارة طرق باريس الرائعة وبعدها على الفور الوجود في أكواخ العشوائيات البرازيلية، أو في تراب جمهورية بيافرا الانفصالية حيث يموت الأطفال جوعًا بدلًا من الاحتفال بعيد الميلاد. كان هذا هو الشعور بالضبط. أمام المغارة الرائعة

---

(١) امرأة تكرس حياتها، دون رهبنة، لخدمة الكنيسة.

للمركز كان الناس يتعانقون، ويقدم بعضهم الشوكولاتة لبعض، ويعثرون على توأمهم الروحي. أما أمام مغارتنا، والتي في النهاية كانت الأكثر إهمالًا، يقفون وقد وضعوا يدهم على فمهم حتى لا يلتقطوا أي مرض، وبالأحرى يمسكون جيوب بنطالهم حتى لا ينشل أحد محافظهم.

كانت إهانة بالفعل، إهانة تامة وسوداء، لتلك المبادرة الودية التي كشفت عن حقيقتها كسباق خالٍ تمامًا من الأمانة، وتحت عين الأسقف شخصيًّا، والذي دعاه فجأة دون سيريو ليكون الحكم ويقدم الجائزة الأولى.

في أبرشيتنا التزم الأسقف الصمت المطبق وكأنه الهاوية، انخفضت عيناه لتنظرا إلى الكوخ الصغير البلاستيكي والنجمة الورقية الموضوعة فوقه، الرعاة الخمسة بالإضافة إلى جنديين صغيرين لتكوين عدد، مجموعة من الأغنام أقدامها في الهواء بينما تلفها الطحالب الجافة وكأنها نباتٌ آكلٌ للحوم يبتلعها ببطء.

مشهد بؤس خانق، إلى حد أن الأب دومينيكو عندما لم يستطع تحمل صمت الأسقف قال:

- لقد أردنا تنفيذها بهذه الطريقة، عظمتك، حتى تعكس التواضع الفرنسيسكاني، وتعكس اختيار ربنا أن يولد فقيرًا بين الفقراء. لقد تركنا الطفل يسوع في واقعه، تركناه حرًّا.

أجابه الأسقف همسًا:

- لا يا أبي، لا، أنتم لم تتركوا الطفل يسوع حرًّا، لقد تركتموه وحيدًا.

ثم رفع إصبعه، وجرى مساعده نحوه ووضع على كتفيه معطفه الأسود، ومعًا رحلا بين صفين من المؤمنين يغلفهم العار، وهو يغطي بمعطفه ذلك شموع الكنيسة والأضواء على طول الطريق، في تلك الليلة التي أمست الأكثر إظلامًا في تاريخ فيتوريا أبوانا.

عندئذ، وليستعيدوا أنفسهم من ذلك الميلاد المرعب، هذا العام لا بد من رد باهر. لا بد من مغارة عملاقة، مغارة رائعة تربك دون سيريو وأصدقاءه وتغطيهم بالعار نفسه الذي ما زال يشعر به الأب دومينيكو على شكل ألم حاد في صدره. ولهذا استدعى مساعدة كل المؤمنين، وقد أبعدهم عن كل الأنشطة الأخرى مثل نظافة الكنيسة والعناية بالمهمشات الصغيرات، ومساعدة المسنين والمرضى، وجعلهم يركزون على بناء أجمل مغارة في العالم.

إلا أن مؤمني الأبرشية كانوا غير عمليين، فهم من النساء والأطفال، واثنان من الشيوخ، من الملحدين السابقين، والذين بعد حياة حافلة بالسباب يحاولون أن ينجوا برشم علامة الصليب في اللحظة الأخيرة. وكان واقع أن يكون فريق البناء في فيتوريا أبوانا ضئيلًا لهذا الحد، لا يحتمله أحد، في حي يفيض بالبنائين والكهربائيين والعمال والجنائنية: أشخاص يبنون ويعتنون عمليًّا بمغارات رائعة طوال العام، إلا أنهم بدلًا من يسوع الطفل يضعون فيها ساكني الفيلات الأثرياء.

والحديث مع أولئك الرجال كان مستحيلًا للأب دومينيكو، فهما ينتميان إلى عالمين متنافرين، إلى بُعدين مختلفين، وكأنه يرغب في التواصل مع موتى العالم الآخر. وللتواصل مع تلك الكيانات الغالية والتي لا يمكن الوصول إليها يلزم وسيط، عندئذ توجه الأب إلى زوجاتهم.

في الواقع عرفت أنا كل هذه القصة بهذه الطريقة، قبلها ببضعة أيام على طريق شارع قرية مانشيني. جمعت أمي وجدتي جوزيبينا أبي والأعمام في منتصف الطريق وحكتا لهم عن عار العام السابق، عن الفخ الذي نصبه دون سيريو وعن المنظر السيئ الذي ظهرنا به أمام الأسقف، وشرحتا لهم أن هذا العام لا بد من الرد بمغارة غاية في الجمال، عمل لا يمكن لسواهم القيام به. لا بد إذن أن يشمروا عن سواعدهم وأن يذهبوا إلى الكنيسة لبنائها.

وكانت الإجابة، الجافة والمُوحدة، وكأنهم اتفقوا عليها، إجابة أبي والأعمام في الطريق وكل الأزواج الآخرين في الشوارع الأخرى من الحي هي: لا *وألف* لا. لا يمكن.

بالنسبة للزوجات لم تكن هذه هي الإجابة الصحيحة، في الواقع قلن لهم: بل يمكن بالتأكيد. وأجبن بهدوء: معذرة، الخطأ خطأنا، لقد فسرنا ما نقصده بطريقة سيئة. إننا لا نطلب منكم ذلك، بل يجب عليكم عمل هذا الشيء فحسب، هل فهمتم؟ واستمرتا في الحكي عن المظهر البشع وعن كلمات الأسقف، وعن المغارة غير العادية التي بناها ساكنو وسط المدينة.

- ولكن، كيف استطاع سكان وسط المدينة عمل شيء ضخم بهذه الدرجة؟

- بنقود تقدمات ساكني الفيلات الأثرياء.

- حسنًا، ومن الذي بناها لهم، ساكنو الفيلات؟

سأل الأعمام، وهم يضحكون، لأنهم يعملون في فيلات هؤلاء الأثرياء وهم أناس لا يمكنهم عمل شيء، فهم يستدعونهم حتى لتغيير مصباح.

أجابت الجدة:

- لا، طلب دون سيريو المساعدة من أخيه، الذي يسكن لوكًا ويعمل كمسَّاح مدني. أتى مع مجموعة من الزملاء، من هواة المغارات.

قالت هذا، وكانت بالنسبة لي تفصيلة لا أهمية لها: بالنسبة لي كانت تهمني معرفة مهنة أولئك الرجال ومن أين أتوا؟ هذا الأمر كان يهم الآخرين، لأنهم فجأة توقفوا عن السؤال، وتوقفوا عن النظر إلى أمي وجدتي وأخذ أحدهم ينظر للآخر، وفي النهاية قالوا: آه!

فقط هذا: آه. وكان يكفي صوت هذين الحرفين لنفهم أن كل شيء قد تغير. تغيرت الأجواء بالفعل مثلما يدخل أحدهم إلى حجرة ما ويفتح النافذة. بل وكأن أحدهم يدخل ويسقط الجدار على الفور.

قال العم أديلمو من على كرسيه المتحرك:

- مسَّاحون من لوكَّا.

ثم أضاف العم ألدو وهو يجز على أسنانه:

- برجوازيون هواة مغارات.

واستمر الجميع في النظر بعضهم إلى بعض، وهم يشيرون بالإيجاب فيما بينهم. والأهم أنهم نزعوا أياديهم من جيوبهم، وهو الأمر الذي في عائلتي لم يكن يعني أمرًا جيدًا.

وفي هذا الوقت أصبح الشيء الذي لا يخصهم بالمرة، ذلك الشيء الذي كان مضادًّا لهم تمامًا، وأصبح هو التصرف الصحيح والواجب في مواجهة القسوس، وفي مواجهة سكان لوكَّا الذين كانوا الوحيدين في توسكانا الذين يحبون القسوس؛ موقفًا في مواجهة المحاسبين والمسَّاحين وكل أولئك الذين لا يجيدون شيئًا والذين يتسلون بعمل المغارات، وبالتالي يعتقدون أنفسهم مهرة في العمل اليدوي.

إذن تحول الأمر إلى صراع طبقي. وفقط من أجل هذا الغرض، وبسبب الكراهية، والمعركة الشيوعية، تجمَّع الأعمام وأبي ورجال الحي في الكنيسة في ذلك المكان، قلبهم مليء بروح ميلاد خاصة، وقال العم ألدو للأب دومينيكو، وهو يستلم الصندوق الكبير الأول للرعاة: أيها الأب، في عيد الميلاد هذا سنركل أولئك القاطنين في وسط المدينة في مؤخراتهم، حتى يندموا على أنهم وُلدوا من الأصل.

(٦)
الدعسوقة

هذه الرمال لا تكفينا، إذا أردنا صحراء جميلللة
إذا أردنا صحراء جميلة، نحتاج لمزيد من الرماااال

هكذا كان العم آراميس يغني، وبالتأكيد حاول أن يقول هذا بطريقة طبيعية بعض الوقت، إلا أنني أسمعه فقط في هذه اللحظة الغنائية، والتي بسبب تردد صداها بين جدران الكنيسة وأعمدتها وصلت إليَّ وأيقظتني.

وجدت نفسي ممددًا على الصف الأول من الأرائك الخشبية، والتي لم تُصمم للنوم، ولا حتى للجلوس براحة، بل كانت قاسية ومدببة عن قصد لينتبه المؤمنون في القداس. كنا نأتي إلى هنا كل مساء من أجل المغارة، وفي النهاية تعلمت أن أنام عليها على الرغم من ذلك، نظرًا لأنهم لا يسمحون لي بالمساعدة أبدًا، كانت صحبتي الوحيدة هي الملل، بالإضافة إلى أصوات جوقة أطفال تخرج من مكبرات الصوت، وتدخل إلى رأسي وكأنها شظايا مُدببة، وبالتالي ينطفئ، حتى لا يُجن، وينام.

لقد طلبت أيضًا من الأب دومينيكو أن يوقف تلك الموسيقى، ولكنه رفض، فهو يضعها خصوصًا من أجلنا، بمجرد أن يرانا يجري إلى غرفة المقدسات ويشغلها. وحدث هذا منذ الأمسية الأولى، فبعدما قدم الأعمام أنفسهم شعر بتوتر شديد:

- أهلًا أيها الأب. إذن، سنفكر نحن في مواد البناء. حضرتك تحتاج إلى أن تعطينا فقط الشخصيات والغنم.

قال الأب دومينيكو:

- رائع، وأيضًا السجق وجبن الماعز.

- حسن. ونبيذ.

- أجل، نبيذ ولكن بكمية معتدلة.

ثم قال العم أديلمو من على كرسيه:

- وسجائر.

- لا، لا يُسمح بالتدخين في بيت الرب.

عندئذ تناقش الرجال فيما بينهم بصوت منخفض، ضوضاء دبابير تدور وتدور في برطمان، غاضبة بعض الشيء ومضطربة بعض الشيء. ثم: حسنًا، سيكون النبيذ بلا اعتدال.

- اتفقنا، ولكن ممنوع السجائر، وممنوع السباب، واضح؟

- ماذا؟ لا أيها الأب، لا يمكن المطالبة بهذا. فهذا عمل ضخم وثقيل، وسيفلت منا بعض السباب.

- لا تتركوه يفلت.

- مستحيل. سنكون عصبيين بالفعل لأننا لا نُدخن، بعض السباب سيخرج بالتأكيد.

- وأنا لا أريد سماع أي سباب في الكنيسة.

اختتم الأب دومينيكو الحديث.

وبالتحديد لهذا، لكي لا يسمع السباب في الكنيسة، منذ الأمسية الأولى والأب يضع أغنيات الميلاد تلك، التي بمديحها الطفل يسوع والعذراء والقديس يوسف تحاول أن تبعد انتباه تلك الشخصيات المباركة عن كل الإهانات التي تُوجه إليهم كل ليلة في منزلهم.

وفي حين تشغل الإهانات الأفواه، فإن الأيادي والأذرع تعمل بكد لتبني هذه المغارة الفاخرة، والتي في كل مرة أنظر إليها أجدها أكبر في الحجم وأكثر ثراءً. قبل أن أنام في ذلك المساء كان هناك في الزاوية طابق واحد مرفوع من الخشب والطوب، إلا أنني الآن أستيقظ فأجد هضبة مليئة بأشجار الصنوبر الصغيرة المصنوعة من أغصان صنوبر متنوعة مغروسة واحدة تلو الأخرى، وأبي يقف فوق على قمة سلم يُركِّب محركًا يرفع الماء إلى أعلى تلك الهضبة ليصنع أعجوبة يمكن أن تصبح جدول مياه أو شلالًا أو أمطارًا معجزية.

ربما لم يكن هذا هو الواقع، ربما اعتقدت أنني استيقظت بينما ما زلت أحلم، لأنني نظرت حولي وبالإضافة إلى الرجال هناك، وبالإضافة إلى القديسين الذين يفحصونهم من تجاويفهم، ومن

الجهة الأخرى من الكنيسة وناحية البوابة، كانت توجد دعسوقة عملاقة، ضخمة بحجم شخص، تحييني.

انتفضت فجأة، وفتحت فمي وكنت على وشك أن أصيح بقوة: احترسوا توجد دعسوقة عملاقة! مثلما يحدث في الأفلام الجميلة جدًّا التي يكون فيها انفجار ذري وتصبح الحشرات ضخمة وتبدأ في غزو يمكن أن يُكوَّن من عقارب أو دبابير أو عناكب، بل وعش غراب أيضًا، والرجال يندمون لأنهم بنوا مراكز نووية، ويكون الوقت قد فات وليس أمامهم سوى الموت.

لا توجد مراكز نووية في جهتنا، وإنما في البلدة المجاورة يوجد مكان يُدعى فارموبلانت، ولم أفهم ماذا ينتج، ولكن العام الفائت وقع حادث وتصاعد دخان أبيض نحو السماء وتحدثوا عن الأمر في نشرة الأخبار. وضعت أمي يدها في شعرها وقالت لي إنه شيء خطير ويجب أن نتجهز للأسوأ، وفي رأيي كانوا سيحبسوننا في الجراج حيث يحتفظ العم ألدو بشاحنته وسنعيش فيها لا أدري كم من الأعوام نأكل العلب ونشرب بولنا. إلا أن أمي قالت إننا لبضعة أشهر علينا أن نتخلى عن أكل السلطة الخضراء. عندئذ عاودت التنفس، وفجأة أصبحت تلك الفارموبلانت شيئًا لطيفًا، مثل أي شيء يمكنه أن يبعدني عن تناول السلطة الخضراء، والخس وكل تلك الأعشاب الصالحة فقط لأن تُنزع عن العالم.

إلا أنني أخطأت، أخطأت جدًّا، لأنه في الحقيقة كان لتلك السحابة البيضاء تأثير بشع، وها أنا أكتشفه الآن فقط، هنا في

الكنيسة، أمام تلك الدعسوقة العملاقة التي توشك على التهامنا جميعًا.

ولكن، بدلًا من أن تفتح فمها وتقفز فوقي، رفعت أحد أطرافها ولوحت به في الهواء، وكأنها تحييني. عندئذ تشجعت، وقبل أن أصرخ تقدمت بضع خطوات نحوها. ولم تكن دعسوقة. أي أنه لم يكن سوى زي الكرنفال، في داخله توجد صبية في مثل عمري تقريبًا.

على رأسها طوق بهوائيين من البلاستيك يتدليان على سحَّاب، جسدها أسود من الأمام وأحمر من الخلف بكور سوداء، ومنها تخرج قدمان ورجلان عاديان لشخص. وأيضًا من فمها خرج صوت طبيعي، ولكنه قال لي شيئًا غريبًا:

- أهلًا فابيو.

نظرت إلى الدعسوقة، وأعدت النظر إليها.

- كيف تعرفين اسمي؟

- قاله لي أصدقاؤك.

أجابت وبدت لي الإجابة أكثر غرابة، لأنني إذا كان لديَّ أصدقاء فأنا لا أعرفهم، بل إنني كنت على وشك أن أسألها من هم، وربما استطاعت أن تقدمني لهم. ولكنها أشارت خلفي بإحدى أقدامها، إلى نهاية الردهة بالقرب من المغارة، وعندئذ كدت أشرح لها، لا، إنهم ليسوا أصدقائي، إنهم أقاربي وأصدقاؤهم. ولكنني في النهاية

التزمت الصمت، لأنه في نهاية الأمر من الأفضل أن يكون لديَّ أصدقاء مسنون وغرباء بعض الشيء من ألا يكون لي أصدقاء بالمرة.

إلا أنني كان لا بد أن أقول شيئًا، فهي تقف أمامي وتنظر إليَّ برأس منحنٍ جزء منه الهوائيان المتدليان لأسفل، وابتسامة خفيفة على فمها كجرح، ولكنه غير مؤلم. عندئذ سألتها لماذا ترتدي زي الدعسوقة.

- يعجبني هكذا، أيوجد خطأ ما؟

- لا شيء، ولكنه أمر غريب.

- أهذا رأيك؟

- أجل. ليس في أثناء الكرنفال، ولكنه غريب في عيد الميلاد.

- بوه، ليس الأمر غريبًا عليَّ. فأنا أرتدي دائمًا هكذا، طوال العام، فيما عدا الكرنفال. الكرنفال هو أكثر شيء أكرهه في العالم.

وأنا أيضًا، أتفق جدًّا وبشدة. كل عام تأخذني أمي إليه على الرغم من ذلك، لأنها تقول إنني صغير ولا بد أن أذهب، وإلا عندما أكبر سألومها لأنها جعلتني أفقد ذلك، وكانت تسألني كيف أريد أن أتنكر، ولم أكن أرغب في التنكر، عندئذ كانت تختار هي وتلبسني قناع بييرو[1]، والذي بين الأقنعة الحزينة يمثل أقصى

(١) Pierrot: شخصية من شخصيات البانتومايم والكوميديا ديل آرتي الإيطالية.

درجات الحزن. شخصية شبيهة بشخصية بولشينيللا[1]، لكنه مكتئب أكثر منه، يرتدي زيًّا أبيض أشبه بالبيجاما وقبعة نوم على رأسه، حتى وجهه مرسوم بالأبيض، وعليه دمعة سوداء أسفل عينه، كانت أمي تقضي نصف ساعة ترسمها لي على خدي، كبيرة ودقيقة، وكانت في المجمل لا فائدة منها، لأنني كنت أبكي بالفعل طوال تلك الفترة.

الخلاصة، كان الكرنفال يتسبب في القرف لي أنا أيضًا، وقلت هذا للدعسوقة. بعد هذا لم يخطر على بالي شيء آخر لأنني كنت قد استيقظت لتوِّي، والاستيقاظ في حد ذاته أمر عجيب، والاستيقاظ داخل كنيسة أمر أكثر عجبًا. ثم التحدث مع أنثى بخلاف أمي أو جدتي كان أمرًا جديدًا. كانت الإناث مختلفات عنا، من البداية، وكلما تقدمنا للأمام تباعدت بيننا المسافات، في الأشياء التي يفعلنها، أو يقلنها، وكيف يرتدين ملابسهن، وكل تلك الأشياء. كنت أعرف كيف أشعل النار بعصا وخيط، كنت أعرف صيد الضفادع بخيط صوفي، كنت أعرف كل الطيور والأسماك والسحالي والسراعيف، وكنت أعرف أيضًا عن الدعاسيق. ولكنها لم تكن دعسوقة، كانت ترتدي زي الدعسوقة وبالداخل أنثى، وكانت تحدق فيَّ بعينَي أنثى، ولذلك لم تكن لدي أي فكرة عما يجب قوله، وماذا أسأل، لا شيء على الإطلاق.

---

(١) Pulcinella: شخصية من شخصيات الكوميديا ديل آرتي، تعود إلى القرن الثامن عشر.

وفي النهاية قالت هي:

- على كل حال، تشرفنا، اسمي مارتينا.

هذا إذن! بالفعل كان هذا سيكون سؤالًا جميلًا: ما اسمك؟ خسارة أنه حُرق الآن، وعندئذ، وفقط لكي أقول شيئًا بعلامة استفهام في نهايته سألتها: فعلًا؟

- أجل، بالفعل. لماذا، هل يبدو لك هذا غريبًا أيضًا؟

- لا، لا، بالعكس، إنه اسم جميل. ولكنني كنت أعتقد... بوه، كنت أعتقد أن اسمك دعسوقة.

- أجل، بالتأكيد، وُلدت وسألت أمي ماذا يمكن أن أسمي تلك الطفلة؟ أجل أجل، لنسميها دعسوقة.

فكرت قليلًا، وبدا الأمر غريبًا، أجل، كل يوم يفعل الكبار أشياء أكثر غرابة. قلت لها هذا، وضحكت مارتينا. وضحكت أنا أيضًا، وهدأت للحظة، وعندئذ خطر ببالي شيء علَّمه لي العم آراميس، في إحدى المرات التي كنا نبحث فيها عن الحشرات لنطعمها للعصافير المغردة التي يحفظها في قفص في منزله، كنت قد عثرت على دعسوقة، وشرح لي أنها لا تصلح لأن الدعاسيق سامة.

قلت هذا لمارتينا وقالت هي: ماذا؟

- أجل، أجل، ولهذا هي ملونة كثيرًا على ظهرها، لتقول للطيور: احترسي، أنتِ ترينني جيدًا بين الأعشاب، ولكن إذا أكلتِني، ضعتِ.

وخطر لي أنني لا أرى ذلك اللون القوي على ظهرها جيدًا، وإذا كنت طائرًا ربما آكلها وأموت على الفور. والعم آراميس أيضًا، ومثله الأعمام الآخرون. لا أحد منا يفهم الألوان جيدًا، ولا حتى يفهم النساء. كانوا أساتذة كبارًا في صيد السمك وصيد الحيوانات، وعلموني كيف أصطاد أي مخلوق يسير على الأرض أو تحت الماء أو وسط السماء، إلا أنهم لم يعلموني عن المرأة، وعلى الرغم من كثرة عددهم لم يستطع أي منهم العثور على واحدة. والنصيحة الوحيدة حول هذا الموضوع التي كانوا يعطونها لي عندما يشربون: النساء مثل السم يا فابيو، تذكر هذا جيدًا، سم! ونظرًا لأنهم كانوا يسكرون دائمًا، كانوا يقولون لي هذا دائمًا. خذ حذرك، حقيقي، ستكون نهايتك سيئة على أيديهن.

على كل حال، تخيفني النساء بعض الشيء. وتخيفني أيضًا فكرة أن ينتهي أمري كأعمامي، بكثير من النبيذ بداخلي وبلا نساء بجواري، وبكل لعنتهم على كتفيهم. في الواقع الكارثة هي تلك بالفعل؛ إذا فكرت جيدًا في الأمر، فكل شيء يخيف بعض الشيء. ربما إذا كنا أذكياء للحد الذي به نفكر جيدًا في كل شيء، لعرفنا على الفور العيوب والنتائج السيئة لكل شيء، ولن نفعل أي شيء على الإطلاق، وسينتهي العالم عند هذا الحد. ربما بالقنبلة النووية أو بحوادث في الفارموبلانت. لا، بل سينتهي العالم بالتحديد في ذلك اليوم، سينطفئ إلى الأبد من فرط الذكاء.

من حسن الحظ أنني لا أتمتع إلا بقليل من الذكاء بالفعل.

- فيم تفكر؟

سألتني الدعسوقة، لأنني كنت أبدو كالأحمق، وكنت أشعر بذلك حتى في عدم وجود مرآة.

- أنا؟ لا أفكر في شيء أبدًا.

- بلى، لديك العديد من الأفكار، وأراها في عينيك، ما هي؟

في الواقع، كانت على حق. كنت أرى: عقارب عملاقة، عناكب، سمومًا، لعنات، قنابل نووية، نهاية العالم. عندئذ أجبت: لا شيء.

- حسنًا. على كل حال، لم أكن أعرف موضوع السم هذا، ما أعرفه أن الدعاسيق تجلب الحظ.

قلت على الفور:

- أجل، هذا حقيقي، فقط تلك التي لها سبع كرات على ظهرها، الأخرى لا.

أُقسم، قلت هذا بالضبط، وبدا لي أنني قلت شيئًا مثيرًا. لأنني كنت أحمق ومجنونًا مثل أعمامي. وفي الواقع هذه القصة أيضًا الخاصة بالكرات السبع حكاها لي العم آراميس، وكانت تأتي من أهل بابل. بالنسبة إليهم كواكب الكون سبعة، ولذلك فالدعاسيق ذات الكرات السبع تجلب الحظ. ومن يدري كيف عرف آراميس هذا، أو إذا كان قاله لي وهو ثمل، كان الشيء الوحيد الواضح هو أنني من الأفضل ألا أقول هذا لمارتينا. لأنه من نظرتها، بدا واضحًا، حتى وإن كانت ترتدي هذا الزي في كل الأيام، أنها لا تعرف عدد الكرات الموجودة

على ظهرها. عضت شفتها السفلى، والتفتت فجأة وأعطتني ظهرها، وأخذت أنا أحصي بصوت مرتفع، بعصبية تكاد توقف أنفاسي.

- واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ست، سبع! عددها سبعة!

قلت هذا، بل صحت به، بينما الرجال منهمكون في دق شيء ما ولم يسمعوني.

التفتت مارتينا بقفزة، ورفعت رجلها التي للدعسوقة إلى السماء وصاحت «يعيش!». ثم قالت بصوت منخفض: إذن هل أجلب الحظ؟

أومأت برأسي أي نعم، وقالت هي:

- إذن أرأيت يا فابيو أنني لست سامة؟

وتوقفت أنا عن الإيماء بنعم، ولم أفعل شيئًا. لأنه في الحقيقة، الدعاسيق كلها سامة، سواء تلك التي تجلب الحظ أم لا. على الأقل تلك الحماقة استطعت أن أحتفظ بها لنفسي، وابتسمت فقط، وهي أيضًا، وكانت ابتسامتها تعجبني. بطريقة غريبة، جديدة، كل شيء لا بد من فهمه، ولكنها كانت تعجبني جدًّا. ولم يكن يعجبني أن أرى أن الدعسوقة الآن تودعني، لأنها ذاهبة نحو البوابة.

- هل ستذهبين؟

سألتها، وأردت أن أجيب نفسي فقط بلا. إنما الإجابات عن الأسئلة المهمة بها ذلك العيب الخطير؛ لا يمكن أن تمنحها لنفسك

كيفما أردت، يمكنك فقط أن تمكث وأن تسمع وأن تستعد لأن تشعر بالألم.

في الواقع قالت مارتينا أجل، الوقت متأخر ولا بد أن تمر على مقر القس لتأخذ أمها وتذهب إلى المنزل.

لوحت بكلتا يديها ورحلت، ولكني توقفت بعدها، نصفي في الداخل ونصفي الآخر في الخارج، مع ظلام الكنيسة الذي يتقابل مع برد الليل.

- آه، اسمع، سأقول لك هذا على الفور وإلا سيقوله لك أحدهم. أنا بلا أب.

أجبت:

- آه، يؤسفني هذا.

- لماذا يؤسفك؟

- لا أعرف. أعتقد أنه لو مات، يؤسفني هذا.

- لا لم يمت، لا يوجد فحسب. لا أعرفه حتى. هل تعرفه أنت؟

- لا أعلم، ولكنني لا أعتقد، فأنا أعرف القليل من الناس. ما اسمه؟

- ولكنني لا أتحدث عن أبي، أتحدث عن أبيك! هل لديك أب؟

- إيه، لن تتخيلي، لديَّ نحو عشرة.

- ماذا؟

- أجل، بين الآباء والأجداد والأعمام.

- آه، فهمت. أما أنا فليس لدي ولا واحد، هل هذه مشكلة؟

- التزمت أنا الصمت.

- لماذا لا تجيب؟ إنها مشكلة، أليس كذلك؟ إذا كانت مشكلة يمكنك أن تخبرني بهذا.

- لا.

- آه، لا؟ إذن لماذا لم تكن تجيب؟

- معذرة، كنت أفكر كيف يمكن أن تكون مشكلة، ولم يحضر إلى ذهني أي شيء.

قلت هذا بجدية، وضحكت مارتينا. في البداية كانت جادة هي أيضًا، ولكن فمها أخذ يرتعش أكثر ثم انفجرت في الضحك. وقالت:

- أتعرف شيئًا يا فابيو؟ إنك لطيف. غريب أنه ليس لديك أصدقاء.

وكنت أريد أن أجيبها بأنني على العكس، لدي أصدقاء، بل لدي العديد من الأصدقاء وأنهم جميعًا يرونني لطيفًا. إلا أن هذا لم يكن حقيقيًّا، واختفت مارتينا فيها وراء البوابة، ثم إن الكذبات في الكنيسة شيء سيئ، والصياح بها أسوأ.

إذن صمت، وأخذت أنظر إليها وهي تجري مبتعدة، وكانت آخر ما يلمع في الخارج في خليط أضواء الميلاد هي الكرات السوداء لظهر الدعسوقة. سبع كرات رائعة.

أخذت أحدق فيها حتى اختفت، ثم التفت ولكنها ظلت في عينَي، فوق كل شيء كنت أجده في الكنيسة، مثل ذكرى صوتها الذي تعالى على أصوات الأطفال المسجلة التي تغني الآن «ميلاد أبيض». وهي أغنية جميلة، كنت سأسمعها عن طيب خاطر. وأصبح كل شيء حولي هكذا موسيقى ناعمة ورقيقة بل وعذبة أيضًا.

استمر هذا الوضع للحظة، ثم قُتلت تلك العذوبة بركلات صرخة خشنة مليئة بالمخاط والتبغ، والتي أصابتني من ركن الرجال هناك:

- لا بد أن تنام معها!

وبعدها على الفور، في طوفان، توالت أصوات أخرى تتعالى فيما بينها وتتصارع، ليتصاعد كل منها فوق الآخر.

- لتجعلها تشعر بقوته!

- أَعطيها العصا!

- ضعه في يدها!

وهكذا، العديد من النصائح، المختلفة ولكنها جميعًا متشابهة، صاحوا بها حتى ملأت الكنيسة حتى بلغت سقفها، بل كان يمكنها أن تصعد حتى أذن الرب. وخوفي كان من أن تعثر تلك الصرخات

على البوابة وتخرج لتصل إلى مارتينا، والتي ربما بفضل الهوائي فوق رأسها يمكن أن يكون لديها سمع فائق للطبيعة.

عندئذ عدت إليهم ركضًا، وقلت لهم أن يخفضوا صوتهم، بينما عينَاي مزروعتان في رخام الأرضية المرسومة في مربعات، ولكنها في لحظة ما أصبحت مستطيلًا ضخمًا أبيض اللون، وعليه صليب واسم، حيث دُفن في أسفل راهب مسن كان يرعى الكنيسة منذ وقت بعيد. وكنت أرغب في أن أسأل ذلك الراهب إذا كان لديه مكان، عن إمكانية أن أدفن نفسي بجواره.

صرخ العم ألدو: أوه! ما اسم خطيبتك؟

- ليست خطيبتي، بل إنني لا أعرفها!

تنهد العم آتوس، بنظرة في الهواء وهو يضم مفتاح إنجليزي إلى صدره:

- آه، يا لروعة الحب! شديد العذوبة، وغلاب.

- أي حب، يا عمي أنا لا أعرفها!

ثم تدخل أديلمو:

- لا؟ إذن هل تعرف ماذا يجب أن تفعل في المرة القادمة؟ تمسك يدها، وتضعها بين قدميك وتقول لها: أهلًا، سعيد بمعرفتك.

وانطلقت ضحكة شديدة الثقل منهم جميعًا، مختلطة بضربات على الأكتاف. فعلوا جميعهم هذا فيما عدا أبي الذي لم يكن يفكر في

شيء سوى أن يعمل، فوق قمة السلم، حيث، على حسب معرفتي، لم يدرك أي شيء مما يحدث.

أما الآخرون فقد أخذوا يضحكون ويشيرون نحوي، ويصيحون بعبارات لا بد أن أقولها لمارتينا في المرة القادمة عندما أقابلها. وفي النهاية لم تتغير النصيحة، والتي فيها يجب أن أضع عضوي في يدها، ومن هنا سوف يحدث كل شيء من تلقاء نفسه. ستفكر الطبيعة، مثلما يدق القلب وتنتفخ الرئتان، تنتفخان بمفردهما دون حتى أن تطلبا الإذن.

لم أكن أعرف أي شيء، وتلك النصائح تربكني أكثر، فلطالما نصحوني بأن أبتعد عن الإناث، وأنهن خطيرات ومُسممات، ولكنهم الآن يريدون مني أن أقترب إلى حد أن أضع عضوي في يدها. كان أمرًا عجيبًا، وكان أمرًا مستحيلًا، والشيء الوحيد الواضح بالنسبة لي هو أنني لن أتعلم عن هذا الموضوع من أعمامي.

ولا حتى من أبي، والذي يكرس كل ملاطفاته لمواسير وصنابير باكية. في الواقع، الوحيد الخبير الكبير في العائلة هو الجد أرولاندو.

كان شديد السحر، ولم تكن جدتي تريد أن يتكلم مع النساء الأخريات لأنهن ينظرن إليه نظرة من يمارس الحب. ولذلك، وبدلًا من أن أمكث خلف الأعمام، لا بد أن أتبع خطى جدي العظيم. بالفعل هو مات، وهذه ليست مشكلة كبيرة، لأنه ربما يموت الأشخاص ولكن إذا كانت حكاياتهم جميلة تبقى حية إلى الأبد. وحكايات الجد أرولاندو كانت رائعة، ومعها توجد دروس

عظيمة للحياة. وخاصة واحدة حدثت وأنا لم أكن قد وُلدت ولا حتى أمي، بل لولا تلك القصة لما كان لي ولها وجود قَط.

وعلى الرغم من عدم وجودي وقتها فإنني أعلم القصة علم المعرفة، حكيتها مرات كثيرة جدًّا وربما أعرفها أحسن من الجد نفسه، وبمجرد التفكير في هذا أشعر بداخلي بفيضان يغلي ويصعد من حلقي، يملأ فمي ويرغب في الخروج ليدفئ العالم البارد هنا في الخارج.

ولذلك لا يكون أمامي حل مختلف، لا بد وأن أحكيها مرة أخرى.

(٧)
أنا التلفاز

مثل كل القصص ومثل كل الأشياء في الحياة تبدأ قصة جدي أرولاندو مصادفة من قصة أخرى لا دخل لها بأي شيء، أي من تلك المرة التي تعطل فيها تلفاز جدتي.

كان التلفاز الوحيد الجميل الموجود في قرية مانشيني هو التلفاز الذي تملكه هي، كبير، بل وبالألوان أيضًا، وكان من العدل أن يكون لدى الجدة لأننا كنا دائمًا نذهب لنتعشى في منزلها ولذلك كنا نستمتع به جميعًا.

لم يكن العثور عليه أمرًا سهلًا، بالنسبة إلينا، فنحن نستخدم الأشياء المصنوعة من كورتينا دي فيرو. التلفاز والراديو والثلاجات؛ كل ما يحتاج إلى أن يوضع في مقبس الكهرباء كان له أيضًا نوع غريب، كان بالنسبة إليَّ عبارة عن شخبطة، إلا أنني اكتشفت أنها كانت الحروف الأبجدية المجنونة التي كانوا يستخدمونها في تلك الأماكن. لأن الأشياء التي ينتجها السوفييت هي أفضل مائة مرة، حتى التلفازات، تلك المربعة والثقيلة جدًّا كما يجب أن تكون عليه

الأشياء الجادة، وتؤدي وظيفتها بلا تفاهات لا فائدة منها مثل جهاز التحكم عن بُعد، والذي وُلد من أجل أهل الغرب الذين حولتهم الرفاهيات الرأسمالية إلى شخصيات حمقاء وضعيفة جدًّا، لا يمكنها أن تنهض ضد مرؤوسيها ولا حتى لتنهض من على مقعدها وتغير القناة بمجهودها. أو بالتحديد تلك الصور الملونة التي تسبب الاضطراب في العيون وبالفعل لا تفيد في شيء، وخاصة في قرية كلها أشخاص مصابون بعمى الألوان.

إلا أن تلفاز جدتي كان من هذا النوع، بكل كمالياته، ربما من نفذه هم بعض قادة الجيش الأحمر ولكنه وصل عن طريق الخطأ إلينا، كنا نتجمع لرؤيته في كل الأمسيات وفي المناسبات الخاصة. مثلما الحال في شهر مايو، أثناء سباق جولة إيطاليا، وكل يوم نحتشد في الصالون بعضنا على الأريكة والبعض الآخر على السجادة، والعم أديلمو في الصف الأول على كرسيه المتحرك.

واتضح على الفور التأثير المضر للصور الملونة، وذلك في شجارات طويلة حول من يرتدي التيشيرت الأحمر في المجموعة، لأن كلًّا منا كان يراه على متسابق مختلف.

- ها هو!

- ما هذا الذي تقوله، إنه هو، هو يقفز!

- كيف هذا؟ هل ترون إنه ذلك الذي يعاني هناك في نهاية السباق؟

وفي النهاية نسأل أمي أو جدتي اللتين تدخلان إلى الصالون فتضع إحداهما إصبعًا لتشير إلى المتسابق، وكل عم يقول: أوه، هل رأيتم أنني كنت على حق؟

هذا ما كان يحدث دائمًا، مرحلة تلو الأخرى، بين هتافات التشجيع وهتافات المشاجرات. حتى ذلك السبت الحار جدًّا والذي فيه كان المتسابقون يتسلقون طريق ستيلفيو المليء بالمنحنيات، كثعبان سام يلتف حتى قمة ذلك الجبل المُدبب. كانت توجد عمليات هجوم ودفاع، ولم نفهم نحن أي شيء، حتى أمي وجدتي لم تعلما على من يجب أن تشيرا. لأن التلفاز بدأ يتجمد، وأخذت الألوان تتغير في كل لحظة وكأنها للحبار عندما يريد إخافتك وأنت في عمق البحر. عندئذ جريت نحو النافذة وناديت بقوة على أبي، الذي لم أكن أعرف أين هو، ولكن بالتأكيد بشعوره الخاص نحو الأشياء المحتاجة إلى الإصلاح لا بد وأنه يجري بالفعل نحونا لينقذنا.

وأسرع منه، بل أسرع من باقي العالم كله معًا، كان البطل العظيم فرانشيسكو موزر، الذي تهتف له كل قرية مانشيني، لأنه كان ضخمًا وقدميه مثل جذع شجرة الصنوبر، وبينما عدوه -عدونا- جوزيبي سارونّي خبيثًا جدًّا، وينتظر دائمًا اللحظة الأخيرة ليقفز خارج مجموعته ويحقق الضربة الفائزة، لم يكن موزر خبيثًا على الإطلاق، وكانت استراتيجيته الوحيدة هي الكز على أسنانه والدفع طوال الوقت حتى يخترق الجميع. مثل تلك اللحظة التي فيها حاول هجمة أخرى وفهمنا ذلك فقط من صوت المذيع، لأننا لم نعد نرى شيئًا

الآن على الشاشة وكان كل شيء متوترًا، وكأن زلزالًا يوجد على قمة ستيلفيو يخلط بين أغصان الأشجار والأجساد والدراجات. عندئذ قفز العم ألدو على التلفاز وعيناه جاحظتان، وضربه بقبضته ليُفهِمه أنه إما أن يبدأ في العمل مرة أخرى أو سيوسعه ضربًا. وكان التلفاز سوفيتيًّا وقاسيًا مثله تمامًا، وتحول الزلزال على الشاشة إلى إعصار مجنون، بينما يصرخ صوت المذيع وهو يتحدث عن اندفاعة موزر غير العادية، وعن ضخامة ذلك البطل، وعن روعة تلك الحركة على طول الطرقات وصولًا لهذه المرحلة الاستثنائية، لم يرَ أحد مثلها قَط، لم يرَ أحد مثلها قَط!

وفي المنزل لم نعد نرى أي شيء، عندئذ أعطى العم ألدو ضربتين أخريين للتلفزيون، وهذه المرة على جانبيه، ثم من جديد فوقه، ولكن أقوى، وتسبب في صوت «كراك» مثل ذلك الذي يحدث في أفلام الكرتون عندما يُكسر شيء ما. بل وشعرت به أيضًا في داخلي، وكأن عظمًا ما من عظامي قد تكسر.

وكان التلفاز هو الذي انكسر.

وبهمسه متقطعة الأنفاس ونهائية، وكأنه بالون يفقد الهواء، أصبح صامتًا وأسود اللون، ووداعًا «سباق طواف إيطاليا».

كانت دراما بالنسبة إلى القرية كلها، بالنسبة إلينا لأننا فقدنا السباق، وبالنسبة إلى أمي وجدتي بسبب المسلسلات الرومانسية، وبالأخص بالنسبة إلى أبي، والذي كان قد وصل منفعلًا جدًّا بسبب عملية التصليح الضخمة والمهمة جدًّا جدًّا تلك، وطلب منا جميعًا

أن نرحل، ومضى بقية اليوم وهو يفك التلفاز قطعة قطعة. واستمر هكذا حتى المساء، وحتى الليل. وفي الفجر عندما استدعاه عمله الحقيقي في المجاري، خرج أبي من منزل جدتي بوجه يحدق في الأرض وبيديه مغروستين في عمق جيبَي الأوفرول الجينز، وكأنه يعاقبها، ومن فمه خرجت فقط كلمتان جافتان: لا فائدة.

لأنه عثر على الجزء المعطوب، احترق جزء منه واحتفظ به أسفل ذراعه كغريق يتعلق في جزء خشبي حتى لا يُفقد في البحر اللا نهائي، وقطعة الغيار هذه لا يمكن العثور عليها في متجر السيدة فاليريا التي تبيع الراديو والمصابيح. بل لا توجد وسيلة للعثور عليها في إيطاليا كلها، لا بد من طلبها من زملاء فيها وراء كورتينا دي فيرُّو. وليس الأمر بهذه السهولة لأن أولئك الأشخاص مهرة في أن يغرقوك بما يريدون، بل ويرسلونه إليك من الحديد، وثقيل جدًّا، بينما ما تريده أنت، لا يهمهم كثيرًا.

في الوقت نفسه ذهبنا لنشاهد طواف إيطاليا في بار الغزالة، حيث أصدقاء الأعمام أيضًا يشجعون موزر ويغرقون ساروني بالسباب. المشكلة الحقيقية كانت في جدتي، وهي جالسة في المنزل دون حلقاتها المسلسلة. أخذت تتجول في الحجرات وتنظر إلى آلاف الصور الخاصة بجدي، والتي خلف كل منها حكاية إن لم تكن عشرات أو آلاف الحكايات، وعندما أذهب لأزورها كانت تحكيها لي كلها.

كانت حكايات رائعة وغريبة، لأن جدي لم يكن يشبه إخوته

على الإطلاق. كان أنيقًا ومهذبًا يتمتع بالجاذبية، كان يمتهن الحلاقة، وكهواية في المنزل يرسم، يعاني من عمى الألوان مثلنا ولكنه يخمن الألوان كلها، فبينما يلون بريشته الشاطئ والبحر، كانت ضربات الفرشاة جاهزة باللون الأزرق.

حكت لي جدتي عن تلك المرة التي حضر ملك بلجيكا وملكتها إلى البلدة، وهنا بالتحديد وُلدت ابنتهما باولا، والتي ستصبح يومًا ما ملكة. رأى جدي صورة الطفلة في الصحيفة، ورسم لها بورتريهًا غاية في الجمال وأخذه إلى الجراند هوتيل، ولكنهما لم يستقبلاه، بل وأرسلا إليه عن طريق الوصيف أنهما ليسا مهتمين بابتياعه. وحزن الجد، لأنه لم يكن يرغب في بيعه بل إهدائه لهما. عاد إلى المنزل باللوحة المغلفة تحت إبطه، وفمه ملتوٍ من الاستياء وحتى الشارب الرفيع فوقه كان غاية في الحزن، قال لجدتي فحزنت بدورها.

- لا يمكنني أن أصدق هذا يا أرولاندو، إن النبلاء أشخاص أشرار بالفعل.

وخلع جدي سترته الأفضل التي كان يرتديها، والقبعة الجيدة، ثم أجابها:

- لا يا جوزيبينا، الخطأ ليس خطأهم، إنهم فقط ليسوا أذكياء لأنهم يتزوجون أبناء عمومتهم.

هكذا قال الجد أرولاندو، جدي العظيم، الذي كان يعرف دائمًا ماذا يقول وماذا يفعل. وأنا عندما كنت أسمع تلك القصص

كنت أعشقه أكثر، تتسارع أنفاسي من الانفعال ومعها استيائي لأنه مات عندما كان عمري خمسة أعوام وأتذكره قليلًا، وهذا القليل ربما ليس إلا مجرد أحلام عن بعض الحكايات التي سمعتها. أردت أن يكون معي هنا، أن نمضي وقتًا أطول معًا، وهذا ما أرادته جدتي أيضًا، والتي كانت تتجول بين كل الحجرات بلا تلفاز، وتدمر نفسها، بعض الوقت لأنها تفكر فيه والبعض الآخر لأنها أضاعت العديد من حلقات مسلسلها الرومانسي المفضل الذي كان عنوانه «حتى الأغنياء يبكون».

كانت قد توقفت في اللحظة التي فيها فقدت السيدة ماريانا وعيها بين ذراعي رجل، ورآها زوجها واعتقد أنهما عاشقان، لذلك من حين لآخر كانت الجدة تأتي لتشاهده عندنا أبيض وأسود. ثم فجأة تنهض وتقول إنها لا بد وأن تفعل بعض الأشياء في المنزل وكان من الواضح أنها لا تستطيع المكوث. ربما لأنها تفتقد بشدة الصور الملونة، أو ربما لأنها تفتقد جدي، وحتى إذا لم تجده عند عودتها إلى منزلها، إلا أنه موجود بشكل أو بآخر، أو ربما لا، لا أعلم.

ولكنني أعلم أن كل شيء قد تغير في إحدى الأمسيات، بينما كنا عندها نتناول العشاء، وكانت مناسبة خاصة، لأنها كانت ذكرى عيد زواجها هي وجدي، وبمجرد أن انتهينا من الحلوى فتحنا الشمبانيا وشربنا ونحن نتوجه بالنخب للمقعد الشاغر والمعد خصوصًا له. ثم، كما هي العادة، نظرنا نحو طاولة التلفاز، ولكنها كانت شاغرة بدورها. عندئذ، ومن لا شيء، جاءت جدتي نحوي وجذبتني إلى

أعلى وأجلستني فوق الطاولة، وذهبت إلى الأريكة واستراحت في جلستها، دون حتى أن تنهي إزالة ما على المائدة، وقالت:

- هيا يا فابيو، احكِ لنا شيئًا.

- ماذا؟

- احكِ لنا قصة، هيا، هذا المساء أنت التلفاز.

وأنا لم أفهم ماذا تريد، وكيف اختارتني أنا. ربما كان أعمامي ثقيلي الحجم بشدة لتمسكهم من أذرعهم وبالتأكيد كانوا سيحطمون الطاولة. إلا أن الفكرة أعجبت الجميع على الفور، حتى أبي وأمي، ورفع العم آتوس ذراعه وصاح:

- أجل، شيء غاية في الجمال! يا لها من فكرة يا جوزيبينا، كم تسعدني هذه الفكرة، وكم تعجبني!

حقيقي أنه كان سعيدًا دائمًا، وأيضًا قال الآخرون أجل، وأداروا مقاعدهم نحوي، مستعدين للعرض.

- ماذا أحكي لكم؟ ليست لدي أي حكايات.

- كيف لا، إننا نحكيها لك دائمًا. احكِ لنا شيئًا يخصنا، شيئًا جميلًا.

- أي شيء، أنا...

قال العم أديلمو من فوق كرسيه المتحرك:

- هيا تحرك! احكِ لنا قصة حب جميلة! يا للزهق!

ثم ضرب بقبضته على يد الكرسي، كما فعل العم ألدو الذي قتل التلفاز.

عندئذ أخذت أنظر إليهم ثم نظرت بداخلي، باحثًا عن القصة المناسبة. لأنني كنت أفكر في جدي، وأيضًا بسبب أن الطلب هو قصة حب، وعثرت على تلك التي كانت تعجبني جدًّا، نظرًا لأنها جميلة جدًّا وفي الوقت نفسه تمنحني الأمل لأن أصبح مثله وأتجنب لعنة أعمامي، لأنهم لم يكونوا يعلمون شيئًا عن الحب وكانوا مهرة فقط في ضرب كل شيء بقبضتهم. قلت:

- حسنًا، عندئذ سأحاول أن أحكي عن تلك المرة التي خطب فيها جدي جدتي.

وحدقت عينا جدتي جوزيبينا إلى أسفل نحو البساط بينما انفجرت ابتسامة على فمها، وتظاهرت بالسعال لتخفيها، ولكنها استمرت مبتسمة بينما تجيب:

- لا، لا أيها الأحمق.

وكان واضحًا أن الأمر يعجبها كثيرًا. ويعجب أعمامي أيضًا وأمي أكثر، بل أبي أيضًا أومأ بالإيجاب من زاوية الصالة حيث مكث يصلح بروازًا.

عندئذ تنهدت، واعتدلت بيدي على الطاولة، وأغمضت عينَي، وأخذت قدماي تتأرجحان بحرية في الهواء ورأسي يعود بالزمن إلى الوراء، حيث ينتظرني الجد أورلاندو، شابًّا مبتسمًا وأنيقًا.

كان في طريقه ليدخل المتجر حيث كانت جدتي تعمل، حيث يبيعوا الأطباق والأكواب والبطاقات البريدية والطوابع، والسجائر والصابون، أي تقريبًا كل شيء. كان عمرها ستة عشر عامًا وكانت جميلة وخجولة جدًّا، وعندما كانوا يسألونها عن أي شيء تعثر عليه فورًا على الرفوف، دون أن تنظر قَط إلى العميل في عينيه. خاصة هذا العميل، والذي كان يعمل حلاقًا في الشارع المجاور، وكان دائمًا مصفف الشعر ولديه شارب صغير ودقيق فوق شفته ينطوي مع فمه بينما يسأل عن أي شيء بنطق إيطالي يشبه نطق ممثلي السينما، دون حتى أن تكون فيه قطعة صغيرة من اللهجة بداخله.

الخلاصة، كانت جدتي معجبة جدًّا بهذا الرجل، وكان يعجبها أنه كل يوم يأتي إليها ليبتاع شيئًا لا يحتاج إليه.

قبل ذلك كانت تعمل وصيفة في أحد المنازل، وكانت مستريحة هناك، حتى في صباح أحد الأيام وبينما تدعك بلاط الحمام، وضع صاحب البيت يده على مؤخرتها لدفعها نحو الحوض، ركلته هي بين قدميه، وودعت العمل. عندئذ بدأت العمل هنا في ذلك المتجر، ولم تعد قَط إلى تلك الفيلا الضخمة جدًّا، بل ولم تحكِ هذا الشيء لأحد على الإطلاق. فقط إلى الجد، عندما كانا مخطوبين، وعانقها هو وقال لها ألا تفكر أبدًا في هذا الأمر، لأن أفضل انتقام هو الابتسام، والنسيان. وفي تلك الليلة نفسها اختفت سيارة ذلك السيد في ظروف غامضة من ساحة الفيلا، وعبرت من البوابة التي كانت قد سقطت بطريقة غامضة أرضًا قبلها بلحظة، وعثروا عليها

في صباح اليوم التالي مقلوبة في ميدان البلدة. لم يكن للجد والجدة دخل في هذا، أو على الأقل لا دخل لهما حسب ما قالته الشرطة، ولذلك لا يهمنا. ما يهمنا فقط أنه منذ البداية كان جدي يذهب إلى المتجر كل يوم ليشتري أشياء عشوائية، وكانت هي تحدق في طاولة المتجر وتعطيها له، يحيي كل منهما الآخر: وداعًا وإلى اللقاء.

إلا أنه، في إحدى الأمسيات الحارة بالفعل في أبريل، وصل الجد واقترب من منضدة البيع وسألها: آنسة، سامحيني، هل يمكن أن أطلب من حضرتك خدمة شخصية؟

وأجابت هي بالهواء القليل المتبقي في صدرها بأنه يمكنه هذا.

- في الحقيقة، يلزمني ورق كتابة خطابات، وظرف.

- طبعًا، بالتأكيد.

وانحنت لتأخذه من أسفل المنضدة. وأخرجت خمسة أو ستة أنواع مختلفة، بالورود والعصافير وخطوط رفيعة كلها دقيقة، وأيضًا ورقًا أبيض.

- أشكرك على ذوقك الشديد. ولكن، إذا لم أكن متجاوزًا للحدود، هل يمكنني أن أسألك نصيحة، من وجهة نظرك النسائية. أيها أفضل في رأيك؟

- مم، يُعتمد.

- يُعتمد؟

- أجل. إذا كان خطاب عمل، أم صداقة، أو للأسف مواساة.

استطاعت جدتي أن تقول، وقلبها يدق فوق كل كلمة فيشوهها بعض الشيء.

- آه، لا لا، لحسن الحظ، المناسبة سعيدة جدًّا.

يبتسم الجد وتبتسم أيضًا الجدة. ولكن ابتسامتها تموت فجأة عندما يستمر هو:

- أجل، أريد أن أكتب خطاب حب لخطيبتي.

قال هذا، كلمات مثل القنبلة. كل منها تُحطم جزء من عالم بأكمله، ولم يبق موقع لتضع فيه الجدة قدميها، ولم يعرف قلبها أين يجب أن يدق، ظل معلقًا هناك لثانية قبل أن يسقط هو أيضًا في الفراغ، ويتحطم على أرضية الواقع شديدة القسوة.

- إذن يا آنسة، يلزمني رأي نسائي. في رأي حضرتك أي ورقة تعجبك أكثر؟

تظل الجدة ساكنة وصامتة، تحاول الابتلاع، وبمجهود يكاد يقسمها إلى نصفين، تحرك أصابعها وتمسك بأوراق الخطابات، تفحصها وفي النهاية تختار ذلك الذي عليه عصافير. كان خشنًا وقديمًا، ورطبًا والعصافير مطبوعة عليه بطريقة سيئة ومنتفخة وكأنها عصافير مريضة تفقد ريشها، ولم تكن فقط أقبح أوراق في المتجر، بل كان يصعب العثور في باقي الكون على ورق أكثر قبحًا: مناسبة جدًّا لفأرة المجاري تلك التي ستستلم خطاب الحب هذا.

اشترى أيضًا الجد المظروف وطابع البريد، بل وشكرها على لطفها:

- جيد جدًّا يا آنسة، والآن اسمحي لي أن أذهب لأكتب الخطاب.

لم تُجبه، فقط هزة معوجة من كتفيها، قصيرة وبلا معنى، في انتظار أن يرحل ويتركها بين آلاف المنتجات غير المفيدة، والكثير جدًّا من الحزن.

إلا أنه لا يرحل، يقف أمامها مباشرة بتلك البدلة الأنيقة والشارب المرفوع لأعلى، وعلى فمه ابتسامة لا تنتهي بل تزداد. تريد الجدة أن تركز عينيها على الطاولة، ترفعهما بالكاد لتسأل: هل يلزم أي شيء آخر؟ ثم تغرسهما من جديد في الخشب القاسي الذي يفصل بينهما.

يجيب الجد:

- حسنًا، بالتأكيد يلزمني شيء آخر.

- أحتاج إلى عنوانك يا آنسة، وإلا كيف يمكن أن أرسل هذا الخطاب؟

هكذا قال لها. عندئذ لم تطلب عينا جدتي الإذن لتتحركا وتثبتا فوقه، وألقى القلب بنفسه من منحدر النفس بقوة شديدة حتى بدت الأشياء في المتجر ترتعش وتكاد تسقط من على الرفوف مع كل دقة. وحتى المخ، ذلك الجزء الأكثر حماقة منا والذي يصل

دائمًا متأخرًا في فهمه للأشياء، أدرك في النهاية تلك الحقيقة الرائعة والتي لا يمكن تصديقها، بينما الجدة تكاد تقفز من فوق الطاولة وتعانق الجد. ولكنهم علموها أن بعض الأشياء لا يصح عملها، حتى إذا كان كل شيء يصرخ بأن نفعلها، وربما يدفعك إليها أيضًا ويجذبك من جلدك. عندئذ وضعت فقط يديها على الخشب لتتمكن من الصمود بينما ساقاها ترتعشان، ومكثت هكذا حتى تتمكن من أن تمسك السعادة. ولكن من الواضح أنها عند لحظة ما تحركت، أو ربما تحرك هو لكليهما، لأنها في النهاية أصبحت هي الجدة وهو الجد، ونحن هنا الآن أحياء نحكي ما حدث.

كانت هذه هي المرة الأولى التي حكيتها في تلك الأمسية، في صالة منزل جدتي، على طاولة التلفاز وقدماي تتأرجحان في الهواء من الانفعال.

في البداية لم يكن الأمر بهذه السهولة:

- إذن، تبدأ القصة بأن الجد دخل المتجر وطلب ورق الخطابات.

قالت الجدة:

- أوه، مهلًا. ليس بهذه السرعة، أتعلم كم مرة أتى ليشتري أشياء أخرى قبل الورق؟

- آه، أجل، معذرة. كان الجد بالفعل يذهب إلى المتجر منذ فترة، كان أنيقًا وكانت الجدة خجولة، في ذلك اليوم طلب منها ورقًا و...

لوت أمي فمها وقالت:

- لا، لا. بهذه الطريقة الحكاية جافة جدًّا، وليس بها انفعال، لم أتأثر على الإطلاق.

ثم قال العم ألدو:

- يا صغيري، أوه، أين الانفعال والرومانسية، أين ذهبت الرومانسية؟

عندئذ أغلقت عينَي، بل وضغطت عليهما، وبدأت في وصف شارب الجد، والحذاء اللامع، والجيليه المربعات الجميل جدًّا الذي كان يرتديه، حتى وإن لم يكن لديه في الحقيقة، أو لو كان امتلكه فالأمر بمحض المصادفة، فلقد اخترعته أنا في تلك اللحظة، مثل زهرة المارغريت التي كان يحفظها في جيبه نظرًا لأنها الزهرة المفضلة عند جدتي.

عندئذ وافقت هي، وأمي أيضًا. أما الأعمام فكانوا يتابعون القصة باهتمام أقل، عندئذ أخذت أحكي عن تلك الليلة التي انقلبت فيها سيارة السيد الغني بغموض في الميدان، عندئذ اندمجوا هم أيضًا داخل ذلك السر. وأخذت أضيف تفاصيل عن كيف دخلوا إلى ساحة الفيلا، وقفز فوقهم عشرة كلاب حراسة ألمانية، والعم ألدو أسقط أحدها بلكمة وأخذ الأعمام الآخرون الأغصان وبدأوا يحاربون بها، وقفز أحد الكلاب على ظهر العم آتوس وعقره، وفي الواقع ما زال يوجد أثر جرح طويل ومعوج على ذراع العم.

وأخذوا هم يستمعون إليَّ ويقولون أجل بقوة، وبقوة أكثر، وأقسم إنهم كانوا يشعرون بتوتر لمعرفة كيف ستنتهي، وإذا كانوا قد نجوا في النهاية أم لا. واختتمت الحكاية بأن من أسقط الوحش الأخير كان العم أديلمو، والذي في تلك الحقبة لم يكن على كرسي متحرك بل هزمه بسلسلة من الركلات الطائرة. والعم أديلمو يقول: «أجل، بالضبط، هذا ما حدث بالتحديد!». ومع كل ركلة أحكيها يضرب بقبضته على ساقه، ثم قبض على ذراعَي الكرسي بقوة شديدة حتى إنني أقسم إنه كاد يقف على قدميه ويجري ليعانقني.

وحتى إن لم يكن قد فعل هذا، فقد حدث أمر عجيب آخر، فقد توقف أبي لوهلة عن العمل في الإطار، صرخ: «عظيم يا أديلمو، إنك عظيم!». وأومأ هو موافقًا، وكررها الجميع، ووضع العم آتوس يده على قلبه وقال: «يا إلهي، شيء مؤثر جدًّا، رائع، يا إلهي، كم هي رائعة هذه القصة! يا عذراء، يا لنا من عائلة رائعة!».

وتأثرت كثيرًا أنا أيضًا بينما أكمل الحكاية، لأنني فكرت في رقي الجد، وشهامته، وكيف يمكنه أن يفعل الأشياء، وكيف كان سيصبح ماهرًا في مكاني في تلك الأمسية في الكنيسة عندما تعرفت على الدعسوقة، وفي الكلمات الرائعة التي كان سيقولها لها، ولا أستطيع أنا حتى أن أتخيلها، أنا الذي حدثتها عن الحشرات السامة والكرات السوداء وسوء الحظ.

لم يكن الخطأ خطئي، المشكلة هي أن الجد رحل وأنا صغير جدًّا فلم يمكن لي التعلم، والآن وفي حين يمكنني هذا، مات هو. وليس

هذا عدلًا، هذا الأمر الخاص بموت الأشخاص. ولماذا؟ ما معنى هذا؟ في رأيي لا حاجة إلى هذا، لا بد أن يتوقف الناس عن الموت، وأن يمكثوا هنا للأبد معنا.

في كل الأحوال ظلت معي القصص العظيمة عن جدي وهو حي، طريقته وأسلوبه. وفكرة خطاب الحب تلك فكرة فعلًا رائعة. فقط لكي أحكيها لها، لم أكن أعرف أي الأجزاء حقيقية، وأيها أضفتها أنا لأحمس الجمهور في الصالون، والذي في كل مرة كان ينفعل كنت أنفعل أنا أيضًا ومنذ تلك الأمسية بدأوا جميعًا يقصون عليَّ مغامراتهم ومغامرات آلاف الأقارب الراحلين، لتتكون عندي ذخيرة لا تنضب.

وهكذا من على طاولة التلفاز، كان يمكنني أن أحكي إلى الأبد المغامرات الرائعة لعائلتي الرائعة. والتي ربما بين الناس تكون فوضوية وصاخبة أكثر مما ينبغي، ومليئة بالمجانين. ولكن إن لم يكن العالم كله موجودًا، وإذا لم يكن الناس ينظرون إلينا من الخارج ويهزون رؤوسهم، كنت سأراها عائلة أسطورية بالفعل وكلها عجائب.

مثل تلك المرة التي وصلت فيها إلى أرتورو، أبي جدي، نقود المعاش، وأرسل خطابًا يقول فيه إنه شاكر، فهو لا يريدها، حيث إنه يزرع الأرض ولديه ما يأكله، وإن تلك النقود تحتاج إليها الدولة أكثر منه. أو تلك المرة التي ذهب فيها العم أديلمو إلى الأرجنتين مع الشركة التي تبني خطوط السكك الحديدية، والطرق في بوينس آيرس كانت واسعة جدًّا، بحيث تبدأ في عبورها ثم تجد المطاعم في

منتصف الطريق، والفنادق، وهكذا تأكل وتنام قليلًا ثم تنتهي من عبورها في صباح اليوم التالي بعد أن تستريح. أو عن ذلك المساء الذي فيه كانت أمي قد حصلت لتوِّها على رخصة القيادة، وتوقفت لتملأ خزان البنزين، وفي محطة بيبي الملقب بتناليا، وكان قد رآها وهي تلد، وضع لها بيبي البنزين، وأراها كيف يجب أن تفعل ذلك، وعلمها جيدًا وحدثها عن أهمية أن تفعل ذلك بمفردها، وهي شكرته ثم ذهبت إلى المنزل، ولكنها بعد ذلك اكتشفت أن بيبي تناليا كان قد مات في ذلك اليوم نفسه بعد الغداء بسكتة قلبية، ورحل، وأن شبحًا هو من ملأ لها للتوِّ خزان البنزين.

قصص مذهلة تلقى فوقي كالشلال، تتلوى فيما بينها وتختلط وتصبح قصصًا أخرى، في كل مساء أكثر ثراء وعملاقة أكثر، تملأ الصالون وقلوبنا وتغطي كل ما تبقى. والتلفاز يقبع، على الأرض، في انتظار قطعة غيار سوفييتية مَن يدري متى ستصل.

ولكن لم يعد أحد ينتظرها.



(٨)

ليلة المغارات

تقضي الأيام في التفكير وتخطط وتقيس كل خطوة بعناية، وفي الوقت نفسه تسقط عليك الحياة كالفيضان، تلطمك كما يحلو لها، في عمق مصيرك المضطرب. هذه هي الحقيقة، ونحن جميعًا نعرف هذا، إلا أننا نتظاهر بعكسه، وفي كل صباح نستيقظ ونبدأ من جديد عملنا الجاد والدقيق، مثل قائدي الأوركسترا الذين يصعدون على خشبة المسرح في أناقة ومعهم حامل النوتة والموسيقى والعصا في يد، وذلك التعبير الفخور والواثق والذي يجعلهم أكثر الأشخاص سخافة في الكون. ونحن نُصر على أن نقود حفلنا الموسيقي بينما تلقي علينا الحياة بعواصف وأعاصير ورعود تخرق طبلة الأذن، ورياح تصفعنا وتجرف بعيدًا الأوراق عن الحامل ثم تجرف الحامل نفسه، تمزق السترة والبنطال وتتركنا باللباس الداخلي. وفي الوقت نفسه نركز جميعًا على الاستمرار في تحريك عصانا في الإعصار حتى تأتينا دفعة رياح أخرى وتنزعها من يدينا، وتلك التالية تكون هي الأخيرة لأنها تحملنا نحن أيضًا بعيدًا. ووداعًا.

وهكذا تسير الأمور، وهو أيضًا ما حدث في تلك الليلة، ليلة عيد الميلاد والمسابقة التي انتظرها الجميع؛ مسابقة المغارات.

كان الكبار قد عملوا في كل الأمسيات لأكثر من شهر، كل شيء تم حسابه بالمِلِّيمتر، وكُتبت أغنيتنا بوضوح وبدقة على النوتة. وإذا لم يوجد خارج الكنيسة حفل استقبال محاربي الألب السابقين، فربما كنا سنعزفها بفخامة وكانت ستنتهي نهاية جيدة، أو على الأقل، أفضل مما حدث، لأنه ليس في الإمكان أن تنتهي أسوأ مما حدث.

كان جنود الألب السابقون يقفون على السلالم المؤدية إلى البوابة، يقدمون مشروبات «منعشة» تهنئةً بعيد الميلاد إلى المؤمنين قبل قداس منتصف الليل. إلا أنه في ليلة شديدة البرودة في نهاية ديسمبر آخر شيء يمكن تقديمه هو مشروب بارد، في الواقع أطلقوا عليها مشروبات «تدفئة»، وكتبوا هذا بالضبط على قطعة من الكرتون أمام آنيتين طويلتين وضخمتين مثل المسيحيين، تحويان مشروبًا مغليًّا، ومليئتين بالبانش والنبيذ الساخن. وفي تصنيف آلاف الأشياء التي لا دخل لها بك ولكنها يمكنها أن تغير في لحظة أغنية حياتك، توجد في المقدمة بالتأكيد آنيتان مليئتان بالكحول، في يد محاربي الألب السابقين والذين في أثناء إعدادهم له تجرعا على الأقل بعض اللترات التي سيقدمونها لمؤمنين تحولوا جميعًا إلى مدعوين لمأدبة يغرقها النبيذ والشمبانيا والجرابًا بالصدفة.

الجميع فيما عدانا: في قرية مانشيني، هذا العام، لا يوجد عشاء في ليلة الميلاد، لا بد من أن نمنح اللمسات الأخيرة للمغارة

وبالتالي وداعًا لأي احتفال. في الظروف المعتادة كنا نأكل لدى الجدة، مع وجود مكان الجد المجهز بجوارها، الصحن وأدوات المائدة والكأس المليئة بالنبيذ، والذي كان الأعمام يسكبونه بالدور ثم يفرغونه ليملأوه من جديد. كنا أيضًا قد اخترنا القصة التي يجب أن أحكيها من فوق طاولة التلفاز، بين الطبق الثاني والبانيتونى، وكان يؤسفني أننا تخلينا عن العشاء في ليلة الميلاد لأنني كنت أشعر بالجوع الشديد، والأهم لأن قصة ذلك المساء واحدة من قصصي المفضلة، أي تلك التي تحكي عن المرة التي أنقذ فيها الإخوة مانشيني البلدة من النازيين.

نظرًا لأنه في نهاية الحرب، عندما فهم النازيون بالفعل أنهم يخسرون وانسحبوا إلى أعلى تجاه ألمانيا، توقفوا في لحظة ما، هنا بالتحديد، وكانوا عصبيين ومضطربين وشديدي الغضب. كانوا يستغلون رجال المنطقة في أعمال مضنية لا فائدة منها، وفي كل صباح قبل أن تخرج من المنزل كنت تنظر جيدًا إلى فراشك وباب بيتك وقطعة الحقل الخاصة بك في الخارج لأنك لست متأكدًا أنك ستظل على قيد الحياة حتى المساء لتراها مرة أخرى.

أضخم عمل جعلوهم يقومون به هو حفر حفرة، حفرة عميقة جدًا بجوار النهر، غريبة وبلا معنى، والتفسير الوحيد هو ذلك الذي يخطر ببالك في أثناء الحفر، وهو أنه بعد ذلك سيقتلونك ويلقون بك في داخلها. في الواقع، كان العم آتوس، حتى وإن لم تكن الجلطة، التي جعلته سعيدًا إلى الأبد، قد أصابته بعد، كان يحفر ويتعرق

ويضحك، يضحك بشدة، وعندما يسأله ألدو عما يضحكه وان هو يجيب: *إيه، يجعلوننا نحفر الحفرة بمفردنا، أولئك العاطلون، ولكن عندما نموت، أريد أن أعرف من سيغطيها!* ثم يضحك من جديد، حتى يبدأ الحارس النازي في زجره ويأمره بالتزام الصمت ويسدد نحوه بمسدسه.

الجميع كانوا يحفرون فيما عدا الجد أرولاندو. لم يكن هو قد لمس حتى الجاروف. كان أمهر الحلاقين في المقاطعة. وفي نحو الساعة الخامسة يتمدد الحارس النازي جالسًا على كرسي أمام الحفرة، ومسدسه في حجره، ويضع الجد له منشفة ساخنة على وجهه ويحلق له ذقنه بحركات راقصة. كانت يده رقيقة جدًّا وخفيفة جدًّا إلى حد أن الألماني كان يغمض عينيه وينام. كما كان يفعل زبائن متجر السيد ليبتو، قبل الحرب: يجلسون ويضع لهم الجد معجون الحلاقة على وجوههم، ينظرون إلى التقويمات وما عليها من صور نساء عاريات، ثم يغمضون عيونهم وهم يقولون: نتمنى أن نحلم بهن جميعًا يا أرولاندو، عمت مساء. بماذا كان يحلم النازي يا ترى! لا أحد يعلم. ولكنه كان ينام كل يوم، وفي هذا الوقت يمكن للرجال أن يحفروا ببطء أو أن يتوقفوا عن الحفر، عندئذ يستمر الجد في رقصة الموس تلك لمدة ساعة، مهديًا إخوته وأصدقاءه فسحة طويلة.

حتى في ظهيرة أحد الأيام التي كان فيها الألمان متوترين أكثر من المعتاد، تركوا مقرهم وانتقلوا إلى الشمال، وأمروا العمال أن يتواجدوا في المكان في الصباح بعد الفجر، وهكذا يأخذونهم معهم

ليقوموا بأعمال أفضل وأجرها أعلى. في نهاية ذلك اليوم شد النازي على يد جدي وقال له إن أحدًا لم يحلق له قَط حلاقة بهذه الروعة في حياته. أجابه الجد بأنه يمكنه أن يحلقها له مرة أخرى إذا أخذوه معهم، وقال له النازي: *لا يا أرولاندو، لا تأتِ غدًا*. تضايق الجد، وأصر، فهنا دُمر كل شيء، ولا يمكن إنجاز أي شيء، وهو مستعد للرحيل في حالة وجود عمل في الجهة الأخرى و... وهز النازي رأسه نافيًا، ومد له يده مرة أخرى، شد عليها جدي، دون أن يبتسم.

وتضايق الأعمام أيضًا، لأنه إذا لم يذهب أرولاندو معهم فليس الأمر سيان، ربما عليهم أيضًا أن يرفضوا بدورهم تلك الفرصة العظيمة التي يقدمها لهم الألمان. بل، في تلك الليلة الطويلة، كلما فكروا بدا لهم الأمر غريبًا، بل شديد الغرابة. عندئذ انتشروا بين الحقول وبدأوا يطرقون على الأبواب ليقولوا للجميع إنه ربما من الأفضل أن يختبئوا بدلًا من الرحيل في الفجر. البعض أجاب بأنه فكر في ذلك بالفعل، والبعض الآخر استطاعوا إقناعه، إلا أن هناك من رفضوا تمامًا ترك عرض سخي كهذا، وفي صباح اليوم التالي تقدموا مبكرًا إلى المكان المحدد. وهكذا حملهم الألمان على شاحناتهم، ثم على قطارات مغلقة بقضبان على نوافذها، إلى فوق حتى معسكرات التعذيب في ألمانيا، حيث العمل الكثير.

كان البعض منهم، من استطاع العودة، كلما تقابلوا مع جدي أو الأعمام في الطريق يقولون لهم: *يا حظكم، لقد كنتم خبثاء*. فيجيبون هم بتواضع: *لا، لم نكن نحن الخبثاء، بل كنتم أنتم الأغبياء*.

يجيب أولئك السادة إن هذا حقيقي بالفعل، ثم يهزون رؤوسهم ويضحكون.

وكنا سنضحك نحن أيضًا، وربما بكينا أيضًا، إذا كنت قد حكيت تلك القصة في عشاء ليلة الميلاد، وجميعنا معًا مع مكان الجد المُعد. إلا أن هذا لم يحدث، لا قصة النازيين ولا العشاء، فقط اللمسات الأخيرة للمغارة في كنيسة فيتوريا أبوانا.

حيث توجد بعض التفاصيل التي يمكن أن تصنع فارقًا، ومن الصعب إعدادها سابقًا. مثل وضع أسماك حمراء حقيقية في البحيرة أسفل الشلال، لأن المياه كانت باردة جدًّا والشلال هو الذي يسقط من أعلى بدوامات مثلجة، ولو وضعوا الأسماك مبكرًا جدًّا كانت لجنة التحكيم ستعثر عليها؛ بطنها إلى أعلى وتتراقص مع التيار. ثم كانت أيضًا الأضواء الخاصة بكل منزل لتجريبها، وكانت المنازل كثيرة جدًّا، والموسيقى التي لا بد وأن تنطلق بالتحديد من السماء في الوقت نفسه الذي تظهر فيه النجمة الساقطة، وأشياء أخرى كثيرة أحضرها سكان قرية مانشيني إلى الكنيسة منذ الظهيرة، خلف الستار الأبيض الذي كان يخفي العمل عن عيون العالم.

لأنه في العام السابق كانت المغارة متواضعة جدًّا وكان يمكنك أن تشاهدها بالفعل من يوم الاحتفال بعيد العذراء «الحبل بلا دنس». أما هذا العام، بسبب الرعب من أن نفسدها نحن الصبية أو أن يأتي من الأحياء الأخرى من يتجسس عليها أو من يخربها، غطوا كل المغارات وأخفوها. الوحيدة التي كان يمكن رؤيتها

على الفور كانت مغارة فايانا، الحي الريفي في البلدة، لا شيء فيها تقريبًا يثير الإعجاب، فهم فكروا في المغارة وكأن يسوع وُلد هناك بالفعل، بالحقول حولها، بين الفلاحين وأشجار الزيتون والحظائر بما فيها من دجاج. شيء بسيط، بلا أي ادعاءات، وأطلقوا عليها «المغارة الريفية». ذهب العم ألدو ليشاهدها، ووصفها ببساطة بأنها «مقرفة».

كان يمكن إبداء الإعجاب بهذا «القرف» منذ شهر تقريبًا، بينما لدينا، نصف الكنيسة تقريبًا مغطاة بالملاءات ومغلقة بحاجز ولافتتَي طريق فعليتين، مكتوب على إحداها «موقع عمل»، ومرسومة على الأخرى جمجمة والكلمات: «خطر الموت». وفقط «لا» جافة من الأب دومينيكو منعت الأعمام من أن يلفوا حولها بكرة من السلك الشائك.

- الأسلاك الشائكة لا! يسوع وُلد في مغارة وليس في معسكر تعذيب.

- ولكننا سنكون في أمان أكثر هكذا.

قال العمل أديلمو والذي أحضر اللفة في حجره على كرسيه المتحرك، وكانت الأجزاء الحادة تلمس ذقنه.

- ثم إن السلك الشائك يليق بالمكان، ويشبه تاج الشوك عندما وضعوه على الصليب.

- بالضبط! هذا يُذكرنا بموت المسيح، بينما الميلاد يحتفي بميلاده!

- إيه أيها الأب العزيز، هكذا الحياة، اليوم نُولد وغدًا نموت. هل ترى أين أجلس الآن؟ هل تصدق أنني أجلس فوق هذا الكرسي بسبب شيء حدث في عيد الميلاد. كان هناك أب كبير...

- أشعر بالأسف من أجلك، ولكن لن نضع أي سلك شائك.

قطع الأب دومينيكو الحديث، وألغى تلك القصة الجديدة حول كيف انتهى العم على الكرسي المتحرك، وعادوا للعمل من جديد.

حتى وإن كان الوحيدان اللذان يعملان بالفعل هما أبي وأورانو، والذي بدلًا من أن يثرثرا، كانا يعملان ويركبان ويبنيان. حتى في تلك اللحظات الأخيرة قبل مرور لجنة التحكيم، وفي الواقع كان الأعمام ينظرون إليهما ويشعرون بالملل الشديد، ولم يكونا يستطيعان أن يتجرعا البانش من محاربي الألب السابقين لأن الصف أمام الآنيتين أصبح طويلًا جدًّا. عندئذ حملني آتوس وآراميس، ووضعاني في الشاحنة الصغيرة وذهبنا في جولة لرؤية المغارات الأخرى.

بدأنا بمغارة مركز البلدة نظرًا لأن الأسقف عادة يصلي القداس مع دون سيريو، وعندئذ وليعادل تلك الميزة، طلب منه أن تبدأ زيارة المغارات في كنيسته.

وصلنا تقريبًا في الموعد لنرى دون سيريو أمام المذبح المذهب لكنيسته، والذي بجذبة واحدة كان يفتح الستار الضخم وكان حافظ غرفة المقدسات يشعل الأنوار على عملهم، واندفعت موجة

من «أووووووه»، مندفعة من أنفاس كل المؤمنين وأيضًا من لجنة التحكيم. إلا أن الأعمام مكثوا صامتين.

لم يحدث هذا بسوء نية، على الأقل من جهتي أنا. تلك المغارة كانت جميلة، بجبال في الخلفية بدت حقيقية، وفي المقدمة قرية من المباني الدقيقة مصنوعة من الطوب، والكثير من النوافذ الصغيرة كل منها بمصراعين صغيرين، بل وبعض الشرفات أيضًا، وفي أسفل يوجد طريق صغير برصيف عليه بعض الأقواس، وأسفل الأقواس الواجهات الزجاجية لمتاجر صغيرة جدًّا. وفي نهاية البلدة، حيث لا توجد بعد متاجر، كانت توجد البراري، وكوخ به الطفل يسوع.

شيء جميل، جميل ومصنوع بمهارة، فقط إننا، ومنذ شهر، لا شيء أمام عيوننا سوى عملنا القيم، وهذه المغارة مقارنة به كانت شيئًا نظيفًا ودقيقًا، مشروع محاسبين مهرة بالفعل، وليس إلا. عندئذ أردت أن أقول للسادة في لجنة التحكيم إنه من الأفضل أن يوفروا تلك الـ«أووووه» والـ«آههههه»، لأنهم أمام مغارتنا سيحتاجون إلى كل حروف الهجاء.

في الواقع عدنا على الشاحنة الصغيرة وقلبنا يدق بنفاد صبر وبكل الشعور بالنصر، لم نذهب إلى «المغارة الريفية» لفايانا لأن الوقت ضيق ورغبتنا شديدة جدًّا في العودة إلى أبرشيتنا، وأن نجلس مرتاحين ونستمتع بالدهشة والإعجاب والانتصار الكامل والكاسح. حدقت في الساعة التي ركبها العم آتوس على لوحة السيارة وبدت لي الثواني لا تمر أبدًا، بعض الشيء لأنه في الأفق

كانت الحياة تلمع بالروعة وتملأ قلبي بالومضات، والبعض الآخر لأن الساعة أصابها عطل، وكان الرقاص يرتعش نحو السادسة دون أن يتقدم إلى الأمام أو يعود إلى الخلف.

ولكن، قبل الذهاب إلى مغارتنا مررنا لنلقي نظرة على مغارة كاراتًا، وعندئذ تحول كل شيء إلى الأسود.

بل، الأسود كان أفضل من هذا. كان الأسود في البداية، عندما دخلت لجنة التحكيم إلى الكنيسة ونحن خلفها، ثم أشعل الكاهن المصباح الوحيد المدلى عاريًا فوق المغارة، وبينما يفعل ذلك قال «أسألكم المعذرة». وأنا والأعمام عرفنا أن الأمر سيكون سيئًا، ولا بأس أن يكون الأمر سيئًا، هذا واحد من الحقوق القليلة التي لنا في العالم، ولكن كان هذا شيئًا آخر. بالنظر إليه يشعر المرء بحزن مكثف وخانق، بل وهو خطير أيضًا على الإيمان، حيث لا بد من الاحتفال بميلاد الرب بين البشر، إلا أن ما رأيناه أمامنا يسرب إلى الذهن قناعة بالعكس؛ بأنه لا وجود للرب، وإلا لما سمح بكارثة مثل هذه.

ربما صدمت الفكرة نفسها لجنة التحكيم المكونة من الأسقف والعمدة، وزوجة العمدة، واثنين من المساعدين، وسيدة ذات شعر أشقر للغاية، والتي بالاشتراك مع دون سيريو تنظم أمسيات خيرية للأثرياء لصالح الفقراء. استغرقهم الأمر وهلة ليفهموا أن تلك كانت المغارة، إذ لا توجد سوى دكة مدرسي شبه مكسورة، فوقها سُكب بلا عناية صندوق أو اثنان من الأدوات وتلك الصناديق لا

بد وقد أتت من مكان قديم وعطن في نهاية منزل تسكنه الأشباح، ومهجور منذ قرن.

أسفل ذلك السيل من الأشياء وضعوا بعض الرعاة يصارعون للتحرر من كرة العشب الجافة والنتنة، التي تبدو كخصل الشعر التي يمكن العثور عليها أسفل الأثاث والأسِرَّة، ولا أحد يعرف كيف تكونت وكيف اختبأت. لا بد أن أحدهم قد جمعها واحدة واحدة ووضعها فوق الدكة، لتأكل الرعاة وهنديًّا يضع على رأسه قبعة من الريش وسائق دراجة ذراعه مرفوعة، وبعض النعاج الكسيحة، وديناصورين، بينما وسط كل تلك الأشياء البشعة يولد الطفل يسوع بشجاعة. وإذا استطاع أن يجتاز الليلة الأولى، فستكون هذه بالفعل أولى معجزاته.

قال كاهن كارانًّا ببطء:

- حسنًا، ليس فنًّا فرعونيًّا. نعرف هذا.

قالت زوجة العمدة، بسرعة شديدة:

- لا، ليس فرعونيًّا بالتأكيد.

- نعرف هذا. هنا في كارانًّا لدينا واقع نفتخر به، وهو مركز الاستقبال. يمكن للعائلات أن تترك أطفالها معنا، يقضون هنا فترة بعد الظهر ونشغلهم بأنشطة متنوعة. وهم صبية لديهم مشكلات يا سيدنا. بعضهم لديه متلازمة داون، متوحدون، ونحن نفضل أن نسميهم «صبية متميزين». بمجرد أن عرفوا

عن مسابقة المغارات جُنوا من الانفعال وأرادوا الاشتراك هم أيضًا، أصروا كثيرًا على هذا، لذلك قررنا أن نسعدهم. لذلك سامحونا على الفوضى في التقديم وبعض المغالطات التاريخية. فكرنا أن نتدخل وأن نُعدل من الأشياء الغريبة، أردنا أن نزيل سائق الدراجة وشخصية ثور Thor الجالس، أردنا أن نترك الملائكة فقط هي التي تطير فوق الكوخ، وأن نزيل الزواحف المجنحة. إلا أنهم رفضوا، وقالوا ليس هذا عدلًا. في الواقع هذه هي مغارتهم، وفي الحياة لا يمكنهم أن يفعلوا أبدًا ما يرغبون فيه، على الأقل هنا لا بد أن يشعروا بحريتهم الكاملة.

وأنهى الكاهن حديثه بصعوبة لأنه كان متأثرًا، وأخذ أعضاء التحكيم يهزون رأسهم موافقة وكتبوا كلمتين على أوراقهم، وعثر اثنان أو ثلاثة منهم على الكلمات التي يمكن أن تعلق على هذا المشهد: خاص، خاص جدًّا. أجل، خاص جدًّا، مهم ومتميز.

ثم ساد الصمت، الذي قطعه صخب ضخم وغريب خلفي، التفتُّ وكان أعمامي يخفون وجوههم ويبكون بهدوء. ربت بيدي على أكتافهم، عانقتهم، ولكنني لم أعرف كيف أواسيهم. ولحسن الحظ قال العمدة: حسنًا جدًّا، نشكرك يا دون جراتزيانو، الآن يمكننا الذهاب، الوقت متأخر وهم في انتظارنا في فيتوريا أبوانا.

عند سماع تلك الكلمات قفز آتوس وآراميس، بعيونهم الجاحظة التي جففوها على الفور، وحملاني من الأرض وهربنا بسرعة. لأننا نحن فيتوريا أبوانا، وربما نخاطر هكذا بأن نفقد لحظة الانتصار!

وعلى الفور ركبنا الشاحنة الصغيرة في الطرقات الرطبة والمظلمة، ذات الإشارات الحمراء التي كانت لا تبطئ، حتى عربة بثلاث عجلات مليئة بمصابي عمى الألوان، بسرعة شديدة إلى حد أنهم ليسحقوا القطط لم يكونوا بحاجة إلى أن تعبر الطريق، حيث يمكنهم ابتلاعها من الحدائق بتحريكهم للهواء.

في الواقع دخلنا إلى الكنيسة بينما المؤمنون لا يزالون في الساحة، ينتظرون إمكانية إدخالهم وفي ذلك الوقت يسكرون لدى الألبنيين السابقين حتى لا يموتوا من البرد. أخذ العمان مشروبَي بانش سريعًا، تخطيا الصف وتجرعاها كالدواء، ثم أفسحا الطريق وهما يقولان:

- كل شيء على ما يرام أيها الناس، نحن فريق البناء، استعدوا، بعد قليل ستشاهدون شيئًا رائعًا لن تنسوه أبدًا!

دخلنا إلى الكنيسة، والتي كانت فارغة بكل أرائكها الجاهزة لتمتلئ، وتخيلنا بالفعل الأشخاص وهم يجلسون ثم كان يجب عليهم أن يقفزوا ويقفوا مرة أخرى من الدهشة. من يدري أين ستجلس الدعسوقة، وإذا كانت أيضًا هذه الليلة ستأتي مرتدية زي الدعسوقة. بل من يدري إذا كانت ستأتي، لأننا من بعد المساء الذي أصبحنا فيه أقرب الأصدقاء لم أرَها قَط. على كل حال، كان عيد الميلاد، وكان قداس منتصف الليل، لا بد وأن تأتي. لا بد، لا بد.

أهز رأسي بالإيجاب بمفردي بينما أتجه نحو الهيكل، وعاد الحماس يشعل جلدي من جديد. وهكذا حتى إنني لم أدرك وجود

العمين ألدو وأورانو وهما يجريان نحونا وقبضتاهما مرتفعتان في الهواء ويصيحان: اللعنة! أين كنتم؟! صاح العم ثم أخذني وجذبني إلى خلف الهيكل وبدآ في نزع ملابسي عني.

نزعا السترة، ونزعا الكنزة والتيشيرت، وعندما بدآ ينزعان عني جوربي شعرت بالرعب من أن يكونا بسبب بناء المغارة ربما أصبحا بالفعل مؤمنين، إلا أنهما بدلًا من يسوع المسيح أصبحا يعبدان إلهًا بشعًا مثل آلهة مايا، التي في ليالي الأعياد تطلب ذبيحة الطفل الأجمل في الجماعة.

ربما لم أكن الأجمل ولكنهم ليس لديهم أفضل مني، وبالفعل بينما يضعون فوقي شيئًا مثل رداء أبيض ويربطونني بحبل وكأنني قطعة سجق، ردد السيد أورانو أن ابنته الحمقاء وعدته بأن تمنحه حفيدها ولكنها خافت، وكيف يمكن أن نعثر على طفل آخر صغير وجميل في اللحظة الأخيرة؟

ولهذا جاء دوري، لم أكن صغيرًا ولا جميلًا، ولكن للأسف كنت موجودًا، وأنا أرتدي ذلك الرداء الأبيض والقصير من كل الجهات، والضيق مثل الحبل المشدود على جذعي، وذلك الحبل الذي يربطونني به من خلف كتفَي، مثل حقيبة الظهر، وجناحان عملاقان من البوليسترين مغطيان بالريش الأبيض. وعلى رأسي، في قمة أحراش شعري المجعد، وضعوا أحراشًا أخرى من الشعر المجعد صناعي وأشقر، وعليه هالة مُذهبة تحمي من أعلى ذلك الرداء المستحيل.

في أثناء ذلك كنت أسأل عما يحدث وماذا يفعلون بي، ولأي إله سيضحون بي. ولكنهم كانوا منشغلين جدًّا بالحديث فيما بينهم وبالسباب، عندئذ أعطوني شمعة، وأشعلوها وقالوا لي فقط إنني في نهاية الطيران لا بد أن أشعل النجمة. سألت:

- أي طيران!

من البوابة جرى نحونا الأب دومينيكو وهو يطوح ذراعيه في السماء ويصرخ، *وصلوا! وصلوا!* وخلفه ظهر الأسقف ومعه بقية لجنة التحكيم، ودون سيريو ومعه فريق محاسبي لوكًا، وجميع المؤمنين شبه الثملين وشبه المُجمدين من البرد، والذين في لحظة واحدة ملأوا كل الأرائك والمقاعد وأماكن الوقوف، والثغرات القائمة داخل غرف الاعتراف، وتجويفات تماثيل القديسين.

ثم انطفأت الأضواء ولم أعد أرى أي شيء، ولكنني شعرت بقوة غامضة وشديدة من اللا شيء جذبتني لأعلى نحو السماء. ولم يكن الرب الذي يقول: *أتعرف ما يحدث، يؤسفني كثيرًا، هذا المساء سأنقذ أنا هذا الطفل المسكين.* لا، على عكس هذا: كان الحبل الذي ربطوه حولي، يجذبه الأعمام إلى أعلى حتى أوصلوني إلى السقف، وكنت أتأرجح في الفراغ فوق بيت لحم.

فجأة انطفأ صخب الجمع، ومن جديد في الصمت صعد صوت جوقة السيدات من خلف الهيكل: *نجم السماء، طفل رباني*... وبين الأصوات كان يوجد أيضًا صوت أمي وجدتي، اللتين دون أن تعرفا، تصحبان أيضًا ابنهما الوحيد كذبيحة.

على الأقل كنت أتمنى أن يحدث هذا على الفور، ضربة جافة ووداعًا للعالم. هأنذا هنا فوق وكشاف ضوء مصوب نحوي، أرتدي باروكة على شعري ورداء قصيرًا كأنه تنورة ميني، أمام الكنيسة المليئة على آخرها. كانت معلمتي في المدرسة موجودة، وكل زملائي، والعمدة والكهنة مجتمعين، والسيدة تريزا بائعة المأكولات والدكتور أبيوزو؛ تقريبًا البلدة كلها. والدعسوقة، خاصة هي، حتى إذا كنت الآن لا أتمنى كثيرًا أن أكون قد حضرت.

وبالتحديد وبينما أفكر أن الأمور لا يمكن أن تكون أسوأ من هذا، حدثت هزة ضخمة ووجدت نفسي أهوي في الفراغ، ثم شُد الحبل من جديد. ينزل العاكس ويجدني مرة أخرى، ومرة أخرى لا أزال على قيد الحياة. وتوجد نجمة مُذنبة أسفل مني، من البلاستيك الفضي، وعندئذ أتذكر أنني ممسك بشمعة في يدي لأشعلها. أمد يدي ولكنني لا أصل إليها، أحاول أن أبعد الحبل الذي يربطني من بين قدمي، وهكذا أهتز وأتموج، أتموج وأهتز، وأمد يدي مرة أخرى وأنجح في ذلك، تشتعل النجمة، إلا أنني أفقد توازني وأمكث في الهواء مقلوبًا، وتسقط الباروكة ومعها الهالة، ويرتفع الرداء، وأقسم إنني مكثت هكذا، بلباسي الداخلي، أمام البلدة كلها.

لم يعد هذا يهم أحدًا، ولا حتى أنا، لأن كشاف الضوء ينطفئ من عليَّ، وتشتعل النجمة بآلاف الومضات الفضية بينما تبدأ في الطيران متبعة خيط صيد لا يُرى، ويبدو أنها تطير بالفعل. والآن فقط أُدرك أن أبي يقف في الزاوية على قمة سلم، على مستواي نفسه، يحييني،

ويدير شيئًا بمفتاح إنجليزي، ومن هناك، شيء طويل مثل المزلقان المرتفع جدًّا، تنطلق المياه في شلال حقيقي، يسقط بدفعات على قمة الجبال التي تضيء فجأة منازل صغيرة جدًّا في وسط الأشجار. تصبح المياه نهيرًا يجري في الوادي، وتشتغل الأنوار في أثناء مروره فتضيء مساره بين الحقول والمنازل الأكبر المصنوعة بطوب حقيقي مُصغر وقراميد على سقفها. داخل كل واحد منها سكانه، ومن هنا في الأعلى لم أرَ سوى الواقفين على عتباتها يربطون أحذية منمنمة ويضعون المعاطف المُصغرة ليخرجوا، وآخرين يعودون ربما لأن الجو بارد أو ربما لأنهم نسوا المفاتيح أو شيئًا ما؛ كل منهم يحمل قصته الصغيرة معه، صغيرة جدًّا ولكنها أساسية. والنهير يستمر في النزول ويصبح نهرًا يقطع رمل الصحراء في مسار متعرج بين أشجار النخيل، ثم يختفي وسط الغابة الكثيفة وسط غناء آلاف العصافير المتحابة، ثم تنتهي الغابة ومعها مجرى النهر، لنجد الهدوء في بحيرة رائعة حيث تطفو قوارب وتسبح أسماك حمراء حقيقية وحية جدًّا، ومن هناك تنطلق عربات صغيرة تحمل الأسماك كعطايا للمخلص.

تتبعهم الإضاءة وتنير الجزء الأخير من المسيرة وبالتحديد عندما يوشكون على الوصول، يصل أيضًا طيران النجمة المذنبة المرتفعة ببطء، لتستريح على سقف الكهف، وتبدأ الجوقة من وراء الهيكل بالترنم بصوت أقوى بينما تلمع العذراء والقديس يوسف والطفل يسوع مثل الشمس.

وكانت هذه الروعة لا حد لها، باهرة إلى درجة تجذب كل العيون والرؤوس والقلوب، وكأنه لا وجود لأي شيء سيئ في العالم، لا المجاعة في أفريقيا ولا الزر الذي إذا ضغطت عليه تنطلق حرب نووية، ولا الأقارب المملون لتقضي اليوم التالي كله معهم. لا يوجد سوى ذلك المكان الرائع، تلك البلدة الصغيرة حيث وُلد يسوع، وهي تشبه جدًّا الفردوس في مجملها.

ونظرًا لأن أحدًا لم يتمكن من التكلم ولا حتى من التنفس، انفجر الانفعال في الكنيسة بتصفيق قوي جدًّا حتى تحول إلى نوع من الريح، نكش شعر السيدات في الصف الأول، وأطفأ الشمعة الموضوعة فوق الهيكل ووصل إلى حيث أنا معلق، وأرجحني مرة أخرى في فراغ بلا قاع.

الآن لم يعد السقوط يخيفني، لأنها ستكون غطسة رائعة في ذلك الفردوس من المنمنمات. وتمنى هذه الغطسة كلُّ الأطفال والذين لا بد وقد منعتهم أمهاتهم وأقاربهم والغرباء من الطيران، لأنهم كانوا يدفعون ليروا أفضل، وأمسك الأب دومينيكو بالميكروفون وقال: *بهدوء، تصرفوا بهدوء من أجل محبة الرب!* ولكن لا أحد استمع إليه وتدافع الجميع ليتقدموا، الجميع فيما عدا دون سيريو وكل المحاسبين، كانوا ثابتين، ثابتين جدًّا، تسمروا.

لأنهم أمام هذه الروعة التي قدمتها فيتوريا أبوانا لم يُهزموا فقط، لا، بل شيء مختلف، بل وأكثر من هذا؛ إنه مثل مباريات الملاكمة عندما لا يطرح الفائز خصمه أرضًا بضربة قاضية بل يقتله، ثم

يأخذ مقاس الصندوق ويعثر على الحانوتية بالأسعار المناسبة أكثر، ويستدعيهم، وفي النهاية يذهب إلى منزل عائلة الضحية ليقول كم يؤسفه هذا، وإنه كان شخصًا رائعًا، ولم يجب أن يموت، لم يجب هذا فعلًا.

أجل، هكذا بالتحديد هزمت مغارتنا مغارة القادمين من مركز البلدة. وفي وسط فوضى التصفيق والصراخ والجوقة، حاول أعضاء لجنة التحكيم تبادل الآراء، لم يكن رأيهم سيفيد في شيء. كان النصر مخجلًا، الأب دومينيكو نفسه كان قد رفع ذراعيه بالفعل، والأعمام وأصدقاؤهم كانوا يتبادلون العناق ويقفزون.

كان يلزمنا أيضًا الحكم الرسمي، يعرف الأب دومينيكو هذا واستطاع أن يهدأ بعض الشيء، ذهب إلى لجنة التحكيم وأعطى الميكروفون للأسقف. قرَّبه من فمه وفي الوقت نفسه نظر إلى الآخرين، قال *«مساء الخير»* وفجأة توقف الصخب، وامتلأت الكنيسة بالصمت للاستماع إلى النتيجة والتي ستتسبب في انطلاق حفل أكثر صخبًا بكثير.

إلا أن الأسقف لم يقل أي شيء فيما عدا مساء الخير. نظر مرة أخرى إلى أعضاء التحكيم الآخرين، والذين أومأوا بالإيجاب برؤوسهم، ولكنه هز رأسه وأعطى الميكروفون للعمدة، والذي أمسكه عن بُعد بإصبعين فقط وكأنه ثعبان سام، وألقى به على الفور إلى زوجته. نظرت هي إليه، ونظرت إلى الكنيسة المليئة خلفها، بدا وكأنها على وشك أن تقول شيئًا ما، مررت مرة أخرى الميكروفون

لزوجها العمدة، والذي التفت نحو مساعديه ولكنهم تراجعوا خطوة للوراء، عندئذ أشار إلى سيدة الأعمال الخيرية الشقراء، ذهب نحوها وأعطاه لها وقال لها شيئًا في أذنها بدا شيئًا مقنعًا جدًّا، لأنها أخذت الميكروفون، وقربته من فمها وكأنه مسدس مسدد إلى جبينها، وبعد نفس أخير: «مساء الخير وعيد ميلاد سعيد. عيد ميلاد فرح على الجميع».

أجابت أصوات متفرقة: عيد ميلاد سعيد، وكانت سريعة وجافة كأنها تقول: *أجل، عيد ميلاد سعيد، هيا تحركي وقولي لنا إننا فزنا.*

- إذن، أبدأ بالقول إن كل المغارات في بلدتنا رائعة؛ ثمرة شغف وتعاون بين المؤمنين، وهذا هو الانتصار الأثمن والأهم، انتصار للمجتمع بأكمله. وإذا انتقلنا إلى تسليم الجائزة إلى المغارة الأجمل، فإنه... أي أن... هذا العام، المغارة الفائزة هي تلك التي نفذتها أبرشية كارانًا.

قالت هذا، أُقسم: المغارة الأجمل هي دكة المدرسة تلك بالأشياء الملقاة عليها والزواحف الطائرة على يسوع الطفل، والتي بناها الصبية «الميزون»، والبائسة بشكل مميز، هذا ليس ممكنًا، لا بد أنها مزحة من الميكروفون ومن الاهتزاز، فأنا المعلق هنا في الأعلى قد فهمت الأمر بطريقة خاطئة. ولكنني رأيت أن الجميع فهموا الأمر بطريقة خاطئة مثلي، لأنه بعد لحظة ضائعة وصامتة تمامًا، انفجرت الصرخات والتصفير في الكنيسة ومعها كلمات سيئة. وكثيرًا ما يُقال إن الكلمات يمكنها أن تجرح أكثر من القوى الجسمانية، أجل،

وهذا ليس سوى حماقة كبيرة، لأن الخوف الحقيقي الذي داهمني، هو أن يتوقف المؤمنون عن الكلام، ويخرجوا من أماكنهم ويأتوا جميعًا بقبضاتهم مرتفعة نحو السماء في اتجاه الهيكل.

صاح الأب دومينيكو: توقفوا، اهدأوا يا إخوة، الهدوء! ربما لو كان يقف في مكان مرتفع أكثر، ربما على الدرج الأخير من الهيكل، وربما لو كان الميكروفون في يده ليصل صوته فوق كل ذلك الصراخ، ربما استطاع أن ينقذ الموقف. لم يكن الميكروفون معه، أخذه دون سيريو، كاهن كنيسة المركز، والذي في وسط ذلك الجحيم وقف ليعظ:

- توقفوا أيها الأغبياء! ألا تفهمون رسالة هذه الجائزة؟ إن القيمة الحقيقية لعيد الميلاد هي البساطة والمحبة المسيحية. أرادت لجنة التحكيم أن تكافئ ليس كل الرخاء والثراء إنما الحماس المؤثر للأطفال «المميزين» في كارانًّا. ونحن في المركز، حتى وإن كنا قد تعبنا كثيرًا في مغارتنا، نوافق على هذا الحكم.

قال هذا بنبرة حكيمة وعميقة، تلك النبرة التي إذا استمعت إليها وأنت غاضب تخرجك تمامًا عن شعورك.

وهذا ما حدث بالفعل لأعمامي. صاح أديلمو: تكلموا عن أنفسكم، كانت مغارتكم مقرفة! ولم يهجم على القس فقط لأن العديد من الأطفال كانوا يقطعون الطريق على كرسيه المتحرك، وحتى لو حاول فلم يكن في إمكانه دهسهم.

أجابه أحد المحاسبين، والذي له الأنف نفسه البارز لدون سيريو، وربما كان أخاه:

- اسمع حضرتك، احترس كيف تتحدث. إن مغارتكم واضحة، ولكنها أيضًا سوقية، شيء يليق بالمهرجانات. مغارتنا أفضل فيلولوجيا، وحضرتك بالتأكيد لست على المستوى الكافي لتقدرها، ولكننا أعدنا فيها تقديم المركز التاريخي لمدينة لوكَّا في العصور الوسطى، وشخصياتنا قديمة ومُنفَّذة من الفخار.

أجابه العم أديلمو:

- لتذهب إلى الجحيم أنت والفخار.

وتدخل ألدو:

- الفخار مقرف! مقرف ويُكسر على الفور.

- آه فعلًا؟ إذن فسر لي كيف أن شخصياتنا ما زالت على حالها منذ قرن.

- لأنكم في لوكَّا جميعكم بخلاء وحريصون ولا تفسدون أي شيء. إن البلاستيك أفضل مائة مرة ولا يُكسر أبدًا!

- لا تكن سخيفًا.

قال المحاسب، وبعد أن قال هذا تقدم خطوة، فاثنتين ثم ثلاث خطوات حتى وصل إلى المغارة. مد دون سيريو يده في محاولة لإيقافه، ولكن كانت يد أخيه أسرع، إذ أمسك بأحد فلاحينا؛ واحد

يمسك بجوال قمح على ظهره، ويبتسم ابتسامة لم يكن لها أي دخل باللحظة الحالية. ثم قال:

- إليك، انظر كيف يُكسر البلاستيك الخاص بكم بكل سهولة.

واعوج فمه وهو يجتهد في محاولة أن يكسر الفلاح في حافة أحد المقاعد.

ومن هنا يتضح أين سينتهي كل شيء.

أشار العم أديلمو إلى المحاسب بيده، ثم رفع قبضته إلى السماء وقال:

- أبعد يديك عن الفلاحين أيها الرأسمالي المتعفن.

يعلمونك في المدرسة كيف أن الصوت يرحل سريعًا جدًّا في الهواء والأسرع منه هو الضوء فقط، وفي الواقع هذا حقيقي فقط إذا لم يكن العم ألدو يشارك في السباق هو أيضًا، والذي انطلق بمجرد أن بدأ أديلمو عبارته، وقبل أن ينهيها كان قد قفز بالفعل فوق المحاسب.

طار الفلاح البلاستيكي، وفُقد وسط فوضى الأيادي والأذرع، وفي دوامة الأجساد التي انطلقت، والمصنوعة من المحاسبين والأعمام، وأيضًا من بعض المؤمنين المتنوعين، الممتلئين بالبانش والنبيذ المغلي والرغبة في الانتقام. وهكذا اندلعت دائرة من عنف التشابك بالأيدي والتي كنت أراها جيدًا من هنا في الأعلى، جيدًا جدًّا، بينما تتسع بسرعة وبضعف، بلا عجلة لأنها تعرف بالفعل أنها ستصل حتى النهاية،

حتى جدران الكنيسة والبوابة هناك، ولن تسرع كثيرًا إذ لا يوجد شيء يمكنه إبطاؤها.

فجأة، انتهى كل شيء. توقف الضرب والصياح، صمت تام.

وخطر ببالي أنه ربما تغلب التعقل على أذهان أعمامي والآخرين. إلا أن هذا لم يكن ممكنًا، لا بد أن الأمر سار بشكل مختلف، لا بد أن حدث شيء أقل عبثًا، مثلًا وصل الفضائيون لإيقافهم، أو ربما مد الرب من الأعلى إصبعًا كلية القدرة وبلمسة واحدة أعاد السلام.

ولكنه كان سلامًا غريبًا ومتوترًا، يبتعد في أثنائه المؤمنون ويتركون مكانًا على الأرض شاغرًا أسفل مني بالتحديد. عندئذ رأيت ما حدث وفهمت، ومع فهمي هذا أدركت كيف أنه في الحياة من الأفضل ألا نفهم أي شيء على الإطلاق. لأن أبي كان هناك على الأرض.

أدقق بعيني نحو قمة السلم حيث كان منذ ثانية ولا أجده هناك، إذن هو بالفعل في الأسفل، بلا حراك على الأرض. أمد ذراعي وألمسه، ولكنه بعيد جدًّا، أبعد بكثير من الشهاب الذي أضأته منذ قليل، أبعد حتى من كل النجوم الحقيقية من بعيد وراء النافذة، إذا كنت أستطيع الوصول كنت سألكمها واحدة تلو الأخرى لأنها استمرت في التلألؤ كأن شيئًا لم يحدث، كأنها لا يهمها أي شيء من هذا العالم الصغير والأحمق الذي يدور عشوائيًّا في ركن من أركان الكون، والآن يقبع في الأسفل، مُسمَّرًا على الأرض مع أبي.

ثابت، محطم، مطفأ.

الجزء الثاني

إذا حظيت بالأشباح، حظيت بكل شيء.

روكي إيريكسون

(٩)

مدرسة الحياة

في أرخبيل جالا باجوس، على جزيرة وينما، كانت توجد مستعمرة شُرشوريات تُدعى جيوبيتزا ديفيشيليس، والتي لتحل المشكلة الغذائية لشح الحبوب تحولت إلى سلوكيات مصاصي الدماء.

توقفت عن القراءة، ورفعت عينَي نحو أبي:

- هل سمعت يا بابا؟ شُرشوريات مصاصة دماء، عصفور مصاص دماء!

انحنيت نحوه وأنا أقول هذا، وحدث شيء عجيب جدًّا: صرَّ مقعدي. وهو الأمر الذي ربما لا يُعد خبرًا تهتم به نشرات الأخبار، ولكنه أمر جلل إذا حدث أمام أبي، وهو لم يتحرك على الفور ليضع بعض الزيت ويصلحه.

كانت هذه هي المشكلة بالتحديد، أبي لم يعد يتحرك، لا على كرسي متحرك ولا على أي شيء. الآن مر عيد القيامة، ومنذ ليلة الميلاد الملعونة تلك وهو ممدد في غرفة المستشفى هذه. أربعة أشهر

دون أن ينهض من على الفراش، ودون حتى أن يفتح عينيه، بأنابيب في أنفه، وفي فمه، موصل بآلات تصدر عنها أصوات غريبة، تشبه تلك التي لألعاب الفيديو، بينما لا يصدر عنه هو أي صوت، وكأن أحدهم ينام دون غطيط، ودون أن يستيقظ أبدًا.

لذلك لا يهم إذا صرَّ الكرسي وأُغلقت النوافذ بصعوبة، إذا انفجرت كل المواسير في المستشفى، وتسببت في أنهار تجري بين جبال من الأشياء المحطمة، فأبي لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيال ذلك، لأنه هو أكثر الأشياء المحطمة. محطم إلى حد أنه لا يوجد أي شخص في العالم قادر على إصلاحه. بل، يوجد شخص ما، وللأسف، كان هو نفسه ذلك الشخص.

لكنها في رأيي ليست مشكلة عويصة إلى هذه الدرجة: يلزم فقط بعض الصبر، وسرعان ما يستيقظ أبي. سينهض وهو يتثاءب، وسيعانقني بقوة بإحدى يديه وباليد الأخرى سيصلح الكرسي وهكذا سيعود كل شيء كما كان. شيء كالقيامة، وليس الأمر بهذه الصعوبة لأنه قام بالفعل مرة، عندما رأيته ممددًا على أرضية الكنيسة، والشيء الوحيد الذي كان يتحرك هو بقعة الدم التي أخذت تتسع حول رأسه، وبالنسبة لي ولأعمامي وأمي وبالنسبة للجميع، مات أبي.

وربما مات بالفعل، فقط قليلًا، ثم أدرك الطفل يسوع أن الأمر لا يمكن أن ينتهي بهذه الطريقة. ذلك الرجل صنع للتوِّ على شرفه أروع مغارة في الكون، كيف يمكن ليسوع أن يتركه ليموت بهذه

الطريقة، في بيته، وفي ليلة ذكرى ميلاده؟ ولكنه لم يمكنه أن ينقذه أيضًا على الفور، أن يجعله يسقط على الأرض ليقفز وكأنه كرة من المطاط. ستكون معجزة مبالغًا فيها أمام كل المؤمنين، والذين بدلًا من أن يصدقوا بالإيمان سيصدقون بفعل معجزة الرجل-الكرة، وسيكون من السهل جدًّا هكذا دخول ملكوت السماوات. لذلك اختار يسوع هذا الحل الوسط: أن يتركه نائمًا قليلًا -ثم إن هذه الراحة مفيدة جدًّا لأبي بالتأكيد، بعد حياة غارقة في العمل- وقريبًا سيوقظه.

بالتأكيد ستسير الأمور على هذا المنوال، حكيت هذا لأمي، وأجابتني: *نعم، واضح، بالتأكيد هذا ما سيحدث*. إلا أنها بدأت تبكي على الفور، ربما انفعلت عندما أدركت ذكاء ابنها.

إلا أن الوقت الآن، وبعد أربعة أشهر، يبدو لي الوقت المناسب ليعود على قدميه، وكلما مر الوقت انتابني الشك في أن يسوع نسي، مع كل الأشياء التي عليه أن يفعلها، لا أقول إنه نسي تمامًا حالة أبي، وربما إيقاظه من جديد أصبح أحد تلك الأشياء التي من حين لآخر يتذكرها ويقول: *يا إلهي، لا بد من أن أفعل هذا غدًا، سأفعله غدًا*، وبينما يقول هذا يعنيه بالفعل، فقط ربما أن الأمر في الفردوس مثلما هو هنا على الأرض، وأن «غدًا» هي طريقة أخرى لقول «قَط».

عندئذ كنت أحاول أن أساعده، أقصد يسوع. كل يوم في العصر تحضرني أمي إلى هنا، تذهب لتنظف في الجوار، وفي أثناء ذلك أتناول أنا الآيس كريم بالقشدة أمام أبي، لأعرفه أن كل شيء على ما

يرام ولا ينقصنا شيء، فيما عداه، حيث نفتقده كثيرًا جدًّا. والأهم هو أنني كنت أحضر له هذه الكتب الرائعة وأقرأها بصوت مرتفع، لي وله، لأنني أرى أنها تحكي أشياء مثيرة جدًّا، يمكن أن تستدعيه إلى هنا، إلى هذا العالم المليء بالعديد من الأشياء الرائعة التي تنتظره.

في أحد الأيام سألت الطبيب: *إذا قرأت أشياء جميلة لأبي فهذا يفيده، أليس كذلك؟* فنظر لي لوهلة، ثم قال: *حسنًا، لن تضره بالتأكيد*. وهي إجابة أراها غير مفيدة بالمرة، عندئذ سألته إذا كان ممكنًا أن أقرأ له، ربما، شيئًا مؤثرًا فيقوم أبي من الانفعال. ابتسم الدكتور، ثم ابتسم لمدة أطول، ثم أجابني: *لا* .

أقسم إنه أجابني هكذا: *لا* . وفي هذا اليوم لم أستطع أن أقرأ له سطرًا واحدًا، وعندما وصلت جدتي لتأخذني، وحكيت لها عما قاله لي الطبيب، أجابتني بأنه ربما كان مخطئًا، ولكنني لا بد أن أحترم صدقه.

صدقه هذا لم يقنعني على الإطلاق. فلا يحتاج المرء إلى شيء ليصبح صادقًا، يكفيه أن يفتح فمه ويلقي خارجه كل ما بداخله من نفاية. كنت أقدر أكثر الأشخاص الذين، قبل أن يعطوني إياه، هذا الصدق المشهور، يصلحونه لي بعض الشيء. لأنني في نهاية الأمر لم أكن سوى طفل في العاشرة من عمري وكنت ابن جورجو العظيم الذي أتى إلى كوكب الأرض في مهمة ليُصلح كل شيء، إلا أنه الآن يرقد ساكنًا على فراش، أقل حياة من الزهور التي نضعها له على الكومودينو. إذن، عندما أقول لك إذا كان هناك أمل في إمكانية أن

يعود ليسير في يوم من الأيام، أو أن يفتح عينيه لينظر إليَّ، أو حتى فمه ليقول لي إنه يحبني، إذا ابتسمت وأجبتني بهدوء لا ، فأنت لست صادقًا على الإطلاق، بل أحمق كبير جدًّا.

لحسن الحظ كانت أمي تنتظرني في المنزل، والتي تشاجرت مع الصدق منذ طفولتها، ولم تعد تتحدث معه، وفكرت هي أن تشرح لي الأشياء بطريقة أفضل.

- هل قال الطبيب لك هذا فعلًا؟

- أجل يا ماما، أقسم لك!

- حسنًا، لا تسمع له. مسكين، فهو ليس على ما يرام.

- من، الطبيب؟

أشارت هي بالإيجاب، ثم مدت لي صحنًا به إسباجيتي ومعه سر كبير:

- في الواقع هذا ليس طبيبًا حقيقيًا.

- كيف ذلك!

- لا، إنه يُعالج في الطابق الأعلى، حيث يوجد المجانين. هو يعتقد فقط أنه طبيب، ويدعونه يفعل ذلك. فهو يتجول بين الأقسام، يقول أشياء عشوائية، ثم في المساء يعود إلى غرفته، هل فهمت؟

فكرت في الأمر لوهلة، ثم لوهلة ونصف.

- أجل. ولكن الممرضات يصغين إليه.

- بالتأكيد! يستمع الجميع إلى المجانين، حتى لا يغضبوهم. يقولون له أجل، ثم يصحبونه إلى الأعلى، ينزعون عنه قميصه ويضعون له القميص الآخر بالقوة، هل فهمت؟

وعندئذ ابتسمت أخيرًا، ابتسمت كثيرًا وبقوة. لأن هذه هي الحقيقة مُقدمة جيدًا. وبالتأكيد، في ركن سخيف صغير من عقلي استمررت في التساؤل: من كان يعالج أبي بالفعل؟ ولكن الأمر يتعلق بأشياء طبية وعلمية، وأنا عمري عشرة أعوام، كيف يمكنني أن أعرف؟ في يوم من الأيام سأفهم، بينما حاليًّا لدي أمل جميل دافئ في داخلي. أشعر به يشتعل بالفعل، كل يوم بعد المدرسة، أذهب إلى غرفته، أجلس بجواره، وأتنفس الهواء الذي يحمل رائحة الكحول بعض الشيء ورائحته هو، وأبدأ في القراءة بصوت مرتفع، قراءة كل تلك الأشياء التي إذا لم تجدها مثيرة للغاية، فأنت بالتأكيد ميت بالفعل، أو مجنون مثل ذلك الشخص ذي القميص الذي يمر من هنا ويقول أشياء بشعة، إلا أنني لم أعد أستمع إليه.

إلا أن الجيوسبيزا ديفيتشيلس تتغذى بالفعل على دماء عصفورين بحريين؛ الأطيش المبرقع والأطيش أحمر القدمين، وهي تمتصها بعد أن تنقر على جلد مرفقيها.

- هل سمعت يا بابا؟ تمتص الدماء، تمامًا مثل دراكولا! ولكن ليس من العنق، بل من المرفقين. ولكنه تقريبًا الشيء نفسه، أليس كذلك؟

لم يكن أبي يجيبني، وعندئذ أومأت أنا بالإيجاب نيابة عنه. ثم قلت له أن ينظر ثانية، وأخذت القلم وخططت أسفل هذه المعلومة، ثم تحول الخط إلى سهم ينزل إلى أسفل حتى نهاية الصفحة حيث كتبت:

١- هل للطيور مرافق؟

٢- كيف أن جزيرة وينهان تُدعى أيضًا جزيرة وولف، أي جزيرة الذئب؟ وهل الشرشورية مصاصة الدماء هي نفسها الشرشورية المذؤوبة؟ لا بد من التأكد من ذلك في الرحلة القادمة إلى جالاباجوس.

وفي حين أنتهي من كتابة (س) جالاباجوس الأخيرة شعرت بالفعل بالخجل الشديد، حيث يمكن لحرف السين الأخير في الكلمة أن يصبح بداية كلمة «سخيف»: الرحلة القادمة إلى جالاباجوس. تمامًا وكأنه مكان أذهب إليه في كل الأسابيع، مثلما يذهب العم ألدو كل أسبوع بالشاحنة إلى مونتيكاتيني. ولكنني لم أذهب قَط إلى جالاباجوس، بل وإنني لا أعرف جيدًا أين تقع، لأن العالم مليء بالبلدان الرائعة والهائلة بينما تقضي المعلمة الساعات وهي تشرح لنا عن المنتجات التقليدية لـ«ماركيه»، أو المتدفقة من يمين نهر «البو» ويساره. وأبعد مكان ذهبت إليه كان في الحقيقة «إيمبولي»، على بُعد ساعة بالشاحنة من قرية مانشيني، ومن يدري كم ساعة تلزم الشاحنة للوصول إلى جالاباجوس. هذه لم تكن مشكلة، لأن العم لا يذهب إلى جالاجابوس، وربما لن أذهب إليها أنا أيضًا أبدًا.

المشكلة الحقيقية، في الواقع، كانت هي التالية: حولنا توجد آلاف الأشياء التي يجب رؤيتها وعيشها وتعلمها، بينما أنا مزروع هنا بين غرفة المستشفى وقرية مانشيني. وعندما لا أقرأ لأبي، وعندما لا أبدل العجلة بقوة شديدة حتى أشعر بقلبي يكاد يخرج من أذنَي والريح تسرق دموعي، عندما لا تضمني أمي في عناق يكاد ينزع الأنفاس بل وأيضًا الأفكار، أجد نفسي ضائعًا جدًّا بل ووحيدًا جدًّا جدًّا.

وحيد، أجل، حتى وإن كنت أسكن في قرية كاملة من الأعمام، والذين في مرة سابقة كانوا قد ترقوا إلى دور الأجداد، ولكنهم جميعًا الآن يتصرفون كآباء. الوحدة هكذا، لا يجب أن تكون وحيدًا لكي تشعر بها، تأخذك حتى وأنت في وسط الزحام، لأنك عندما تشعر أنك وحيد بالفعل، ليس لأنك تفتقد العديد من الأشخاص، بل لأنك تفتقد شخصًا واحدًا، ولكنك تفتقده جدًّا.

وأنا أفتقد أبي، وأعرف أنه يومًا ما سيعود، وتمر الشهور وحتى الآن لم يعد قَط.

إذن، لحسن الحظ أنه في أثناء ذلك حدث في أيامي شيء جديد، رائع ومثير، والذي جاءني بمحض الصدفة، بل وعن طريق الخطأ، مثل كل الأشياء التي يمكنها أن تغير حياتك فعلًا.

كانت إجازة عيد القيامة، ويكاد اتِّباع أمي في السوق يُشعرني بالحنين إلى المدرسة. مع كل خطوة كنت أغرق أكثر في بحر الملل، بين بسطات الملابس الداخلية والجوارب والمناشف المعروضة بأسعار

مخفضة، والتي كانت تلفني كالأعشاب البحرية لتغرقني في عناق مميت، وكان الموقف بائسًا للغاية حتى إنني لأنفعل قليلًا، يكفيني شخصًا مسنًا جالس هناك، على إحدى الدكك، يلقي بفتات الخبز لحمامة عرجاء.

رأيته وجريت نحوه، وفي منتصف الطريق دعتني بقعة لامعة بطرف عيني. طاولة مختلفة، أصغر تغطيها الألوان. خلفها، تتمدد تقريبًا على كرسي بحر، سيدة تبدو وقد خرجت من منزلها مثلما استيقظت، ببنطال يشبه البيجاما المقلمة، وفي قدميها خفان مستندان إلى الطاولة، التيشيرت مجعد تمامًا وشعرها أبيض ومنتفخ كأنه شعيرات سكر صُنعت بطريقة سيئة.

كانت تركز عينيها على كوميكس، وشعرت على الفور أنها ظريفة لأنها تقرأ «جيبُّو»، والذي كان شيطانًا يعيش في الجحيم، ولكنه ولد طيب، إذن كان الشيطان يغضب منه لأنه لا يعرف سوى أن يفعل الأشياء الطيبة. كنت أعتقد أنني الوحيد المعجب بـ«جيبُّو»، إلا أننا اثنان في العالم، أنا وهذه السيدة غير المصففة، ولذلك تضايقت لأن بسطتها كانت الوحيدة التي بلا زبائن.

إلا أنها توقفت عن القراءة وبدأت تنظر إليَّ، وأنا من الخجل خفضت عيني نحو الأشياء التي تبيعها، فجأة اتضح لي لماذا لا تهم طاولتها أحدًا: كانت السيدة تبيع الكتب.

والكتب شيء يخص المدرسة، ماذا بحق السماء سيفعل الناس بالكتب في السوق، أليسوا كبارًا في السن جدًّا ليدرسوا؟ ربما يمكنهم

أن يشتروها لأبنائهم أو أحفادهم، وقد بدأت المدرسة بالفعل منذ فترة وخلال شهرين، شكرًا للرب، ستنتهي. كيف تمنت السيدة أن تبيعها في إجازة عيد القيامة؟ ربما يجب أن أقول لها هذا، لأنها مسنة والمسنون عادة يفعلون الأشياء بحكم الاعتياد. لا بد أن أُذكرها بأننا تقريبًا في الصيف والكتب لن تفيد أحدًا، بينما الألبسة الداخلية مفيدة طوال السنة، وأيضًا الجوارب والمناشف... إلخ.

قالت هي لي: أهلًا يا أجعد! صوتها معوج بعض الشيء نظرًا لأنها كانت تقريبًا ممددة، وتتحدث بفم مليان، حيث تضع كيس ترمس على ساقيها، تأكل منه وتتفل القشر في يدها: إذن، عم تبحث؟

وأردت أنا أن أختفي. في حياتي لم أبتَع قَط أي شيء بمفردي، مجرد التوقف أمام طاولة والتحديق في الأشياء بهذه الطريقة بدا لي سرقة. عندئذ ابتعدت خطوة، رفعت يدَي وأجبتها بأنني لم أكن أبحث عن شيء، شكرًا.

- لا تقل هذا، هذا ليس حقيقيًّا.

- كيف ليس حقيقيًّا؟ أقسم لك.

- ولكن لا، كلنا نبحث عن شيء ما يا أجعد، دائمًا. إلا أننا لا نعرف ما هو.

وضعت في فمها ترمسة أخرى، وتفلت القشرة:

- هل تعرف ما تبحث عنه؟

نظرت إليها، وفكرت، ثم أومأت بالنفي.

- إليك، أرأيت؟ إذن ماذا تنتظر؟! ابحث.

أشارت إليّ بكل تلك الكتب الملقاة هناك بعضها فوق الآخر. كانت كثيرة، ومختلفة جدًّا عن تلك المدرسية، والتي كانت أمي تجلدها لي في بداية العام الدراسي بورق الهدايا، وفي الواقع كانت تبدو وكأنها هدايا مغلفة ولامعة، ولم يكن أحد سعيدًا بتلقيها. وهذه كانت قديمة وممزقة، بها علامات وبقع قاتمة وعناوين طويلة وغامضة، من يدري أي مدرسة يجب الذهاب إليها ليحتاج المرء إلى تلك الكتب.

- أوه يا أجعد، ألا تريد أن تتصفحها؟ التصفح مجاني.

- شكرًا يا سيدتي، ولكنها ليست كتبًا لي.

- وكيف تعرف؟

- أعرف أنها لا تصلح لمدرستي. ما نوعها؟

- كتب إرشادية.

- أجل، في أي مادة؟

- إيه؟

- هل هي كتب إرشادية في اللغة الإيطالية، التاريخ، العلوم؟

ثم بصوت ينزلق إلى أسفل ليصل إلى المستنقعات الموحلة لليأس: هل هي إرشادات في الرياضيات؟

- لا، لا شيء من كل هذا الملل، لحسن الحظ!

- إذن في أي مدرسة تُستخدم؟

- ولا أي مدرسة يا أجعد. إنها إرشادات عملية، تعلمك كيف تفعل الأشياء التي تلزمك بالفعل. أشياء تلزمك في مدرسة الحياة.

قالت السيدة هذا، وحقيقي بالفعل أن الكلمات ساحرة، في الواقع أخذت تلك الكلمات صباح يوم أربعاء ممل وبلا معنى وحوَّلته إلى أكثر اللحظات المثيرة التي لن أنساها إلى الأبد.

لأنني منذ لحظة واحدة لم أكن أعرف أي شيء، والآن فجأة اتضح في ذهني ماذا أريد: أريد تلك *الإرشادات العملية*، ومعرفة كل شيء تعدني به تلك العناوين الملونة جدًّا: *كتاب عن كيف تنجو في الغابات*، *أسرار النباتات المتسلقة*، بل أيضًا: *مساق مهني في السباكة*، والذي ربما قرأه أبي في مثل عمري، ومن هنا أصبح أعظم سباك في الكون. كنت أريد أن آخذها وأدرسها جيدًا وأتعلم منها آلاف الأشياء التي لن يمكن لأبي الآن أن يُعلمها لي، وأن أستمر هكذا حتى أحصل على شهادة من *مدرسة الحياة*، التي ربما كانت شيئًا واقعيًّا ورسميًّا، وكان المعلمون فيها جادين وكتبوا لها كتبًا، ربما ليسوا مثل أعمامي، الذين إذا اتبعتهم، فستكون نهايتي اللعنة والجنون.

- إذن يا أجعد، هل ستفتحها أم لا؟

مدت السيدة يدها وقبضت على حفنة من الكتيبات وألقت بها تجاهي، مثل ذلك المسن الذي رأيته منذ قليل يلقي بفتات

الخبز للحمامة العرجاء. أغلفة مليئة بالصور والتصميمات الغريبة، حيوانات ونباتات وآلاف الأدوات التي لم أرَها من قبل، وعناوين طويلة وغريبة، وقد كان كل ذلك في حد ذاته غامضًا وبلا معنى، وبوضعه معًا تصنع اللا نهائية قائمة رائعة يقدمها لك مطعم الحياة. وكنت لتوِّي قد جلست أمام المائدة وأتضور جوعًا.

كنت أريدها، أريدها جدًّا، بل أردتها كلها. لأنه ربما تكون الحياة شيئًا عملاقًا أكثر مما ينبغي ولا يمكننا رؤيته بأكمله، ولا بد أن تؤخذ بهذه الطريقة، قطعة صغيرة بعد الأخرى. كتاب بعد كتاب، خطوات كثيرة كلها عشوائية، تصبح فيما بعد اتجاهًا رائعًا.

ولكن اختيار الأول منها كان أمرًا مستحيلًا. كل كتاب أمسكه بيدي يبدو لي الأروع، حتى أمسك ما بعده، ويصبح على الفور كتابي الجديد المفضل. كان حظي السعيد إذن أن السيدة كان لديها الترمس للعشاء وترتدي البيجاما بالفعل، لأنني هنا أمام هذه الطاولة يمكنني أن أقضي الليلة، وأن أستمر حتى أسمع صوت الأبواق التي تعلن نهاية العالم.

إلا أن نهاية العالم حلت على الفور، وبدلًا من الأبواق كان صوت أمي. اقتربت مني وأمسكت ذراعي بقوة لتأخذني بعيدًا.

– هيا بنا يا فابيو، الوقت متأخر جدًّا. لا بد أن أذهب إلى العمل، تعالَ.

– إيه، حظ سعيد.

قالت سيدة الترمس، وابتسمت. أو على الأقل اعتقدت هذا، لأنني لم أكن أنظر إليها، ولم أكن أنظر إلى أمي أيضًا. لم أستطع أن أنزع عينَي عن معلميَّ الجدد الرائعين.

- ولكن إلى ماذا تنظر؟ كتب؟

سألتني أمي بنبرة غير مصدقة، لم أستطع أن أفهمها بل وشعرت بالإهانة. مثلما لم أكن أفهم ذلك الصبي الصغير ذا الرأس المليء بالتجاعيد والذي سيُدهش هو أيضًا كثيرًا عندما يراني بكتاب في يدي دون أن تجبرني عليه المعلمة، وربما يقول إني غبي. ذلك الصبي كان أنا منذ خمسة أعوام، ولكنه الآن أصبح شخصًا لا أعرفه، وليس بيننا أي شيء مشترك، ولا أي شيء يقوله أحدنا للآخر.

- هيا يا فابيو، إذا تأخرت فستقتلني السيدة لونجينوتي.

- حسنًا، حسنًا، سأحضر.

- هل تريد كتابًا؟ كم ثمنها؟

رفعت السيدة ذراعها، وأشارت إلى كل الكتب بهزة من يدها: الكتاب بمائة ليرة، أرخص من دفتر فارغ!

نظرت أمي إليها للحظة، ثم قالت:

- حسنًا، خذ منها واحدًا ولنهرب.

أشرت بالإيجاب وأنا في غاية السعادة، حتى وإن كنت أعرف بالفعل أنها ستبتاعه لي. لأنها لم تقل لي: لا، هذه نقود ضائعة، ربما

لن تقرأه حتى... لا، تلك هي الحوارات الحزينة التي يقوم بها الآباء الأغنياء. الأغنياء يحرصون جدًّا على أموالهم، تقول الجدة جوزيبينا: إنها الطريقة التي يصبحون بها أغنياء. وكانت تقول أيضًا إن جمال كوننا فقراء هو أننا هكذا بالفعل، ولا يجب أن تعيش فريسة خوفك من أن تصبح فقيرًا: أنت فقير بالفعل ومائة ليرة أقل لن تغير أي شيء.

بالعكس، ها هي ستتغير: مجرد مائة ليرة لأقوم بالخطوة الأولى داخل حياتي. ويوجد أمامي الآلاف منها، آلاف الاتجاهات المختلفة والغامضة، كيف يمكنني أن أختار أحدها، كيف أفعل هذا؟

- هيا يا فابيو، أسرع. في كل الأحوال السيدة ستكون هنا الأسبوع القادم أيضًا، أليس كذلك؟

عندئذ نزعت عيني للحظة عن الكتب لأنظر إلى السيدة التي كانت تقول أجل:

- كانت خطتي أن أنتقل إلى هاواي، ولكنني سأكون هنا الأربعاء القادم.

ابتسمت، وأمسكت أمي وجهي بين يديها وأدارته نحوي لتقول لي إننا يجب أن نرحل، وهكذا استطعت أخيرًا أن أختار، بطريقة عشوائية، وأنا أنظر إلى أمي ودون أن أنظر إلى الكتب. مددت ذراعي وأول كتاب شعرت به تحت أصابعي جذبته إلى أعلى، وضعته السيدة من نهاية الطاولة في كيس، وقالت: أحسنت يا أجعد، مائة ليرة، شكرًا وإلى اللقاء.

شكرت أمي وقلت للسيدة إلى اللقاء في الأسبوع القادم، وأوصيكِ ألا تذهبي إلى هاواي بل تعالي إلى هنا.

ثم انطلقنا مسرعَين، أنا خلف أمي التي تفتح الطريق في الزحام، وهكذا لم أحتج إلى أن أحترس وأنا أتحرك بين الأجساد والحقائب والأرصفة، وكنت أستطيع التفكير في الخطوة المهمة بالفعل، خطوتي الأولى تجاه حياتي الجديدة.

ما زال الكتاب في الكيس، أخرجته ببطء ولمست بعيني الغلاف، وأنا أنطق العنوان بصوت مرتفع حتى يداعب شفتَي كاسم عاشق: *مزارع الخراطين. التربية الحديثة والمُربحة لدود الأرض.*

وعلى الفور تجمدت ابتسامتي، ودارت قدماي في خطوة معوجة أبعدتني عن أثر أمي. حدث ذلك للحظة واحدة فقط، ثم عدت لأمشي مستقيًا ومقتنعًا. لأن ذلك العنوان بدا لي بالفعل عجيبًا بعض الشيء، وما الذي أعرفه أنا؟ لهذا السبب بالتحديد أحتاج إلى الكتب الإرشادية، لأنني لا أعرف أي شيء، وهي ستكون معلمي، وإذا بدأت بقول إن هذا الكتاب غير مناسب، فسأكون مثل أولئك المزعجين الذين حين يعلمهم أحد شيئًا، لا يصغون إليه لأنهم يعتقدون أنهم يعرفون بالفعل كل شيء بمفردهم.

إذن تحيا مزارع الخراطين، وتحيا سيدة الترمس، وكل المعلمين الذين تحفظهم لي، كل يوم أربعاء معلم جديد ينتظرني ليعلمني شيئًا، أي شيء، مثلما تعلمه لي مدرسة الحياة: بالمصادفة، وبلا أي برنامج.

الخلاصة، منذ ذلك الصباح المبارك من الشهر الماضي تسير الأمور على هذا المنوال. أي، لا أعرف إذا كنت أسير إلى الأمام، ولكنني أسير في اتجاه ما. كل أسبوع كتاب إرشادي، أقرأه في اللحظات التي لا أفعل فيها شيئًا، مثلما يحدث في المدرسة عندما تشرح المعلمة الرياضيات، والتي عندما أسمعها، في كل الأحوال، لا أفهم منها شيئًا. الأهم أنني أفعل ذلك بعد الظهر هنا في المستشفى، بصوت مرتفع هكذا يسمع أبي أيضًا.

الآن كنا نقرأ *طيور الحسون والسسكن والخضيري والشرشور*، وكنت أتعلم كل شيء عن جزر الجالاباجوس والشرشوريات مصاصة الدماء. لم أكن أعرف بالتحديد كيف ستفيدني، ولكنه أمر مبكر جدًّا، في أحد الأيام وفي أثناء المسيرة سأكتشف ذلك. ربما بفضل الدراسة أكتشف أيضًا طريقة لأوقظ أبي، رغمًا عن ذلك الطبيب المجنون الذي ينزل من مستشفى الأمراض العقلية في الطابق العلوي، خصوصًا، ليقول لي إن هذا لا يمكن أن يحدث.

إلا أنني أرى ذلك بالفعل، أرى أبي يفتح عينيه ويعانقني ويقول لي أشكرك يا بني. وأنا أجيبه لا تشكرني أنا يا بابا، اشكر الشرشوريات، اشكر الخراطين. ولن يفهم أي أحد حولنا معنى هذا، بينما سيفهم أبي، لأنني عندما كنت أقرأ له كل تلك الروائع، كان ثابتًا بعينين مغمضتين ولكنني أعرف أنه كان يتبعني، بينما تجري الصفحات وتأخذنا معها. وإن عاجلًا أم آجلًا، في الطريق، سنصل معًا إلى مكان ما.

خطوة تلو الأخرى، إلى الأمام بلا تخطيط، ولكن إلى الأمام دائمًا.

(١٠)

خراطين القديس فابيو

للخراطين ست كليات وخمسة قلوب، وكل من العضوين التناسليين معًا، وإذا قسمتها تتألم وربما تبكي بعض الشيء، إلا أنها بعد لحظة تصبح دودتين مختلفتين، تسير كل منهما في طريقها وربما لا تتبادلان حتى التحية.

إلا أن الناس ينظرون إليها ويقولون يا للقرف، وفي أثناء ذلك يذهبون إلى المطاعم وينفقون نقودًا كثيرة ليأكلوا طعامًا دقيقًا، يضعونه في بطونهم وفي النهاية أقصى ما يمكنهم عمله هو أنهم يحصلون منه على غائط بني اللون، عفن الرائحة، لا يصلح إلا لأن يلقى في المرحاض. إلا أن الديدان تأكل ما يتبقى منا؛ القشر وحواف الجبن وكل النفاية التي تعثر عليها، وتحول تلك الأشياء السيئة إلى عنصر اسمه الدُّبال، والذي يخصب الأرض، ولهذا فالدود ثمين للغاية وبلا فضلاته ربما يكون هناك غد، ولكن لن يكون لدينا بعد غد.

الخلاصة، كلما قرأت في كتاب الإرشادات الأول الذي أخذته من السوق، اتضح لي أن ديدان الأرض أفضل منا.

الدليل الحاسم على تفوقها هذا هو أنها طيبة جدًّا وتساعدنا بدلًا من أن تتحكم فينا وتتعامل معنا كعبيد. نحن أغبياء ونستمر في إلقاء أطنان من الأشياء المقرفة تتحول إلى أكوام عفن ترتفع أكثر نحو السماء، حتى ذلك اليوم الذي فيه ستغطي جبال النفايات تلك السماء، وعندئذ سيسود فجأة الظلام وسنرفع عيوننا لندرك الكارثة التي ارتكبناها. لم يصل هذا اليوم حتى الآن لأن ديدان الأرض، في هذه الأثناء، تعتني بهذا، وذلك من خلال أكل نفاياتنا وتحويلها إلى الدُّبال، وبهذا أهدت إلينا المزيد من فرص البقاء على قيد الحياة.

إليك كم هي كريمة ديدان الحقل مع الإنسان، والأكثر كرمًا هم من قرروا تربيتها. مثل السيد هيو كارتر، الذي بدأ عام ١٩٤٧ في الاحتفاظ بها في صندوق دفن موتى مليء بالطمي، وبعد خمسة وعشرين عامًا أصبح فاحش الثراء وأنتج خمسة عشر مليون دودة أرض في السنة. ورويدًا رويدًا سأصبح شبيهًا له. لأن هذا الكتاب شرح لي كل شيء جيدًا، ومكتوب بوضوح ولا سبيل للوقوع في الخطأ، ومثل ديدان الأرض التي تحول النفايات إلى دبال، أنا سأحول تلك الصفحات إلى دروس في الحياة.

للأسف لم أعثر على صندوق موتى، سألت أعمامي إذا كان لديهم واحد، لمسوا فقط أرجلهم وصنعوا قرنين بأصابعهم لإبعاد النحس. إلا أن جدتي أعطتني جزءًا من الحديقة خلف منزلها، والتي في رأيي أفضل أيضًا من التابوت. صنعنا بالحصى مستطيلًا وبجواره وضعت لافتة، عبارة عن فرع شجرة فوق قطعة من الكرتون، كتبت

عليها «مزرعة فابيو». داخل المستطيل أكب فضلات منزلي ومنزل الجدة، والتي كانت كثيرة جدًّا لأنها من يعد الطعام لقرية مانشيني بأكملها، وبالتالي كان لدي منجم ذهب. كل يوم أذهب لأراقبها، في البداية أبعد قشر البطاطس والطماطم والخبز الجاف، ولا أرى شيئًا، وبدأت أفكر أنني بدلًا من أن أصنع المزرعة صنعت بدلًا منها مقلب نفايات غير قانوني. ثم في مساء أحد الأيام، وبينما أقلب الطمي قليلًا، جذبت شيئًا كالخيط القاتم يتدلى من العصا، كان طريًّا ورفيعًا، أقسم إنه كان حيًّا، وبجواره واحد آخر: ديداني الأولى، والتي بلا ضوضاء تعمل جيدًا لخير البشرية، ولخيري أنا بالأخص.

كنت أريد أن أمنحها اسمًا، إلا أنها كانت حيوانات تجمع بين العضوين التناسليين، ولم أكن أعرف إذا كنت أمنحها اسمًا مذكرًا أم مؤنثًا. عندئذ أطلقت عليها اسمَي «واحد واثنين»، وسرعان ما أصبحت أكثر لأن الجمال في أن يكون لديك عضوان تناسليان هو أنك لا يجب أن تذهب بحثًا عن أحدهم، بل يكفي أن تمكث في زاوية ما وتفعل كل شيء بمفردك. أو على الأقل كان هذا ما أتمناه، وبهذا الأمل في قلبي وضعت بهدوء قطعة الطمي مكانها، تاركًا «واحدًا واثنين» في حميمية عمله الثمين.

وهكذا خلال أسبوعين، وُلد «ثلاثة، وأربعة، وخمسة» حتى عشرين. ثم توقفت عن عدها وعن منحها أسماء، وبدلًا من أن أقضي الوقت للتأكد مما إذا كانت قد ولدت أخرى، وضعت حجارة أخرى حول مزرعتي وبدأت أحرسها، لأن الكتاب يشرح

أن أعداء المزرعة هي الشحارير والقنافذ، ولكن المؤلف لم يكن يعرف أعمامي.

لم يكن لهم أي دخل بهذا الشيء الجميل والجديد والذي بدأت أتعلمه بمفردي أخيرًا، إلا أنهم كانوا مجانين صيد، وإذا أردت أن تستمتع بيوم صيد سحري بالفعل، فما تحتاج إليه هو بعض الديدان السمينة لتعلقها في الصنارة. وهكذا عثرت على أعمامي فوقي.

حتى وإن لم يكن الأمر سيئًا في النهاية، بل ويشرح الكتيب أيضًا أن هذا الأمر جيد: يمكن أن تبيع بعض الدبال للمزارعين، إنما الدخل الأكبر من تربية ديدان الأرض يأتي من الصيادين الذين يحتاجون إلى طُعم، بل إن السيد كارتر بدأ بهذه الطريقة. إذن لم يكن عليَّ أن أطرد أعمامي، لا بد فقط أن أضيف إلى اللافتة التي تقول «مزرعة فابيو»، «٥ ديدان بخمسين ليرة». في البداية تمتموا وقالوا إن تلك الديدان تأكل نفاياتهم وبالتالي من العدل أن يحصلوا عليها مجانًا، وعندئذ أجبتهم بأنهم بدلًا من الديدان يمكنهم أن يضعوا قشر البطاطس أو قطعة جبن فاسدة في الصنارة ويروا نتيجة هذا الصيد تبعًا لهذا العدل. فكروا في الأمر، تأففوا ثم بدأوا يبتاعونها.

ولأن موسم الأنقليس على وشك البدء، حيث تصبح كثيرة جدًّا في الليالي غير القمرية وبذلك تصبح المياه أكثر سوادًا في مخرج النهر، كانوا يصطادون بتقنية قديمة جدًّا اسمها خطوط الصيد، فيها يخيطون ديدانًا كثيرة، الواحدة تلو الأخرى، وكأنها قلادة لن يضعها

أحد أبدًا على عنقه، ثم يربطون هذه القلادة في نهاية خيط ويضعونه في البحر بقصبة بامبو، وعندما يشعرون بالأنقليس (ثعبان البحر) يقضم طرفها يجذبونها إلى أعلى. وكان الأعمام يصطادون دائمًا أكثر من الآخرين، لأن قلادة ديداني كانت الأسمن والأشهى، وهكذا بدأ أصدقاؤهم يأتون إليَّ، بل وبعض الأعداء أيضًا، والجميع يطلبون الديدان الخاصة بمزرعتي لخياطتها.

وكانوا في حاجة إلى مساعدتي لصناعة القلادات أيضًا. تعلمت بالفعل أن واحدة من الأشياء الأولى التي تفقدها عندما تكبر في السن، مع الشعر والرغبة في القفز حافيًا في الآبار، هي النظر، وتشبيك الديدان كان صعبًا لأشخاص أكثر شبابًا ويقظة منهم، فأعمامي وأصدقائهم لا يشربون الماء إلا إذا ناموا وأفواههم مفتوحة في أحد الحقول وبدأت تمطر.

إذن، في مقابل المزيد من الليرات، أصنع القلادات. أجلس بالقرب من مزرعتي بإبرة وخيط وأنا أعمل. ولم يكن الأمر يختلف كثيرًا عن القلادات التي يجعلوننا نصنعها في مدارس الأحد للصيد الخيري، إلا أنني بدلًا من الخرز الصغير كنت أستخدم الديدان، والنقود التي تُجمع لا تذهب إلى أطفال أفريقيا الجائعين بل لأشتري المزيد من الكتب الإرشادية، وهكذا كان يمكنني أن آخذ أكثر من كتاب، كل يوم أربعاء، من سيدة الترمس.

وفي أحد الأيام بينما أقول لها «مع السلامة يا سيدتي»، طلبت مني ألا أقول لها سيدتي لكن ستيلًا، وأجبتها أنا «حسنًا يا سيدة

ستيلًا. أراكِ الأسبوع القادم، وأوصيكِ بعدم الذهاب إلى هاواي، لا تذهبي أبدًا».

وأجابت هي: اهدأ يا أجعد، ستجدني هنا حتى أموت.

- لا يا سيدة ستيلًا، لا، أرجوكِ اصنعي لي هذا المعروف ولا تموتي أبدًا!

ضحكت هي، وقالت لي أن أهدأ، ولكنني لم أستطع هذا، وبالفعل في ذلك اليوم بدلًا من أشتري كتيبًا واحدًا اشتريت اثنين. أخذتهما بطريقة عشوائية كالمعتاد، وواحد منهما كان عن حياة القديس فرنسيس، وأقسم إن الآخر كان عنوانه الأنقليس وتربية الأنقليس: شيء مناسب جدًّا في هذه اللحظة، ليعلمني أن الخراطين ليست فحسب الحيوانات المعجزية، بل أسماك الأنقليس أيضًا التي نأكلها.

بل إن أسماك الأنقليس رائعة وغامضة، فنحن نعلم عن حياة كوكب مارس أكثر مما نعرفه عن أسماك الأنقليس.

تسكن بجوارنا، في الآبار بين منزل وآخر، وفي الأنهار التي تمر في وسط البلدان، إلا أن فهمها أمر مستحيل مثل محاولة الإمساك بها في اليد، لأنك تضغط بقوة شديدة، ولكنها تفلت من بين أصابعك وتختفي في اللا شيء، مثل الأحلام عندما تحاول أن تتذكرها في اليوم التالي.

في المدرسة على سبيل المثال قالوا لي عن الأنقليس إنها تذهب لتتكاثر في مكان ضائع في عمق المحيط يُدعى بحر سارجاسو،

وهذا لم يكن حقيقيًّا. أو على الأقل لا تذهب إلى هناك فحسب، فهي تتواجد أيضًا في الأماكن الأكثر تحديدًا، وفي لحظات محددة، هي فقط التي تعرفها. كيف تصل أسماك الأنقليس التي تسكن في الحفرة القريبة من منزلنا إلى تلك الأماكن؟ عند لحظة ما تسمع ذلك النداء، وكأنها مكالمة هاتفية في ذهنها تقول لها: أوه، سنتقابل جميعنا هناك، تحركي! وتكون تلك الرغبة في الذهاب قوية جدًّا، إلى حد أن الأنقليس تنسى أنها أسماك وتخرج من الماء. وفي الليالي المظلمة، عندما تُمطر، تتسلق إلى حافة الحفرة وتبدأ في السعي بين الحقول حتى أقرب نهر، ومنه تصل إلى النهر الرئيسي ثم إلى البحر، ثم تتجه إلى الأعماق القاتمة للمحيط حيث تتقابل وتحتك الواحدة فوق الأخرى، بأعداد كبيرة جدًّا، وتتشابك كأنها أعمدة عملاقة سوداء من الأنقليس، وتتكاثر ثم تموت. وتُولد أسماك الأنقليس الصغيرة، وتكون صغيرة جدًّا، ولها شكل الدبابيس ولكنها أرفع بل وعمياء أيضًا، هناك، كلها وحيدة في المياه. وأنا لم أذهب قَط إلى المحيط، ولكنني بالتأكيد لا يمكنني البقاء في وسطه سوى خمس ثوانٍ على قيد الحياة. إلا أن تلك الأشياء متناهية الصغر والكفيفة تتبع تيارات غامضة وبالتدريج تصل إلى الأرض، بل كل سمكة أنقليس صغيرة تعود بالضبط إلى الحفرة من حيث أتت أمها. كيف تفعل ذلك؟ لا أحد يمكنه التفسير. بل لو حاول أحدهم هذا فلن أصدقه، لأنه توجد أشياء رائعة هكذا في حد ذاتها ومتكاملة، وأي تفسير لها سيكون خاطئًا قبل حتى أن يبدأ.

الخلاصة: كم هي رائعة أسماك الأنقليس! وأنا تعلمت هذا عن طريق ذلك الكتيب. لم يكن هذا يهم أعمامي وأصدقاءهم في شيء. بالنسبة إليهم لا شيء يهمهم من تلك المعجزات الحية سوى صيد جبل منها، وإحضارها إلى المنزل وقليها أو طبخها أو تتبيلها. وإذا فكرت في هذا أتضايق جدًّا، حيث إنهم صادوها بفضل ديداني الشهية والقلادات الدقيقة التي أعدها.

عند لحظة ما، وأكثر من ضيقي من أجل الأنقليس، أصبحت لدي مشكلة كل النقود التي ربحتها. لأنني بفضل الديدان والقلادات ادخرت نحو عشرة آلاف ليرة، وفي المساء قبل أن أنام كنت أفكر في المبلغ الضخم المخبأ في الكومودينو، ويتصاعد بداخلي الأسى لأنني أصبحت ثريًّا.

أجل، الأسى، لأنني أعلم أن الكثيرين كانوا سيصبحون سعداء، بالنسبة لي كوني فقيرًا أمرًا يعجبني كثيرًا جدًّا.

فأنا قد وُلدت فقيرًا وبالتالي اعتدت أن أعيش هكذا، وأعيش في راحة تامة ولا ينقصني شيء. بل، أقسم إنني لمدة طويلة لم أكن أعرف ذلك، لم أكن أعرف أنني فقير، حتى ذلك اليوم في شهر يوليو عندما كنت في حقل العم أرنو، في نهاية قرية مانشيني، وكانت الحقيقة تنتظرني فيها وراء سياج الغار.

يعيش العم مع كلبه بوفيرا، وغراب جيفي متكلم يقول فقط «ارحلوا»، وإذا رأى الأعمام الآخرين، يطلق النيران، ولكنه يتركني أنا أدخل، بل ويدعوني لأشرب التمر الهندي في منزله،

والذي كان بيتًا متنقلًا بلا عجلات، بقطعة من الأسمنت الليفي بارزة تعمل كشرفة. وأحيانًا كنت أسمع أصواتًا خفيفة فوقه مثل خطوات صغيرة جدًّا وسريعة، وكنت أسأل ماذا كانت، وكان العم أرنو يجيبني بأنها سناجب. إذن في صباح أحد أيام شهر يوليو، في حقل العم أرنو، وبينما أبحث عن تلك السناجب المشهورة، رأيت من فوق السياج لمعانًا غريبًا، حيث يبدأ حقل آخر ولكنه لم يكن جزءًا من قرية مانشيني، اشتراه منذ فترة أحد سكان الفيلات من خارج المنطقة. ذهبت لأرى من بين الأغصان الكثيفة للغار، ورأيت مرجًا ذا عشب شديد الخضار مشذب بدقة، وتحت الشمس يوجد شيء ضخم مُسطح وأزرق يلمع بشدة. غرست رأسي بين أوراق السياج، وعلى الرغم من خطورة أن يدخل فرع شجرة في عيني، فإنني حدقت بهما، عندها فهمت أنني أنظر إلى مسبح حقيقي.

سبق ورأيت المسابح من قبل في التلفاز في بعض القصص، وتلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها واحدًا حقيقيًّا. وهناك بجوار تلك الروعة المتلألئة رأيت صبيًا في عمري تقريبًا، وأخذت أتساءل كيف يكون أحمق بهذه الطريقة، إذ يكون المسبح على بُعد خطوة واحدة منه ولا يغطس فيه. وبعد لحظة فهمت أنني أنا الغبي، حيث يجلس على شيء آخر غريب، قاتم اللون، وحي، وعندما عثرت في قلبي على مكان لعاصفة جديدة من الدهشة أدركت أن ذلك الصبي يمتطي مهرًا. أقسم، هذا الصبي ساكن الفيلا لديه مهر ليقفز عليه

طوال اليوم في الحديقة، وربما في النهاية بدلًا من الاستحمام أسفل الدُّش يغطس معه داخل ذلك المسبح الشخصي.

وهكذا، في ذلك الصباح من شهر يوليو، ورأسي مغروس في أغصان الغار حدث هذا الاكتشاف المُربك: إن العالم مقسوم إلى نصفين بسياج، نصف فيه توجد الأمهار التي تقفز حرة حول المسابح، ونصف يقع فيه المنزل المتحرك شبه المعطل ذو السناجب غير المرئية على سقفه، والتي في حقيقة الأمر كانت جرذانًا. ووُلدت أنا على هذا الجانب من السياج، جانب الفقراء.

ولكن، كما قلت سابقًا، هذا الأمر لم يكن يزعجني على الإطلاق. بل إنني كنت أتجسس على هذا المشهد الفخم وأبتسم سعيدًا، لأنني أشعر أنني سعيد لأنني فقير، سعيد ومُميز.

في نهاية الأمر كل أبطالي، كل أبطال قصصي الأكثر شغفًا كانوا من الفقراء. فقراء وشجعان، فقراء وفاتنون، فقراء وصالحون. والشخص الغني، كان دائمًا عنيفًا وشريرًا وقبيحًا أيضًا من الناحية الجسدية، وفي أفلام الكارتون وقصص الرسوم المتحركة. وأيضًا في القصص الحقيقية التي كنت أسمعها من الراهبات في مدارس التربية الكنسية والتي فيها يقصون علينا قصة حياة «قديس اليوم»، في هذه القصص توجد دائمًا معاناة، وعذاب وضربات كرباج ورؤوس مقطوعة، ولم تكن هناك نقود قَط. بل، كان لا بد من إبعاد النقود، مثل القديس «سيرابيونى» الذي كان يعيش في فقر مدقع ولكنه في لحظة ما لم يكتفِ بهذا، نظر إلى نفسه، وأدرك أنه حتى

الرداء الممزق الذي يرتديه رفاهية زائدة، عندئذ أهداه إلى شخص يطلب حسنة، ومنذ تلك اللحظة أخذ يجوب الشوارع عاريًا.

حسنًا، حقيقي أن لا أحد يعرف القديس «سيرابيونى»، فهل نريد التحدث إذن عن يسوع؟ يسوع الطفل وُلد في كوخ وضعه أسوأ من كارافان العم أرنو، بل وأسوأ لأنه لم يكن حتى ملكًا له، إلا أنه بعد نحو ألفي عام ما زال الجميع يتذكرونه ويحبونه جدًّا. ولا أعتقد أن الأمر كان سيسير بهذه الطريقة إذا كان يسوع قد وُلد في فيلا فيها مسبح، وبدلًا من الأبقار والحمار كان سيكون لديه مُهر.

فكرت في هذا الأمر دائمًا، والآن أفكر أكثر، نظرًا لأنني بعد كتاب الإرشادات عن ديدان الأرض، وذلك الخاص بالأنقليس، قرأت ذلك الكتاب الآخر الذي يتحدث عن حياة القديس فرنسيس، وعندئذ جن جنوني. لأن القديس فرنسيس كان يفكر في الأمر مثلي تمامًا، ولكنه كان ذا حظ سيئ لأنه وُلد فاحش الثراء. عندئذ ترك كل شيء؛ النقود والمنازل والملابس الأنيقة، وكان يتجول برداء كانوا يطلعوننا عليه في مدارس التربية الكنسية في الصورة، وأقسم إنه كان رداء به العديد من الرقع، بل كان عبارة عن رقعة ملصقة بالأخرى.

كنت أقرأ وأشعر أنني سعيد جدًّا من فكرة أنني لم يكن لدي قَط ثوب جديد، كانت تصل إليَّ دائمًا تلك التي استعملها قبلي أبناء أصدقاء أمي، أو أبناء بعض سيدات الفيلات التي كانت تنظفها. ولا بد من أنهم كانوا أطفالًا أثرياء ومنظمين جدًّا، حيث لا توجد أبدًا أي رقعة، كنت أرتديها وأنا أشعر أن الخطية تلفني. ثم في أحد

الأيام أمام تمثال الرحمة، رأيت ذلك الصندوق المغلق والضخم، أصفر اللون، والذي يضع فيه الناس الملابس المستعملة للفقراء، وفي كل مرة كنت أمر أمامه كنت أتخيل الروائع الموجودة هناك بالداخل؛ قمصان مُرتقة، سترات ممزقة، بناطيل مُستهلكة: خزانتي المثالية.

وفي صباح يوم أحد، لم أعد أستطيع المقاومة، ولم يكن أحد في الجوار، سندت الدراجة إلى ذلك الشيء البلاستيكي، وصعدت على مقعد الدراجة، وتطلعتُ في الداخل. تصاعدت رائحة نفتالين، ورائحة أشخاص مسنون ينامون في حجرة صغيرة جدًّا، توقفت عن التنفس ومددتُ ذراعي لأرى أيًّا من تلك الكنوز سأمسك، إلا أنني أخذت أحركها يمينًا ويسارًا دون أن ألمس شيئًا. حتى سمعت اسمي بصوت قوي جدًّا، يصرخ به أحدهم خلفي، بصوت الأم ميلانيا السام. التفت فجأة وكانت هي هناك، تقف في الأسفل بإصبع في الهواء، معوجة تمامًا، وبطريقة ما تشير إليَّ، وقالت لي:

- الوصية السابعة، لا تسرق! من يسرق يذهب إلى الجحيم، فكِّر قليلًا في ما يمكن أن يحدث لك، أنت يا من تسرق الفقراء! سينتهي بك الأمر في عمق أعماق الجحيم، حيث الشياطين المسلحة بالسكاكين تمزقك إربًا، ثم تتجمع الإرب من جديد وتعود سليمًا مرة أخرى، وهكذا يمكن للشياطين البدء من جديد بالسكاكين.

عندئذ جذبت ذراعي، الآثمة والمقدر لها أن تنتهي يومًا ما إربًا، خارج الصندوق، وقفزت إلى الأسفل. وأردت أن أشرح للأم أنني لم أكن أرغب في تلك الملابس الممزقة بدافع شرير، بل العكس تمامًا، لأنني أريد أن أتبع مثال يسوع والقديس فرنسيس. إلا أنني شعرت بالخجل والتزمت الصمت، وظهرت أمامها لصًّا، بل مجنونًا.

لا بأس، لقد ظنوا أيضًا أن القديس فرنسيس مجنون، على الرغم من كونه قديسًا. أدرك الناس ذلك بعدها بفترة طويلة، ولكن أدركته «الطبيعة» على الفور، في الواقع عندما كان يذهب إلى الغابة كانت الذئاب تجلس ساكنة عند قدميه مثل الجراء، ومئات العصافير تتجمع حوله وتمكث في ثبات للاستماع إليه. ربما من الأفضل ألا يحدث لي موضوع العصافير هذا، لأنها ستكون فرصة لأعمامي كي يرتكبوا مذبحة، ولكن الخلاصة، في صباح المهر والمسبح حسدت ذلك الصبي فقط للحظة وبعدها فهمت أنه يعيش مأساة، وأنني أنا المحظوظ.

لأنني كنت أغمض عينَي، وأتخيل صالة كبيرة في الدير، حيث يقدمون دروس التربية الكنسية. وفي يوم سبت بعيد في المستقبل، بعد أعوام عديدة، عندما تصبح للراهبات ملابس فضية ويصبحن أكثر صلاحًا، ويتمكن الصبية من السفر بسفن إلى الفضاء لزيارته، سيتواجدون بالتأكيد عصر يوم السبت في دروس التربية الكنسية، لأن العالم كله يمكنه أن يتغير، بينما لن يتوقف الكبار أبدًا عن أخذ وقت فراغ الأبناء وملئه بأشياء لا تعجبهم. على كل حال، في ذلك السبت المستقبلي أرى راهبة المستقبل المغطاة بالفضة وهي تقول:

يا أولاد، اليوم يوم القديس فابيو، ولا بد أن تعرفوا أن القديس فابيو وُلد فقيرًا جدًّا، وكان يلعب في عربة متنقلة مليئة بالفئران تقرض السقف وكل شيء، ولكنه كان يتركها لحالها، لأن تلك الفئران المسكينة أيضًا لا بد وأن تأكل.

كان قلب القديس فابيو كبيرًا جدًّا، قلب تقريبًا يشبه ما لديدان الأرض التي لها خمسة قلوب. كان متواضعًا وصالحًا، ويتجول بشعره المليء بالتجاعيد وكان أعمامه كثيرين ومتجبرين، ولتفهموا كيف كانت ملابسه يكفي أن تعلموا أنه كان يحلم بأن يتمكن من ارتداء ملابس الفقراء، وحتى تلك لم يدعوه يحصل عليها.

منذ طفولته كان يكسب معيشته بالعمل، يربي ديدان الأرض بالنفايات التي كان يجمعها من الجوار، ويحارب هكذا أيضًا تلوث الأرض والتي في تلك الفترة كانت لا تزال هناك فرصة لإنقاذها. بفضله استطاع سكان بلدته الحصول على خبزهم اليومي، والذي في تلك الفترة لم يكن الخبز إنما سمكة تُدعى الأنقليس، انقرضت الآن وبالتأكيد ليس هذا خطأ القديس فابيو، أو على الأقل ليس خطأه بمفرده. على كل حال، واجب السبت القادم هو رسم القديس فابيو وهو يصنع كبرى معجزاته، وهو ذلك اليوم الذي بينما يقرأ فيه لأبيه أقامه من الغيبوبة، وتعانقا بقوة شديدة، و...

أجل، هكذا بالتحديد، هذا ما يجب أن يحدث، كنت أفكر في الأمر وأرتعد من الانفعال وأنا أتخيل اليوم الذي سيحدث فيه كل هذا في الواقع. إلا أنه بعد ذلك حدث هذا الشيء السيئ، وتربية

الديدان أصبحت تعود عليَّ بثراء كبير وأخاطر هكذا بأن أتحول إلى مليارديرِ: وداعًا للقداسة، ووداعًا لراهبات المستقبل اللاتي يتحدثن عني، ووداعًا معجزة أبي الذي سيستيقظ.

عندئذ بعد بضع ليالٍ بلا نوم، استيقظت وذهبت جريًا إلى خلف منزل جدتي، أخذت لافتة المزرعة، ومحوت ثمن الديدان، لأنه من ذلك اليوم لم أعد أريد نقودًا. أي أنني سأطلب منهم أن يجمعوا النقود ويعطوني فقط مائة ليرة أسبوعية، لصرفها على كتاب إرشادي جديد لكل يوم أربعاء. لأن هذا لم يكن رفاهية، بل كان أهم حتى من الخبز اليومي.

وهكذا، توقفت عن أن أصبح غنيًّا وعادت إليَّ سعادتي. بل وأكثر من ذي قبل، لأنني بالإضافة إلى كوني فقيرًا فقد أصبحت كريمًا أيضًا، وأهدي طُعمي الرائع للأصدقاء الصيادين.

أول من وصل كان العم آراميس، والذي كان يريد عشر ديدان ومعه النقود في يده وبرطمان بغطاء مثقوب.

– خذ يا عمي العزيز. ها هي، انظر كم هي ضخمة. وبلا نقود، شكرًا.

– كـ... كـ... كيف لا؟

– لا، لا تلزمني النقود.

قلت بابتسامة كلها طيبة وعيناي شبه مغلقتين من الضوء الذي يغشي الأبصار، ذلك الضوء الذي ينبعث مني أنا.

- من الآن لم أعد أريدها.

- آه، حـ... حسنًا.

أخذ الديدان ووضع النقود في جيبه من جديد ورحل في اتجاه النهر. وبعد خطوتين، توقف والتفت من جديد وقال لي:

- ولـ... لـ... كن، يـ... يـ... يجب أن أقول لك، إنك فـ... فـ... علًا...

ابتسمت مرة أخرى، وأشرت بالإيجاب:

- أعرف يا عمي، شكرًا، إنني بالفعل قديس.

- لـ... لا! إنك بالفعل... أ... أ... حمق!

(١١)

أغنية دينو وماريوتشا

لكل منا ما يفضله، بالنسبة لي الفصل الأجمل هو فصل الصيف ولا نقاش في هذا. إنه الأجمل من كل الفصول الأخرى التي تدور حوله، حتى وإن كانت لها أسماؤها وثمارها، ولكنك في قلبك تفكر فيها بطريقة واحدة:

الخريف: آه، للأسف انتهى الصيف.

الشتاء: إن الصيف بعيد جدًّا.

الربيع: هيا، اقتربنا كثيرًا، هيا، هيا، هيا.

ثم، يعود الصيف أخيرًا، في كل المرات، وحتى ذلك العام، والذي كنت فيه في العاشرة من عمري وفي بداية الصف الخامس الابتدائي. إلا أن أبي لم يعد معه، عندئذ حتى الصيف بدا ناقصًا، مثل شمس لا تُدفئ وزهرة غير عطرة وألعاب نارية لا تفرقع.

إلا أنني كنت أذهب يوميًّا إلى البحر وأسبح، أسبح كثيرًا لأن هذا ما علمه لي أبي ويعجبني كثيرًا، وكنت أحب أن أريه هذا، أريه

كيف تعلمته جيدًا. إلا أنه لم يكن في إمكانه رؤيته، ولا حتى أمي ولا جدتي، لأن نظرًا لأن أبي لم يعد يعمل، كان لا بد أن تعملا هما طول الوقت، وكانتا دائمًا تذهبان لتنظيف الفيلات الكثيرة فأصبح تنظيف منزلنا واجبي.

حقيقي أن كوننا فقراء شيء جميل، وكنت أشعر أنني قديس لأنني أهدي ديداني للقريب، إلا أن أحدًا لا يهدينا أي شيء، حتى السيدة تريزا تريد نقودًا لتعطينا أشياء مهمة مثل الطعام، الذي من دونه نموت. أجل، أريد أن أصبح قديسًا، ولكنني، إن أمكن، أريد أيضًا أن أظل على قيد الحياة، ولهذا السبب فأنا في هذا الصباح، في نهاية الصيف، أجلس هنا في مركز المحاربين القدامى.

كانت لديهم بنايات في وسط المدينة، كلها شقق والعديد من محلات يمكن تأجيرها، وما يربحونه يبنون به تذكارات لمن ماتوا في الحروب، ويساعدون من ذهب إلى الحرب ولم يمت. إلا أن أولئك أيضًا يموتون جميعهم بالتدريج، عندئذ يساعدون أحفادهم الطلاب من خلال منحة دراسية في بداية العام الدراسي. ليست مبلغًا كبيرًا، ولكنها تدعمنا كثيرًا.

عادة تساعدني أمي، ولكن في هذا العام، بالتحديد، كانت تعمل، لذلك تركتني أمام البناية وقالت لي إن أحد الأعمام سيمر ليأخذني في وقت لاحق، وبالتالي دخلت إلى المكتب بمفردي ودون مشكلات.

يمكن أن نقول تقريبًا دون مشكلات، لأنني أكملت تلك الورقة

وبدا لي هذا أمرًا سهلًا، وعلى الناحية الأخرى للمكتب يجلس رجل مسن جدًّا بلحية، وبالعديد من النياشين على سترته، أخذ يفحصها ويتأفف، وفي النهاية قال لي لا، هكذا لا يصلح.

– يجب أن تكتب اسم العائلة أولًا ثم اسمك.

في الواقع كان النموذج يطلب هذا «اسم العائلة ثم الاسم»، إلا أنني لم أكتب اسم العائلة قبل اسمي، ولن أكتبه أبدًا: كان هذا هو الشيء الوحيد الذي علمه لي جدي أرولاندو وهو حي، أو على الأقل الشيء الوحيد الذي أتذكره: لا تكتب أبدًا اسم عائلتك قبل اسمك. وفي تلك الحقبة كنت صغيرًا جدًّا لأتمكن من أن أسأله عن السبب، فقد قاله لي وأشرت أنا بالإيجاب برأسي. تمامًا مثلما أفعل الآن بلا، أمام هذا السيد على الناحية الأخرى للمكتب، وهو يعيد إليَّ النموذج لأصلحه.

– يا صغير، هذا شيء لا يمكنك اختياره، اسم العائلة أولًا ثم اسمك.

– يؤسفني هذا يا سيدي، ولكنني لا أستطيع.

– هه؟ ولماذا إذن؟

حدق فيَّ من أسفل حاجبيه الضخمين للغاية، حتى بدا كأنه يتجسس عليَّ من خلف غابة كثيفة، ويريد إجابة. إلا أن جدي لم يشرح لي السبب، كيف يمكنني إذن أن أشرحه له؟

حاولت:

- لأن هذا لا معنى له، هل سمعت حضرتك من قبل أحدهم يقول كولومبو كريستوفر؟ أو بولو ماركو؟ هل سمعت من قبل أحدهم يقول ترافولتا جون؟

- لا يا صغير، ولكن في حقيقة الأمر أولئك لا يأخذون منا، نحن المحاربين القدامى، ليرة واحدة. إذا أردت النقود فعلًا فلا بد أن تطيع. لا يوجد اختيار هنا، الأمر كذلك فحسب.

إلا أنني عقدت ذراعَي على صدري، وأشرت بالرفض مرة أخرى.

عندئذ زفر، ونزع النموذج من يدي، فتح درجًا توجد فيه نماذج كثيرة أخرى، وبدلًا من أن يضعه فوقها، دفنه ليصبح الأخير.

- حسنًا، سنرى إذا تبقى شيء، أو إذا كان يمكننا منحك شيء هذا العام.

قال هذا بجدية شديدة، إلا أنني لم أهتم. ولا حتى ملايين الملايين يمكنها أن تجعلني أخون تعاليم جدي. كنت أُفضل ألّا تكون لدي نقود للكتب، وأن أُفوت عامًا دراسيًّا، على كل الأحوال كانت تكفيني مائة ليرة أسبوعيًّا لأشتري كتبي الإرشادية وأن أتعلم كل ما يفيدني في الحياة.

بل، وقبل أن أرحل كنت أريد أن أقول هذا لهذا السيد القبيح المغطى بالنياشين، والذي في رأيي لم يكن محاربًا قديمًا حقيقيًّا لأن المحاربين خاطروا بحياتهم ليحرروا إيطاليا، بينما هو لا يترك لي حريتي لأكتب اسمي بالطريقة التي تعجبني.

كنت على وشك أن أقول له هذا بالفعل، أقسم بهذا، كان فمي مفتوحًا ورئتاي مليئتين لتطلقا كل شيء في نفخة واحدة. إلا أنه كان أسرع، تحدث هو أولًا وتركني بلا نفس. لأنه أغلق الدرج، ورفع رأسه وهمس بكلمات قليلة كلها معوجة، ترددت بين الجدران واللافتات وصور قديمة لرجال في أزياء حربية، ثم قفزت فوقي، وكأنها ضربة كرباج في وسط صدري، ومنه حتى قلبي، ثم إلى ذلك المكان الغامض الذي نحفظ فيه روحنا، فقد قال:

- حسنًا، كان يجب أن أتوقع ذلك من حفيد أولئك المجانين.

هكذا ظل فمي مفتوحًا، فقط لأنني نسيت أنني أملك واحدًا. وكأنني لم تعد لدي قدمان تحملانني. فأنا ليس لدي سوى العقاب البشع في دمي، سوى لعنة تنتظرني في سن الأربعين ولكنها حولي منذ الآن، وربما لم أكن أدركها بينما الناس تراها جيدًا، حتى من خلف هذين الحاجبين العملاقين.

عندئذ لم أتمكن من قول أي شيء سيئ للمحارب القديم. بل، كدت أسأله الصفح، وأن أطلب منه إعادة النموذج لأصلحه، وأن أكتب جيدًا اسم عائلتي قبل اسمي، وبهذا يعرف أنه ليس اسم مانشيني الملعون. لا، كنت أحمل اسم عائلة أبي، وفي الواقع كان هو من يمنحني الحق في المنحة الدراسية.

بالتأكيد ليس بفضل أعمامي، والذين لا وجود لهم في سجل المحاربين هذا. في زمن الحرب بعضهم كان صغيرًا جدًّا في السن، والبعض الآخر كان مسنًّا جدًّا، ومَن كانت سنه مناسبة منهم لم

يكن مناسبًا لأسباب أخرى، جميعهم أعداء واضحون للفاشية ومستعدون لإحداث الفوضى. لهذا، كانت توجد فرق من المواطنين ترتدي القمصان السوداء أيام السبت مساء، وتطوف البلدة لتبحث عنهم بالعصا في يدهم، على شاحنة سوداء تمامًا، مرسوم عليها العديد من الجماجم (المرسومة بطريقة سيئة جدًّا، كما يتذكر الجد). في الواقع كانوا يعرفون جيدًا أين توجد عائلة مانشيني، حيث كانوا في قرية مانشيني، إلا أنه كان من الأفضل ألَّا يذهب أحد للعثور عليهم. الوحيدون الذين كانوا يذهبون هم العساكر، وذلك في كل مرة كان موسوليني يمر من توسكانا أو من جنوب ليجوريا لإلقاء خطبة ما. في تلك المناسبات يُقبض على رجال العائلة ومعهم أيضًا أم جدي أركيلدا ويضعونهم في السجن لبضعة أيام، حرصًا ليس أكثر على حفظ الأمن. بل أنه عندما كانت تظهر أخبار أي زيارة للدوتشي في الأفق إلى فلورنسا أو إلى تلك الجهات يرفع أبو جدي أرتورو عينيه إلى السماء ويقول: أركيلدا، جهزي الملابس الداخلية والقمصان النظيفة، هذه الليلة سننام خارج المنزل.

الخلاصة، كان يمكن أن تسمع اسم عائلة مانشيني في تلك الأعوام في كل الجهات، فيما عدا ما بين محاربي الجيش. إلا أن العم ألدو لم يكن موجودًا، وأحيانًا في الأيام التي يستيقظ فيها ولديه رغبة شديدة في الشجار يجري إلى هناك، إلى المقر، ويصرخ بأنها فضيحة، إذ إنهم لا يمنحون النقود للحفيد الوحيد لمناهضي الفاشية الحقيقيين في البلدة، والذين وقفوا ضد موسوليني منذ

الأزل، وليس مثل الآخرين الذين انتظروا حتى رأوه يتأرجح على حبل المشنقة.

ولكنه كان شجارًا بلا معنى، لأن النقود تصلني بالفعل، بفضل والد أبي. كان اسمه دينو، ولم يكن على سجل المقاتلين فحسب، إنما كان اسمه مكتوبًا بحروف كبيرة. لأن جدي دينو وقع في أسر الألمان، وانتهى أمره في أحد معسكرات التعذيب.

ربما لم يكن هذا السيد السخيف والمغطى بالنياشين يعرف هذا، ربما لم يكن يعرف من هو جدي، وماذا فعل، ولذلك أقصه عليه ماحدث الآن. وإذا كان يعرف بالفعل، فهذا فلا يهم، سأقصه عليه مع ذلك، لأن هناك قصصًا معينة تشبه الأغاني المفضلة، كلما استمعت إليها تشعر برغبة أكبر في إعادة الاستماع.

وأغنية جدي دينو هي التالية:

ظلت ماريوتشا بمفردها، كان عمرها عشرين عامًا ولها طفلتان صغيرتان، وحقل صغير، والذي بفضل استغلالها له جيدًا كانت تستطيع أن تحصل منه على الأكل لتعيش. كانت تنحني على الأرض من الفجر حتى الغروب، وكانت الأرض منخفضة، فالأرض هي أكثر شيء منخفض. كانت الجدة تفتحها، تقلبها وتخلطها، وفي هذا الوقت كانت تحكي لها عن زوجها، كيف تعرفا، وعن تلك المرة التي تلت زواجهما وقد كانا يمران فيها من أمام طاولة عليها شوكولاتة، ولم تكن هي قد تذوقتها من قبل، وشعرت برغبة شديدة فيها إلى حد الألم، وكادت تقول له، ولكنها لم تفعل ذلك وكتمت تلك الرغبة،

لأنها لم ترغب في أن تظهر أمامه بلا حياء. إلا أنها الآن نذرت نذرًا، أنه إذا صنعت لها العذراء معروفًا وأعادت دينو من الحرب، فلن تذوق الشوكولاتة أبدًا في حياتها. هذا النذر كانت تكرره كل يوم بصوت مرتفع، على الرغم من أنها كانت بمفردها في الحقل. كانت تتحدث مع النباتات، تحكي لها كل القصص التي لا بد وأنها رائعة، لأن الطماطم والفاصولياء واللفت كانت تنمو بسرعة جدًّا لتصعد إلى الأعلى وتسمعها أفضل، وكانت الجدة لا تتوقف عن الحكي حتى عندما ترغب في البكاء، كانت قد تعلمت أن تفعل ذلك بلا شهقات ولا نواح، فقط دموع تتساقط من عينيها، وكأنها العرق المتساقط من جبهتها من التعب الذي ينتابها بعد مكوثها على الأرض غارسة يديها فيها، ومن حين لآخر ترفع نظرها إلى بعيد، حيث ينتهي الحقل ويمر الشارع الوحيد المؤطر بأشجار الزيتون، كانت تنتظر، كانت تتمنى.

حتى حدث في أحد ظهيرات شهر سبتمبر أن وصل سيرجونه جريًا، وكان ضخمًا مثل الثور، وله نظرة العجول الصغيرة المولودة للتوِّ. عبر الحقل وهو يسحق البذور، وجدتي لم تزجره، لأن سيرجونه أخذ يتقدم رافعًا ذراعيه للسماء وهو يصيح وصل دينو! وصل دينو!

كانت قد مرت ثلاث سنوات بالفعل إلا أنها تنتظره في كل لحظة. وفي الواقع استغرقها الأمر دقيقة، اغتسلت بالمياه من الحوض، وارتدت ثوبًا نظيفًا تحفظه لهذا الغرض بجوار هواء النافذة، وها هي

بالفعل على قمة الطريق. لم تكن تعرف من أي جهة ستراه قادمًا، عندئذ أخذت تنظر برهة من هنا وبرهة من هناك حتى لا تفقد اللحظة الضئيلة لكن العملاقة التي سيبرز فيها دينو من نهاية الطريق، وستبدأ الحياة من جديد بأن تصبح حياة حقيقية. إلا أن فترة العصر مرت، ولم يظهر أي شيء. لم يظهر سوى سيرجونه نحو المغيب، وهو يحمل جوالًا مليئًا بالعشب. سألها ماذا تفعل في الطريق، لأنه نسي كل شيء، ثم احمر وجهه وخفض عينيه وقال لها: سامحيني يا ماريوتشا، ولكنكِ تبكين كثيرًا وأردت اليوم إسعادك.

طلب منها الصفح آلاف المرات بعدها، وفي اليوم التالي فعل الشيء نفسه، وهكذا كل ظهيرة من ذلك الخريف، مقتنعًا أنه بهذا يسعدها، مثلما كانت الحال في أول يوم، وهي تقف على قمة الطريق، وتنظر هنا وهناك بعينيها محدقتين في اللا شيء بين السماء والشارع الفارغ، وترتدي ثوبًا جيدًا.

إلا أن ماريوتشا الآن لم تعد حتى ترفع رأسها، يصرخ سيرجونه أن دينو في الطريق، وهي تجيبه: حسنًا، قل له إنني أنتظره هنا. وتستمر في العمل. وسار الأمر على هذا المنوال، سواء تحت الأمطار أو في الشمس الحارقة، حتى في عيد الميلاد أو العام الجديد. حتى في مساء أحد أيام شهر مايو بعد انتهاء الحرب وبينما الجدة منهمكة في ربط الطماطم في الشمس التي لم تكن ترغب في أن تغرب قَط، أتى ذلك السيد المسن وهو يرتدي أشياء تبدو أجولة، وعلى رأسه قبعة ممزقة. لم ترَه الجدة المنحنية على الأرض في أثناء تقدمه نحوها،

أدركت فقط وجود ظل رفيع ومعوج يمتد ويظلم الحقل أمامها، ودون أن ترفع عينيها قالت: توجد قطعة بولينتا بجوار الباب إذا اردت. لكن إذا لم تكن تريدها فهذا أفضل لأنها عشاؤنا.

لم يُجب المسن، ولم يتحرك، كان ظله خطًّا قائمًا وطويلًا وثابتًا، مثل عقرب الساعة المكسورة. ثم بإيماءة بسيطة، نزع الرجل فقط قبعته، وفي تلك اللحظة توقف الزمن، ومعه توقفت الشمس المنعكسة عليهما، والأرض التي يقفان عليها، وانتهى أيضًا الهواء بينهما، في الواقع لم تعد ماريوتشا تتنفس، لأنها فهمت، لأنه خلال أعوام الحرب تلك أتى لنساء المنازل المجاورة أشخاص مجهولون وجميعهم جادون، وقبل أن يتحدثوا كانوا يخلعون قبعاتهم، وكأنهم يطلبون الصفح عن الخبر الذي يحملونه، ثم يرحلون تاركين العويل خلفهم. والآن وقد انتهت الحرب، ودينو لم يعد، لم تكن بحاجة إلى أن يقول لها هذا الظل ما أتى ليقوله، فالأمر شديد الوضوح، واضح وفي الوقت نفسه قاتم، أسود قاتم.

وفي ذلك الظلام سمعت ماريوتشا صوت المسن، والذي لم يكن صوتًا لمسن: هذه الطريقة في الاحتكاك في الحنجرة عند خروجه، وطريقة التحدث دون تحريك الشفتين، تلك الطريقة الخشنة وفي الوقت نفسه انسيابية ليقول في نفحة، وكأن نفسًا يذوب في الأذن: هلا يا ماريو.

دخل هذا الصوت إلى أذنَي الجدة، وإلى عينيها المحدقتين بينما تنهض فجأة، وإلى كل واحدة من مسام جلدها، والذي أخذته

وابتلعته ودفعته حتى يصل إلى القلب، والذي لم يعمل من جديد فقط، وإنما انفجر مثل بالون طار حتى وصل إلى عنان السماء. إلى تلك السماء طارت هي أيضًا: كانت منحنية على الأرض ولكنها الآن تقفز إلى الأعلى، تقفز فوقه، تعانقه وخيط الطماطم لا يزال في يدها. ويلتقطها دينو على الفور، ويحضنها بقوة حتى يصبحا شيئًا واحدًا في هذا الحقل، شيئًا متسخًا من الطمي ومن التراب، ولكنهما معًا كوَّنا شيئًا منيرًا، دافئًا إلى حد أن النباتات اعتقدته الشمس واستدارت كلها لتنظر إليه.

كانت ماريوتشا تنظر إلى دينو، تُقبله على عنقه وفمه وتشرب من عطره وأنفاسه وتتلمس التجاعيد والثنيات المجهولة في وجهه وتعثر في نهايتها على عينيه الخضراوين، شديدتي العمق، اللتين لكي تنظر بداخلهما لا بد وأن تعرف السباحة.

وبعينيه ينظر دينو إلى ماريوتشا، حتى وإن كانتا من حين إلى آخر تقفزان بقلق خلفها. لأنه في البداية التفت ليرى إذا كان أحدهم قادمًا، ومع الوقت سيعتاد ذلك، لأن دينو لن يتوقف أبدًا عن رؤية تلك الأشباح التي تصل فوقه من اللا شيء. لكنه الآن يعانقها بشدة ويضمها إليه، يهبط الظلام وينزل الندى ليبللهما، وعندما ينجحان في أن ينفصلا عن بعضهما، فإن أول شيء يفعلانه، حتى وإن بدا مستحيلًا، هو أنهما يستكملان ربط الطماطم. إلا أنهما يفعلان ذلك معًا، اليدان تتعانقان في الإيماءات نفسها، والجلد يتشابك مع الجلد، حتى إن العمل ينساب بمفرده بالحب. وفي حين تنتظرهما في المنزل

ابتان، فهناك، على الأرض وفي وسط الحقل، يدعو دينو وماريوتشا إلى العالم طفلًا آخر.

ستثمر الطماطم من تلك النباتات حولها، ثم سيولد طفل، سيطلقان عليه اسم جورجو، وسيصبح أبي، وعندئذ في ذلك الحقل بعدها بقليل وُلدت أنا أيضًا، وإن لم يكن الجد قد مات قبلها لكان اسمي دينو مثله. ولكنه مات وعمري شهر، ولذلك لم يبقَ لي اسمه ولا حتى ذكرى حقيقية منه.

لدي فقط قصته هو وجدتي وصورة. صورة في الحظيرة، بيضاء وسوداء مثل البقرة الخلفية، ورأسها منحنٍ لتأكل، القش حولها، وسلم خشبي لا أحد يعرف من أين إلى أين يقود. تبتسم الجدة وتحيي، بينما الجد دينو يحملني على إحدى ذراعيه وينظر إليَّ.

يبتسم هو أيضًا، لأنه ربما في تلك اللحظة كان يراني أنا فقط من دون كل الأشباح التي كانت تملأ عينيه. ماذا كانت، وكيف دخلت، لم يكن الجد دينو يقص هذا قَط. لم يقص حتى كيف قُبض عليه، وماذا حدث له ولا حتى كيف استطاع أن يعود، وكيف هرب من التطاير المباشر للرصاص الذي يمكن أن يزيلك من العالم، والقنابل التي تسقط وتنفجر في أي مكان، والألغام أسفل الأرض والتي مع كل خطوة تقرر إذا كانت ستتركك تتنفس مرة أخرى أم أنها ساعة النوم.

إلا أنه من الواضح أن الجد خطا الخطوة الصحيحة، ثم أخرى، ثم أخرى أيضًا، وهكذا في مسار متعرج عاد حتى وصل إلى المنزل.

استغرقه الأمر وقتًا طويلًا جدًّا، لأنه رحل صبيًّا وعاد مُسنًّا، إلا أنه عاد. وصل إلى الجدة في ذلك الحقل وقت الغروب وتعانقا، وهكذا بدأت قصة أبي، ثم قصتي، والتي من دونها لم أكن أستطيع أن أكون هنا اليوم لأحكيها، لأحكي قصة جدي دينو.

في الواقع، عندما قال لنا الأب دومينيكو في الكنيسة إن الجسد يموت وأرواحنا تعيش إلى الأبد، لم أستطع تخيل تلك الروح، ثم أدركت أن روح كل شخص هي التالية: إنها حكايته التي يمكن قصها، وكلما كانت جميلة، طارت بين الأفواه والآذان واستمرت عبر الزمن. ينتهي جسدك في صندوق، ولكن قصتك تطير حول العالم، تسافر إلى الأبد.

وأنا أردت أن تصل قصة جدي دينو حتى هنا، حتى مقر المحاربين السابقين، أن تقف على قدميها هنا بجواري وتنظر في عينَي ذلك الشخص السخيف والمغطى بالنياشين الغبية على صدره، والذي عندما يسعل يصنع ضجيجًا شبيهًا بالأجراس المعلقة على أعناق البقر، حتى تشعره بالخجل من أنه دعاني مجنونًا. لأن المجانين هم أولئك الذين يقررون الحروب، ثم يرسلون الأشخاص ليموتوا فيها، كان لا بد وأن أقول له هذا، لأنني كنت أحتفظ بهذا في داخلي، وكادت حنجرتي أن تنفجر.

ثم انفجر شيء أقوى من الخارج، ضجيج نفير سيارة وصياح. كان نفير العم ألدو، وكانت الأصوات هي أصوات الأعمام متداخلة.

- هيا تحرك، تعالَ، دعك من هذا المخبول.

ثم، مثل فريق في الاستاد، ومع النفير الذي يعمل كإيقاع، أخذوا جميعًا يغنون:

- مخـ-بو-ل! مخـ-بو-ل! مخـ-بو-ل!

أخذ المحارب السابق يحدق فيَّ، بفم نصفه مُهان من كل تلك «المخبول» التي يتلقاها، وفي النصف الآخر بابتسامةِ بُغضٍ صغيرة، تظهر على وجهك عندما تفكر بأنك على حق.

إلا أنه لم يكن على حق، وربما لم أكن أنا أيضًا على حق، ولكن ما أهمية هذا! ليصبح المرء على حق تبدأ الحروب، ثم تليها بقوة القنابل والمدافع التي تصم أذنيك، ولا يتبقى سوى نياشين فوق الصدر وأموات تحت الأرض.

إذن سواء كنت غريبًا أو مجنونًا، لا أعرف ولا يهمني. أعرف فقط أنني سأترك النموذج كما هو، خطأ وصواب في آن واحد، وسأجري إلى هناك. بعض السلالم ثم الطريق، وستطير قصتي بالفعل إلى الجهة الأخرى.

(١٢)
مُفرغ الجماجم

- أوه، أخيرًا!

قال العم ألدو هذا بمجرد أن خرجت من بناية المحاربين السابقين.

- كم من الوقت استغرقت!

ضغط المفتاح بقوة، وشغل الشاحنة، بينما أضغط أنا فوق العم آراميس والعم أديلمو، فوق المقعد الوحيد والطويل وكأنه الدكة. أما العم آتوس فكان في الخلف، في الخارج، في صندوق الشاحنة، لأنه يحب أن يسافر والهواء عليه والسماء فوقه.

أجبت، ومرفق أديلمو في فمي:

- حدثت مشكلة في النموذج.

- وهذا أيضًا، أي مشكلة؟

- لا شيء، كان لا بد أن أكتب أولًا اسم العائلة ثم اسمي.

- ماذا؟ يا لها من تصرفات عبيد، لا يجب هذا!

- في الواقع لم أكتبه، وكانت هذه هي المشكلة.

- أحسنت يا فتى، أحسنت جدًّا!

قالوا جميعهم معًا. أي في الحقيقة قال هذا فقط ألدو وأديلمو، لأن العم آتوس كان في الخارج يحرك يديه في الرياح ويضحك بمفرده، وآراميس اشتبك في (أ) أحسنت دون أن يتقدم إلى الأمام.

- أحسنت جدًّا.

قال مرة أخرى العم ألدو، وبعد منحنى رفع يده من على المقود ليعطيني تربيتة على ظهري، قوية وكأنها ضربة مجداف. والأعمام الآخرون أيضًا أخذوا يرددون أن كتابة اسم العائلة ثم اسمي هو شيء يفعله العبيد والتعساء، وأنني أحسنت التصرف بألَّا أطيع، هذه الورقة كان لا بد أن أمزقها وأتبول عليها، وأن أقلب المائدة مع الأوراق الأخرى وأحرق كل شيء.

- النار في كل شيء! النار في كل شيء!

كان العم أديلمو يصيح وهو يدلك شعري بيده. وإذا كان في البداية أعجبني أنهم أيدوا ما فعلت، إلا أننا كلما تقدمنا إلى الأمام مع الصرخات والتفل والحرائق، شعرت بتوتر أكثر لأنني في الجهة التي تخصهم من العالم. بالإضافة إلى التوتر شعرت أيضًا القرف، عندما رأيت أديلمو يتفل في يده قبل أن يدلك شعري.

- لا! كفى، النجدة.

- اثبت، اثبت فشعرك كله معكوش.

كان يقول هذا بينما يحاول بلعابه أن يثني شعري المجعد على أحد الجانبين. وفقط عند تلك اللحظة أدركت أن شعر أعمامي مصفف للغاية.

شعرهم مصفف بل وتقريبًا أنيقون، بلا بوطة من المطاط وأحذية ضخمة، بلا جوارب مقلدة وسترات صيد، وهو حدث يقع فقط عندما يجب أن يتظاهروا بأنهم مختلفون عما هم عليه في الحقيقة، وأن يقدموا أنفسهم في نظافة وبشعر مصفف، كان هذا بالفعل تغيرًا كبيرًا.

في أثناء ذلك كان أديلمو مستمرًّا في وضع يده المتسخة باللعاب على تجاعيد شعري وأنا أصرخ: لا لا لا! وأحاول أن أختبئ خلف آراميس. عندئذ سب العم ألدو وصاح بأننا يجب أن نهدأ، وقال لي إننا الآن ذاهبون إلى مكان حيث يجب أن أتصرف بمهارة وأجيب دائمًا فقط بنعم.

- نعم فقط وليس أي شيء آخر، هل فهمت؟

- لا.

- تمامًا، حسن جدًّا.

سباب آخر، وسيجارة أخرى وفعل آراميس وأديلمو الشي نفسه، وهكذا لم يكن في الإمكان التنفس داخل الشاحنة. العم آتوس أيضًا ضرب على النافذة الخلفية ومرروا له واحدة، إلا أن الرياح

نزعتها من فمه تقريبًا عل الفور. ضحك هو بشدة ورفع ذراعيه وصرخ: دخنيها أنتِ يا سماء! دخنيها أنتِ!

هكذا كنا نتحرك، متلاصقين على المقعد نفسه، والدخان نفسه في رئاتنا، واللعاب نفسه على الشعر وللأسف الدماء نفسها في العروق. شيء واحد وحيد، غريب وملعون، يجري نحو مصير وحيد. أو على الأقل، اعتقدت أنه المصير، لكنها كانت لوكًا.

ليتها كانت جالاباجوس، إلا أنه، في كل الأحوال، مكان أبعد من المعتاد ولهذا شعرت بالسعادة. لم تكن هناك صخور شاهقة مليئة بالشرشوريات مصاصة الدماء ولا غابات من النباتات المجهولة، كانت جيدة تلك البنايات الضخمة القديمة والقاتمة التي تفصلها طرق ضيقة، والتي في مناطق منها تعبر الشاحنة وتصدر شررًا لاحتكاكها بالجدران.

ثم توقفنا أمام بوابة ضخمة وقديمة، حمل الأعمام الآخرون أديلمو وكرسيه على أذرعهم ودخلنا ممرًّا طويلًا حيث لا وجود لأحد. واضطررنا للذهاب إلى أعلى وإلى أسفل حتى عثرنا على الباب الصحيح، والمكتوب فوقه «مقاطعة لوكًا - قسم الصيد وصيد السمك»، كان الباب نصفه مفتوح على حجرة بنافذة صغيرة في نهايتها، وأسفل النافذة مكتب بمقعد وحيد أمامنا، كبير ومريح وفارغ.

سعل العم ألدو، ثم سعل مرة أخرى، ثم توقف فقط عندما قال أحدهم: سأحضر.

كان صوت امرأة، ولسبب ما كان هذا خبرًا جيدًا، نظرًا لأن الأعمام تبادلوا النظرات وأشاروا بالإيجاب بابتسامة قاطعة. حتى إن العم أديلمو لحس يديه ليضبط شعره مرة أخرى.

أما أنا فمكثت متأخرًا خطوة، متسمرًا بجوار الباب، لأن الحجرة كانت مظلمة ورائحتها غريبة، والأهم كانت الجدران كلها مغطاة بالرفوف، وعلى تلك الرفوف يوجد عدد لا يُحصى من الطيور.

طيور حقيقية، كبيرة وصغيرة، قاتمة وملونة، بعضها يقف على غصن والبعض الآخر جناحاه مفرودان وكأنه على وشك الطيران، كلها ساكنة بعيون محدقة نحو نقطة محددة، وهي أنا.

كانت طيورًا محنطة، ولذلك تحنطت أنا أيضًا على الباب. لأنه بالتحديد في ذلك الأربعاء كان الكتاب الإرشادي الذي اخترته من على طاولة السيدة ستيلّا عنوانه: *إعداد عالم الطبيعة. المحنط المُصبر*. كان الكتاب أقدم من تلك الأخرى، بغلاف سميك من الجلد. أخذته إلى المنزل وكلي حماس، لأنه بدا لي نصًّا قديمًا وسحريًّا، وكنت أتوق لأقضي الأيام الأخيرة من الصيف لأتعلم أسرار التحنيط.

استمر هذا الحماس قليلًا، في الفترة التي قرأت فيها الفصل الأول واكتشفت أنني لكي أبدأ لا بد وأن أفتح حيوانًا ميتًا، وأفرغ كل ما بداخله. في الصفحات العشر الأولى يعدد الدكتور ر. جيسترو الأدوات التي تُستعمل لهذه العملية: سكاكين وخرامات حديدية، ومقصات ومقاشط، ومثاقيب وملاقيط وكماشات، وفرش من شعر

السمور، وكريم الزرنيخ، وشي آخر غامض اسمه صمغ جاوة، الجاتا برشا.

توقفت أمام الجاتا برشا، لأنني لم أكن أعرف ما هو، ولكن في الوقت نفسه بدا لي أنه في الحجرة ويغرقني. ولكنني رفعت نظري إلى أبي، وهو مستلقٍ على الفراش وساكن، كأنه حيوان محنط، إذن شيء فائر من الغضب جعلني أشير بلا، الحياة فقط هي التي تقرر أن توقفك، وعندما تقرر، توقفك بالفعل. إذا كانت اليوم تتركك حرًّا في الذهاب، فلا بد أن تضغط على أسنانك وتجري بأقصى ما لديك من سرعة. وهكذا فعلت أنا، فتحت من جديد الكتاب الإرشادي وانطلقت في القراءة بصوت مرتفع، بل مرتفع جدًّا، الفصل الثاني من تلك المغامرة، المخصصة كلها لإفراغ القرود:

لا بد وأن تكون الجمجمة قد أفرغت من المخ، ولعمل هذه الفجوة سنستخدم مُفرغ الجماجم، والذي سيقدمنا إلى عمليات متنوعة في تجويف عظام الجمجمة، نحركه في كل الاتجاهات بحيث نتمكن من نزع كتلة المخ...

عندئذ شعرت بأنه يكفي هذا، واستسلمت، لأنني بالإضافة إلى الشعور بالقرف، فإن الاستمرار سيكون تضحية لا فائدة منها: فقد كان المتجر الصغير للسيدة باتريتسيا بالقرب من البحر، يبيع كل شيء، من المسمار إلى القوارب المطاطية، إلى تلك العصي الطويلة ذات المقصات في قمتها لسرقة التين من حدائق الآخرين، ولكنها كانت ترنم في الكنيسة مع أمي، ولا يمكنني أن أذهب إلى متجرها

لأسألها: سيدة باتريتسيا، معذرة، هل يمكن أن تعطيني مفرغ جماجم؟

وهكذا ولأول مرة هجرت كتابًا إرشاديًّا دون أن أنهيه، وفكرت بأنني بسبب الاختيار العشوائي يمكن أن يحدث أن يختار المرء شيئًا سيئًا. والآن، على باب هذه الحجرة القاتمة، ها هي الصفحات تعود إلى ذهني مع نظرات آلاف الطيور الموجودة حولنا، بسبب عيونها القاتمة الزجاجية التي تدخل إلى مخي وحتى عمق لحمي، مثل الأدوات المخيفة لدكتور ر. جيسترو.

ساء الوضع أكثر بعدها بلحظة، عندما ظهر في الحجرة، من باب صغير خلفي، كائن حي. سيدة ذات شعر أسود مضموم في ضفيرة، جلست على الجهة الأخرى للمكتب ونظرت إلينا بجدية، وكأنها معلمة في مدرسة خلف مكتبها.

أخذت الأوراق ونادت على الأعمام واحدًا واحدًا، وكأنه استدعاء. كانت تقول اسم العائلة ثم اسمهم ولكنهم أجابوا بلا أي اعتراضات، جميعهم واقفون فيما عدا العم أديلمو كان جالسًا على كرسيه المتحرك، وفي الاستدعاء لم يكن اسمه مكتوبًا.

– ومن حضرتك؟

– أنا الأخ التعيس. لا دخل لي، ولكنني أشعر بالملل إذا تُركت بمفردي.

وقال العم ألدو:

- إذا كان يسبب أي إزعاج يمكننا وضعه في الممر.

ثم غيرت المعلمة من نبرتها:

- لا لا، لا داعي لذلك.

وللأسف نظرت إليَّ:

- أهلًا، ومن أنت؟

- إنه حفيدنا المحبوب.

أجاب العم آتوس وهو يدعك بيده خصلات شعري، مُدمرًا القليل منها، الذي استطاعت التفلة أن تصففه.

- حفيد من؟

- حفيدنا جميعًا.

قالت السيدة، بقطرة من الرحمة في صوتها:

- آه. وما اسمك؟

- أنا؟ فابيو.

قلت بصوت منخفض.

- أهلًا فابيو، هل تريد سكاكر بالنعناع؟

هززت رأسي بالرفض، وأخطأت على الفور، لأن أعمامي قالوا لي أن أجيب دائمًا بنعم، ثم إن السكاكر كان يمكنها أن تزيل من فمي المذاق المر لصمغ الجاوة. الآن فات الوقت، التفتت السيدة

للأشياء الجادة، ولا يوجد وقت للسكاكر.

- إذن مانشيني ألدو وآتوس وآراميس، جميعكم إخوة.

- أجل سيدتي.

- إخوة ورفاق صيد.

قال العم ألدو بإصبع مرفوعة:

- لا! هذا لا. نحن ضد صيد الحيوانات.

- جميعكم لديكم رخصة الصيد ورخصة حمل السلاح منذ أربعين عامًا.

لحظة صمت، ثم انفجر العم آتوس في الضحك:

- رخصة الصيد عندي في المنزل منذ الأزل، منذ أن كنت صبيًّا، كان شعري طويلًا وجميلًا جدًّا وكانت لدي دراجة بخارية جوتسي رائعة. هل تتذكرونها يا شباب؟ كم كانت رائعة تلك الدراجة. وماذا حدث لها؟ هل بعتها؟ هل أعرتها لأحد؟ هل ما زالت عندي؟

لم يجبه أحد، فقط العم ألدو هز رأسه، ثم عاد إلى السيدة التي كانت تسألهم:

- هذا حقيقي بالفعل، لدينا رخصة الصيد، وهذا أمر طبيعي لكل من وُلد في تلك المنطقة. كنا صبية، ولم تكن لدينا وسيلة تسلية أخرى. إلا أننا في العام الماضي توقفنا كلنا عن هذا،

فجأة، بسبب أمر سيئ حدث في صباح أحد الأيام في شهر أكتوبر. هل يمكنني أن أقصه عليكِ؟

نظرت هي إليه بعينين شبه مغلقتين وقالت:

- أجل، أخشى ذلك.

- حسنًا. إذن، كنا في شهر أكتوبر بالتحديد، وكنا ندور من خمس ساعات ونظرًا لأننا لم نكن نرى أي عصفور أخذنا نجمع الكستناء. ثم في لحظة ما سمعنا صوت غراب ينعر ويدور حول إحدى الأشجار، وعلى فرع كان طائر أبو الحن يقف صغيرًا وشجاعًا، وكاد الغراب يصطاده. حضرتك تعرفين كيف أن الغربان بشعة، وكان هذا جبارًا وشريرًا. على كل حال لندافع عن الطائر الصغير صوبنا نحو الغراب. إلا أنه كان بعيدًا، ويبدو أن نطاق الرصاص اتسع أكثر مما ينبغي فقتلناه ولكننا قتلنا أبا الحن أيضًا. المسكين، شديد الشجاعة لكنه سيئ الحظ. وبعد لحظة سمعنا صوتًا ضعيفًا من بين الأغصان «بيو بيو، بيو بيو»، عندئذ أدركنا سبب شجاعة طائر أبي الحن، فقد كان عشه في قمة الشجرة، وكان يحمي صغاره حتى وإن قتله الغراب. إلا أننا نحن من قتلناه. عندئذ تسلقنا الشجرة وأخذناها، وحملناها معنا إلى المنزل وربيناها، ومنذ ذلك اليوم وهي عند آراميس، وهي طيور رائعة بالفعل. ومنذ ذلك اليوم توقفنا عن الذهاب للصيد، بسبب الضيق الذي أصابنا في ذلك الصباح المشؤوم والعجيب.

- هذا ما حدث تمامًا.

ثم أخذ يدعك عينيه حيث شعر برغبة في البكاء.

- مشؤوم وعجيب.

قالت السيدة المعلمة:

- حقًّا! عجيب هذا الأمر، نظرًا لأن طيور الحناء تصنع أعشاشها فقط في الربيع، وعلى الأرض وليس فوق الأشجار.

ساد الصمت، ثم زاد. ثم قال العم ألدو:

- إييه. عجيب فعلًا. إلا أنه يمكن أن يحدث.

- لا يا سيد مانشيني، لا يمكن.

لم يقل العم ألدو أي شيء، ولكن قال العم أديلمو:

- حسنًا، اعذريني سيدتي، حضرتك تعرفين أنه في العالم تحدث أشياء أكثر عجبًا.

- حضرتك يمكنك أن تهدأ، حيث إن الأمر لا يخصك، أم أن حضرتك تصطاد أيضًا في وضعك هذا؟

- إيه، يا ليت!

أجاب بعينين حزينتين، وهو يشير إلى كرسيه المتحرك.

- إنه أكثر شيء أفتقده في هذه اللحظة. كنت أنا الصياد الحقيقي في العائلة. تصويب لا يُصدق، وحاسة شم مجنونة للأماكن

المضبوطة. أما الآن، في حالة مزرية مثل حالتي، أين تريدين حضرتك أن أذهب؟ يمكنني فقط أن أمكث في الطرقات وعلى الأراضي الممهدة، وأفتقد الصيد بشدة. هل تتخيلين أنني انتهيت فوق هذا الكرسي الملعون بسبب حادث صيد؟ كنا في شهر سبتمبر، وكنت قد استيقظت مبكرًا و...

- كفى.

أوقفته السيدة.

- كفى مضيعة للوقت.

خفضت نظرها على المكتب لتنظر إلى الأوراق المبعثرة والممتلئة بالأعمال السيئة، تنفست ممسكة بأنفاسها لوهلة، ثم زفرت للخارج بنبرة مختلفة، محددة، وجافة جدًّا:

- إذن، في تاريخ ١٥ أبريل من العام الحالي وفي الساعة الثالثة والعشرين، فاجأ حارس الغابة ديني لورينزو: مانشيني ألدو، ومانشيني آتوس، ومانشيني آراميس في أثناء تحميل شاحنة «أو إم تيجرتو»، مِلك المدعي مانشيني ألدو، بحيوان من فصيلة الخنزير البري، ذكر، وزنه ٩٥ كيلوجرامًا، في الغابات المتصلة بمنطقة ليفيلياني، داخل المحمية الطبيعية لألبي أبوانى.

انتهت من القراءة، وخلعت نظارتها ونظرت فيها وراء المكتب، حيث كان يقف أمامها الجزء المتسخ من العالم.

- إذن يا سادة، في تلك المرة كيف سارت الأمور؟ الخنزير البري أيضًا صنع عشه على الشجرة؟

لم يجبها أحد، أفواه مفتوحة يملأها الصمت، وكأنها صورة أناس تتحدث. وفي تلك الصورة الخرساء وصل صرير خفيف من حجرة أخرى، ربما أحدهم يجلس، أو مصباح يُنقل، أقسم إنه بدا لي كصفير عصفور. أحد تلك العصافير الميتة المحيطة بنا، تحدق فينا بعيونها السوداء وتصفر من العالم الآخر، مثل مجلس محاكمة مجتمع لكي يديننا.

- لا يا سيدتي، لم يكن هذا خطأ.

أجاب أخيرًا العم ألدو.

- لقد كان دفاعًا شرعيًا. هذا الحيوان المتوحش هجم علينا فجأة. ربما كان لديه صغاره ولكنني لا أعرف، ونحن أيضًا لدينا جرو لندافع عنه.

ثم وضع يده على كتفي، وأمسكني من قميصي ودفعني إلى الأمام، إلى الصف الأول.

- آه. كان معكم حفيدكم؟

- تمامًا يا سيدتي. اتجه الخنزير البري نحوه تمامًا، ماذا كان يمكننا عمله؟

- على سبيل المثال، كان يمكنكم تجنب الذهاب إلى الصيد في منتصف الليل، داخل محمية طبيعية.

- لم نكن هناك لنصطاد!

- لا؟ إذن ماذا كنتم تفعلون هناك؟

- لا شيء، لا شيء معين. نزهة.

- بالتأكيد، نزهة جميلة في الغابات ليلًا، ومعكم طفل.

- بالتأكيد! هل تعرفين حضرتك كيف يكبرون في الأيام الحالية؟ يحبسونهم في المنزل ليصابوا بالغباء أمام التلفاز، يكبرون في ضعف وشحوب ولا يعرفون أي شيء عن الطبيعة. أما نحن فنأخذ حفيدنا في نزهات جميلة صحية وسط النباتات.

قالت هي:

- طبعًا ومعكم بندقية لقتل الخنازير أسفل ذراعكم. بل، اعذرني، المحضر هنا يتحدث عن ثلاث بندقيات. ثلاث.

- بالطبع، هل تعرفين حضرتك كم الأخطار الموجودة في الغابة ليلًا؟ هل يمكنك سيدتي أن تذهبي إلى هناك بلا سلاح؟

- أنا لا أذهب يا سيد مانشيني، والموضوع هو هذا بالتحديد، هو أنني لن أذهب أبدًا. لا أحد يذهب ليتنزه هكذا. وإذا حضرتك قلت إنكم لم تذهبوا بدافع الصيد، فسأغمض عيني وأرى ثلاثة رجال بالغين ومُسحلين، في الغابة في عز الليل، يقتلون حيوانًا وزنه طن أمام طفل. وأول شيء سيخطر على بالي هو الإشارات المتعددة للطقوس الشيطانية التي تُمارس

على جبالنا. إذن يا سادة، أسألكم الآن، هل كنتم، بأي حال، تقيمون طقسًا ظلاميًّا؟ هل أنتم من عبدة الشيطان؟

- لـ-لـ-لا!

أجاب العم آراميس، بطريقته المتلعثمة.

- نــ... نحن شــ... شــ... يوعيون!

نظر إليه العم أديلمو نظرة سيئة، ثم نظر إليه العم ألدو نظرة سيئة جدًّا، بينما، كالعادة، عثر العم آتوس على شيء يضحكه.

إلا أن السيدة المعلمة هزت رأسها قليلًا، مثلما يهز أحدهم الزهر لإلقائه. وفي النهاية كانت النتيجة سيئة الحظ، لأن عينيها وقعتا فوقي:

- فابيو، أتعرف شيئًا؟ أعرف أن الشخص الوحيد الجاد هنا هو أنت. أريد إذن أن أتحدث معك قليلًا. هل يناسبك هذا؟

كان لا بد أن أجيب بنعم، إلا أنني أردت أن أرفض، عندئذ مكثت ثابتًا، كما يحدث في المدرسة عندما تناديني المعلمة لتسألني، وأنا أتمنى أن أتقي الشر بقدر الإمكان.

- إذن، الشيء الأول تذكر أننا في مكتب حكومي، وهو شيء تقريبًا يشبه المحكمة، وأنت تعرف أننا في المحكمة لا بد وأن نقول الحقيقة دائمًا. هل تفهم؟

وأومأت أنا بالإيجاب عدة مرات، لأنني كنت أعرف بالفعل بمفردي أننا في محكمة. كانت محكمة «الطبيعة»، والمحلفون هم

آلاف الطيور الميتة، تلك المستعدة لإدانتنا. نظرت إليها مرة أخرى، لثانية فقط، ولها جميعًا، وأدركت السيدة ذلك.

- هل تعجبك؟ إنها أنواع من الطيور تعيش في مقاطعتنا. أصناف قُضي عليها، صادرناها من صيادين مخالفين.

إذن لذلك كانت جميعها تنظر إليَّ تلك النظرات السيئة، كل تلك الطيور قتلها أناس مثل أعمامي أو ربما قتلوها هم. كنا هالكين، هالكين بالتأكيد.

- إذن يا فابيو، هذا الموضوع الخاص بالنزهة في الغابة ليلًا، وذلك الخنزير البري الذي هاجمكم، هل الأمر سار كما يقول أعمامك؟

سؤال بسيط، وإجابة مستحيلة. لأنني الآن أشعر فوقي بالعيون الصغيرة والحادة لكل الطيور المحيطة، وأيضًا بعيون الأعمام، والتي بالإضافة إلى أنها حولي الآن، لا بد وأن أعود معهم حتى المنزل.

إذن، بنقطة من أنفاسي عثرت عليها مصادفة في مؤخرة حنجرتي، خفضت نظرتي أرضًا وزفرت «نعم سيدتي».

- آه، سارت الأمور بالفعل على هذا المنوال؟ هذه هي الحقيقة؟

لم يكن لدي أي أنفاس أخرى، فأشرت فقط بالإيجاب برأسي.

- أحسنت، أحسنت جدًّا! أرى أنك بالفعل حفيدهم.

علقت هي.

في يوم واحد، هذه هي المرة الثانية التي يُقال لي فيها الشيء نفسه، بأنني مثلهم تمامًا، وهذا الشيء يرعبني، ولكنني الآن لم أتمكن من التفكير في هذا كثيرًا. بل إنني لم أتمكن من التفكير في أي شيء، لأن التحقيق استمر، وفاجأتني المعلمة وسألتني:

- حسنًا، إذن إذا كان هذا ما حدث، قل لي، فأنا أشعر بالفضول، كيف كان هذا الخنزير البري؟

- إيه؟ ما معنى كيف كان؟

- أقصد، إذا كنت أنت أيضًا موجودًا هناك، يمكنك أن تصف لي هذا الحيوان البشع، وكيف هجم عليكم، وماذا حدث... أقصد، هيا، احكِ لي.

تتسبب الاختبارات دائمًا في توتري وتغلق لي حنجرتي، حتى في المدرسة عندما في أسوأ الظروف تكون النتيجة ثلاث درجات. فلنتخيل الوضع الآن، والذي فيه ربما تكون النتيجة سنة في السجن مع أعمامي.

نظرت إليهم، وحدقوا هم فيَّ بعيونهم الجاحظة، وكنت مشتتًا من الرعب، واستلزم الأمر بعض الوقت لأدرك، أنني في الحقيقة أعرف هذا الأمر الذي سألتني عنه المعلمة جيدًا، بل إنني أعرفه جيدًا جدًّا، على الرغم من أنني لم أذهب إلى النزهة الليلية في الغابات. ولكنني في الشهر الماضي قرأت كتابًا إرشاديًّا مثيرًا جدًّا، عنوانه: *تربية الخنازير البرية*، تأليف د. «و. ج. هكتور». عندئذ

كان لا بد فقط أن أغلق عينَي، وأفتح فمي وأتركه يتحدث بدلًا مني.

«ينتمي الخنزير البري إلى عائلة الخنازير، أصلها من أورازيا وشمال أفريقيا، بنيته ضخمة، جسده مربع، وأقدامه قصيرة، يتمتع بذيل بندولي وخطم مخروطي، ينتهي بمجموعة من الغضاريف والتي منها يبرز نابان يستخدمهما الحيوان كأداة عمل، وأيضًا في الدفاع والهجوم». قلت هذا، وكان يمكنني الاستمرار. كان يمكنني أن أشرح كيف يمكن بناء سور لإبعاد الخنازير البرية، وكيف يمكنها أن تعبر أسفل الأسوار العادية، وكيف وصلت الخنازير البرية من الشرق حتى جبالنا. وكان الصمت الذي ساد حولي فجأة قويًّا للغاية حتى غطى على صوتي، والشيء الوحيد الذي تمكن من خرقه هما عينا السيدة وعيون أعمامي المتسعة وهي تحدق فيَّ.

قالت هي بعد برهة:

- حسنًا. يا لها من كلمات تلقائية، يمكن تصديقها بسهولة على فم طفل. لا تبدو وكأنها معدة على الإطلاق. تهانينا للأعمام.

قال العم ألدو:

- لا يا سيدتي، نحن لا دخل لنا على الإطلاق! نقسم لكِ!

- من فضلك، على الأقل لتحذر من القَسَم.

- ليس حقيقيًّا، ليس هذا خطأنا، إنه هو الذي يخرج دائمًا تلك الأشياء العجيبة. لم نفعل شيئًا، إن الطفل غريب هكذا.

رائع، في البداية قالوا لي إنني مثل أعمامي تمامًا، ولكنني الآن أسوأ منهم أيضًا!

في هذا الوقت لم أفهم فيم أخطأت، بل بدا لي أنني أجبت جيدًا. لذا حاولت أن أضيف شيئًا عن شعر الخنزير البري الذي يُدعى هُلبًا، والمستخدم في صناعة فرش الرسم وأدوات أخرى، و...

فجأة انفجرت تلك المعلمة التي لا يمكن إرضاؤها:

- يكفي هذا! أنا معتادة على الكِذبات، كل يوم أجلس هنا ولا أسمع غيرها، من التاسعة حتى الخامسة، كِذبات كِذبات كِذبات. ولكنكم تهينونني بالفعل، أنتم لا كرامة لكم. وتستخدمون هذا الطفل أيضًا، يا للخجل! أقسم إن والديه لا يعلمان أي شيء عن هذا. بل إنني أطالب بالتحدث معهما. فابيو، أعطني رقم هاتف منزلك.

نظرت إليها ولم أُجب. وهي:

- صدقني، أنا أفعل هذا لمصلحتك.

- أجل، ولكن أمي ليست في منزلنا أبدًا، إنها دائمًا في منازل الآخرين.

- لا يهم، سأتحدث مع أبيك.

- ولكنه...

قلت، وتسمرت هكذا. وإلا كان عليَّ أن أعطيها رقم الهاتف،

وأشرح لها أن أبي لن يستطيع أن يجيبها، وكيف ذلك! لن تفهم السيدة بالتأكيد، وكان ذلك يتسبب لي في غضب شديد، عندما لا يفهم الناس، والناس لا يفهمون على الإطلاق. يقولون: آه، إنه في غيبوبة. ومن الطريقة التي ينظرون بها إليك ترى أنهم يفكرون عمليًّا في أن أبي قد مات، الفارق الوحيد هو أنه يرقد على فراش وليس داخل صندوق. إلا أن الأمر ليس كذلك، كان أمرًا مختلفًا تمامًا، ولكنه كان رقيقًا جدًّا ولا أرغب في إفساده، إذن مكثت في صمت واحتفظت به لنفسي.

وبدلًا مني فكر العم ألدو بأن يشرح الموقف بأناقة:

- سيدتي، الطفل عمليًّا يتيم.

وخلفه أضاف العمل أديلمو:

- لحسن الحظ أننا موجودون لنعتني به.

تصاعد الشعور بالمرارة في الجو بقوة، فلم يقل أحد أي شيء. ولا حتى العم آتوس استطاع العثور على شيء يُضحكه، ونظرت إليَّ السيدة بعينيها الجاحظتين، ويدها أمام فمها.

ولكن لا، أنا الآن أعارض تمامًا، لأنني لا أبالي بالخنزير البري، ذلك الشيء كان مزيفًا جدًّا وسيئًا جدًّا، والحقيقة مهينة ومثيرة للغضب، ولا يمكنني أن أحتفظ بها في داخلي، حتى إن أردت ذلك، وأنا لا أريد ذلك على الإطلاق، عندئذ صحت:

- لا. هذا ليس حقيقيًّا! أبي حي، أبي حي جدًّا!

رفعت السيدة يدها من فوق فمها، ونظرت إليَّ ثم عادت لتنظر إلى أعمامي بقرف لا نهائي في عينيها.

- يا للعار! يا للعار! أحسنت يا فابيو، هل رأيت أنك طفل أمين؟ وأنتم، أيها الجبناء، يا للبشاعة!

أصررت:

- في الحقيقة يا سيدتي، أبي حي وهو بخير جدًّا.

قال أديلمو:

- طبعًا، كيف لا يكون هذا!

- إنكم أنتم الذين لا تعلمون، فأنتم لا تأتون أبدًا لزيارته.

- وماذا سنفعل عندما نأتي؟ إنه مستلق بكل تلك الأجهزة المتصلة به، وإذا أتينا فلن يدرك حتى هذا.

- ليس حقيقيًّا يا سيدتي، لا تصدقي هذا. أنا أذهب كل يوم إلى أبي، وأتحدث معه، وأقرأ له أشياء مثيرة جدًّا وهكذا نتعلم معًا. حتى وإن كان هو بالفعل يعلم كيف يفعل أشياء كثيرة جدًّا، إلا أنه الآن لا يمكنه عملها لأنه نائم. وهذا ليس غريبًا، فكلنا ننام، أليس كذلك؟ حسنًا، أعلم أنه لا يستيقظ أبدًا، لكنه يومًا ما سيستيقظ، يومًا ما سيفتح أبي عينيه وسينهض، وسينزع كل تلك الأنابيب، وسينزل من على الفراش وسنتعانق، وسيعود كل شيء لما كان عليه يومًا ما.

وكنت سعيدًا لأنني رأيت أنه بينما أتكلم كانت السيدة تومئ بالإيجاب مقتنعة، بعينين تبدوان أقل حدة. لأنها كانت إنسانة ذكية وجادة، ولهذا ترى أنني على حق، وليست مثل الأعمام الذين كانوا يقولون لها إنه «عمليًا مثل النبتة».

- لا، هذا ليس حقيقيًا.

- فابيو، الأطباء يقولون هذا.

- لا! هذا ليس طبيبًا حقيقيًا! هذا الشخص ذو القميص هو مجنون يقيم في الدور العلوي من المستشفى. من حين لآخر يهرب ويفكر في أنه طبيب، وما يقوله من أشياء سيئة ليس حقيقيًا. اسألوا ماما، هي من قالت لي هذا! هل فهمتم؟ فهمتم؟

التفتُّ نحو السيدة التي تومئ بالإيجاب بقوة أكبر، وتصدقني جدًّا إلى حد أن فمها يرتعش.

- هذا المجنون يقول إن أبي لن يستيقظ أبدًا، ولكنه مجنون، لا يعرف أي شيء عن الطب ولا عن أي شيء! أنا أقرأ الكثير من الكتب الإرشادية، وعندما أكبر سأدرس الطب وأصبح طبيبًا، طبيبًا حقيقيًا، وسأجد أنا الطريقة لأوقظه. أو سأصبح قديسًا، ولا يلزمني لذلك الكثير، فأنا فقير بالفعل وأفعل الكثير من الأفعال الحسنة، وبالتالي إذا لم أستطع بالطب فسأفعل ذلك بمعجزة. هل فهمتِ يا سيدتي؟ فهمتِ؟

تنظر هي إليَّ، ولكنها لا تستطيع أن تراني جيدًا لأنه بين عيني وعينيها توجد دموع كثيرة، بعضها لي وبعضها لها. وكأنها بدأت تُمطر من لا شيء، فوقنا وفوق الأعمام، على المكتب وفوق كل الطيور حولنا. وأسفل تلك الأمطار احتاجت السيدة إلى بعض الوقت لتجيبني، وهي تدفع أجزاء من الصوت بين النهنهات: أجل يا فابيو، أجل، أفهم... هذا حقيقي، أنت على حق.

وأنا أومئ بالإيجاب راضيًا، لأنني في نهاية الأمر أعلم أنهم يمنحون الحق للمجانين، ومن حين لآخر يمنحونه أيضًا لمن هو بالفعل على حق. أليس كذلك؟ والسيدة توافقني، وأيضًا طيور المحلفين تبدو لي الآن أكثر طيبة، لأنها هي أيضًا تعلم معنى أن يجد المرء نفسه بلا حركة مثل أبي، دون رفة جناح قَط، وتتمنى هي أيضًا أن تصفر مرة أخرى وأن تطير بخفة في السماء.

مثل السيدة التي تنهض من على مقعدها، تدور حول المكتب وتجري نحوي، تأخذني وتضمني بقوة. وتكرر أنني على حق، وأنني طفل ماهر وشجاع ولا يجب أن أنسى هذا أبدًا. وتقول لأعمامي: أوصيكم به، أوصيكم به.

تسقط قطرات الأمطار من عينيها حتى فمها، ولكنها تستطيع أن تقول:

- ارحلوا، سننسى موضوع الخنزير البري هذا، هذا يكفي. كفاكم حماقات، افعلوا هذا من أجله، افعلوه من أجله.

يجيبها الأعمام بأنها يمكنها أن تطمئن، ويضيف العم آتوس أنهم سيأخذونني الآن لآكل البوتشلاتو، تلك حلوى يصنعونها في لوكًا، ولكنها في الحقيقة تبدو قطعة من الخبز الجاف، بل وأسوأ لأنه في وسط الخبز يوجد أيضًا الزبيب. في الواقع يسبب لي البوتشلاتو الاشمئزاز، وفكرة أكله الآن تخيفني.

ولكنني شعرت بخوف أكثر من الأعمام، الذين أبعدوني عن تلك الحجرة وهم يتدافعون ليقتربوا مني، ولم يعد أي منهم يفكر في العم أديلمو الذي حاول أن يظل خلفنا، بطوال الممر الخالي والصامت مثلنا. وظللنا صامتين حتى البوابة، وظلت أياديهم الثقيلة على ظهري، وكأنها عينة على ما يوشك أن يحدث لي.

فقد قالوا لي أن أجيب دائمًا بنعم، وأنا لم أعصِهم فقط، ولكنني أيضًا صرخت بأنهم كاذبون وأشياء أخرى كثيرة رهيبة، ولذلك بدلًا من أن أصعد معهم إلى الشاحنة كنت أُفضل أن أعود سيرًا على الطريق كله من لوكًا إلى المنزل، بل، وربما يناسبني أكثر أن أستمر حتى أصل إلى جالاباجوس، وأن أظل فيها حتى يهدأ الوضع قليلًا.

وأخذت أيادي الأعمام تضمني كالقُرَّاصات ولم يدعوني أذهب، نخرج من البوابة ونصبح في الخارج، نصل إلى الشارع ثم نذهب جميعًا إلى الشاحنة، حتى العم آتوس الذي بدلًا من أن يجلس في الصندوق يُفضل الآن أن يصبح جزءًا من المجزرة. في الواقع، إذا كانت الدموع في مكتب السيدة انهمرت أمطارًا، فهنا على هذا المقعد انقلبت فوقي عاصفة من الصرخات والضربات العشوائية.

- لا، النجدة.

وحاولت أن أغطي نفسي بطريقة ما، ولكن فقط للحظة، ثم فهمت أن محاولة الدفاع عن نفسي لا معنى لها. لأنني لا أحتاج إلى الاحتماء من هذه العاصفة، بل يجب أن أتلقاها كلها: فلم تكن لكمات ولا ركلات بل كانت ربتات وأحضانًا، وملاطفات ومديحًا، وتصريحًا بالحب. يضمني الأعمام ويقبلونني، ويرددون:

- إنك عظيم، عظيم جدًّا، أنت عبقري، أنت عبقري بالفعل.

- أأأأنـ... تـ عـ... ظ... ييم!

قال العم آتوس:

- أنت تاسع أعجوبة في العالم! التاسعة لأن الثامنة ستكون قليلة جدًّا.

قال العمل ألدو:

- كيف بحق السماء خطر هذا ببالك؛ موضوع القديس، ثم المعجزة! شيء رائع!

- وعندما غضب منا؟ أقسم إنني صدقته بالفعل، وكدت أبكي!

قال أديلمو:

- أوه يا شعب، لنتحدث بوضوح. كنتم ضائعين لا محالة، تلك العاهرة كانت تحفر لكم فخًّا بلا قاع!

- إلا أن حفيدنا أنقذنا.

قال هذا العم آتوس بينما يعانقني ويهزني، مع الشاحنة التي هزتنا جميعًا عندما شرعت في التحرك.

ثم بدأت تجري، وبدأت السجائر تحترق، والنفير يزعج الطرق الهادئة للوكًا، مع الصياح والأذرع خارج النوافذ.

وكانت رحلة العودة كلها بهذه الطريقة، بدت تمامًا كأننا في موكب، مثلما يحدث عندما تفوز إيطاليا في مباريات كأس العالم، إلا أن عائلة مانشيني فازت اليوم: أبطال العالم، أبطال العالم!

عندئذ أصرخ أنا أيضًا، وأحاول أن أفعل ذلك بقوة شديدة لأغطي على الأفكار في ذهني، والتي ما زالت على شكل الطيور المحنطة في المكتب، وأبي الممدد في المستشفى، والخنزير البري الميت على الجبال، والسيدة التي كانت تنظر إليَّ وتبكي من أجلي.

أفكار مُسممة تفسد كل شيء، لا بد أن أطردها وأفرغ رأسي، كما كان يقول الكتاب الإرشادي وهو يتحدث عن القردة، وعن مفرغ الجماجم؛ أداة من الصعب الوصول إليها، ولكنها مفيدة للغاية. لأتخلص من المخ، لأتخلص من الأفكار، لأتخلص من كل ما ليس أيادي مرتفعة في الهواء ودقات نفير وتلك الرغبة الحمقاء والرائعة في هز الأذرع، في النظر إلى السماء البعيدة والصراخ فيها:

- أبطال العالم! أبطال العالم! أبطال العالم!

(١٣)
نحن حبابير

من بين العناصر اللازمة لصناعة قديس، توجد أيضًا جرعة عملاقة من الصبر. يمكن للقديسين أن يمكثوا عمرًا كاملًا على قمة عمود، أو في هدوء في ميدان منتظرين أن ينهي الناس حياتهم رجمًا. وأنا أيضًا كنت أتميز بكثير من الصبر، وفي بعض اللحظات كنت أشعر أنه نفد مني.

لأن اليوم هو عيد القديس فالانتين، مر الخريف والشتاء أيضًا وما زال أبي بلا حراك في فراشه. وكان أمرًا تعيسًا في كل الأوقات، ولكنه الأسوأ في عيد الميلاد. إذا كنت تفتقد شخصًا ما، يزيد هذا الشعور بالفقد مائة مرة في عيد الميلاد، ولنتخيل إذن كم كنت أفتقد أبي، وكم كنت أفكر فيه في تلك الأيام المليئة بالمغارات والأضواء والشهب التي كانت تحيط بي في تلك الليلة المشؤومة. ولكن بصدق، وحتى دون كل تلك الأشياء، سأفكر فيه، كما تفكر فيه أمي التي في أثناء غداء عيد الميلاد ذهبت إلى الحمام عشر مرات لأنها ترغب في التبول، ولكنني أعرف أنها كانت ترغب في البكاء. مثل

كل عام، بجوار الجدة، كان المكان المُعد لجدي، وقلت إننا يمكننا أيضًا أن نضع صحنًا وكوبًا لأبي. ولكن أمي أجابت: لا يا فابيو، بابا حي، سنجهز مكانًا لبابا عندما يعود إلينا. وكان لديها كل الحق، كنت على وشك أن أقول لها ذلك، إلا أنها أنهت عبارتها وجرت على الفور إلى الحمام مرة أخرى.

بعد ذلك تناولنا الطعام جميعًا معًا، وقال أحدنا للآخر «ميلاد سعيد». بالتأكيد كان من الصعب الاحتفال، لأنه كان عيد ميلاد يسوع، وأنا أحب يسوع كثيرًا، ولكن في الوقت نفسه أشعر بالغضب منه لأن ها عامًا كاملًا قد مر، ولم يعثر ولو على لحظة واحدة ليوقظ فيها أبي.

بل وقد طلبت منه هذا كهدية، منه ومن بابا نويل، إلا أنني تحت الشجرة وجدت مسدسًا يطلق شرائط مطاطية. لا بأس أنني لم أعد أصدق في بابا نويل تقريبًا، ولكن في أوقات معينة كانت تنتابني شكوك مرعبة بشأن يسوع أيضًا.

لأن هذا لم يكن عدلًا، تتغير أشهر التقويم ويظل كل شيء على ما هو عليه، وأنا الآن على وشك أن أكمل عامي الحادي عشر، وهي ليست أعوامًا كثيرة، ولكن بالنسبة لطفل هي كذلك، نظرًا لأنني بعد قليل سأبدأ في المراهقة وأصبح صبيًّا، وبالتالي، فهي نهاية مرحلة الطفولة لأي طفل.

قضيت تلك الأشهر في دراسة الكتب الإرشادية من كل نوع، في المنزل وفي المدرسة، وخاصة مع أبي، لكنه لم يستيقظ. وكلما

قرأت شعرت بجهلي، لأن تعلم الأشياء في الحياة يشبه إفراغ البحر بالملعقة: قبل أن تبدأ يبدو لك مشروعًا صعبًا، ولكنك تتشجع وتجرب، وعندئذ تفهم أنه أمر مستحيل.

في الواقع أحاول منذ فترة، والآن أعرف كيفية تطعيم نباتات الفاكهة وكيف تُنتج الكحوليات، وكيف تُعد المربات، والحفظ بالسكر، وكل أسرار حياة القنافذ، وكيف يمكن ترحيل حمام زاجل، وكيفية تسمين النباتات السمينة. وكل شيء جديد تعلمته يصبح بمثابة غرفة جديدة، أشعر فيها مع الوقت أنني بخير، ثم أدرك وجود نافذة، وأطل منها لأجد أمامي منظرًا طبيعيًّا بلا مقياس، ومجهول تمامًا.

وفي ذلك المنظر، الحقل الأكثر ظلامًا وغموضًا هو ذلك الخاص بالحب، ولكن اليوم عيد الحب، ولذلك يتحدث الجميع عنه، وكان أمرًا بعيدًا جدًّا عني، ومن يدري إذا كان موجودًا بالفعل أم أنه مثل بابا نويل وجنية الأسنان! أشخاص تنتظرهم بشوق وقلبك في حنجرتك ثم تكبر وتفهم أنه لا وجود لما كنت تنتظره.

حقيقي أنني لمحت الحب العام الماضي في أمسيات الكنيسة على أضواء الشموع عندما تعرفت على الدعسوقة، بعد ذلك لم أرَها قَط، لم تكن تأتي إلى المدرسة ولا حتى إلى الكنيسة. سألت عنها في الجوار ولا أحد يعرفها، ظهرت في تلك الليلة ثم اختفت في اللا شيء، ولذلك راودني الشك في أنها، مع الحب، لا وجود لها.

وما الذي أدعي أنني أفهمه عن الأمر، وأنا أقضي عيد الحب في صيد السمك مع العم ألدو، بينما يتبادل الناس هدايا من القلوب

والشوكولاتة والدباديب العاشقة؟ وحتى وإن كنت أحب الصيد كثيرًا، كنت أفكر في شيء يفعله باقي العالم، العالم الطبيعي، يتضخم لدي هذا التوتر المحشور بين أنفاسي ودقات قلبي، لأنني لم أصبح بعدُ قديسًا، وبالتالي لم يكن لدي كل هذا الصبر العظيم، ثم أيضًا لأنه لا أحد، ولا حتى قديس، يمكنه أن يتخيل أنه سيتعلم الدرس الأول عن الحب والجنس هنا بالتحديد، والآن، وبفضل مجموعة حبابير.

ذهبنا نبحث عنها على ظهر قارب التجديف القديم الخشبي. تبعًا لي أنا والعم آتوس كان أخضر اللون، بينما العم ألدو والعم آراميس يريانه أحمر، إذن في نهاية الأمر ربما يكون بنيًّا. الشيء المؤكد أنه يُدعى فابيو، كان الاسم مكتوبًا على أحد جانبيه، وهذا يسعدني لأنهم سموه على اسمي، حتى وإن كان الأعمام ينفون هذا، ويقولون إن اسمه كان هكذا قبل أن أولد، وبالتالي فأقصى تقدير هو أنهم سموني فابيو تكريمًا له.

على كل حال كان «الفابيو» رائعًا للصيد، ثابتًا وهادئًا ويصل إلى الأماكن الجيدة. المشكلة الوحيدة كانت في البداية عندما كنا نرفعه لكي ندفعه إلى البحر، وكانت توجد آلاف الأشياء التافهة المخبأة بين القوارب والرمل تركها أحدهم بعد قضاء ليلته على الشاطئ.

لم أكن أفهم ماذا يفعلون على الشاطئ في تلك الساعة، في الظلام، حيث لا يُرى أي شيء، ولم تكن الأشياء التي أعثر عليها في ذلك المكان تمنحني أي مؤشر، بل تزيدني ارتباكًا. زجاجات، ومن

حين لآخر حقن طبية، وتيشيرت ممزق، وبنطال... حتى وصلت إلى السر الأكبر من الكل، ذلك الذي حدث في رأس السنة، والذي فيه كنا استيقظنا مبكرًا لنذهب ونصيد الحبابير وتحت القارب عثرنا على:

ثلاث زجاجات بيرة فارغة

زجاجة جرابًّا صغيرة وزجاجة سامبوكا

عبوتَي بيتزا

علبة ألعاب صواريخ

سبعة واقيات ذكرية

مفتاح إنجليزي رقم ١٢.

ومكث الأعمام هناك مرتبكين ينظرون إليها، وحتى ضوء الفكر لم يكن يعرف كيف يضيء هذا الخليط العبثي. سألت: وماذا فعل أولئك الأشخاص هنا ليلة أمس؟

ضحك العم آتوس بقوة، قبل أن يجيبني:

- لا تفكر في الأمر يا صغير، لا تفكر في الأمر. أنت صغير جدًّا على تلك العلاقات العاطفية.

وربما كان على حق، ذلك اليوم كنت صغيرًا جدًّا بالفعل، ولكني اليوم لم أعد صغيرًا. ها نحن في عيد الحب واقترب الربيع، وكنت منفعلًا لأن العم ألدو سيأخذني إلى البحر وسيعلمني تقنية صيد مختلفة ورائعة للحبابير، وتصلح فقط لأن «موسم الحب»

على وشك البدء. لذلك أرتعد من الفضول، وأحضرت معي ورقة وقلمًا، لأكتب الملاحظات وأتذكر كل شيء.

وما يوشك على الحدوث لن يمكنني نسيانه على الإطلاق.

كان الوقت تقريبًا مساء عندما وضعنا القارب في المياه، لأن تلك التقنية الخاصة تصلح فقط في الغروب، وكان يبدو لي أمرًا غريبًا الابتعاد عن الشاطئ مع الضوء الذي يبتعد. الشيء الوحيد الذي كان يتلألأ، هي سلسلة جبال الألب الأبوانى هناك بعيدًا؛ صف من المثلثات الحادة وكأنها أسنان مرعبة لأسماك القرش، بينما الماء أسفلنا غامق ولامع مثل جلد تلك الأسماك القاتلة. أو ربما كانت هذه مشكلتي، إذ إنني عندما نذهب إلى عرض البحر حيث لا يمكن لمس الأرض، لا أفكر إلا في سمك القرش، وفي واقع أنها إذا فكرت يمكنها تحطيم «الفابيو» بضربة واحدة من ذيلها وطحننا بأسنانها ومحونا من العالم.

حاولت أن أستجمع شجاعتي بشيء قرأته في مجلة جدتي «أسبوع الألغاز»، وهو أنه إذا هاجمتك سمكة قرش يجب أن تظل هادئًا، وأن تنتظر حتى تقترب منك وتلكمها بقوة شديدة على أنفها، حيث إنه النقطة الضعيفة فيها، وهكذا تظل دائخة لوهلة ويكون أمامك الوقت لتهرب.

حكيت هذا للعم ألدو، وأجابني بابتسامة بعد نصف ساعة:

- لا، إذا هاجمتك سمكة قرش لا توجد مشكلة، يكفي أن

تغمض عينيك وتقفز في فمها، وهكذا تكون القضمة الأولى لرأسك ولا تفكر بعدها. اهدأ.

أومأت بالإيجاب، حتى وإن لم أفهم كيف يمكن لهذا أن يساعدني على أن أهدأ. في الواقع لم تكن قصة اللكمة في الأنف مقنعة بالنسبة إليَّ. أسماك القرش حيوانات عتيقة، استطاعت البقاء على قيد الحياة أمام الانقراضات الخمسة العظيمة في التاريخ، من الصعب ألا تقاوم قبضتي.

عندئذ، وكما يحدث دائمًا عندما نفكر في حل ولا نجده، يكون أفضل شيء هو محاولة عدم التفكير. التفت مرة أخرى نحو الجبال والتي زادت شحوبًا بينما يختفي الشاطئ أسفلنا، والمجدافان في يد عمي يلطمان البحر، كأنها تحذيرات تهديدية للحبابير التي تتجول في الأعماق، إلا أنها لا تسمع، ولا تهتم، فهي تعيش في عالمها، عالم الغضب والعنف، حيث القاعدة الوحيدة التي تصلح هي الجنون.

لأن كل شيء يتعلق بالحبار عبثي، الحبار هو الهذيان الذي يسبح.

ربما ليس هذا ما يبدو، لأن العديد من الأشخاص يرونها فقط في مكعبات على الأرز البحري أو ملقاة وكأنها خرقة على طاولة محل سمك، والحبار الحي شيء مختلف تمامًا، مثل الطيور التي تطير خفيفة في الهواء وبمجرد أن يطلق عليها أحد النار تصبح كرات قاتمة ومُشعرة تسقط على الأرض، مثل أبي، والذي أحيانًا لا أعرفه وهو مستلقٍ هكذا على الفراش، وعيناه الخضراوان مغلقتان دائمًا

ويداه المعجزيتان ساكنتان بلا حراك، بينما العالم يمتلئ بأشياء تحتاج إلى الإصلاح.

في الواقع، الحبار خارج المياه ضعيف وشاحب، بينما في عمق البحر هو الكائن العجيب القادم من الفضاء، سفينة فضاء غريبة تستكشف محيطاتنا.

ينساب في المياه بجناح خفي يتراقص كله حوله، مثل شراع شبح تحركه رياح لا يشعر بها سواه، بينما المجسات الثمانية تتحرك هنا وهناك، تقودها عينان ضخمتان وحدقة على شكل W، مخلوق مجنون حتى إن باقي البحر، المجنون أيضًا بدوره، عندما يمر الحبار يظل مذهولًا يستمتع بالمشهد.

وهو يعرف هذا، في الواقع، إنه هكذا يحصل على طعامه. ينظر إلى سمكة حجمها مناسب ويستهدفها، ويبدأ في إطلاق الآلاف من الألوان الفسفورية على جلده، والتي تتراقص وتتغير باستمرار وهو يجري خلفها، مثل العديد من الومضات المجنونة التي ترسم دوائر ثم أمواجًا ثم دوامات. وتظل السمكة ثابتة تنظر إلى تلك الملاهي، ويقترب الحبار والسمكة لا تهرب، بل لا تتحرك أبدًا، تظل منومة مغناطيسيًّا وتنتظر المجسات التي تمتد وتمسكها بأطرافها وتحملها مباشرة إلى فم الحبار، والذي ليس فمًا في واقع الأمر بل شيء كالمنقار، يشبه تمامًا منقار الببغاوات.

الخلاصة، في الحقيقة أنا لا أعرف إذا كان الرب في السماء يفضل أن يعمل بمفرده أو أنه يستعين بالروح القدس، إلا أنه من

المؤكد أنه أثناء خلق الحبار، قال له أحدهم «*سيدي، اعذرني، مع كل احترامي بالفعل، ولكن ألا ترى أنك تبالغ بعض الشيء؟*»، وابتسم هو، وهز رأسه واستمر. لأن الرب كان يرغب بالفعل في المبالغة في اليوم الذي خلق فيه الحبار.

ولصيد مخلوق غريب بهذه الطريقة، لا بد من استخدام أساليب غريبة في المقابل. نحن على سبيل المثال نستخدم دائمًا الجمبري التمويهي، وهو قطعة من الخشب أو البلاستيك مرسوم عليها عينان، وريشتان على الجانبين، وتاج من الشوك على الذيل، نربطها في خيط وننزلها إلى عمق البحر. أنا بالقصبة والبكرة، والعم ألدو لا، لأنها كانت بالنسبة إليه معدات لا فائدة لها ومخنثة. كان يمسك بالخيط ملفوفًا على يده، ومن حين لآخر يسحبه، وهكذا يصعد الطعم لوهلة ثم يعود مرة أخرى إلى الأسفل، مثل الجمبري الذي يقفز فرحًا، أو سمكة مجروحة، أو أي شيء سيراه الحبار، والذي بمجرد أن يدرك وجود ذلك الحيوان الصغير الجريء يقفز فوقه بكل غضبه.

وبالفعل كان الغضب هو ما يسقطه، لأن الأسماك مختلفة، الأسماك تأكل الطعم بسبب الجوع، وعندما تشعر بالصنارة تفعل المستحيل لتتحرر وتهرب. أما الحبار فلا. يتمسك بكل قوته بالفريسة التي تجرؤ على التمرد، عندما يحاول الجمبري الاندفاع نحو السطح يشتعل غضبه ويقترب وينفث ويبخ في الهواء حبره الأسود، كاتبًا هكذا بمفرده عقابه.

كان العم ألدو يقول دائمًا، وشفته مثنية من القرف ومن سيجارته الناتزيونالى، المتدلية من فمه:

- أترى هذا، أترى كم الحماقات التي يمكن أن يدفعك إليها الغضب؟ ابتعد عنه أيها الصغير، تجنبه بالفعل.

كنت أشد الحبار إلى أعلى وكان ينفث بكل غضب، وأضعه في الدلو وأفكر أن العم على حق جدًّا. لا يتسبب الغضب إلا في الأذى، حتى لمن لا دخل له، مثلما حدث لأبي بسبب غضب البلدة بأكملها ليلة الميلاد، الآن هو مُطفأ في مستشفى تحت رعاية المجانين.

في الحقيقة، إن العم ألدو، والذي يقول لي أن أبتعد عنه، هو من يلتصق بشدة بالغضب مثلما تلتصق الحبابير بالجمبري المزيف. حتى في الأمسيات التي كانوا يبنون فيها تلك المغارة الملعونة، كان هو أكثر من يسب، وكان يوجد رعاة وأغنام وفلاحون، مختبئين في المواقع الأقل إضاءة، خلف أشجار النخيل والمنازل الصغيرة على قمة الجبل، تعساء الحظ لأنهم كانوا بالقرب منه في اللحظة الخاطئة، وبالتالي ظلوا بذراع أو قدم واحدة. على الطريق كان يوجد أيضًا فران شجاع، أصر على أن يحضر رغيفَي خبز للطفل يسوع على الرغم من أنه فقد رأسه. إذن فمن حسن الحظ أن العم وُلد إنسانًا وليس حبارًا، وإلا كان فقد حياته في خمس دقائق، وهو يبخ الحبر في قاع الدلو.

إلا أنه كان هناك، على الجهة الأخرى من الخيط، وهذا المساء سيعلمني طريقة جديدة للصيد، والتي في رأيه كانت الأفضل.

في الواقع فكرة الجمبري المزيف، المستخدمة منذ قرابة الخمسين عامًا، كانت حديثة جدًّا لتنال إعجابه. بالنسبة إليه محرك الاحتراق الداخلي كان اختراعًا كارثيًّا أفسد العالم، ونظرًا لأن من اخترعه هما شخصان من جهتنا، أحدهما من لوكًا والآخر من بيتراسانتا، عندما كانت سيارة تمر وتتسبب في الضوضاء وتفسد رائحة الجو، كان العم يهز قبضته ويصيح «ملعون بارسانتي وملعون ماتيوتشي! حظهما سعيد لأنهما ماتا، وإلا كنت سأقتلهما أنا بركلات في مؤخرتيهما»، ثم كان يرفع إصبعه في الهواء الملوث ويتذكر نبوة شخص كان راهبًا أو سائحًا اسمه براندانو، والذي كان يقول إنه عندما تبدأ العربات في السير بلا أحصنة، ويبدأ الناس الطيران مثل العصافير، عندئذ ستكون نهاية العالم.

ولكن، في أثناء انتظار نهاية العالم، يقود العم شاحنته التي تتفل الدخان الأسود في سحب كبيرة، وفي وقت فراغه يصطاد كل الحبابير من البحر. ولكن هذا المساء بلا جمبري مزيف، هذا المساء سيستخدم تلك التقنية الجديدة وفي الوقت نفسه القديمة جدًّا التي تُدعى «طريقة الأنثى»، والتي يراها قديمة قدم العالم.

قبل أن نرحل، بطبيعة الحال، راجعت واحدًا من كتبي الإرشادية *«كيف تصطاد في البحر من القارب؟»*، حيث يحكي السيد روبرتو زوكُّوني طريقة الصيد هذه بطريقة جعلتني أقع في غرامها:

نرتحل ببطء بمساعدة رفيق على التجديف في الغروب وفي الليالي القمرية مع البحر الهادئ...

يا للروعة! الغروب، ضوء القمر، الارتحال الانسيابي على سطح البحر الهادئ... وضع حميمي ورومانسي، من نوعية مواعيد الحب في جندول في مدينة البندقية، ثم نصل إلى المكان الذي يعجبها. وقال لي العم بأن أبدأ في التجديف محله، وأخرج أنثى الحبار من الدلو، ربطها بخيط وألقى بها في البحر. وفجأة تحول الموعد الحميمي في البندقية إلى ليلة رأس السنة في أحد ميادين سدوم.

لأن المياه حولنا بدأت تغلي، سحابة ضخمة مرتعشة من الحبابير الذكور تحيط بالأنثى وتقفز حولها بلا رحمة.

كل ذكر يحاول أن يحيط بقطعة ما زالت حرة، وفي الوقت نفسه يتعارك في دوامة من الحبر والمجسات، يتلاصق الذكور فيما بينهم ويحيطون بها، ويستمرون في التشبث بها بهياج، حتى إنهم لا يدركون القوة الغامضة التي تجذبهم خارج المياه، واليد الخشنة التي تهزهم ثم تفصلهم عن الصنارة وتسقطهم في قاع الدلو «بلوب».

ثم يشطف العم الأنثى، الممزقة تمامًا والمخربشة، يتأكد من أنها لا تزال حية ثم يلقي بها من جديد في الماء لتعمل، بينما أجدف وعيناي جاحظتان إلى ذلك البحر الذي يئز بحبابير ترغب في الانتحار.

تنطفئ الشمس في الأفق داخل المياه، ومن الجهة الأخرى يتسلق القمر الجبال ليأخذ مكانها وسط الشمس، في رقصة أبدية تستمر بروعة مثلما كانت في اليوم الأول منذ بدء العالم في الدوران، مع الحبابير الذكور التي تقفز فوق الحبار الأنثى، وعمي الذي يجذبها إلى الأعلى في الهواء، وهي مغطاة بالسوائل القاتمة واللزجة.

في تلك الرقصة الكونية العملاقة والأبدية، كنت الوحيد الذي لا يعرف الرقص. أتشبث بالمجدافين مضطربًا من تلك التقنية المجنونة، والتي تثمر آلاف المرات أكثر من تقنية الجمبري التمويهي، ولم يكن لها أي معنى: أفهم طريقة الجمبري، فهذا طعام، وتمسكه الحبابير لأنها جائعة. أما هذا، بأنثى الحبار تلك، ما الذي يثير الحبابير بهذا الشكل؟ هل كانت آكلة لحوم، تقفز فوقها لأنها تريد أن تأكلها هي أيضًا؟ هذا صعب، لأنها يمكنها أن تأكل بعضها البعض إذن بدلًا من أن يسحق أحدها الآخر للحصول عليها. عندئذ استنتجت أن الأمر يتعلق بواحدة من تلك الغرائز القوية وغير المفهومة لدى الحيوانات، والتي علينا، نحن الآدميين، قبولها كما هي. مثل الديوك التي تبدأ في الصياح عند رؤية الفجر، أو أسماك السلمون التي تبحر ضد التيار إلى أعلى في الأنهار حتى تموت من التعب. تصرفات عبثية بالنسبة إلينا ولكنها طبيعية بالنسبة إليهم، فالطبيعة عجيبة وغامضة، وهذا أمر جيد.

بل إنه أمر جيد جدًّا، لأنه في لحظة واحدة امتلأ دلونا تقريبًا. إلا أن كل تلك الإثارة، كل تلك الرغبة العمياء والحمقاء أرعبتني. فقدت الحبار الأنثى إحدى عينيها الآن وتقريبًا كل مجساتها، إلا أن كل الذكور استمروا في الالتصاق بها. كان العم يجذبهم إلى أعلى وهم ينفثون ويطلقون الحبر ويغطونه بالسواد، وكان هو يضحك وذلك الشيء الأسود يسيل من فوق وجهه إلى ذقنه ويهتز قليلًا قبل أن يسقط على صدره وفي الدلو مع الحبابير المتراكمة الواحدة فوق

الأخرى، والتي تحولت الآن إلى شيء واحد، طري ومنهك. وكلما نظرت إلى الداخل، بدا لي أننا، الآدميين، محظوظون لأن لدينا الجوع والغضب وعيوبًا كثيرة أخرى، ولكن تلك الغريزة ليست لدينا، ليست لدينا على الإطلاق.

فكرت في هذا وقلته للعم، بينما يفتح عبوة بيرة ويتجرع منها قليلًا ليبلل فمه. قلت له هذا لأنني رأيت أنها فكرة جميلة وذكية بما يكفي. ولكنه انفجر في الضحك بقوة حتى كاد يختنق، ألقى بالبيرة في الماء وعندما استطاع أن يتنفس من جديد أجابني:

- إيه! بالفعل يا طفلي، عندك حق، هذه الغريزة ليست لدينا على الإطلاق! لتستمر في التجديف، اذهب، فالطريق ما زال طويلًا.

(١٤)

الحب في زمن القراصنة

- هل تعرف ما سيفيدك كثيرًا يا فابيو؟

قالت أمي وجدتي بعد الغداء بينما أساعدهما في تنظيف المائدة.

أجبت وأنا ألحن كلماتي متبرمًا:

- أجل، أن أمكث مع من هم في سني.

- أحسنت! أترى، أنت أيضًا تعرف هذا!

بالتأكيد أعرفه، ففي الفترات الأخيرة كانتا تكررانه كل ثانية.

- ولكنني بالفعل أمكث مع من هم في سني وقتًا طويلًا.

- وقت المدرسة لا يهم.

- ليس فقط في المدرسة، أمكث معهم طوال الوقت.

- فعلًا؟ متى؟ على سبيل المثال هل تذهب إلى أعياد ميلاد زملائك؟

- بالتأكيد أذهب إليها! كلها! أقصد إلى كل التي أستطيع الذهاب إليها.

ولم يكن هذا خطئي فنصف الفصل لا يدعوني، والنصف الآخر وُلد في موسم الحبابير أو عيش الغراب، ولذلك يأخذني الأعمام معهم.

- على كل حال أنا في أحسن حال مع الذين في مثل عمري، وليس فقط في المدرسة.

قالت جدتي:

- ودروس التربية الكنسية أيضًا لا تُحسب.

- ليس فقط دروس التربية الكنسية، وفي مرات أخرى.

- متى إذن؟

- المرات الأخرى، مرات كثيرة! الآن ليس لدي وقت لأحكي لكما عنها، لأن البعض ينتظرني وقد تأخرت.

قلت هذا وأقسم إن أمي وجدتي انفجرتا في الضحك. ولكنني أفهمهما، لأنني بالاستماع إلى كلماتي بدت غريبة عليّ أنا أيضًا.

وبالفعل الأمر كان حقيقيًّا: في الثانية ينتظرني بعض الأشخاص، ونظرًا لأنها الثانية والربع بالفعل، فالطريقة الوحيدة لأصل في الميعاد هو أن ألقي بنفسي فوق الدراجة وأبدل أسرع من الضوء وأعود بالزمن إلى الخلف.

- وأين ينتظرك أولئك الأشخاص؟

سألتني أمي وهي تحاول ألا تضحك بشدة.

قلت في طريقي للخروج من المنزل:

- هنا في مكان قريب.

- قريب أين؟

وخرجتا هما أيضًا لتحركا المفرش في الهواء وتنثرا فتات الطعام على العشب للطيور.

وصلت إلى البوابة، وأخذت الدراجة وصعدت فوقها، ووضعت قدمًا على البدال وأجبت:

- أنا ذاهب إلى المستشفى.

ثم رحلت بسرعة دون أن ألتفت خلفي، ولكنني متأكد أنهما ابتسمتا وأومأتا بالإيجاب، لأنهما تعتقدان أنني ذاهب كالمعتاد لأزور أبي.

ولم يكن الأمر كذلك، كانت الحقيقة أبعد بكثير من هذا. أي، ليس جسديًّا، لأنني بالفعل ذاهب إلى المستشفى، ولكنني اليوم سأصعد إلى الطابق الأخير. إلا أنه، حول كل تلك الحوارات الخاصة بالتردد على صبية في مثل سني، فإنني لم أستطع أن أخبرهما فعلًا بالحقيقة، بل إنني كنت أبدل بقوة آملًا أن تتطاير بعيدًا بفعل الرياح مثلما يتطاير البعوض من فوق زجاج السيارات.

وأنا أسرع لأقضي فترة العصر في «منزل الراحة».

هذا هو المكان بالتحديد. يوم مع سيدات دار المحتضرين، هذا هو برنامج اليوم.

بدأ كل شيء في اليوم السابق، يوم الأربعاء بينما أجلس مع أبي وأقرأ من كتيب جديد ابتعته لتوِّي من طاولة السيدة ستيلَّا.

كان عنوانه «الدجاج البيَّاض» وهذا أعاد إلى ذهني تلك المرة وأنا في الصف الأول الابتدائي، عندما احتل العم ألدو فصلي الدراسي ليشرح لنا كيف نبني عش الدجاج المثالي. كم كان الأمر أكثر جدية ودقة الآن بتعلمه بهذه الطريقة، من خلال صفحات السيد بيترو كونسو، دون تهديدات جسدية وبلا سباب ولا عنف. ولكنني بدأت القراءة، وبدا لي أنه لا يجب عمل الكثير، فحياة الدجاج تبقى دائمًا موضوع تهديد:

إن بتر المنقار يمثل سلاحًا صالحًا لجعل الدجاجات مسالمة. تم التأكيد مؤخرًا أن الضوء الأحمر وذلك البرتقالي أيضًا لهما تأثيرًا مهدئًا وبالتالي يقيان بطريقة غير مباشرة من الرغبة في الافتراس فيما بينها.

- كيف هذا يا بابا؟ وهل إذا لم نبتر منقار الكتاكيت فسيفترس بعضها بعضًا؟

امتلأ رأسي على الفور بتلك الكتاكيت المفترسة، ومن يدري كيف يمكن بتر مناقيرها القاتلة: توجد بلطة صغيرة، أو ربما مقصلة منمنمة، أو...

ولكن لا معنى لهذا التساؤل، كان يكفي أن أستمر في القراءة.

تتم عملية البتر بواسطة الأداة المخصصة لذلك، والتي هي في الأساس مكواة كي كهربائية.

احتجت إلى بعض الوقت لكي أستطيع نطق «مكواة كي»، ولكنني في النهاية نطقتها بدقة. وأقسم إنني نطقتها بطريقة جيدة، حتى إنني سمعت تصفيقًا ينطلق في صمت الغرفة.

بل إنني صُدمت، واعتقدت أنني قرأتها بطريقة رائعة جدًّا ومؤثرة للغاية إلى حد أن أبي خرج من غيبوبته ليصفق لي. لم يكن هو، كانت سيدة شعرها أبيض، تقف بجوار الباب، تصفق وتقول لي: «أحسنت، استمر، استمر في القراءة».

الاستمرار في شيء هو أحد الأشياء المستحيلة إذا طلبها منك أحدهم. مثلما عندما يقولون لك «إنك تلقائي» أو «تصرف وكأنني لست هنا». وكانت السيدة موجودة بالفعل، عند الباب تستمع إليَّ، عندئذ أغلقت الكتاب وسألتها كانت قد أتت لزيارة أبي.

- لا، كنت أمر من هنا وسمعتك. هل تعرف أنك تقرأ جيدًا جدًّا؟

هززت رأسي وأفلتت مني ابتسامة ملتوية وخجولة، وثبتُّ عينَي على الأرضية المصنوعة من البلاط الأبيض حيث قدما السيدة توجدان داخل خُف من الفرو. سألت نفسي من أين أتت، هكذا

بالخف والروب. يبدو أنني سألتها، أو ربما تقرأ هي الأفكار لأنها ابتسمت وأجابتني: «أتيت من فوق»، وهي تشير إلى السماء.

- أتيتِ من الفردوس؟

- لا، يا للمبالغة! من منزل الراحة في الطابق الأخير، والذي هو في واقع الأمر الخطوة السابقة للفردوس، أو للجحيم، من يدري! وأنت ما اسمك أيها القارئ الماهر؟

- أنا فابيو.

- سعدت كثيرًا بلقائك يا فابيو. أنا ريكوردينا. منذ طفولتي يدعوني أبواي دينا، ولكنني لم أرغب في ذلك. كانا قد قررا منحي هذا الاسم الغريب، إذن عليهما استخدامه كله، أليس كذلك؟

أومأت بالإيجاب ولم أعرف ما يجب قوله. لحسن الحظ فكرت هي.

- الخلاصة، نحن بخير في منزل الراحة، ولكننا نرتاح أكثر مما ينبغي. ولذلك من حين لآخر أقوم بجولة صغيرة.

وخطر في ذهني الدكتور المجنون، وأنه هو أيضًا يأتي من أحد الطوابق العلوية، يخرج من مستشفى الأمراض العقلية ويتجول هنا. على الأقل كانت السيدة غير متنكرة في زي طبيب، ولم تقل لي أشياء سيئة مثله. بل كانت كلماتها رائعة.

ثم أشارت إلى الفراش:

- وهذا الكتاب تقرأه لـ...

- أبي.

قلت، وبينما تخرج الإجابة شعرت بشيء دافئ على ارتفاع أنفاسي، دافئ ومنتفخ، حتى إنه لوى كلماتي.

- أوه، كم هذا جميل. أنت تقدم لأبيك معروفًا إذا قرأت له، أتعرف هذا؟

- أنا أيضًا أعتقد ذلك، ولكنني أحيانًا لا أعرف.

- بالتأكيد، أنت تصنع له أمرًا جيدًا جدًّا.

- يوجد طبيب ما قال لي إن هذا لا يفيد في شيء. وإلا أن أمي قالت لي إنه مجنون.

- آه، الأطباء جميعهم مجانين. أشخاص أصحاء يختارون أن يقضوا حياتهم في المستشفيات، أليس هذا سلوك مجانين؟

نظرت أولًا لأرى أنه لا يوجد أحد خلفها في الممر، ثم أومأت مؤيدًا.

- لهذا فهم مجانين تمامًا. فأنت تفعل لأبيك معروفًا كبيرًا بأن تقرأ له. عندما كنت أعيش في منزلي كانت لدي نباتات ساحرة: جيرانيوم وبيجونيا، ورديات وسوسنيات، وبخور مريم، كان لدي كل هذا، وكانت لدي حديقة رائعة يمر من أمامها الناس ويلتقطون الصور.

وفي أثناء ذلك دخلت السيدة الحجرة، أعطتني يدها ثم لوحت لأبي.

- وخاصة صور الأرطاسيا. آه يا فابيو، كانت الأرطاسيا تكبر عندي بجمال شديد، إذا فكرت فيها أشعر برغبة في البكاء. وكانت صديقاتي يقلن بإصرار: «ريكوردينا، هيا، قولي لنا، ماذا تضعين لزهورك تلك، ما هو سرك؟»، ولم يصدقنني عندما كنت أقول إنني لا أضع لها شيئًا. هل تعرف ما كنت أفعله لها؟ كل مساء أجلس أمامها وأتحدث إليها. أقص لها أحوالي. ماذا فعلت في أثناء نومي، وأيضًا عن قصصي وأنا شابة، وعن زوجي أوريستى الذي لم يعد موجودًا، السلام لروحه. وأقول لها عما تفعله ابنتي، وعن حفيداتي والمرة الأخيرة التي رأيتهن فيها. أشياء من هذا القبيل. وفي أوقات أخرى أقرأ لها كتابًا. أقرأ لها بصوت مرتفع، لي ولها. كم كنت أحب القراءة يا فابيو، كنت أنتهي من كتاب كل أسبوع.

قلت:

- أنا أيضًا أقرأ كتابًا كل أسبوع. هذا اشتريته اليوم.

وأطلعتها على «الدجاج البيَّاض». أخذته، نظرت إلى الغلاف الأمامي والخلفي، ثم أعادته لي.

- لا بد أنه كتاب جميل، ولكن للأسف لم أعد أستطيع القراءة لأنني لا أرى جيدًا. إنها خدعة أتعرف هذا! تصل إلى السن

التي يكون لديك فيها متسع من الوقت لتفعل ما يحلو لك، ثم لا يستطيع جسدك أن يفعل أي شيء. لا أقصد أشياء فيها مجازفة، ولا حتى الأشياء العادية. الانفعالات الوحيدة التي تظل معك هي القصص، كم تعجبني تلك القصص الرومانسية! وخاصة، مع الفتيات الأخريات. أقول فتيات، ولكنهن في الحقيقة أكبر مني سنًّا. وأحيانًا تحكي إحدانا حكايات للأخرى، ولكنها بعد فترة تصبح مُكررة. لدينا بعض الكتب الرومانسية. لم تعد أي منا تستطيع الرؤية جيدًا، والأبناء يأتون لزيارتنا من حين لآخر، ولكنهم يمكثون قليلًا، فليس لديهم الوقت ليقرأوا لنا. وقد تأثرت كثيرًا بسببك. أنت تأتي هنا لتقرأ لأبيك، الذي لا يمكنه حتى أن... أقصد، لا يرى أنك تأتي. أو ربما يرى، أنا أعتقد أنه يعرف، وأنت يا فابيو، أنت... أنت...

ولفترة وجيزة لم تقل شيئًا، ظلت تنظر إليَّ وعيناها تتسعان تأثرًا.

من يدري ماذا كنت في رأي السيدة ريكوردينا، يمكن أن أكون أي شيء، وما قالته في النهاية، عندما مسحت دموعها ووضعت إحدى يديها على صدرها، أقسم إنه نزع عني أنفاسي:

- إنما أنت قديس يا فابيو، أنت قديس، هل تعرف هذا؟

أجل، أعرفه، كنت قديسًا أو على الأقل على الطريق لأصبح قديسًا. ولكن أن أسمع شخصًا آخر يقول هذا لي، فهو بمثابة لحن

رائع، أدار لي رأسي. إلا أنه، من بين المميزات الأخرى للقديسين، يوجد التواضع، لذلك هززت رأسي نفيًا وخفضت عينَي، بينما تكرره هي مرات ومرات. بل في النهاية قالت:

- أنت قديس، بل أنت ملاك من السماء.

وهو ما كان أمرًا مبالغًا فيه، لأن الملائكة على درجة أكبر من القديسين، قبل ذلك المكان المرتفع الذي فيه القديس يوسف ورئيس الملائكة جبرائيل، ثم فوقهما العذراء ويسوع والروح القدس، في الأعالي، على بُعد خطوة واحدة من الرب. وربما كان دوار ذلك السلم الرائع، أو ربما السيدة التي بدأت تبكي فعلًا أو الملاك الكامن بداخلي، هو من حرَّك شفتَي من اللا شيء، فخرج ذلك الصوت شديد الطيبة والعميق الذي قال:

- لا تبكي يا عزيزتي ريكوردينا، غدًا سآتي لأقرأ لكم.

لذلك هأنذا، بعد أن أوصتني أمي ومعها جدتي أن أمضي وقتًا أكثر مع من هم في سني، أجلس على أريكة مغطاة بالمفارش، وأمسك بكوب كاموميل في يدي، في صالة التلفاز لمنزل الراحة «العذراء مريم ملكة السلام».

- إذا لم نكن نسأل أمرًا صعبًا، فهل يمكنك أيضًا أن تقلد أصوات الشخصيات؟

طلبت هذا مني السيدة ريكوردينا عندما بدأت، بعد نصف ساعة من الأحضان والتحيات، منها ومن خمس سيدات أخريات،

ومعهن سيدة سادسة والتي في رأيي كانت ميتة. كانت تجلس على مدفأة في أعلى درجاتها على الرغم من أننا في شهر مايو، ساكنة ومغطاة بطبقتين أو ثلاث من الأغطية.

قرأت أسوأ من المعتاد، لأن عمري كان أحد عشر عامًا وكان لا بد أن أقرأ أمام تلك السيدات اللاتي إذا وضعتهن معًا فستكون أعوامهن أكثر من ألف، وبالتالي كنت أشعر أنني أمام قصة عمرها ألف عام أو شخص عمره ألف عام أصم وبطيء، من حين لآخر يطلب مني أن أرفع صوتي أو أن أقرأ ببطء أكثر.

ثم إن هذا الكتاب كان مختلفًا عن كتبي الإرشادية. صغير ووردي اللون، وعلى غلافه صورة شخص على عينه عصابة، قميصه ممزق ومنه تبرز عضلاته وشعر صدره، ويضم بقوة فتاة، ملابسها هي أيضًا ممزقة. كان أحدهما ينظر للآخر نظرة غريبة، شيء بين النظرة الناعسة ومن اشتم رائحة شيء يحترق.

كان عنوان الكتاب «محيط العشق»، وكنت سعيدًا لأنه ربما علمني أشياء تخص الحياة البحرية، إلا أنه بعد صفحات عديدة لم تظهر أي سفينة ولا حتى البحر. فقط أيام فارغة وتعيسة لتلك المرأة شديدة الجمال التي تُدعى إيميلي، وكانت تحب ركوب الخيل، ولكنها لم تعد تستطيع أن تفعل ذلك لأن أباها أجبرها على الزواج بشخص غني يسافر كثيرًا من أجل العمل ويحبسها في البيت، وهكذا كانت تظل أمام النافذة تطرز وتتنهد. كما كانت تتنهد أيضًا السيدات الجالسات أمامي، فيما عدا تلك التي تجلس أمام المدفأة، فقد استمرت في موتها.

ثم فجأة في أحد الأيام تصل من البحر سفينة عليها علم أسود، ومرسومة فوقها جمجمة، إنهم القراصنة الذين يدخلون إلى المنزل ويقتلون الخدم ويسرقون كل شيء. بل يصعد اثنان منهم إلى غرفة إيميلي، ينظران إليها ويكادان يفعلان شيئًا لم أفهمه، يصل القبطان ويبعدهما، يحدق في إيميلي ويقترب منها، ويمد يده ويقبض على خصرها.

العيون تشتعل من العشق واللهفة، اللذين يملآنها بالذهول بينما الذراعان القويتان تشعرانها بقوة، بجسارة لم تشعر بها إيميلي منذ فترة طويلة، طويلة جدًّا. منذ أن كانت شابة وحرة تنطلق في القفز على ظهر حصانها المفضل في السهول المورقة اللا متناهية. الانفعال الجامح نفسه يطيح بها الآن، يتمدد برعشة متوحشة على جلدها وحتى صدرها، البارز بخزي من قميصها الممزق. يستمر الوحش القوي والجبار في ضمها والتحديق فيها بتلك النظرة الجريئة والخارقة، ويجعلها تشعر من جديد أنها على ظهر حصانها القوي، في السباق النزق للحياة.

واستمررت في القراءة، لم أكن أفهم تمامًا ما دخل الأحصنة الآن. كانت قصة قراصنة، وليس ويسترن، ثم أصبحنا في وسط هجوم قراصنة، لا بد من الغزو والمبارزة بالسيوف، ما معنى المكوث في مكانهما وتحديق كل منهما في عينَي الآخر وكل تلك الرعشات الغريبة؟ كانت هذه مشكلتي بمفردي إذ إن السيدات كن معجبات كثيرًا، وأياديهن مشدودة على ارتفاع أنفاسهن.

توقفن تمامًا عن التنفس عندما بدأ القرصان والسيدة التشابك بالأيدي. كانت معركة عجيبة، بأيادٍ خالية من السلاح واحتكاكات هنا وهناك، ألقى هو بها من جديد على الفراش وقفز فوقها، وكانت هي مضطربة جدًّا حتى إنها فجأة توقفت عن العراك بل وبدأت تساعده في عمل ما يريده، بل كل شيء يريده.

وأخذت السيدات يقلن: *أوه وأخيرًا*، وبينما كانت الأسطر تضع على فمي كلمات عبثية من نوع: نهدها العامر، وخصراها الجذابان، والعري الدوار لبطنها. ولا أعرف كيف لا تشعر إيميلي والقرصان في غرفتهما على الشاطئ بالخجل، ولكنني، هنا في منزل الراحة، كنت أشعر بالخجل الشديد وكدت أتوقف عن القراءة. ثم وصل قرصان آخر، ولوهلة انتابني الرعب من أن ينتهي الموقف بما حدث بين الحبابير، وأن يصبح كل منهما فوق الآخر يمسكان بالمسكينة إيميلي. وعمت مساءً. ولكنه وقف أمامهما يصرخ بأن الجنود قد حضروا ولا بد من الهروب. عندئذ ينفصل زعيم القراصنة عن إيميلي، يقبلها بقوة شديدة في فمها، وقبل أن يلقي بنفسه من النافذة يلتفت إليها ويقول: *إذا اضطررت إلى أن أعبر البحار السبعة، فسأعود لآخذك.*

وزفرت السيدات في الحجرة ولعنَّ الجنود، وقالت السيدة ريكوردينا: *لا تقلقن يا صبايا، ما زالت أمامنا صفحات كثيرة جدًّا!*

وللأسف كانت على حق، لا تزال في الكتاب صفحات كثيرة وتوتر أكثر. لأنني كنت أريد أن أكون في نهاية الكتاب، بل والأفضل أن أكون بالفعل في الشارع، في الخارج، في عالم لا يعشق النفتالين

والمدفأة على أقصى درجة لها، بلا مشاحنات على فراش وقراصنة عاجزين، بدلًا من العراك يُقبلون ثم يهربون بأيدٍ فارغة. على تلك السفينة التي تبحر مسرعة، الأشرعة منتفخة من أنفاسي القصيرة بينما أستعيد القراءة مرة أخرى.

عن إيميلي الجالسة على الفراش تُطَرِّز، أو خارج الشرفة تُطَرِّز، أو في مكان آخر فإنها في كل الأحوال تُطَرِّز، وتنظر إلى البحر وتفكر في القرصان. والذي في تلك الأثناء حاول القيام بهجوم آخر ولكنه انتهى نهاية سيئة، فقد ربطوه بالسلاسل وألقوا به في السجن، في البلدة نفسها التي فيها إيميلي. ومن السجن أرسل لها خطابًا:

الجميلة جدًّا إيميلي،

سيصلك هذا الخطاب نيابة عني، فالكلمات حرة لكي تطير، بينما جسدي مسجون بالقرب منك. وسيظل هنا حتى الغد، إلى أن أخرج إلى الممشى الذي يقود إلى حبل المشنقة. سافرت كثيرًا في حياتي، وزرت كل زوايا العالم، ولكن هذه الرحلة القصيرة ستكون الأصعب، وستكون الأخيرة. لست نادمًا على شيء، إلا شيئًا واحدًا: أنني لا أستطيع أن أمضي تلك الليلة الأخيرة معك. أن يكون جسدك الدافئ فوق جسدي، وأن أشعر فوق صدري بقوة نهديك العامرين وأنت متقطعة الأنفاس، وأضمها بينما أقبلك، وأنزل لألمس...

ها نحن نسخر من جديد، أشخاص فوق أشخاص: على الرغم من أنه في ذلك المساء على وشك أن يُشنق فإنه يفكر في هذا الشيء.

كانت السيدات يصدرن أصواتًا غريبة من حناجرهن، وعيونهن مفتوحة إلى أقصى حد، وكأنهن يسمعن بها وليس بآذانهن. ولكنني لم أعد أتحمل، وإذا كان هذا القرصان بلا حياء، فأنا أشعر بالخجل كثيرًا لكلينا، عندئذ، بنقطة الهواء الأخيرة، اخترعت طريقة جديدة، وأكثر صوابًا لأنهي هذا الخطاب العبثي:

ولكنني الآن أشعر بالتعب، إيميلي عزيزتي، وأتمنى لك ليلة سعيدة وأحلامًا ذهبية. مع أطيب تحياتي. القرصان.

قلت هذا، ورفعت نظري، وكانت وجوه السيدات كأنها لشخص كان قد أغلق عينيه في انتظار مداعبة، وبدلًا منها ضربوه بالعصي.

- ماذا؟ أطيب تحياتي؟

- كيف هذا؟ ليلة سعيدة وأحلامًا ذهبية! يا صغير، هل أنت متأكد أنك قرأت جيدًا؟

أومأت بالإيجاب بقوة، بل بقوة شديدة، وكأنني بالقوة التي أهز بها رأسي يمكنني تحويل تلك «النعم» إلى شيء صادق.

«حسنًا»، قالت سيدة في أنفها أنابيب رفيعة، وقالت الأخريات أيضًا «حسنًا»، ثم «يا للقرف، أي كتاب هذا؟».

أما أنا فقد شعرت أخيرًا بالراحة، لأن إيميلي ستبكي الآن قليلًا، وفي صباح اليوم التالي سيقتلون القرصان ونتخطى خطورة من أن تحتوي الصفحات على أيادٍ فوق الأجساد وأشياء تافهة من

هذا القبيل. عندئذ أستعيد أنفاسي وأستمر في القراءة بثقة واقتناع، وبابتسامة على شفتَي أصل إلى خطاب ردها عليه، وكان سطرًا واحدًا، قصيرًا، وبسيطًا، ومُدمرًا:

- انتظرني، هذه الليلة سأكون لك.

أقسم إنه كان هكذا. أقوله وأمكث بلا كلمات. إلا أن السيدات كان لديهن سيل منها:

- أحسنتِ!

- لحسن الحظ أنها تفكر في هذا، بدلًا من تلك التحيات الطيبة!

- هيا يا إيميلي، هو كذلك!

حتى السيدة الميتة عند المدفأة حركت رأسها بعض الشيء، أخرجت ذراعًا من شرنقة كنزتها وأغطيتها، ومن قبرها البعيد تمتمت: ضاجعيه!

ولم أستطع أن أصدق هذا الذي يحدث في الكتاب، بل ما يحدث في بيت الراحة هذا. ربما أخطأت الطابق، لكنني في الواقع أجلس في مستشفى الأمراض العقلية. وربما أيضًا يكون الطبيب المزيف السخيف قد أتى مثلي، يومًا ما، ليقرأ قصة لتلك السيدات الملبوسات بالشيطان، ثم تسبب هذا في إصابته بالجنون ولم يرحل قَط.

إلا أنني أردت الرحيل، وعلى الفور. ونظرت إلى رسغي، وكأنني أرتدي ساعة، ونهضت «اعذروني الوقت تأخر ولا بد أن أذهب للعشاء».

قالت ريكوردينا:

- ماذا؟ ما زالت الساعة الخامسة، لنستكمل بعض الوقت، كن طيبًا!

قالت السيدة ذات الأنابيب في أنفها:

- هيا، القليل فقط، لنصل حتى الليل ونتوقف.

- حتى الليل؟ ستقلق أمي!

- لا، أقصد حتى الليل في القصة! هيا، لنرى كيف ستنتهي تلك الليلة بينه وبينها، من فضلك!

ثم قلن جميعهن مرة واحدة:

- أجل، من فضلك.

عندئذ كان حقيقيًّا بالفعل أنني قديس، لأنهن الآن يترجونني. والقديس مجبول على هذا، ليس فقط لطيبة قلبه، وإنما لأنه مستعد أيضًا لأن يُضحي. عندئذ نظرت إلى ريكوردينا، والسيدة ذات الأنابيب، وتقياتي الأخريات، وعادت عيناي إلى تلك الصفحات الآثمة، واستمررت نحو الاستشهاد.

مع إيميلي التي تصل إلى السجن، وتعطي نقودًا للحارس والذي يأخذها ويتركها بمفردها مع القرصان. ينظر كل منهما للآخر، يتشمم كل منهما الآخر، ويرغب كل منهما في الآخر، ولكن شكرًا للرب، توجد بينهما قضبان حديدية، والتي تبدو لي هشة جدًّا

وبينها مسافات عريضة جدًّا: بالتأكيد كان الجدار سيكون أفضل كثيرًا.

في الواقع يمد القرصان يديه ويضم إيميلي ويشدها نحو تلك العصي التي لا فائدة لها، ويلتصق بها هو أيضًا، وكلما قرأت تلك الأشياء فهمت كم هي رائعة كتبي الإرشادية العزيزة، التي كتبها أشخاص جادون يعلموننا أشياء مفيدة.

حتى تلك الخاصة بالدجاجات، والأساليب المستخدمة لبتر مناقير الكتاكيت بدت لي رائعة في مواجهة هذا المشهد، حيث سيدة متزوجة لديها أشياء كثيرة لرتقها، تخرج ليلًا وتذهب لتزور قرصانًا يعتصرها بعنف.

إلا أن السيدات في الحجرة الصغيرة كن معجبات كثيرًا، كن يقُلن «أجل» بقوة شديدة تتسبب في رياح برائحة سكاكر النعناع، ويشربن الوصف الطويل لذلك الجلد الملموس ولتلك الأفواه التي تأكل أفواهًا، وعن التنهدات والشهقات التي أقرأها لهن، وفي الوقت نفسه أسمعها تتردد بدقة من الجمهور المحيط بي.

بل الأسوأ عندما يشد القرصان إيميلي من شعرها ويقرب شفتيه من أذنها ويلقي داخلها بكلمات في رأيي لم يكن لها أي معنى. بل يبدو أن لها الكثير من المعنى، لأن صرخات قصيرة ومخدوشة أفلتت من السيدات، وكأنها أبواب تصر في فيلم رعب قبل أن يحدث شيء بشع. عندما يقول لها ببطء:

هيا يا إيميلي، الآن استديري.

وتستدير هي، وتعطيه ظهرها، وعندئذ يتضح لي حقًّا كم هو غبي جدًّا هذا الكتاب: فهو سيُقتل في الغد، وإيميلي لن تستطيع أن تراه بعدها أبدًا، ما معنى أن تستدير إلى الجهة الأخرى لتحدق في الجدار؟ ألا يجب أن تنظر إليه جيدًا لتملأ عينيها منه، في عصر لم توجد فيه الصور وكان الوقت قد فات على أن يطلبوا رسامًا ليرسم لها صورته، عندئذ من صباح اليوم التالي لن تراه أبدًا؟ ألم يكن من الأفضل ربما...

يمسكها القرصان من خاصرتيها، يضمها بقوة وحشية وقادرة مثل شهوته لها. يضغط على وسطها ويجذبها أكثر نحو القضبان، ظهرها العاري، الندي، النابض، مؤخرة ظهرها المستدير، والمرتعد نحوه، نحو عضوه المتصلب ورغبته الأخيرة المحمومة فيها، و...

ويكفي هذا، الآن بالفعل كفى! ثم توقفت. وكأنني عصا مغروسة في الوحل السميك وشديد القذارة للخطية. كنت قديسًا، أجل، ولم يكن في استطاعتي الاستمرار. كما لم تستطع السيدات التنفس. تبقت صفحة على نهاية الفصل، ذلك الكتاب كتبه الشيطان، وأنا لم أعد أتبعه، ولا أريد أن أنتهي في الجحيم معه. نظرت إلى السيدات بعيونهن الشريرة، عدت إلى باقي الصفحات ومحوتها من ذهني بيد من الدهان الأبيض، وجعلتها ناصعة البياض كالبراءة، وأعدت كتابتها كما يحلو لي:

«عندئذ إيميلي، وهي تستدير نحو الجدار وتنحني إلى الأمام، رأت الساعة المعلقة فوق الجدار، وأدركت كم تأخر الوقت وهم

في انتظارها في المنزل. نهضت فجأة وقالت: «اعذرني يا قرصان، لا بد وأن أذهب الآن، لدي تطريز يجب الانتهاء منه. ليلتك سعيدة»، وذهبَت. وتفهم القرصان موقفها وحياها، ونظرًا لأنه كان متعبًا جدًّا تمدد في زنزانته ونام، وعاشا سعيدين ومسرورين».

هكذا، بدقة ونظافة، اخترعت الكلمات الأخيرة، وكنت على قدمَي بالفعل، تركت الكتاب منكفئًا على وجهه ليتأمل في خطاياه، ووضعت سترتي وألقيت بالتحية محاولًا أن أبتسم ابتسامة ترتعش على شفتي.

والسيدات كن في وضع أسوأ مني، أفواههن فاغرة، ملتويات كمن أصيب بشلل جزئي، مثل مومياوات بومباي التي تيبست لقرون طويلة في الوضع الذي فيه خطف البركان أرواحهن من العالم. والآن وقد متن جميعًا، قامت تلك الملتصقة بالمدفأة. رفعت قبضة جافة من أسفل الأغطية وصرخت: «إيميلي تلك متخلفة والقرصان مخنث».

وصفقت الأخريات، واتفقن جميعًا على أن الكتاب مقرف. وأنا أيضًا أشرت إليه على المقعد ورفعت كتفي، وكأنني أقول لهن إنه لم يكن خطئي. لو كان الأمر بيدي لكنت قرأت لهن عن تربية الدجاجات البياضة، وأصبحنا جميعًا سعداء.

ولم يتسع الوقت للسعادة. نهضت السيدة ريكوردينا وقالت: لا تقلقن يا صبايا، الأمر واضح! إنها خدعة، أليس كذلك؟ الآن ستعيد التفكير، وستعود إليه، وعندئذ ستعود النيران والشعلات!

أخذت الأخريات يبرطمن، ونظرن إليها، ونظر بعضهن إلى بعض، وحملن في داخلهن الأمل من جديد. حتى إنهن ألقين بأنفسهن أمام الباب، حيث كان نصفي في الخارج بالفعل.

- اعذروني، الوقت متأخر جدًّا، ويجب أن أرحل، أنا...

- على الأقل تأكد لنا أنها ستعود، فقط هذا، لا يمكنك تركنا هكذا!

- لا، لنتأكد غدًا. مثل المسلسلات التلفزيونية، والتي تنتهي في اللحظة الأكثر انفعالًا. غدًا سأعود وسنعرف كل شيء.

قلت هذا، دون أن أنظر إليهن. لأنني لن أعود غدًا، كانت مجرد كذبة. وهي خطية فادحة، بل وأفدح في الحالة التي يقولها فيها قديس، الأهم أنها كانت غير مفيدة، لأن تلك السيدات لم يكن يهمهن أي شيء عن الغد، فهن مثل ذلك القرصان في السجن، لا بد أن يحدث كل شيء الآن أو ربما لن يحدث أبدًا. ونظرًا لأنني لم أتحرك من أمام الباب، فكرت في أمر السيدة الملتصقة بالمدفأة. انتزعت نفسها من مكانها بمجهود بشع، وذهبت إلى المقعد وأخذت الكتاب، ووضعت عينها السليمة على الصفحة ومكثت على وضعها لوهلة، كانت بالنسبة لي ليلًا طويلًا كالذي يمر على المحكوم عليه بالإعدام.

ثم نزعت الكتاب من على وجهها، وبفضل العينين المحولتين حدقت فيَّ وفي صديقاتها في الوقت نفسه وقالت: ليس الأمر كذلك، ليس كذلك!

- كيف ليس كذلك يا دورا، ما معنى هذا؟

- إيميلي لن ترحل، بل على العكس!

قالت ريكوردينا:

- تمامًا! عادت إليه، كنت أعرف هذا!

- لا، عادت ماذا! لم تذهب قَط. بل وضعت يديها بين القضبان و... ولا شيء سوى التطريز!

عندئذ نظرن جميعهن إليَّ، متسمرًا أمام الباب.

- فابيو، معذرة، أين قرأت أنها رحلت؟

ثم قالت لي السيدة والكتاب في يدها:

- يا صغير، هل أنت متأكد من أنك تعرف القراءة؟

مكثت ثابتًا وصامتًا، لأنني بالفعل أعرف القراءة، ولكنني لم أكن أعرف بما أجيب. ولا أعرف أين أنظر، عندئذ خفضت عينَي إلى الأرضية وإلى أخفافهن المبطنة. وكنت أشعر بنظراتهن جمعيًا فوقي، ملتوية ومحجوبة، والتي ربما لا يرون بها جيدًا، إلا أنها كانت تبدو لي ولها تأثير آلات أشعة إكس، والتي يمكنها أن ترى كل شيء أسفل الجلد، واللحم، وحتى العظام وكل ما لدينا في الداخل، الدماء والأعصاب، والمخاوف والكذبات. وأردت من كل قلبي أن أقدم لهن مشهدًا أقل بشاعة، ولم أعرف كيف أضع في الداخل بعض الحقيقة أو كيف أخترع شيئًا أكثر جمالًا، وكان هذا غريبًا جدًّا

ومحبطًا أيضًا؛ أنه في الحياة لا بد دائمًا أن نختار بين الأشياء الحقيقية والأشياء الجميلة، حيث إنهما ليستا الشيء نفسه مطلقًا.

إلا أنني في تلك اللحظة، لم أستطع أن أخترع أي شيء جميل، عندئذ لم تبقَ لدي سوى الحقيقة التعسة:

- معذرة يا سيداتي، أطلب منكن أن تسامحنني، ولكنني شعرت بالخجل الشديد عند قراءة تلك الأشياء، الخجل الشديد جدًّا.

قلت هذا، وكدت أبكي، وأردت أن أهرب بعيدًا حتى أظهر هكذا. ولكن لم يكن الأمر ممكنًا، لأنني في لحظة واحدة وجدت ألفًا من الأيادي فوقي تضمني، وألف صوت حاد يخرج من حناجر تلك السيدات ويُزرع في أذنَي.

قالت ذات الأنابيب:

- كم أنت رقيق!

- رقيق جدًّا.

قالت ريكوردينا، والأخريات مثلها. وكنت أريد أن أقول إذا كنت بالفعل رقيقًا، يمكنهن كسري إلى اثنين بضمي إليهن بتلك الطريقة.

إلا أنني لم أقل شيئًا، لأنهن كن يضممنني حتى فقدت أنفاسي، وأيضًا لأنهن أخذن يقُلن لي شيئًا يعجبني أكثر بكثير. أي أنني كنت ملاكًا، ملاكًا أرسله الرب خصوصًا إلى الأرض، ملاكًا عذبًا جدًّا وبريئًا. وشكرنني لأنني قرأت لهن، وأنني منحتهن أمسية لن

يسنينها أبدًا، وأنني أحضرت عذوبتي إلى هذا المكان حيث يسود الملل والصمت.

ونسيت بالفعل كل الخجل من تلك الأيادي فوق الأجساد، والجلد المتلاصق بالجلد في ذلك الكتاب المجنون. وأقسم إنني دون أن أعرف، ودون أن أقرر هذا، فقط فتحت فمي، وخرجت منه تلك الكلمات التي لم تكن كلماتي، ولكنها أتتني من السماء التي أرسلتني إلى هذا العالم المحتاج إلى الصلاح وقلت: كان وقتًا ممتعًا، بل عندما تُرِدْنني سأعود لأقرأ لَكُن، يكفي أن تدعوني وأقسم إنني سأعود.

وأجابت السيدات بنعم، وتقريبًا وهن يبكين، ومرة أخرى أخذن يدعونني: الملاك والقديس والروح الطاهرة والمباركة.

ولكنهن لم يدعونني مرة أخرى قَط.

(١٥)
جامع الكرات

انتهى الربيع، ولكن المدارس الابتدائية انتهت معه أيضًا، لأن هذه المرحلة انتهت إلى الأبد.

من خلال الامتحان، والذي كان سهلًا إلى درجة كبيرة، كان يكفي أن تختار دولة وتذاكر ما يتعلق بها، وماذا تنتج، وتلصق بعض النقاشات عن مواد متنوعة. اخترت الصين، والجزء الوحيد المعقد كان رسم خريطتها بالريشة، لأن الجبال لا بد أن تكون بنية اللون والسهول خضراء والأنهار زرقاء، وهكذا، وقد حاولت ولكنني كنت أرى الألوان بالمصادفة، عندئذ كان الناتج كوكبًا من الخيال العلمي مصنوعًا من جبال وسهول وهضاب وبحيرات ضخمة مغطاة بالغابات.

اطلعت أمي عليها: هل تعجبك؟ كيف تظهر؟

وهي، بعد أن لفتها أكثر من مرة:

- أجل يا فابيو، ممتاز، رائعة. بل ربما تكون رائعة أكثر مما ينبغي،

وربما تصبح هكذا مزعجًا لزملائك. أتعرف ماذا يجب أن نفعل؟ أنا سأعيدها لك، وهكذا تصبح سيئة بعض الشيء، وأنت ستظل لطيفًا.

وبدت لي فكرة عظيمة، وتركت لها هي أمر الخريطة، بينما ما تبقى عليَّ كان القليل من الأشياء لأتذكرها جيدًا، أقل من أحد الكتب الإرشادية التي كنت أدسها في عقلي كل أسبوع. إذن مرت الامتحانات، وودعت المدرسة، وحان وقت العطلة، وبعد تلك سيحين دور المدرسة المتوسطة، بمواد جديدة، ومدرسين ورفاق فصل جدد.

كان كل شيء يجري بسرعة، فيما عدا أبي الذي ظل بعينين مغلقتين في المستشفى. وكنا نحن أيضًا نريد أن نظل ثابتين معه، مثل صخرة مغروسة جيدًا في نهر التاريخ، تلطمها المياه وتدفعها، والطريقة الوحيدة التي تعبرها بها هي أن تدور حولها وتمر. يبدو أن النهر في هذه اللحظة ممتلئ، والريح شديدة جدًّا، واستطاعت أن تحركنا أيضًا. وهكذا في صيف ١٩٨٥، وحتى إلى قرية مانشيني، وصلت أعوام الثمانينيات.

بالتحديد في مساء شهر يونيو في أثناء عودتي من جولة في غابة الصنوبر مع العم آراميس، كانت أمي قد وضعت عليَّ قميصًا أبيض بياقة مستديرة، وبنطالًا أبيض قصيرًا جدًّا، وقالت لي إنني بدأت لعب التنس. كيف خطر هذا في بالها، فهو لم يحدث قَط! ربما لأنها كانت تنظف في نادي التنس، ربما لأنها تنظف أيضًا في فيلا إحدى

عائلات مودينا، ومن بين الأشياء التي رغبوا في إلقائها مضرب تنس كان مناسبًا لي بعض الشيء. السبب الأكيد هو أن أمي شاهدت فيلمًا أوحى لها بذلك.

ونظرًا لأننا في نصف أعوام الثمانينيات، تقريبًا كل الأفلام كانت تحكي قصة شخص وُلد فقيرًا، ولكنه لطيف ويقظ، ثم ينتهي أمره من باب الخطأ في المجتمع الأعلى (ربما لأنه كان يساعد فتى غنيًّا في المذاكرة، أو ربما كان يعمل شبيهًا لأحد الأمراء، ربما دهسه ملياردير بسيارته)، وفي فترة وجيزة يحبه كل الأثرياء ويصبح ثريًّا بدوره. قصة رائعة لتلك الأعوام التي كانت النقود فيها مستحوذة على الجميع، وتمتلئ الصحف والتلفاز بكل أولئك السادة الجدد والمرتدين جيدًا، والذين يُدعون «manager»، ولا يُفهم نوعية العمل الذي يقومون به، ولكنهم يربحون الكثير جدًّا، وهذا ما يهم فقط. في العالم كله، مثل بلدتنا، حيث يتحدث الجميع عن «الأسهم والبورصة»، ويبدو لي أنهم فقدوا عقولهم مثل السيدة أولجا المسكينة.

كانت السيدة أولجا عجوزًا تدور في الشوارع بخفها ومريلة عليها ورود، وتمسك بكل ورقة تجدها على الأرض وتفردها جيدًا بكف يدها، وتطويها إلى اثنين مثل النقود الورقية وتضعها في جيب المريلة وهي في غاية السرور، لأنها بالفعل تعتقد أنها نقود.

وكان الناس يتسلون بذلك كثيرًا، وخاصة في بار الغزالة حيث كان الأعمام وأصدقاؤهم يتركون على الفور أكوابهم وسجائرهم عندما تمر أولجا، ويضعون أوراق اللعب على وجهها على الطاولة

ويهرعون بحثًا عن تذاكر أو أوراق ويمزقون قطعًا من إعلانات المهرجانات المعلقة في الخارج، ويلقون بها في الخارج ويصيحون «يا الله، كل هذه النقود!»، وتلتفت أولجا فجأة وتقول: «كلها لي»، وتلقي بنفسها فوقها. ويضحكون جميعًا، وفي الأيام التي لا يكون لديهم شيء يفعلونه يمكنهم أن يحجزوها لساعات بسبب قِطع الورق التي يلقونها أرضًا حتى تملأ جيبها الكبير. ثم كانت تعود إلى منزلها، وهم يعودون ليفعلوا اللا شيء الذي كانوا يفعلونه قبلها ويضحكون عليها.

يضحكون على أولجا المجنونة، التي لم تكن تفكر إلا في النقود، وكانت تراها في كل الجهات حتى وإن لم تكن هناك. ثم جاءت أعوام الثمانينيات، وأصبحت كل البلدة مثلها. حتى العديد من السادة الجالسين في البار، والذين بدلًا من اللعب بالورق وكرات البوتشي، يلعبون في البورصة، لعبة مملة جدًّا ومليئة بالأسماء والأرقام، وفيها يخسرون الكثير من النقود. بينما لم تكن أولجا تصرف أي شيء، بل من خلال سيرها وانحنائها كثيرًا في الطرقات وصلت إلى سن الخامسة والتسعين وهي في أفضل الحالات، وفي اليوم الذي ماتت فيه، عثروا في منزلها على نقود كثيرة جدًّا إلى حد أن ابنتها اشترت بنايتين في وسط لوكَّا.

إذن، ربما لم تكن أولجا مجنونة كثيرًا، أو ربما كانت مثل الجميع، إلا أن الآخرين فقط قرروا أنها هي المجنونة بينما هم مديرون، في حقبة لم يكن البحث فيها عن الفرص ضروريًّا، لأنها يمكنها أن

تقفز فوقك، حيث كانت كثيرة وضخمة، إلى حد أنني في النهاية لم أفهم بالفعل إذا كانت لم تصل قَط، أو أنها كانت ضخمة جدًّا جدًّا، وبالقفز فوقنا سحقتنا وتركتنا.

في كل الأحوال، كل هذا لأقول إن أمي كانت تحتفظ في ذهنها بفيلم من هذا النوع، وبمضرب في يدها، وكانت تذهب لتنظف حجرات ملابس هذا المكان الذي به أربعة ملاعب تنس، وكوخ في بدايته، ونظرًا لوجود بعض أشجار الصنوبر في وسطه كان يُدعى Country Club America. وهناك، كل يوم، كانت ترى العديد من الصبية المتعلمين، المتأنقين، وقررت أن طفلها أيضًا يجب أن يدخل هذا النادي.

كنت قد شرحت لها أن هذا لا يعجبني، وأنه مضيعة للوقت، وأنني لا أريد أن أذهب للعب التنس. ولكنها أجابتني بأن هذا ليس مجرد تنس، إنه النادي الريفي، ثم قدمتني إلى شخص يجلس في الكوخ ويفعل كل شيء، بداية من تدوين الحجوزات في الملاعب، حتى تسخين البيتزا الصغيرة، وسألته إذا كان هناك مكان لي، وأنني ابنها.

ربما كانت تتمنى ألا تكون الدروس باهظة الثمن، أو أن هذا الشخص يقدم لها معروفًا في السعر، وعندئذ لم أفهم لماذا تضايقت أمي بشدة عندما أجابها هو: بالطبع، بالتأكيد يوجد مكان لصغيرك يا ريتا! بل، بالأمس أصيب أحد الصبية، واحتاج إلى جامع كرات!

بالنسبة لي كان هذا وضعًا رائعًا: ليس فقط لأن ذلك السيد

لن يجعلنا ندفع أي شيء، ولكنه أيضًا مستعد لأن يدفع لي! مكثت أمي وكأنها ميتة، وفجأة شعرت برغبة في العودة بسرعة إلى المنزل، وفي السيارة أخذت تسعل بشدة، وفي النهاية حتى وإن أصرت على السعال، فهمت جيدًا جدًّا أنها كانت تبكي.

وصلنا إلى القرية وهي مستمرة في البكاء. ولكنها في ساعة العشاء كانت توقفت، وعندئذ شرحت لها أنه أمر جيد، وأن الفيلم بهذه الطريقة سيكون مؤثرًا أكثر وصاخبًا، حيث إن سلم نجاحي سيبدأ تمامًا من الصفر، وأنا أجمع الكرات التي أخطأ في تسديدها الصبية الأغنياء والمدللين، والذين ربما يعاملونني بطريقة سيئة، ولكن يومًا بعد يوم، سأتعلم من أخطائهم سر لعبة التنس، وسأصبح معلمًا، ثم مدرب تنس -بل يا ماما سأصبح مدير النادي الريفي!- ثم مدير شركة كبيرة تنتج كرات التنس، ثم أقفز قفزة سهلة وقصيرة ثم أصبح رئيسًا للجمهورية. أو مانيجر للجمهورية، والتي تبدو أفضل بكثير في هذه النهاية المؤثرة لهذا الفيلم الرائع.

بالفعل، بالتحديد بهذه الطريقة، إلا أننا الآن كنا في البداية، ولا بد أن أمسك بأسناني في فمي والسلة في يدي، بينما أملأها بالكرات المبعثرة في الملعب. ومن حين لآخر أطلب المعذرة من كرة القدم وكرة السلة، وأيضًا من لعبة البلياردو التي كان أعمامي يأخذونني إليها من حين لآخر. كنت أطلب منها المعذرة لأنني كنت أعتقد أنها قمة الملل، بل الملل الحقيقي كان شيئًا آخر، فهمت هذا فقط عندما اكتشفت التنس.

في نظري كان شيئًا محبطًا، لعبة الأشخاص المتأنقين والباردين، كل منهم في ناحيته بشبكة في الوسط ولا بد أن يحتفظ كل منهما بمسافته: أنا لن آتي إلى ناحيتك لأضايقك وأنت تلتزم بالمثل، وربما في النهاية، إن لم نكن متعرقين، يشد كل منا يد الآخر وإلى اللقاء. كان يعجبني كثيرًا ابن عمها الصغير والمعتوه، تنس الطاولة، إلا أن لاعبي التنس الجادين يقولون إنها لعبة مضرة، لأن اللاعب من خلال لعب البنج بونج يكتسب عادات سيئة تتسبب في عقابه في التنس. ولكنهم لم يكونوا يشرحون قَط تلك العادات، من المؤكد أن العادة الأولى هي الاستمتاع.

إلا أنها لم تكن مشكلة، فأنا لست في هذا المكان لأستمتع بل أعمل كل يوم منذ بداية الإجازة، أمسك بالسلة في يدي وأرتدي تيشيرتًا مكتوب عليه Country Club America. أرحل من القرية دون أن يراني الأعمام، لأن هذا بالنسبة إليهم كان شيئًا مخجلًا، أنه في القرن الواحد والعشرين يوجد صبية مُرفهون يلقون بالكرات بعيدًا، وصبي آخر عليه أن يجري ليجمعها لهم، وكأنه عبد أو كلب، وبهذه الطريقة أهدر صيفًا يمكنني أن أقضيه بطريقة أفضل معهم. وكنت أسألهم أليس اتباعهم في الغابة مثل كلب الفطر هو الشيء نفسه، أو أن أمسك لهم سلال لحم الخنازير أو ألف سجائر التبغ والأوراق للجميع، بالإضافة إلى أنها كلها أعمال أقوم بها مجانًا. ولكنهم كانوا يجيبون: لا، ليس الأمر نفسه على الإطلاق! أول شيء نحن أعمامك، والشيء الثاني لسنا مرفهين.

ربما كانوا على حق، المشكلة كانت هي هذه بالتحديد: لسنا مرفهين، ولكن وصلت الثمانينيات، ولا بد أن نصبح كذلك لنسعد أمي، والتي منذ أن رقد أبي لم أرَها قَط سعيدة سعادة حقيقية، وإذا كانت تضحك مرات كثيرة، فإن ضحكتها لم يعد لها الصوت نفسه.

لذلك كل يوم أرتدي التيشيرت وأذهب إلى النادي الريفي لأجلها، وأجمع الكرات التي خسرها أولئك الصبية، والذين لم يكونوا مزعجين، بل كنا نتفق ويفهم أحدنا الآخر على الفور. حتى هم، كانوا موجودين فقط لأن هذه رغبة والديهم، وعندئذ نبدأ في وضع قائمة من الأشياء الجميلة التي كان يمكننا أن نفعلها في تلك اللحظة، إذا كانت الحرية هي الموضة في محل التنس. كانت قائمة رائعة وكان يمكن أن تستمر إلى الأبد، ولكنها كانت تنتهي فجأة بمجرد أن نسمع تلك الأغنية القوية جدًّا، والتي كانت تصل من طريق الحصى وسط أشجار الغار، كانت تصعد بين أشجار الصنوبر وفي النهاية تملأ الملعب مع الضوء الذي يغشي البصر للمعلم جوالتيرُّو:

ما طعم الوصول أو الرحيل!

فأنا ساحر شاعر بهويتين

فأنا شارد لا راحة لي

أحب فقط نفسي وحريتي

هكذا يلمع إلى حد أن الشمس تتراجع خطوة إلى الوراء بينما هو يتلألأ في بنطاله القصير الأبيض، وحذائه الأبيض، والتيشيرت

اللاكوست، والكنزة القطنية على كتفيه ناصعة البياض أيضًا، نظارة الشمس كالمرآة، مستندة إلى شعره المصفف للوراء بالجيل، وكان شعره قائمًا مثل جلده.

يصل كل يوم بأغنية مختلفة، كلها للسيد خوليو إيجليسياس، والذي كان مطربًا وسيمًا جدًّا تحبه كل النساء، حتى جدتي عندما تقوم بالتنظيف تستمع إلى شرائطه، وفي إحدى المرات بينما يُغني «مانويلا» استندت إلى المكنسة الكهربائية وقالت إنها لم تخن الجد قَط لأنها كانت امرأة صالحة، ولكنها كانت أيضًا محظوظة لأن خوليو لم يكن أمامها. كانت تقول هذا لأمي وللأسف سمعتها أنا أيضًا.

إذن فمن حسن الحظ أن المعلم جوالتيرو لم يمر أمامها، لأنه يشبه السيد خوليو كثيرًا، إلا أنه يمسك بمضرب تنس على كتفه بدل الجيتار، كان قمحيًّا طويل القامة ووسيمًا جدًّا.

حتى وإن كان الأعمام قد شرحوا لي من قبل أن الرجل لا يجب أن يقول أبدًا عن رجل آخر إنه جميل. لطيف ربما، ماهر أيضًا، لكن «جميل» لا، لا يجب أن يقول الرجل هذا. وأيضًا الرجل لا يكوي ولا يغسل الأطباق ولا يكتب قصائد الشعر. بل إنهم قلقوا جدًّا في تلك المرة التي ربحت فيها، في الصف الثالث الابتدائي، جائزة أجمل قصيدة شعرية في المدرسة، بقصيدة اسمها «بحر»:

في كل مرة أبتعد فيها عن البحر

أرغب فيها أن أعود إليه مرات.

كانت هكذا، أقسم لكم، وإذا كانت هذه هي القصيدة الأجمل في المدرسة تُرى كيف كانت القصائد الأخرى!

لكن هذين البيتين الهذيلين تسببا في القلق لأعمامي، وجاء أديلمو ليقول لي إنني لا يجب أن أكتب الشعر مرة أخرى، سواء الجيد أم السيئ، وإلا عندما سأكبر سأصبح رجلًا يحبه الرجال الآخرون. ثم أخرج سكينًا صغيرة لها مقبض رائع، يحفظها بين مَقْعدته والكرسي ذي العجلات، وقال لي إنني يمكنني الاحتفاظ بها إذا أقسمت بألا أكتب الشعر مرة أخرى. وأخذت السكين ولم أكتب بعدها قصيدة واحدة في حياتي، ولكنني أقول إن المعلم جوالتيرو وسيم على الرغم من ذلك، لأنه أمر معروف بالفعل للجميع، وعلى رأسهم جوالتيرو.

كان يصل ويلقي بالكنزة على الدكة، ثم يلتفت ليبتسم لتلميذه ولي. وكنا نحن أيضًا نبتسم، لأنه كان لطيفًا وكان يحكي لنا قصصًا لا نفهمها كلها، ولكنها تهمنا على الرغم من ذلك. وكانت دروس التنس معه ستكون رائعة إذا كانت تتوقف عند هذا الحد. إلا أنها كانت على العكس تمامًا، لأن الأمهات بعد ذلك بلحظة يصلن ليتبعن أبناءهن، وأمام السيدات يتحول جوالتيرو إلى ذئب في ضوء القمر: لا يتغير فقط، بل يتحول إلى شخص آخر تمامًا.

المرأة سواء كانت عشيقة، أمًّا أو صديقة

لا تتعب أبدًا

في أن تفعل كل شيء في هدوء لي

حتى الصوت يصبح مختلفًا، ويتخذ نبرة إسبانية مثلما يحدث في أغاني خوليو إيجليسياس. في الواقع تسأله الأمهات إذا كان من مدريد أو من برشلونة، أو إذا كان قد أتى من أمريكا الجنوبية، وكان هو يحدق فيهن للحظة بعينين كلتيهما مرارة، قبل أن يجيب: أُفضل ألا أتحدث عن ماضيَّ. Mucho amor, mucho dolor.

وهن يعتذرن ولا يعرفن ماذا يجب أن يقُلن، فقط يتبادلن الاتهامات بالغباء لأنهن طرحن سؤالًا بهذه الحماقة على هذا الرجل الجميل جدًّا والغامض والذي يقف الآن أمامهن، ولا يهم إذا كان قد أتى من مدريد أو من بامبلونا أو حتى من آخر الأرجنتين.

بالإضافة إلى أن جوالتيرو في الحقيقة من ليفيلياني، وهي بلدة صغيرة على قمة جبالنا، بعيدة جدًّا إلى حد أن أناس الساحل عندما يرغبون في تهديد أحدهم يقولون له:

توقف عما تفعله وإلا سأركلك ركلة في مؤخرتك ترسلك إلى ليفيلياني.

ربما لم يكن الأمر كذلك، ربما أتحدث عن الرجل السابق، المعلم اللطيف الذي يرسل إلى تلاميذه ضربات سهلة وكلمات مشجعة، وفي كل مرة أعيد إليه الكرات يشكرني ويناديني باسمي. إلا أنه بمجرد أن تصل، من الطريق الضيق، أصوات الكعوب التي تدق الحصى، ورقصة الشعور الطويلة والناعمة، وامرأة ترتدي جيدًا

جدًّا وقليلًا جدًّا، وتجلس بجوار كنزة المعلم البيضاء، عندئذ يصبح ملعب التنس معسكرًا للإبادة.

بل لا، من أجل هذا سنحتاج إلى لهجة ألمانية مثل تلك التي للأشرار في أفلام النازيين. مع الكلمات التي تميل إلى الإسبانية للمعلم جوالتيرو، تتحول دروس التنس إلى مصارعة ثيران.

وأنا أعلم الكثير جدًّا عن مصارعة الثيران، بفضل السيدة ستيلًّا وطاولتها، حيث اصطدت كتابًا بغلاف مليء بصور إسبانيا، كتبه شخص يُدعى ماريو كاسيني، وعنوانه: «مصارعات ثيران تحت الشمس». وأيضًا إذا كانت الشمس هنا تحجبها أشجار صنوبر النادي الريفي، فإن الملعب كان الحلبة، والمعلم جوالتيرو هو الميتادور والمضرب هو ستاره الأحمر. وبدلًا من الثور، للأسف، كنت أنا والتلميذ المتدرب.

في الواقع كنا نودع الكرات السهلة والمُشجعة، الآن يطلق جوالتيرو صواريخ طويلة المدى تحتك بالأرض الحمراء وكأنها رؤوس عيدان الكبريت عندما تشتعل بالنيران، قبل أن تنتهي إلى لافتات الإعلانات البعيدة.

ثم يقول للصبي الذي شُل أمام عنف الضربة بلكنة إسبانية:

– ماذا حدث يا صديقي؟! ألم ترَها؟ ربما تلزمك النظارة!

ثم يضحك ويلتفت للأم التي تجلس على الدكة وتضحك بدورها وهي تغطي فمها بيدها.

ثم تنزل تلك اليد بعض الشيء، وتصل إلى ارتفاع النفس، عندما يضرب جوالتيرو كرة أخرى في الهواء وبصوت من حنجرته يضرب ضربة بداية قاتلة تلمس ابنها الذي يقف ساكنًا ومرتعبًا.

- صديقي، ألا تعمل قدماك؟ أنت لا تحتاج إلى نظارة، أنت تحتاج إلى كرسي متحرك.

وتنطلق ضحكات أخرى، بينما ينهكه وهو يرسله خلف كرات ملقية في زاوية أو قصيرة أو حتى مستحيلة. وعندما لا يقوى على التنفس يقول له، باللهجة الإسبانية ذاتها:

- لتخجل من نفسك، قوتك البدنية تشبه شخصًا في الثمانين من عمره!

ثم يلتفت نحو الأم ويضيف:

- وهذا شيء عجيب جدًّا، مع وجود أم في أكمل هيئتها.

عندئذ تتوقف الأم عن الضحك، وتبدأ في الابتسام بطريقة تجتاحها، فلا تظل الابتسامة فقط على وجهها بل تمتد إلى عينيها وشعرها الذي تبدأ في ترتيبه باستمرار، عنقها وصدرها وكل جسدها الذي قال لها المعلم عنه إنه في أكمل هيئته.

لا يبتسم التلميذ المسكين، ولا أنا أيضًا. فكان هو في الواقع يفقد أنفاسه وهو يجري دون أن يلمس الكرة ويحصد فقط النقاط الخاسرة، كان هذا فقط الجزء الأول من المصارعة، الجزء التمهيدي، عندما يستخدم الميتادور «الأعلام الصغيرة»، وهي عصي صغيرة

مدببة يستخدمها لوخز الحيوان. لأن التلميذ، في كل الأحوال، يدفع ثمن الحصة، بل تدفعها الأم التي تمكث هناك، أو ربما الأب الذي لا نعرف أين هو، والمهم أنه في مكان آخر، وإلا لما كان المعلم قد توحش كثيرًا على هذا الثور. ولهذا، بالتحديد، كنت أنا موجودًا.

عندئذ تحين لحظتي، تقريبًا نحو نهاية الدرس. يبدأ المعلم في تغيير اللعبة وذلك بإلقاء كرات أبطأ ومركزية أكثر، ولكنها قصيرة للغاية. تبدو سهلة، وبمجرد أن يلمسها التلميذ تتسرب مسرعة كأنها ثعابين خادعة وتنتهي كلها فوق الشبكة. يضحك المعلم، وتضحك الأم، إلا أن الصبي يلتفت نحوي ويسألني المعذرة. أجل، لأن الكرات عندما تكون كلها في منتصف الملعب يوقف المعلم إطلاق أعلامه الصغيرة ويشهر سيفه، وهو يشير إلى الشبكة ويقول: هيا يا أميجو، جاء دورك!

كنت أرشم علامة الصليب على صدري، وأنحني، تبدأ معركة بساقَي العاريتين بين الإلقاء والصد، بين الشعور بالواجب والرغبة في النجاة. صراع يقودني تقريبًا لأن أمكث ساكنًا، ولا يفوز فيه أحد، وفي كل الأحوال يبدو أنني أنا الخاسر.

يصيح المعلم جوالتيرو:

- هيا أسرع! أنت هنا لتجمع الكرات أم لا؟

لا! هكذا أريد أن أجيبه، لأنني في الحقيقة هنا لإسعاد أمي. كنت قديسًا، وكانت مهمة القديسين إسعاد الآخرين، كل الآخرين،

فلنتخيل إذن الأمر إذا لم أُضحِّ من أجل أمي. أنا هنا من أجلها، في محاولة لتسلق سلم المجتمع. ولكنها عملية تسلق بطيئة وخطيرة، وتمر أيضًا على تلك الكرات في الشبكة في منتصف ملعب التلميذ. كنت أعيد التفكير فيها، في التعبير الخالي من التعبيرات الذي ظهر على وجهها عندما قال لها الشخص المسؤول عن التنس إنني يمكنني القدوم إلى النادي الريفي، أجل، كجامع للكرات، عندئذ كززت على أسناني، ومع سلتي الفارغة خفضت رأسي مثل الثور قبل الهجوم، ثم انطلقت إلى نصف الحلبة.

وكنت أعلم سابقًا ما على وشك أن يحدث لي. بل نعرفه جميعًا. وتضحك أم الصبي بعصبية أكثر، لأن جوالتيرو ذهب إلى نهاية الملعب وأخرج السلة الأخرى المليئة بالكرات التي كان يضعها خلفه من البداية. يعود ليقف كلاعب تنس بارع، ويبدأ من جديد في الرقص مع تلميذه، بينما أنا في الوسط منحنٍ لجمع الكرات أسفل ذلك القصف الشديد.

عادة الضربة الأولى تكون كرة تقفز عليَّ بهدوء، أما الثانية تكون كرصاصة مشدودة وقاتلة، تلمس الشريط ثم صدغي. وتكون قريبة جدًّا، حتى إن صرخة فزع تفلت من الأم الجالسة على الدكة، ولكنه مثل فزع أفعوانية الملاهي، تلك الرعشة التي لتجربها تدفع أيضًا النقود، وتتوق للساعة التي تنتهي فيها، ولكنك في الوقت نفسه ترغب في أن تشعر بها مرة ومرات.

ولا يكون على السيدة الانتظار طويلًا. فقط الوقت الذي أستعيد

فيه نفسي وأضع كرتين في السلة، ثم أنهض لأجمع الكرات الأخرى، والمعلم جوالتيرو:

- معذرة أميجو، لكنك بطيء جدًّا والوقت ثمين!

واضح أنه أثمن من الحياة الإنسانية، لأنه يُطلق صاروخًا آخر سريعًا جدًّا لا أراه، ولكنني أشعر فقط بحركة الهواء بالقرب من وجهي وأشتم رائحة البلاستيك المحترق وهي تدخل إلى أنفي لتختلط بالفزع. ثم يقول جوالتيرو:

- هيا يا حلزون هيا! لا أحب الانتظار.

ثم ينظر إلى الأم ويزرع عينيه داخل عينيها ويقول:

- أنا آخذ كل شيء على الفور.

تخفض هي نظرتها لثانية، وتعتدل في جلستها على الدكة، وكأنها أصبحت غير مستريحة من لا شيء، بينما يشحن جوالتيرو ذراعه القمحية مفتولة العضلات ويصرخ «أوليه» مطلقًا قنبلة أخرى، والتي تسقط تمامًا فوقي، وأستطيع بالكاد أن أسقط أرضًا والسلة تنكب وتتدحرج الكرتان اللتان جمعتهما حُرتَين من جديد على الأرض.

- أميجو، ماذا يحدث؟ هل أنت نعسان، نائم؟ الآن سأوقظك أنا!

ويمسك من جديد بالقذيفة من سلته، وربما تفلت من الأم عبارة «هيا يا جوالتيرو، كفى»، وتلك العبارات كانت تُقال فحسب،

مثلما يقدم لك أحدهم هدية فتقول له: «لم يكن يجب هذا»، أو عندما يمدحونك فتجيب: «ولكن لا، لا». إنه ما تقوله، ولا دخل له على الإطلاق بما تريده.

وكان جوالتيرو يعرف ذلك، في الواقع يطلق كرة أخرى، ثم أخرى أيضًا وكنت أنا أتبعها محاولًا أن أنحني لمستوى أقل من الشبكة، مع ذلك الطمي الأحمر اللعين الذي يلتصق بالتيشيرت وبركبتَي، وأحاول أن أنزعه ولا معنى لهذا، لأن الدرس لم ينتهِ ولا المصارعة أيضًا، والميتادور مستمر ويتوقف فقط عندما تصيبني إحدى الكرات بكل قوتها. وكانت تؤلمني بعض الشيء، ولكنني لم أكن أصرخ بسبب هذا. كان الصراخ بسبب الخوف المتراكم وبالأكثر ذلك الغضب كان بسبب تلك الدروس العبثية التي لا تُعلم التلميذ أي شيء عن التنس، وتعلمني فقط الكثير عن حماقة البشر المتمثلة بالطبع في المعلم جوالتيرو، وفي تلك الأم أيضًا، التي تقول *كفى يا جوالتيرو، كفى*! ولكنها تضحك في الوقت نفسه، وكل الناس التي أصبحت تأتي فجأة إلى النادي الريفي بالتيشيرت الأبيض وتتحدث عن *اللوك والبيزنس*، وأشياء أخرى لم أفهمها حتى في المدرسة، فلنتخيل حالي هنا وأنا ملقى في وسط الملعب بالطمي الأحمر فوقي، وألف كرة تتدحرج حولي عشوائيًّا.

ثم ينتهي كل شيء. أنا والتلميذ نذهب إلى كوخ النادي الريفي، وتختفي أمه، لا نعرف أين، وجوالتيرو بدوره إلا أنه يعود بعد قليل، ومعه منشفة على كتفيه وأخرى حول وسطه.

ثم يعود لطيفًا مرة أخرى، ويقدم لي كوب عصير وتعود لغته الإيطالية طبيعية بينما يقول لي إنني أنا أيضًا يجب أن أتعلم حتى أصبح مدربًا مثله، وبدلًا من الكرات أبدأ في جمع شيء آخر. وأجيبه بأنها فكرة جيدة، ولكن للأسف، أمي تريدني رئيسًا للجمهورية. يضحك جوالتيرو تلك الضحكة المليئة بالأسنان البيضاء والرائعة، بينما أشعر بالندم لأنني ذكرت أمي أمامه، وهو لا يترك واحدة تفلت منه.

ثم أعود إلى المنزل متسخًا تمامًا، قطعة لحم مغموسة في الطمي الأحمر، وتقول هي «*كم أريد أن أعرف كيف تتمكن كل يوم من أن تتسخ هكذا!*»، ولا أجيبها وفي الحقيقة أفعل هذا من أجلها، وكل ظهيرة كانت درجة صعود على سلم المجتمع. ولكنه كان صعودًا شاقًّا ومتربًا، وكلما تعرفت على المجتمع أكثر، شعرت بالرغبة في أن أبقى بعيدًا عنه، لأنه إذا كان بهذا السوء عند هذه المرحلة، فلنتخيل كيف سيكون في القمة، حيث يصل فقط من يستطيعون التحرك جيدًا في الأوساخ والقاذورات. إذن من الأفضل أن أفعل مثل العم أرنو، والذي كان يمكث في بستانه ومكان الجرس رسم جمجمة، وإذا حاول أحدهم البحث عنه يجيب بطلقة من بندقيته في السماء.

ولكنني لم أكن أستطيع ذلك، كان لا بد أن أستمر في التسلق من أجل أمي، وأيضًا من أجل أبي الذي سيستيقظ يومًا ما وستكون مفاجأة له عندما يرى أين وصل ابنه. بالإضافة إلى أن ما يمنحني الكثير من التشجيع هو فكرة أنني بمجرد أن أصبح رئيسًا

للجمهورية، فإن أول شيء سأفعله هو منع التنس في الدولة كلها. وسأرسل الجيش ليضع الألغام في الملاعب، والعساكر ليصادروا المضارب من كل البيوت. وداعًا للمباريات، وداعًا للدروس، ووداعًا للنادي الريفي.

أجل، هذا بالتحديد، كنت أتخيل هذا المشهد وأنتعش من الآن. حتى وإن كانت لعنة العائلة تعود إليَّ، الإعاقة الكبيرة الوحيدة بيني وبين السلطة. لأن الرؤساء لا بد أن يكونوا مسنين جدًّا، عمرهم أكثر من أربعين عامًا، وأنا في تلك السن أخاطر بالفعل بأن أكون فاقد العقل، وبالتالي وداعًا للرئاسة ووداعًا لنظام مناهض للتنس.

في النهاية لم ينفع نظامي، لأن الزمن قبله فكر في كل شيء. وفعل الشيء الوحيد الذي يفعله الزمن: مر، وتغير كل شيء. في البداية كان يوجد العديد من الأشخاص الذين ينتظرون ليلعبوا في الملاعب الأربعة تحت ظلال الأشجار، ثم أسقطوا تلك الأشجار ليفتتحوا ملعبين آخرين، إلا أنه بعد ذلك بفترة لم يعد أحد يذهب إلى هناك. ربما لأن الظلال لم تعد موجودة، أو ربما لأن لحظة ما في التاريخ قد انتهت. في كل الأحوال توقف الناس عن لعب التنس وعن اللعب في البورصة، وغطوا الأرض الحمراء بالأسمنت، وفي مكان النادي الريفي بنوا ساحة كبيرة لانتظار السيارات، والتي لم تكن قريبة من أي شيء، وبدلًا من السيارات أصبحت مليئة بالنفايات الملقاة هناك؛ زجاج مهشم وحقن.

من حين لآخر كنت أمر عليها بالدراجة، ولا أفهم ماذا حدث،

ولكنني كنت أقول إنه لا بد من وجود معنى أيضًا لهذا، فالمعنى موجود دائمًا لكل شيء، وهو قوي وصالح ومحدد في عالم اليوم. حتى يصل الغد، وفجأة لا يكون لهذا المعنى أي معنى، وبالتالي نخترع معنى آخر، ثم آخر أيضًا، وهكذا. كلها تُطلَق لتطير فوق في السماء، ثم تسقط وتصطدم بالأرض وتتدحرج إلى زاوية ما بعيدة. مثل الكرات العديدة التي سوف يجمعها أحدهم.

(١٦)
غابة المناشير[1]

الرجل العائش في المستقبل

مرت إجازتي على هذا المنوال، في الصباح أجمع كرات التنس وفي المساء الأطباق والأكواب في حفل «الاتحاد»، مع المدرب جالتيرو الذي يقول لي أن أجري، وأعمامي الذين يطلبون مني أن أجري، وأنا أقسم إنني كنت أجري ولم أستطع أن ألحق بيونيو ويوليو وأغسطس التي جرت كالبرق. وداعًا ألعاب الرمل والغوص في البحر، وداعًا لنيتي في قضاء وقت أكثر مع من هم في سني: عندما أُغلق التنس وجمع الاتحاد المنصات كان الشاطئ فارغًا، لم تعد هناك مظلات ولا سباحون، فقط بعض طيور النورس الوحيدة وأنا، بجلدي ناصع البياض وشعوري بأنني لم ألحق الصيف.

الأمر لم يكن كذلك، بل كان أسوأ. لأن الدراسة بدأت بعد ذلك واكتشفت أنني مع الصيف لم ألحق أيضًا قطار الحياة.

---

(١) هذا هو المعنى الحرفي للعبارة، ولكن المقصود بها في اللغة الدارجة «غابة الاستمناء» حيث كلمة سيجا sega ومعناها منشار، تعني في بعض العبارات العامية الاستمناء.

في وقتها لم ألحظ هذا، وكنت منفعلًا جدًّا بسبب تلك الدراسة الإعدادية التي على وشك البدء: في تاريخ عائلتي لم يصل أحدهم إليها قَط، ولذلك كنت قد أصبحت بالفعل عالِم قرية مانشيني، الحكيم الذي يمكنه التدخل في المشكلات المعقدة. على سبيل المثال، في إحدى الأمسيات عند الجدة، ونظرًا لأنها استعادت التلفاز، كنا نأكل أمام نشرة الأخبار، وكانت تعرض حوارًا مع شخص بشعر مجعد وقبعة عسكرية اسمه القذافي، وكان يتحدث باللغة العربية. والتفت العم أديلمو نحوي وسألني: أوه، ماذا قال؟

- من؟

- القذافي، ماذا قال؟

- لا أعلم يا عمي، أنا لا أتحدث العربية.

فقال هو:

- أهذا ما يبدو لك! إذن لماذا تذهب إلى المدرسة؟

مكثت صامتًا، وقالت أمي:

- حسنًا يا أديلمو، ولكنه لم يبدأ الدراسة بعد في المرحلة المتوسطة.

ولكنها مررت لي حلة البيوريه بنظرة كلها إحباط، ولم تتمكن حتى ابتسامتها من إخفائه. وعندئذ بعد بضعة أيام عندما كان جورباتشوف في نشرة الأخبار وسألوني مرة أخرى أن أترجم، شرحت لهم أنه رئيس روسيا وأنه كان يثني على إيطاليا لتنظيمها احتفالات الاتحاد،

وأنها كانت جميلة جدًّا ويأكل الناس فيها ويشربون جيدًا، وأنه قريبًا يريد أن يأتي ليتعشى مع عائلتنا. ورفع الأعمام قبضاتهم اليسرى في الهواء وبالثانية ضربوا على المائدة من الفرح وهم يصيحون:

- عندما تريد يا رفيق جورباتشوف، تعالَ، يا ضيفنا العزيز!

حتى أمي وجدتي كانتا فرحتين، ليس إعجابًا بجورباتشوف، وإنما لأنهما تعشقان الصغير المجتهد الذي يعرف كل شيء.

حتى وإن كنت في الحقيقة لا أعرف أي شيء، فقد بدأت الدراسة المتوسطة لتوِّي، وبدلًا من مُدرسة واحدة سيكون لدي العديد من الأساتذة، والذين ربما يعرفون أقل منها، لأن كلًّا منهم يُدرِّس مادة واحدة فقط. وبالإضافة إلى الأساتذة سيمتلىء فصلي بالزملاء الجدد، والذين في اليوم الأول كانوا يجرون ويصيحون ويتبادلون التحية منفعلين بتربيتات على الظهر أو بصفعات خلف الرأس. إلا أنني، أقسم، بمجرد وصولي إلى هناك شعرت بأنني وحيد. لأنها لم تكن مدرسة، إنما محطة، فارغة وصامتة ومنسية: وقطار الحياة قد رحل بالفعل وأنا لم ألحق به.

هكذا يسافر هذا القطار العبثي، يتوقف ويرحل عندما يحلو له، لا توجد تحذيرات ولا مواعيد محددة. ربما كان يقف في المكان نفسه لمدة طويلة فتعتقد أنك ستمكث في مكانك إلى الأبد، ثم من لا شيء يصفر ويرحل من جديد بأقصى سرعة، وفي لحظة تجد نفسك في مرحلة جديدة وغامضة فيها كل شيء مختلف، وخاصة أنت: ذهبت إلى الفراش وكنت أنت، وتستيقظ لتجد نفسك شخصًا آخر.

في الواقع، تقريبًا كل الزملاء كانوا هم أنفسهم زملاء المرحلة الابتدائية، إلا أنهم كانوا غير معروفين بالنسبة لي. غير معروفين وغرباء، سكان عالم مزدحم بالأشخاص الغريبة، مثل أولئك الذين يتقابل معهم العم ألدو عندما يذهب بالشاحنة إلى أماكن غريبة، مثل: بارما وريميني وبياتشينزا. بلدان مزدحمة جدًّا بالسكان، حيث تحدث الأشياء بالعكس؛ تبرز الشمس من البحر وفي المساء تختفي خلف الجبال، يقولون عن الخيار بطيخًا، والناس يمكنهم أن يتحدثوا لساعات بلغتهم دون أن تفهم منهم أي كلمة. تمامًا كما يحدث هنا بين مقاعد المدرسة، حيث أسمع وأهز رأسي موافقًا، ولكنني لم تكن لدي أي فكرة عما يقولونه.

كان يوجد سيرجو، الذي فجأة أصبحت لديه سحابة سوداء على شفته كشارب، ويتحدث عن كريستينا وعن أنه متأكد «أنها معه»، ولكنني لا أعرف أين يمكن أن تكون. ثم قال إننا -يوم الأحد في السينما- لا بد أن نعثر على طريقة «لنتسلل»، وكنت أنا متأكدًا أنه يعني أننا سنحاول أن ندخل دون أن ندفع التذكرة، وأن الاستمتاع بالفيلم سيكون مستحيلًا مع الرعب الذي سنشعر به من أنهم سيمسكون بنا.

وبلغ الغموض قمته عندما أتى جراتزياني، والذي تمدد تقريبًا على المقعد وقال إن ظهره يؤلمه، لأنه بالأمس «نزع عذرية إحداهن بإصبع صغيرة». وبمجرد أن قال هذا، ضحكت وصحت فيه «كبير» مثلهم جميعًا. ما هذا الذي قلته؟ من هذا الذي أصبحته؟

وكيف وصلت إلى هذا الكوكب العجيب بينما كنت أفكر في أنني في طريقي إلى المدرسة؟

ليست لدي أدنى فكرة، وشعرت بأنني في فيلم شاهدته في إحدى الأمسيات المتأخرة هذا الصيف. كان اسمه «الرجل العائش في المستقبل»، وفي الفيلم كان أحد العلماء في نهاية القرن التاسع عشر يبني آلة بدت كأنها عجلة ثلاثية، وبعض الشيء مثل الشاحنة ثلاثية العجلات للعم آراميس، ولكنها كانت آلة زمن. أمام مقعد السائق توجد رافعة، إذا دفعتها للخلف تأخذك إلى الماضي، وإذا دفعتها للأمام تسافر للمستقبل. وفي رأيي ينقسم العالم إلى جزأين، أولئك الذين يصعدون إلى الآلة ويختارون دفع الرافعة للأمام، وآخرون يرغبون في دفعها للخلف، ويوجد آخرون مثلي، ربما لا يرغبون في لمسها على الإطلاق، لأنهم يشعرون بأنهم على ما يرام حيث هم. ولكن العالم، ونظرًا لأنه عالم، كان فضوليًّا جدًّا ويرغب في رؤية إلى أي اتجاه يسير التقدم العلمي، عندئذ يدفع الرافعة للأمام حتى يصل إلى عام ١٩٤٤، وهكذا يجد نفسه في وسط الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد أسفل قصف قنبلة ألمانية. ولينجو دفعها للأمام أكثر وقفز أبعد، ولكنه سيئ الحظ جدًّا لأننا الآن في السبعينيات، وتوجد حرب أكثر بشاعة، ولا يتضح من يحارب من، وفي تلك اللحظة ما يهم هو وجود قنبلة نووية بجواره، قوية جدًّا إلى حد أن الأرض تنشق، ومن الشقوق يخرج شيء كالحمم البركانية التي تكاد تجففه. عندئذ يمسك العالم بالرافعة ويدفعها للأمام عشوائيًّا ويقفز

التقويم بسرعة جدًّا ويقف عند تاريخ ١٢ أكتوبر في عام ٨٠٢,٧٠١. ولوهلة يمكث داخل آلته ثلاثية العجلات، ولكنه عندما يجد الشجاعة للنزول ليتجول قليلًا، يجد في انتظاره عالمًا مجنونًا وغريبًا لا دخل له به بالمرة، مع أشخاص كلهم جلدهم أشقر ومظهرهم جميل، يتحدثون لغة بدت للعالم مجرد خليط من الأصوات.

يستمر الفيلم بين ألف مغامرة في هذا المستقبل البعيد، وهو فيلم رائع بالفعل إذا شاهدته وأنت تجلس بالسروال على الأريكة وتمسك بكأس من الأماريتو. ولكن، في صباح أحد أيام سبتمبر إذا أخذت ملفك وذهبت إلى المدرسة ووجدت نفسك في وسطه، فهو موضوع مختلف تمامًا.

كنت أتحرك مستندًا إلى المقاعد وألتفت فجأة مع أي ضوضاء، يداي متعرقتان وترتعشان بقوة شديدة إلى حد أنني خبأتهما في جيبَي بنطالي. وفيه عثرت على كنزي؛ المجموعة الثمينة من الصور المزدوجة التي كنت جمعتها في الصيف، وهذا الصباح كنت مستعدًّا لأبدلها بأخرى. لأنه في العالم الذي أعرفه، بمجرد أن يروا تلك الخيرات، كانوا يقفزون فوقي بالفعل أمام بوابة المدرسة، ويتصارعون فيما بينهم ليقرروا من يختار أولًا، وهم يحرصون على ألا يلوثوا بقطرات الدماء تلك الصور المقدسة لألبوم الديناصورات.

كنا جميعًا نجمعها، تلك الألبومات، منذ ذلك اليوم في الربيع حين أهدانا إياها شخص أمام المدرسة، أعطى ألبوم الديناصورات للأولاد والميني بوني للبنات، ومعها ظرف به الصور كهدية لنبدأ

فيها. وقالت لنا الأمهات أن نحترس من هذا الشخص ولا نثق به، لأنهم أحيانًا خلف الصور يضعون المخدرات، وهكذا عندما تلعقها، تصبح مدمنًا، وينتهي أمرك بقضاء أيامك في المتنزه الترفيهي خلف الألعاب التي في الواقع لا يستخدمها أحد، ولا يوجد فيه سوى بعض السادة الممددين على المقاعد، أسفل الشمس والأمطار، وعندما تمر يطلبون منك بصوت ملتوٍ بعض الفكة أو شطيرة إذا كانت معك. كانت الشطائر تستحوذ عليهم، كل اليوم يفكرون فقط في العثور على النقود ليأكلوا شطيرة أخرى. ولكنني أعرف أن الناس لم تكن كريمة، لأنك لا تجد أبدًا أي شطيرة في يد أيٍّ منهم، وكانوا جميعًا شاحبين ونحفاء جدًّا. حتى وإن كنت أنظر إليهم بالكاد، بينما أعبر بسرعة، ولم يكن لدي الشجاعة لأن أسألهم أي الألبومات الرائعة أحضرها إلى هنا.

وهو المصير المؤسف الذي كنت أخاطر به أنا أيضًا إذا لم أتحرك على الفور.

كنت بالفعل قد فقدت وقتًا أطول مما ينبغي، والآن لا بد وأن أفعل مثل العالم في الفيلم، والذي بدأ يتعامل مع أولئك الناس الشقر جدًّا والمختلفين، وبالتدريج تعلم لغتهم وحياتهم. تبعهم بين الأشجار بينما كانوا يجمعون الفاكهة النضرة، شديدة الحلاوة، ثم بطوال النهر حيث كانوا يتمددون ليأكلوها، وأنا بدوري كنت أتبع رفاقي في ممر المدرسة، أعلق بكلمات غريبة على أشياء أكثر غرابة، مثل أجساد الفتيات التي تمر، عندما يكون تيشيرت إحداهن منتفخًا

من الأمام أو بنطال أخرى من الخلف، لأذهب إلى الحمامات وأرسم قضبانًا بالأقلام العريضة، وأشياء أكثر غرابة، والتي لا بد وأنها فُرج تلك الفتيات، ولكنها كانت تشبه عيونًا حولها حواجب. عيون بلا حدقات تنظر إليّ فارغة ومخيفة، وبجوارها مكتوب: *كريستينا خذي عصفوري* أو *لاورا أريد دخولك*. رسائل ليس لها معنى عامة، وبالأخص إذا تركتها للبنات على جدران حمامات الأولاد.

في كل الأحوال، حتى إن كانت مغموسة في الغموض ورائحة الحمامات، تسير مغامراتي بطريقة أفضل من الرجل العائش في المستقبل. لأنه في لحظة ما يكتشف أمرًا بشعًا، وأنهم جميعًا في المستقبل غاية في الجمال والسعادة وبلا أفكار، بينما تحت الأرض يعيش شعب آخر، من الوحوش المُشعرة، يدُعى مورلوك، وهم سادة العالم الحقيقيين. في الواقع من حين لآخر كانوا يطلقون صفارة إنذار ويجب أن يذهب أحد هؤلاء الشقر الأرضيين عند مدخل مملكتهم، حيث يفتح المورلوك أبوابهم، ويأخذونه ليأكلوه.

كان هذا طبيعيًّا لأنه فيلم، ولا بد أن تحدث مفاجأة ما لقلب المشهد، وهكذا كان لا بد للعالم أن يتشجع وينزل تحت الأرض لينقذ الحياة في مشهد نهائي عظيم. إلا أنني كنت أشعر براحة أكبر، لأن مغامراتي تدور كلها في الممرات والحمامات والأماكن المحددة للحياة الواقعية، وبالتالي كل شيء يمكن توقعه.

وأقسم إنني كنت أفكر في هذا بالفعل، في تلك الحماقة، بل كنت أصدقها أيضًا. وربما كان ذلك خطأ كرات التنس كلها التي

أصابتني في رأسي ذلك الصيف. لأن الجميع يعرفون أن الأفلام يمكن أن تكون مبالغة حتى حدود الخيال الإنساني، ولا يوجد خيال علمي في إمكانه أن يكون أغرب من الحقيقة.

في الواقع في نهاية اليوم الأول، وبينما يدفع أحدهم الآخر ليخرجوا جميعًا من البوابة ويهربوا بعيدًا، بدأت أنا في التنفس وأنا أفكر في قرية مانشيني التي تنتظرني كما هي ولا تتغير أبدًا. وها هو جراتزياني يرفع يديه وينظر إلينا، وينظر إليَّ بالتحديد ويصيح: «أوه يا شباب، سنتقابل اليوم أليس كذلك؟ جميعنا في غابة المناشير».

وهكذا قال، كلمة كلمة. وأنا لم أكن أعرف أين هذه الغابة، بل ولم أكن أعرف حتى سبب ذهابهم ولا ما سيفعلونه. كنت أشعر أنني وحيد، كنت أشعر بهذا من بعيد وبوضوح شديد جدًّا، كصفارة إنذار انطلقت في الهواء. كانوا المورلوك، إنهم يفتحون مدخل عالم سفلي ومرعب، وكان لا بد أن أنزل لأكتشفه حتى النهاية.

درافيل في غابة السافانا

إلا أنني لم أكن متأخرًا إلى هذه الدرجة، فأنا أعرف شيئًا ما عن كلمة سيجا. كان الأعمام وأصدقاؤهم يتحدثون عنها باستمرار، كانوا يقولون دائمًا يهمني سيجا[١]، لا يساوي سيجا[٢]، أو اصنع لي سيجا[٣]، وأنا أيضًا على الرغم من صغر سني كانوا أحيانًا يقولون

(١) لا يهمني شيء.
(٢) ليس له أي قيمة.
(٣) مسد قضيبي.

عني نصف سيجا[1]. إذ لم تكن الكلمة جديدة، وكنت أعرف أن لها دخلًا بطريقة ما بالجنس. وهذه كانت هي المشكلة بالتحديد، أنني لا أعرف شيئًا عن الجنس: كيف يمارس الجنس؟ وما دخل المنشار؟ ولكن الأهم من كل هذا، لماذا؟

أسئلة لفت رأسي طوال فترة الغداء، بينما تسألني أمي وجدتي ألف شيء حول كيف كانت المدرسة والأساتذة، وإذا كنت قد كونت صداقات مع زملاء جدد. وكنت أجيب من حين لآخر، من زاوية هزيلة لأفكاري، ثم أخذت الدراجة ورحلت، لأنني بعد القليل من التبديل سأجد كل الإجابات التي أحتاج إليها، على الرغم من أنني كلما اقتربت انتابني الشك في أنني أريدها.

شرح لي سيرجو مكان الغابة، تقع تمامًا خلف المستشفى الذي يرقد فيه أبي وأذهب لأقرأ كتيباتنا الإرشادية، والتي كانت تعلمنا أشياء كثيرة حول أي موضوع فيما عدا الجنس. إلا أنني وجدت بعض الإشارات له في كتيبات مثل: «ألف باء الراعي، الجوارح الصغيرة واليتيمة»، وخاصة في «تربية الأبقار» لإنزو ماركوليني، ولكنني كنت أتمنى أن يكون بين الآدميين مختلفًا قليلًا عن الموصوف هناك:

تُقاد الأبقار إلى الثور في فترة التزاوج نظرًا لأنها الفترة المناسبة للتخصيب والتي فيها يستقبلون بسرور الذكر... وأعراض فترة التزاوج معروفة: القلق، الخوار المستمر، رغبة الأنثى في القفز على البقرات الأخرى.

---

(١) سباب، معناها شخص كسول جدًا إلى حد أنه لا ينهي استمناءه.

كلمات، بدلًا من أن تشرح لي، تربكني أكثر. وهذا شيء طبيعي، فهي أشياء لا نتعلمها من كتب إرشادية، كان يلزمني أن ينهض أبي شخصيًا من هذا الفراش وأخيرًا يشرحها لي جيدًا.

إلا أن أبي كان صامتًا وساكنًا، وهكذا كنت أنا الآن، أما تلك البوابة المغلقة بالسلسلة، ودراجات زملائي مستندة إليها، فقد نظرت إليها وبدت لي فمًا عملاقًا مليئًا بأسنان متسوسة ومعوجة، تسخر مني.

إلا أن عالم ذلك الفيلم مكث هكذا، أمام بوابة الجحيم السفلي حيث تنتظره المورلوك، وقد تشجع ودخل. وربما لا أكون عالمًا، ولن أكون عالمًا على الإطلاق، لأنني تشاجرت مع الرياضيات في اليوم الذي قدموها لي فيه ولم أعد أتحدث إليها، وفي نهاية الأمر أنا أيضًا أسافر عبر الزمن، ويمكنني أن أتسلق بوابة ما. عندئذ أمسكت قضبانها الصدئة، وابتلعت أنفاسي التي تبقت فيَّ، ثم انطلقت للدخول إلى السر الغامض.

وفي الجزء الأكثر كثافة من الغابة، ومع النباتات العالقة الشائكة التي تشتبك في بنطالي وسترتي، كأنها أصدقاء تحاول أن تمنعني، وتحدثني كما حدثت الطبيعة والحيوانات القديس فرنسيس، كانت تقول لي لا تذهب يا فابيو، لا تذهب، إلا أنني كنت أحاول اللحاق بقطار رحل من دوني، ولعنة في الدم لا بد من هزيمتها، عندئذ أبعدتها عني وتقدمت للأمام. وفي أثناء ذلك كنت أتحسس جيبي حيث توجد كومة الصور المزدوجة، على أمل أن هواء الغابة المنعش

ربما يكون قد ضخ الأكسجين في أدمغة رفاقي مُذكرًا إياهم بأنه يوجد ما هو أكثر أهمية في الحياة. ولكن لا، لم يفد الأكسجين في شيء: بعد النباتات العالقة بقليل، تتسع الأشجار في ساحة تغلقها في دائرة، وأمام كل شجرة من تلك الدائرة يقف زميل لي، وجهه إلى الجذع، تمامًا على بُعد شبر من اللحاء. ولوهلة، وأنا أشعل ثقاب أملي الأخير، فكرت في أنهم ربما قرأوا «*أشجار وشجيرات*، *كتيب المعرفة*»، وهكذا هم موجودون هنا ليدرسوا نباتات البحر المتوسط. أقسم إنني للحظة انتابني هذا الأمل. وإذا كان حقيقيًّا أن الأمل هو آخر ما يموت، فإن هذا يحدث في كل الأحوال. وهذه هي اللحظة بالتحديد، لأنني عندما اقتربت لأنظر ماذا يفحصون في وسط اللحاء والأوراق والثمار، وجدتهم جميعًا يمسكون بقضبانهم في أيديهم.

أُقسم إن كلًّا منهم يلتصق في شجرة ويلمس قضيبه. حيَّوني بكل هدوء وكأنهم في المدرسة ثم قالوا لي أن أذهب إلى مكاني. نظرت حولي ورأيت شجرتين خاليتين، شجرة جميز وأخرى أكثر قتامة لا أعرف نوعها. ذهبت إلى الجميزة، على بُعد شبر من الجذع، مستقيمًا مثلهم، في محاولة لأن أعرف ما الذي يشعرهم بكل هذا التأثر من هذا المشهد. إلا أنني بعد دقيقة رأيت على الأرض تلك الأوراق المنتزعة من الصحف وبها صور، وبعضها من الرسوم المتحركة. انحنيت لأمسك بها، ولكنها كانت كلها ملتصقة فيما بينها وشاحبة من الرطوبة، وفيها تظهر قطع من نساء عاريات يقفن بطرق غريبة، وأجزاء من رجال عرايا ملتصقين بهن.

سألت سيرجو الواقف بجواري:

- هل هذه لكم؟

أجابني بعد قليل، بصوت يرتعش مع ظهره.

- لا، كانت هنا. يتركها الكبار في الليل.

وأردت أن أسأله من هم الكبار، ولماذا يأتون وماذا يفعلون هنا في الغابة ليلًا. إلا أن سيرجو أجابني بعد عناء بأنفاس متقطعة، ثم ربما من الأفضل ألا أعرف ماذا يفعل الكبار هنا ليلًا، في تلك الغابة حيث تنمو الأشجار جافة ومعوجة. وبالأخص لأنني لم يكن لدي المزيد من الوقت لأضيعه.

يفلت القطار، وتقترب اللعنة، إذن تكفي تلك الحماقات، وتكفي الأفكار الغريبة، وضعت تلك الصفحات المبقعة بالغموض، وفتحت سحَّاب البنطال وأخرجت أنا أيضًا قضيبي.

خرج هو متغربًا وضائعًا في ذلك الهواء الرطب للغابة، يتساءل ما معنى أن يكون هنا في الخارج إذا لم يكن عليه التبول، منتظرًا مني تفسيرات لما أفعل. فقط لم تكن لدي أي فكرة، بل بحثت عنه في السروال الداخلي على أمل أن يعرف هو. عندئذ مكثنا هكذا، ينظر كل منا للآخر، مرتبكين ومذهولين من تلك الدائرة العبثية في نهاية الغابة، في النسمة الباردة الأولى والتي من اللا شيء تطرد الصيف: كانت الحياة هكذا، لا يمكنك الاعتياد على شيء لأن كل شيء يتغير، ويصبح شيئًا آخر.

ولكن زملائي كانوا في هذا الشيء الآخر يتحركون جيدًا جدًّا، متوجهين إلى شجرتهم وذراعهم تتحرك بحركات قصيرة ومتساوية تقريبًا، سريعة إلى حد أن ستراتهم النايلون تصدر ضوضاء احتكاك مستمر وكأنها صرير صرصور الحقل أو الصراصير، والتي في الواقع تغني تقريبًا بالطريقة نفسها، وهي تحك بقوة أقدامها تحتها. حيوانات كثيرة تفعل الشيء نفسه كلها معًا، شيء طبيعي وبالتالي عادي، وأنا أيضًا كنت أريد أن أكون جزءًا من هذا الأمر العادي. عندئذ دون أن أدير رأسي بوضوح وبطرف عيني راقبت سيرجو في محاولة لتقليد ما يفعله.

شيء مثل ما يحدث مع واجبات الرياضيات، والذي إذا كان في العالم يوجد حقل مظلم مثل هذه الغابة لكانت هي. فقط إن واجب اليوم كان أهم مائة ألف مرة، لأنني أعرف أنهم في المدرسة يقولون لك إن الرياضيات تعلمك كيف تفكر وبالتالي تساعدك كثيرًا في الحياة، إلا أن تلك مجرد حماقة. بل، إن كان شيء لا دخل له بالحياة على الإطلاق فهي الرياضيات، ومواجهة آلاف الكوارث المفاجئة للقدر مستخدمًا التفكير الجامد للرياضيات وجداولها العامة يشبه المكوث في وسط المحيط في أثناء العاصفة، وتحاول النجاة وأن ترتدي سترة من الخرسانة، وأن تصر على استخدام أسلوب سباحة بارعًا بينما تأخذك الأمواج وتقلبك وتبعدك بعيدًا عن العالم.

إلا أن واجب اليوم مهم بالفعل، في هذا الفصل مع الأشجار في محل مقاعد الفصل، وصحف السيدات العاريات في محل الكتب،

والقضيب في محل القلم. وإذا لم أتعلم سريعًا أن أؤديه جيدًا، فستعمل الحياة على رسوبي بلا رحمة.

عندئذ تجسست على سيرجو، وأخذت أحرك ذراعي مثله، في محاولة لأن أحك السترة لتصدر الصوت نفسه بينما أشد القضيب من ناحية إلى أخرى مثل المطاط. أنظر إليه وأشعر بالأسف من أجله، فهو مُعذب مثل دودة الأرض عند وضعها على النصل، وربما يخاطر بأن يعتقد أحد طيور على الأغصان العالية أنه دودة سمينة، ويغطس لينزعه مني، بينما كان من لحظة واحدة هادئ البال مستريحًا في دفء السروال، ولا يُقلق راحته سوى الرغبة في التبول من حين لآخر.

وبالتفكير جيدًا، ربما هذا ما يفعله الآخرون: بالتأكيد، فأنا أتخيل أكثر الأشياء جنونًا، وربما يحاولون فقط أن يتبولوا أمام الشجرة. في الواقع من حين لآخر تتداخل مع أصوات احتكاك السترات بعض تأوهات المتعة من حناجرهم، المشابهة تمامًا لتلك التي عندما تشعر برغبة شديدة جدًّا في التبول، فإنك تفعله بتلك الآهة المعبرة عن الراحة التي تتصاعد الآن من هنا وهناك في دائرة الغابة.

والآن ربما لا أشعر بالرغبة في التبول وإذا استمررت في إمساكه في يدي وركزت بعض الشيء، فسأخرج بعض البول بالتأكيد. مثل سيرجو الواقف بجواري والذي يئن أكثر وأكثر وفي النهاية أفسح بين ساقيه، وأحنى ظهره للخلف وصاح أوه! أوه! بقوة شديدة حتى إنني شعرت بالقلق. فقد يكون قرصه دبور أو عقره ثعبان،

عندئذ رغمًا عني سألته «ماذا حدث؟»، وأجاب بصوت متقطع، مثل شخص يكاد يبكي ويختنق في الوقت نفسه: «ها أنا قادم، أوه نعم، أنا قادم».

وتخيلت سيرجو وهو على بُعد خطوة مني بقضيبه خارجًا، وهو يبدأ في التبول، وينفعل كثيرًا، وفي الوقت نفسه يقول لي إنه قادم، ومن قلبي شعرت برغبة في أن أصرخ بذلك الشيء الواضح جدًّا والجاد جدًّا، إلا أن زملائي اعتقدوا أنها مزحة وأخذوا يضحكون بقوة، لأنه عندما قال لي وهو ممسك بقضيبه في يده «ها أنا قادم أوه نعم، أنا قادم»، قفزت للوراء وصرخت فيه «لا، من فضلك لا تأتِ، امكث ثابتًا حيث أنت».

ثم في النهاية، أغلقنا سحَّاب البناطيل وخرجنا من تلك الغابة المرعبة، وطلبوا مني ألف مرة أن أعيد نكتتي، وكانوا يضحكون ويربتون على ظهري، وأنا كنت سعيدًا حتى وإن لم تكن أياديهم نظيفة بعد كل ما قاموا به من عمل. لأنني لم أفهم ما الذي كان مضحكًا جدًّا في إجابتي، وأنني لم أُنزل ولا نقطة بول واحدة، ولم يلحظ أحد هذا وكان هذا هو المهم. يسير القطار بأقصى سرعة، وبطريقة أو بأخرى استطعت أن أقفز فوقه، بلا تذكرة وبلا مكان لي، وكأنني متسلل في الحياة، وعلى متنه، ولم يكتشف أحد هذا، ولذلك كل شيء على ما يرام.

إلا أن الأمر لم يكن كذلك، لم يكن كذلك على الإطلاق: كنت هادئًا لأنني استطعت خداع رفاقي في غابة الاستمناء، وهذا كان

سهلًا في عربة ليس فيها سوى الذكور. إنه مثل صعود الأنهار التي لم يكتشفها أحد في الأمازونيا وتشعر بالراحة لأنك وضعت الكريم المضاد للناموس، دون أن تفكر في أن الأناكوندا تعيش في الأنهار، وهي أفاعٍ ضخمة مثل الحافلات، تعانقك وتنزع عنك أنفاسك مثلما يخرج معجون الأسنان من الأنبوبة. وتوجد فيها أيضًا التماسيح التي تشطرك إلى نصفين بقضمة، وأسماك الأنقليس الكهربائية، والتي تقلي تلك التماسيح على العشاء.

وهكذا، بالطريقة نفسها، على ذلك القطار توجد أيضًا الإناث.

وهو ذلك النوع الأكثر ذكاءً على الكوكب. إن الإناث مثل الدرافيل، بينما الرجال، في أقصى حد، هم الأفيال. ولكن الأفيال الحقيقية لا يهمها شيء، تعيش في غابات السافانا حيث لا تتعرض لخطر مقابلة أي درفيل. مثلما الحال بالنسبة لي في الحياة حتى اليوم، حيث كانت الإناث عالمًا لا فائدة له وبعيدًا عنا بُعد المحيط عن غابات السافانا. والآن تغير كل شيء، تسونامي بشع جرفنا بأمواجه وغرقت غابة السافانا، وغرقت نباتات الباوباب الأزلية جميعها، وغرقت معها المساحات الشاسعة من السهول الهادئة. وها هي الدرافيل، درافيل كثيرة في كل مكان. ولكنني لم أدرك هذا، في الواقع في ذلك العصر وأنا أخرج من الغابة كنت أشعر بخفة شديدة، حتى إنني بدلت دراجتي حتى المنزل وأنا أصفر.

إلا أن بضعة أيام مرت، ومثل كل شيء ضخم لا تعرف عنه شيئًا، ولا يخصك بالمرة، يهبط عليك كله مرة واحدة، ويسحقك.

لم يكن جرسه يصدر صوت «دلين دلون»، بل موسيقى مشهورة كنت أسمعها فقط عندما أدق الجرس في منزله، ربما كانت موسيقى لموتزارت أو بتهوفن أو أحد هؤلاء، بالنسبة لي كانت موسيقى ماسيمو الصغير، وإشارة إلى بداية عصر أيام السبت بالنسبة إليَّ.

كنت قد عرفته منذ فترة وجيزة، أحد زملائي الجدد في الفصل، ولكنه كان يبدو مثل طفل في الصف الأول الابتدائي. لأن ماسيمو في مساء أحد الأيام وهو في سن السادسة خرج من منزله ليأخذ قطه الصغير من الحديقة، نظرًا لوجود عاصفة. كان اسم القط ميرتيللو، ويقف ماسيمو على الباب يقول له «ميرتيللو، تعالَ إلى هنا يا ميرتيللو، هنا»، ولكنه لم يحضر، مكث على العشب وكان يموء خوفًا وبدأ يبتل تمامًا. عندئذ جرى ماسيمو نحوه وحمله على ذراعه وكانا في طريقهما إلى الداخل بسرعة، للأسف كانت الصاعقة أسرع منه، هبطت عليهما من السماء، أو بالتحديد على ميرتيللو، والذي لم يُعثر منه ولا على قطعة صغيرة، وسقط ماسيمو برأسه إلى أسفل داخل السياج. لم يمت، ومنذ ذلك اليوم لم يكبر مِلّيمترًا ولا جرامًا واحدًا. مكث هكذا، فقط معوج قليلًا من أحد جانبيه، وكتف أعلى من الأخرى، وساق أقصر وجافة، وعين حولاء مسددة نحو الأنف أو نحو العين الأخرى، وكأنها تراقب أن الأخرى تعمل بشكل جيد.

باختصار، وكأن الموت مر بجواره، بل نستطيع أن نقول إنه دهسه وتركه بعدة علامات، وكان ماسيمو الصغير لا يزال موجودًا.

وكانت هذه ضربة حظ لماسيمو، ولي أيضًا، والذي عرفته فقط منذ بضعة أيام إلا أننا أصبحنا رفاق مقعد مدرسي وأفضل الأصدقاء.

كان لدينا الكثير من الاهتمامات المشتركة، مثل الطبيعة ومجلات الرسوم المتحركة، وأفلام الرعب، ومحاولة تجنب صفعات وركلات الزملاء المتجبرين أنفسهم. ثم إننا نحن الاثنان ليس لدينا أب. أجل، أنا لي أب، إلا أنه منذ عامين تقريبًا نائم على فراش متصل بأجهزة، إنما يكفي التحلي ببعض الصبر وسيعود إليَّ. أما أبوه فقد دهسته سيارة على الطريق السريع، ولذلك لا يوجد أي أمل. في كل الأحوال أصبح لي صديق مفضل وهذا جميل في حد ذاته، أخيرًا أخرج مع شخص في مثل سني، ولم تكن لدي مشكلة في أنه يبدو طفلًا في السادسة من عمره.

المشكلة الحقيقية كانت أن أمه لا تتركه يخرج بسهولة، لأنه في حين أن كل أمهات العالم يقلقن بشدة، إلا أنه عندما تفقد إحداهن زوجًا مدهوسًا بشاحنة وتضرب صاعقة ابنها في الحديقة، من الطبيعي أن تصبح الأم شديدة الحرص وتفضل أن يكون معها في البيت طوال الوقت. إلا أنها كانت تخشى أيضًا أن يصبح وحيدًا جدًّا، ولذلك ولجذب الصبية الآخرين حولت المنزل إلى شيء كصالة ألعاب، وهكذا على الرغم من أن الصديق الحقيقي لابنها هو أنا، فيوم السبت بعد الظهر يذهب الجميع للعب في منزل ماسيمو الصغير.

كانت توجد مائدة بلياردو صغيرة، ومائدة بينج بونج بل وفليبر حقيقي، صوان كامل من الشطائر وعليها خلل الأسنان كأعلام

صغيرة، فطائر ومعجنات، كوكا كولا وعصير برتقال ومياه غازية. وبهذه الطريقة يمكث هو في المنزل في الأمان، وبصحبة كبيرة حوله، من فصلنا ومن فصول مختلفة، وآخرون لا يعرفونهم حتى، يذهبون إلى منزله.

وفي هذا السبت من شهر أكتوبر أصل إلى ماسيمو الصغير ولا أجد أحدًا.

قال لي هو بهدوء:

- كلهم ذهبوا إلى حفل.

- حفل كيف؟ أي حفل!

- حفل كاتي.

- ولماذا، عيد ميلادها؟

- لا، لا أعتقد.

- إذن أي حفل هذا؟

نظر لي ماسيمو لحظة بعينه السليمة، ثم رفع الكتف التي يستطيع رفعها:

- سمعتهم يقولون إنها ستقيم حفلًا صغيرًا.

- حفل صغير؟ ولكن ما هو الحفل الصغير!

- لا أعرف، ولا يهمني شيء. بالتأكيد سيشغلون الموسيقى ويرقصون.

«يرقصون؟»، بالنسبة لي كان يبدو غريبًا بالفعل مجرد نطق الكلمة «يرقصون»، أن يذهب بعض الأشخاص إلى منزل شخص آخر وفجأة يبدأون في الرقص. يرقص الناس فقط في بعض الأفلام المملة جدًّا، ترقص النساء بملابس قليلة في التلفاز، وليس الأشخاص العاديين في الحياة العادية.

- ثم معذرة، إذا لم يكن عيد ميلاد، فكيف اختارت كاتي اليوم بالتحديد لحفلتها الصغيرة تلك؟ ما معنى هذا، والساعة كم، ومن هذا الذي يرقص، وأين، و...!

واستمررت في إلقاء أجزاء متناثرة من الأسئلة حتى أتجنب ذلك الذي كان يهمني بالفعل: لماذا لم نُدعَ للحفل؟

لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا، لا يجب أن يكون هذا حقيقيًّا. فهم ماسيمو الصغير خطأ، تلك الصاعقة فككت فيه أشياء كثيرة وربما أيضًا أثرت في أذنيه، بالتأكيد الأمر كذلك. كنت أنظر إليه وهو ينظر إليَّ، وكان هذا الأمر صعبًا جدًّا بتلك العين الحولاء جدًّا إلى حد أنها مسددة لا أحد يعرف إلى أين، ولكنها كانت أيضًا بلا فائدة على الإطلاق، نظرًا لأنه كان أقل من يعرف في العالم أشياء عني. عندئذ للأسف، ما كان يجب علينا عمله هو الذهاب إلى الصالة ومهاتفة منزل كاتيا.

طلبت الرقم بإصبع ترتعش، ووضعت السماعة في الهواء بيني أنا وماسيمو، وكل دقة كانت ترن كصفارة قطار، عندما تراه يمر بسرعة في مجاهل القدر، تعرف أنك لن تلحق به أبدًا.

يقف ماسيمو مبتسمًا، هادئًا كالمعتاد. ولكنني كنت أفهم لماذا لا يهمه الأمر كثيرًا: فماسيمو لم يفقد قَط قطار الحياة، حيث إنه لم يقترب قَط من المحطة. فمنذ تلك الليلة وعمره ستة أعوام، وقد ألقته الصاعقة على السياج، وهو في حقل ضائع وبعيد، حيث لا يرى القطارات ولا يسمعها ولا يقابل حتى أرصفتها. ماذا يهمه إذن في الأمر؟

إلا أن الأمر يهمني كثيرًا جدًّا، كنت أعتصر سماعة الهاتف بتوتر يعتصر قلبي، ومع كل دقة تنفجر في الفراغ، كان الوداع لرحلة الحياة حاسمًا أكثر. حيث مكان الوصول النهائي للعنتي، والوصول إلى سن الأربعين دون زواج، وربما دون حتى أن أقبل امرأة. جاهز لأن أفقد عقلي وأدخل إلى مستشفى الأمراض العقلية.

ثم فجأة، تلك الصدمة الكهربائية من الهاتف، وصوت كاتيا يقول: ألو. بل كانت تصيح وخلفها صياح وضحكات أخرى وموسيقى مرتفعة الصوت جدًّا.

– معذرة يا كاتيا، وأهلًا، أنا في منزل ماسيمو ونحن الوحيدان، و...

– ألو، من يتكلم!

– أنا فابيو.

أقول. وفي هاوية الصمت الذي يلي ذلك، أفهم أنني لا بد أن أضيف:

- فابيو من فصلك.

- آه.

- أجل، بالضبط، وأنا هنا مع ماسيمو، الذي يقول إن الآخرين جميعهم عندك مدعوين على حفل، هذا ليس حقيقيًّا. أليس كذلك؟

أسألها، وفي هذه الأحوال إذا اتصلت بأحدهم لتعرف إذا كان يقيم حفلًا، فلا بد أن تسأله وأنت تصيح لأنه على الجانب الآخر توجد فوضى الضحكات والموسيقى على أعلى درجة، ولا يفيد كثيرًا الاستماع إلى الرد.

إلا أنني، أقسم، إن مجرد سماع الرد أشعرني بالألم على الرغم من ذلك. لأنه لم يكن صوت أحد يعتذر لأنه فعل أمرًا بشعًا في الخفاء وتم كشفه، ولا قاتل يتهاوى بعد ساعات من التحقيق ويغطي وجهه وينتحب بين الدموع «هذا حقيقي، هذا ما حدث بالفعل، ولكنني أقسم لم أرغب في ذلك، لم أرغب فيه». لا، عندما في النهاية فهمت سؤالي لها، أجابت كاتيا فقط بنعم هادئة، وكأنه أكثر شيء عادي في العالم. بل وأضافت بعدها: إذن؟

- إذن يا كاتيا، لا أعرف، فكرت في أنه ربما نحن... نظرًا لأنني هذا الصباح هربت وقت الجرس سريعًا، لأنني كان لا بد أن أذهب مع عمي للبحث عن عيش الغراب و... أقصد عندما دعوتِ الجميع، ربما لم أكن موجودًا، ولا حتى

ماسيمو، وبالتالي لهذا لم نكن نحن الاثنان نعلم عن الأمر، عن حفلك الصغير.

قلت هذا، وكنت أتمناه. ومن الناحية الأخرى، جافة ومحددة، وحاسمة جدًّا إلى حد أنني للحظة، بدا لي أن مكبرات الصوت تعطلت والمدعوين المحظوظين مكثوا بلا ضحكات وبلا رقصات، أجابت كاتيا:

- أنتما الاثنان لستما مدعوين، لأنكما غريبا الأطوار ولا تعجبان أيًّا من الفتيات.

هكذا، كلمة كلمة، سكبتها ببرود، وفي الوقت نفسه في حريق داخل الهاتف، تناثرت بطوال الأسلاك وأوصلتها حتى هنا، في الصالة المليئة بألعاب بلا فائدة والخالية من البشر، لتلطمني بها وكأنها الصاعقة التي أصابت ماسيمو الصغير، ودمرتني، فلن أنمو ولا حتى سنتيمترًا واحدًا على طول طريق الحياة.

بالنظر إلى صديقي الأقرب في عينه السليمة، بينما الأخرى تصر على أن تحدق في الاتجاه الخاطئ، والذي ربما كان الاتجاه غير المتوازن الذي يقوده إليه مصيره، وللأسف مصيري أيضًا.

لأنكما غريبا الأطوار، لأنكما لا تعجبان أي واحدة.

وكان كل شيء مفهومًا ببساطة، عندما لا ترغب في أن تفهم أي شيء.

(١٧)

ذئب بين الذئاب

كانت شهور قد مرت بل وفصلان من فصول السنة، والأمر يتعلق بالخريف وبالشتاء، إذن في قرية مانشيني، مثلما هي الحال في الطبيعة، لم يحدث شيء. لا يزال أبي نائمًا وما زالت أمي وجدتي تنظفان منازل البلدة، وأعمامي يسعون خلف عمليات نقلهم الغريبة، وأنا أحيانًا معهم وأحيانًا أخرى في المدرسة، حيث كنت أنظر مع ماسيمو الصغير إلى قطار حياتي الذي الآن يجري مبتعدًا هناك.

والخلاصة، فيما عدا ذلك تقريبًا لم يحدث أي شيء في تلك الأشهر الباردة، وكأن القدر ذهب في بيات شتوي واحتفظ بكل شيء معه في الداخل. حتى اليوم، الواحد والعشرين من شهر مارس، ومع بداية الربيع، فإن الشيء الذي لم يحدث منذ فترة طويلة كاد أن يندلق علينا كلنا، كله مرة واحدة.

* * *

يصل الموت فجأة ويحصد الجميع
طوال قصار، بيض سود، شديدو الجمال أو القبح
وبخفة طيران حمامة
يحملنا أخونا الموت إلى المقبرة.

وهكذا كنا نغني في كورال جميعنا معًا، وتلطم الأغنية الفتحات الضيقة للشبابيك الصغيرة وكأنها كرة لعبة فليبر، تقفز في كل الاتجاهات ولكنها تنتهي دائمًا في الثقب. والثقب كان أذنَي، وكنت الوحيد الذي لا يغني، كنت فقط أنظر إلى الصباح القريب في الخارج، حيث الظلام شديد وبدا كالليل. أشعر بالنعاس، وبرغبة شديدة في التبول.

كنت قد تبولت في المنزل، وتبولت مرة أخرى في الخفاء في ساحة الكنيسة قبل أن أرحل، إلا أنني كنت أشعر به يفلت مني. ولم يكن ذلك خطئي بل كان خطأ الهنود. لدى السيدة ستيلًا في السوق دائمًا الكثير من الكتب عنهم، وعندما اختار أيًّا منها تفرح كثيرًا لأنها ترى أن الهنود فهموا كل شيء عن الحياة، ولهذا قتلناهم. ومن بين الأشياء الكثيرة التي فهمها الهنود، توجد تلك الخدعة لتستيقظ مبكرًا في الصباح وتفاجئ راعي البقر في أثناء نومه: قبل النوم كانوا يشربون الكثير من الماء، وهكذا في لحظة معينة، يفكرهم التبول بضرورة الاستيقاظ. وأنا هذا الصباح لم يكن عليَّ أن أهجم على أي راعي بقر، وكانت توجد رحلة في بداية الربيع للصبية المُعدين لطقس التثبيت، سترحل في الفجر وخفت أن تظل أمي نائمة وألا يعمل

المنبه، وأن أفقد هذا اليوم، عندئذ بعد العشاء شربت كل المياه التي كان يمكن دخولها إلى بطني بل وأكثر منها. ربما كان الهنود أشخاصًا هادئين، وفي المساء قبل عملية هجوم ينامون بلا مشكلات. أما أنا فقد قضيت الليلة وأنا أتقلب وأذهب إلى الحمام، وفي المرة الأخيرة لم أعد حتى إلى الفراش، ارتديت ملابسي واغتسلت وعندما استيقظت أمي، كنت بالفعل أجلس أنتظرها في المطبخ.

والآن أيضًا أجلس، ولكن هنا في الخلف داخل سيارة الأب دومينيكو الفيات أونو، بقدمَي مضمومتين حتى لا يتسرب البول، وأسد أذنَي حتى لا أدخل ذلك الكورال المثير للتوتر، والذي مثل رعاة البقر لم يكن يعرف الهدنة ولا الرحمة.

أيها الموت أخونا، يا من تنزع الألم

أيها الموت أخونا، يا من تضرب بقوة

أيها الموت أخونا، حاصد قلبي

ربما كانت تلك الأغنية السيئة جدًّا، أو المنحنيات التي تضيق فوقي للجبال الأولى، هي التي قلبت معدتي هنا وهناك، إلا أنني مع كل انعطاف يتصاعد خوفي من أن أفقد تلك الرحلة التي تتحول مع كل لحظة إلى الخوف بأن يكون أعمامي على حق عندما قالوا لي إن الذهاب إلى الجبل مع القسوس مخاطرة مميتة.

لأن الجبال كانت رائعة الجمال وكلها عجائب، ولكنها أيضًا مليئة بالمخاطر إذا لم تسر في المسار الصحيح، والأشخاص الأنسب

لهذا كانوا هم بالتأكيد. والذين كانوا يعرفون كيف يمكن التصرف والنجاة إذا هجم عليك خنزير بري أو ذئب، إذا قرصتك حية أو سقطت فوقك شجرة كستناء، وإذا هبت عاصفة أو كدت تسقط من فوق هاوية. أما الذهاب مع الأشخاص العاديين، في رأي أعمامي، كانت مخاطرة كبيرة. والذهاب مع كاهن، وراهبة، واثنين من مدرسي مدارس الأحد كان انتحارًا مباشرًا.

إلا أن أمي وجدتي أرسلتاني على الرغم من هذا كله، لأنه شيء نظمته الكنيسة واقترب موعد طقس التثبيت، وكانتا سعيدتين جدًّا، حتى وإن كانت الجبال تخيفهما كثيرًا. كانت جبال الألب أبوانا قريبة جدًّا خلف منزلنا، حتى إننا في صباح بعض الأيام النقية كنا نمد أيدينا ويمكن أن نربت عليها، إلا أننا كنا «ناس بحر»، وتلك الجبال ننظر إليها فقط من المنزل، ومجرد التسلق فوقها على الطريق السريع كان ارتفاعًا ينصح فيه باستخدام أنابيب الأكسجين.

في الواقع لديهم هنا واحدة، في سيارة الأب دومينيكو، كبيرة جدًّا إلى حد أنها تشغل المقعد الخلفي، إلا أنها هي ما كان يخيفني أكثر من كل جبال العالم، موضوعة كلها الواحدة فوق الأخرى. لأن الأكسجين لم يكن موجودًا بالداخل: فهم يغنون ويصفقون الأيادي، ولكنهم كانوا يسافرون وهم جالسون على أنبوبة ضخمة مليئة بالغاز، على متن سيارة الأب دومينيكو الأونو، والمعروفة في الأبرشية باسم «السيارة القنبلة».

كان من الأفضل أن أصعد إلى الحافلة مثل كل الآخرين،

ولكنني أنا بالتحديد وصلت مبكرًا جدًّا ولم يكن هناك سوى الأب دومينيكو. قال لي: «برافو فابيو، تستيقظ مبكرًا مثلي. اقفز إلى الداخل، سنسافر معًا»، وبكل سعادة فتح لي شباك ذلك التابوت ذي العجلات الأربع. ثم وصل الصبية الآخرون، وأنا كنت أنظر إليهم من النافذة الصغيرة مثل المحكوم عليه بالإعدام من خلف القضبان، بينما تصحبهم أمهاتهم حتى الحافلة الصغيرة وتبعدهم عن الأونو.

والتي فيها يقول لي الأب بينما يعدل المرآة الأمامية: «هيا، لنُصلِّ صلاة جميلة قبل الرحيل، وهكذا يقود السيد الرب معنا».

وبعد برهة بدت لي فكرة جيدة، أن يكون السيد الرب هو من يقود السيارة. ثم فكرت مرة أخرى في السيد جيمس دين، والذي كان ممثلًا قديمًا وكانت أمي تعشقه، وكانت تحكي لي دائمًا أن عينيه كانتا شديدتَي الجمال، وكانت سيارته سريعة جدًّا، مكتوب عليها: «الرب هو رفيقي في القيادة»، مثل حالنا الآن. ربما يعرف الرب عمل أشياء كثيرة، ربما القيادة ليست واحدة منها، لأنه في ليلة من الليالي، في أثناء القيادة، وقع حادث لجيمس دين قضى عليه. إذن، عندما انتهينا من الصلاة، واشتغلت السيارة بدفعة قوية، أقسم إنني كدت أقفز خارجًا من النافذة.

ولكنني من الخلف رأيت «الأتقياء السوبر» الثلاثة وقد صعدوا إلى السيارة معنا، وعندئذ هدأت: الآن لا بد وأن الرب سيحمينا بالفعل، فهو لا يمكن أن يسمح بأن يحدث أي شيء سيئ لأولاده

الأفضلين، وهكذا متأكدين من النجاة استمروا بكل فرح في غناء تلك الأغنية الجنائزية جدًّا.

أخونا الموت منذ الأزل تعقر الإنسان

أخونا الموت لا تنسى أحدًا أبدًا

يسوع أرجوك، امكث معي هنا هذا المساء

إذا كان الموت الأسود سيأتي إليَّ في الظلام

الأتقياء السوبر هم في واقع الأمر ثلاث رهبان صغار، وإذا مررت بعد الظهر على الأبرشية فستسمع صدى أصواتهم من الحجرة الصغيرة التي يجتمعون فيها للصلاة. وأيضًا في المدرسة صباحًا، ينتهزون فترة الفسحة ليجلسوا في إحدى الزوايا وينطلقوا في الصلوات. لأنهم يحبون هذا، ولأن لديهم الكثير من الحجوزات، فلا يمكنهم أن يفقدوا دقيقة واحدة: فأهل البلدة إذا واجهتهم أي مشكلة يذهبون إليهم ويقصونها عليهم، وعندئذ يدرسون هم الثلاثة الحالة ويقررون أي الصلوات تصلح، ولأي قديس يعهدون بها، وإذا كان أمرًا جادًّا جدًّا يمكنهم التوجه مباشرة إلى يسوع أو إلى الرب شخصيًّا، ربما بعد أن يكونوا مروا بالعذراء التي يمكن أن تتدخل بكلمة حسنة.

في البداية كان أمرًا صغيرًا، ثم في يوم من الأيام كان دهس شخص يقود شاحنة ثلاثية العجلات أخوين صغيرين يلعبان ببيع يومياتها المستعملة أمام المنزل. قال الطبيب للأم إن الوضع خطير،

وإنهما في يد الرب، عندئذ جرت الأم إلى الأتقياء السوبر وأخذوا هم يصلون بأقصى قوة لديهم، طوال الليل دون أن يناموا، وفي صباح اليوم التالي استطاعوا أن ينقذوا واحدًا من الاثنين، وأخذ الناس يقولون لهم، هيا، تشجعوا يا شباب، يمكنكم هذا! وهم استمروا في الصلاة بقوة شديدة حتى تصبب عرقهم، وفي النهاية نجا الأخوان. وصلت القصة إلى كل مكان، بل وعلى صفحات «التيرينو» وجريدة «الأمة»، ومنذ ذلك اليوم يجري الناس إلى الأتقياء الصغار، من كل «فيرسيليا»، عندما تكون لديهم مشكلة.

وحتى دون أن تكون لديهم مشكلة، يأتي الناس ليستمعوا إليهم لأنهم كانوا ظاهرة. كانوا يصلون معًا وتصبح أصواتهم صوتًا واحدًا، ثم يصلون بالتناوب ممررين كلمة الرب وكأنهم في نوع من سباقات التتابع. وفي الواقع إذا كانت في مسابقات الشباب توجد مسابقة للصلاة، كان سيفوز بها الأتقياء السوبر بالتأكيد بالميدالية الذهبية. وكانت توجد مسابقات الجري والقفز إلى أعلى وكل تلك التخصصات التي لا بد أن تتمتع بجسم رياضي لتتقنها أو على الأقل بجسم عادي، وفي هذه الناحية لم يكن الأتقياء السوبر، سوبر على الإطلاق.

كانت يولاندا الأكبر حجمًا بين الثلاثة، بل أكبر من الاثنين موضوعين معًا، وربما من أجل معادلة التوازن كان لا بد أن نجلس فوق سيارة الأب دومينيكو، حيث تجلس هي الآن على الكرسي الأمامي بجواره وتغطي الأفق. كانت ترتدي دائمًا بدلة الألعاب

الحمراء، كما كان شعرها السميك أيضًا أحمر، وسميك بمعنى أنه كان شيئًا مثل الحبال المجعدة، مكومًا أسفل البيريه الذي يرتدي الثلاثة مثله تمامًا، لونه أزرق سماوي وعليه صليب ذهبي وفي وسطه مكتوب **الأتقياء السوبر**، وهي الهدية الخاصة والثمينة جدًّا من أسقف بيزا شخصيًّا.

والثاني كان مانويل، والذي كان أكبر منا بقليل، وفي الواقع كان لديه شيء كالعفن على وجهه يمكن أن يكون لحية. ذلك العفن لا بد وأنه ينمو أيضًا داخل رأسه، لأنه كان يبتسم دائمًا بمفرده وعيناه في الهواء، وكأنه وحده يسمع لنكات آتية من مكان. يتحرك حركات مفاجئة وعندما يتحدث يتشاجر لسانه مع شفتيه ويُفهم بصعوبة، في الواقع عندما يتلو الصلوات يقول شيئًا مثل: *أبانا الشي في الشموات يتقدش اشمك*. وعندما تسمعه تشعر برغبة في الضحك، ولا بد وأن تسيطر على نفسك بكل قوتك، ففي إحدى المرات في عيد القيامة ضحك أحد الصبية في أثناء قراءة مانويل لمزمور أمام الهيكل، بل وقلَّده، ولم يدرك مانويل هذا، ولكن الرب أدركه، وفي الواقع عندما عاد هذا الصبي إلى المنزل عثر على قطه مدهوسًا في الشارع.

وأكبر سوبر بين الأتقياء السوبر كان ثالثهم، وأنا أعرفه جيدًا لأنه كان بالتحديد ماسيمو الصغير. صديقي الأقرب منذ أول يوم في المدرسة، وفي أي حفل، أو نزهة مع المجموعة، أو جولة للفصل، كنا دائمًا معًا، دائمًا بمفردنا بعيدًا عنهم.

وإذا كان الزملاء في الفصل لا يعيروننا أي اعتبار، فإن الأشخاص الذين يطلبون مساعدة الأتقياء السوبر يبحثون عنه هو بالتحديد. لأن صوته رقيقًا وضعيفًا وكأنها الأنفاس الأخيرة لسنجاب يموت من البرد في بركة مياه، ولكن صلواته هي الأقرب في الوصول إلى أذن الرب، نظرًا لأنه في ذلك اليوم لوقوع الصاعقة فوقه، قام بالفعل برحلة إلى العالم الآخر، ثم عاد إلينا.

تقريبًا مثل الرحلة التي نقوم بها اليوم، ونحن نجلس متلاصقين في العربة-القنبلة، على أمل أن ننجح في العودة هذه المرة.

أخونا الموت يا من تحررنا من الشر
يا من تأخذنا أخيرًا إلى الدينونة
حيث سأعرف عن خلاص نفسي
فيمكنها العيش مطوبة في الفردوس.

كانوا يغنون ويصلون، يصلون ويغنون، مع كل انعطاف للسيارة صلوة، ومع كل صلوة أمنية. ولا بد أن أقول إن صلوات الأتقياء السوبر كانت صالحة، بل أكثر مما تمنيت. لأن أمنيتي كانت أن نصل أحياء، وبعد بضعة كيلومترات حدث أمر مختلف لم أكن أتوقعه بالمرة، ولكنه أفضل مائة مرة: من الخلف بدأت الحافلة تدق نفيرها، توقفنا، ومنها نزل شخص وأتى نحونا، تركت له يولاندا مكانها وانحشرت بطريقة ما بيني وبين مانويل وماسيمو الصغير على أنبوبة الغاز، والتي بذلك الوزن ستنفجر بالتأكيد. وسيكون

الموت الآن خسارة فادحة، لأنه على المقعد الأمامي، أقسم إن من جلست الآن، شاحبة ولكن مبتسمة، كانت الدعسوقة.

- إذن كان لها وجود حقيقي!

كان أول شيء فكرت فيه، وأيضًا الشيء الوحيد الذي فكرت فيه لوهلة. لم أرها منذ زمن، منذ ذلك المساء في الكنيسة والذي فيه كنت في المرحلة الابتدائية وكان الرجال يبنون المغارة، ومن بين أولئك الرجال كان أبي لا يزال موجودًا. ثم وقع هو من فوق السلم وتوقف العالم عن الدوران وانحشرت أنا في زاوية متربة. ربما لهذا لم يبدُ لي أنني رأيتها منذ زمن بعيد، بل إنني رأيتها في حياة أخرى. وأيضًا الدعسوقة، لم تكبر فقط، بل بدت لي شخصًا آخر. أقصد أنها كانت هي، ولكنها بدت في الوقت نفسه فتاة أكبر، وكأنها أخت أكبر لنفسها. من يدري إذا كان هذا قد حدث لي أنا أيضًا، إذا نظرت إلى نفسي من الخارج، لأنني من الداخل أشعر بأنني لم أتغير، وفي النافذة الصغيرة المغبرة رأيت الوجه نفسه الغبي والمليء بالتجاعيد الذي كان لي من اليوم الأول الذي رأيتني فيه.

بينما كانت الدعسوقة هي أختها الكبرى رائعة الجمال، بلا زي الدعسوقة وبلا هوائي مثبت بمشبك على شعرها. وإذا كنت عندما عرفتها أحببت التحدث معها ولم أفهم السبب، الآن بدا لي واضحًا حتى إنني فهمته، وفي الوقت نفسه لم أعد أفهم شيئًا.

والأسوأ أنها عندما تعافت بعض الشيء من دوار السيارة،

التفتت على المقعد ونظرت إلى الخلف، حيث كنت مسحوقًا أسفل يولاندا، أحاول أن أصفف شعري المجعد، وهي العملية المستحيلة مع يدي التي كانت ترتعش بهذه الطريقة.

قالت: أهلًا بكم جميعًا، أنا مارتينا. حتى صوتها كان مختلفًا، واثقًا وممتلئًا، مثل تلك الفتاة التي تصعد على المسرح في حفل الاتحاد مع العم آراميس، لتغني العلم الأحمر وطعم الملح.

ولكن الأجمل كانت أغنية الدعسوقة، والتي توقفت عن الغناء للجميع، ولكنها نظرت لي أنا فقط وقالت: سعيدة لرؤيتك مرة أخرى يا فابيو!

أقسم إن هذا ما قالته. لأنها هي أيضًا تذكرتني، وأنا كنت أريد أن أجيب أو حتى أبتسم فقط، ولكنني شعرت فقط على فمي بشيء شبيه بابتسامة ثابتة ومعوجة مثل تلك التي رسمتها الجلطة على وجه العم آتوس.

سألها الأب دومينيكو:

- هل أنتِ أفضل يا مارتينا؟

- أجل يا أبي، أشكرك. هل لا تزال أمامنا العديد من المنعطفات؟

- نصف ساعة من الطريق.

- إذن نصف ساعة من المنعطفات.

- آه، أجل. هل يمكنكِ التحمل؟

- سأحاول. ربما خلال خمس دقائق تنفجر أنبوبة الغاز وتنتهي معاناتي.

ضحك الأب دومينيكو بقوة، ثم قال لها لا، لن تنفجر؛ الرب معنا.

- حقيقي، ثم إن الأتقياء السوبر موجودون.

قالت هذا والتفتت للخلف مرة أخرى. وهززت أنا رأسي بالنفي، لا أدري لماذا، ربما لأقول لها إنني لست من الأتقياء السوبر. حيث كانوا أفضل من يصلون، ولكنهم كانوا يُكوِّنون معًا ناديًا لا أريد أن أدخله، على الأقل في عيني الدعسوقة.

تلت ذلك لحظة من الصمت، ملأها ماسيمو الصغير بالصلاة الربانية.

قالت هي:

- أوه، أحسنتم. صلوا بقوة حتى لا ينفجر كل شيء!

- بالفعل.

قال هو أخيرًا: والآن سنصلي إلى العذراء من أجل حفيد السيدة إينس.

- آه، لماذا، ماذا حدث له؟

- يتعاطى المخدرات.

- آه، حسنًا، هذا أمر غير عاجل، فمن يتعاطى اليوم سيتعاطى

أيضًا غدًا، أليس كذلك؟ أما نحن فنجلس على قنبلة مستعدة للانفجار، وكل ثانية يمكن أن تكون الأخيرة. يمكنكم التفكير في حفيد السيدة إينس عندما نصل، أليس كذلك يا أبي؟

أومأ الأب دومينيكو بالإيجاب، ثم بالنفي، ثم أجاب بأنه لا توجد أي خطورة، وصلاة إضافية لن تضر. إلا أن المخدرات مؤذية جدًّا.

التفتت الدعسوقة مرة أخرى، وأنا لسبب ما أشرت إلى نفسي وأومأت بالنفي مرة أخرى، ربما لأقول لها مرة ثانية إنني لست واحدًا من الأتقياء السوبر، أو إنني لا أتعاطى المخدرات. لم أكن أنا نفسي أعرف السبب، ولحسن حظي أنني لا أرى الألوان لأن وجنتي كانتا تحرقانني، وطرفَي أذنَي يشتعلان بالنار، ولكنني بالتأكيد كنت أتحول إلى اللون الأحمر مثل إشارة المرور.

هذا لم يكن خطئي، كانت الدعسوقة هي السبب، ابتسامتها وعيناها كانت مثل شبكة أُلقيت فوق كل شيء، كانت تصطاد كل شيء وتجذبه نحوها. وأنا أجلس ونظرتي دائرية محدقة مثل السمكة، مقيدًا في تلك الشبكة ووسط الأتقياء السوبر بين منعطفات الطريق العديدة.

حتى وصلنا إلى ساحة توقفت فيها السيارة، وقال الأب دومينيكو إن بإمكاننا النزول، ونظرت أنا إلى الخارج دون أن تكون لدي أدنى فكرة عن مكاننا.

إلا أننا وصلنا، وما زلنا أحياء، ولم ننفجر على الطريق. ولن يكون هذا هو الحل للحياة السعيدة، ولكنها كانت، على الأقل، نقطة انطلاق لا بأس بها.

* * *

حقيقي بالفعل أننا في الحياة نكون سعداء أو تعساء، منفعلين أو متعبين، متعرقين أو كل شيء آخر، ولكننا لا نشعر أبدًا بالرضا. في الواقع في البداية كنت سعيدًا جدًّا أنني وصلت إلى حد أنني كدت ألقي بنفسي لأُقبل الأرض، مثلما فعل كريستوفر كولومبوس عندما اكتشف أمريكا، بينما كان يفكر قبلها بدقيقة في أنه سيموت وسط المحيط. ولكن، بعد تلك اللحظة من الحماس، ها هي رغبة أخرى تدخل إلى رأسي وتُفسد كل شيء: شيء جميل أن أكون هنا، بالفعل، الآن أرغب في المزيد، أريد أن أقضي اليوم مع الدعسوقة. أريد أن أتحدث معها طوال اليوم، حتى وإن لم أكن أعرف ماذا سأقول، ربما أقول لها فقط إنها تبدو جميلة وهي ترتدي ملابسها هكذا، بلا غلاف بلاستيكي عليه كرات، ولا أرجل وهمية وهوائيات على رأسها. أعلم أنه ليس حوارًا لا يمكن مقاومته، ولكنه على الأقل بداية ما. إلا أنها لم تكن بداية أي شيء، لأن الأم بالما ترجلت من الحافلة ولوحت بيدها الكبيرة في الهواء وكأنها لافتة طريق مكتوب عليها «قف»: إذن، الأولاد مع الأب دومينيكو والبنات معي. هيا أسرعوا.

ووداعًا دعسوقة.

بدأنا نسير في المدق الصاعد بين الأشجار في فرقتين منفصلتين، ونحن نحترس من الأفاعي ومخاطر الجبال الأخرى، وفي الوقت نفسه نستمع إلى الأب دومينيكو والسيد جوفاني، مدرس التعليم المسيحي وأبو صبي آخر، وهو يحكي لنا قصة القديس توما، الذي كان تلميذًا ليسوع، وعندما قام يسوع من الموت لم يكن يصدق ذلك، اعتقد أن الرب هو شخص آخر يشبهه، عندئذ أطلعه يسوع على ثقوب المسامير في يديه ورجليه، وجرح الحربة في صدره، وهكذا آمن توما وبشدة، وبدأ يجول العالم ليُبشر بكلامه.

كنت أستمع بلا تركيز، شارد مع كل عيش الغراب الذي يلمع هنا وهناك في الغابة، كانت النباتات كثيرة جدًّا لدرجة أنني شعرت مثل موسى عندما شق البحر الأحمر إلى نصفين، إلا أنني في محل المياه، كنت أسير في بحر لامع من فطر البوليطس الذي كنت أراه أنا فقط بينما نصعد نحو مكان لا يجيء على الإطلاق. وعندما يسأل أحدهم كم تبقى، كان الأب دومينيكو يجيب: «إنه خلف ذلك المنعطف»، ثم يأتي المنعطف ولا يوجد خلفه إلا منعطف آخر، وفي لحظة ما، عندما قال مرة أخرى: خلف ذلك المنعطف، أجبته بأنني لم أعد أصدق. وقال هو: «آه، لم تعد تصدق؟ إذن لدينا نحن أيضًا قديسنا توما الصغير». ونظر إليَّ بجدية، وأفلتت منه ضحكة، فضحكت أنا أيضًا.

استمررنا هكذا حتى المنعطف الألف من تلك المنعطفات الأخيرة، حتى وصلنا إلى الأخير بالفعل، وأمامنا تمدد حقل عملاق،

مفتوح ومُسطح ويملأه النور فبدا كميدان ولكنه ميدان بناه الرب وليس البشر، العشب فيه يحل محل الأسمنت والأشجار في محل الجدران والشحارير وطيور الشرشور محل السيارات والدراجات البخارية.

كان ذلك المنتجع متسع الأرجاء، يُشعر ساقيك برغبة برية في أن تجري، تقفز عشوائيًّا، لتصيح حتى تنفجر رئتاك مثل بالونتين نفختهما أكثر مما ينبغي. إلا أن الأب دومينيكو ومدرس التعليم المسيحي قالا لنا أن نفعل العكس تمامًا، عندئذ بمجهود بشع جلسنا لنسمع:

- اسمعوا يا أولاد، كان القديس توما أحد تلاميذ الرب، وأصبح فيما بعد قديسًا. إلا أنه عندما رأى يسوع القائم من الموت لم يصدق على الفور. ليصدق كان عليه أن يلمس الجروح، أن يضع إصبعه في داخلها، ويسوع لم يكن سعيدًا جدًّا بهذا. بل قال «طوبى لمن آمنوا ولم يروا»، هل تعرفون لماذا؟ لأن من الأفضل كثيرًا أن نصدق بالإيمان دون الحاجة إلى دلائل. كما نفعل نحن، ولذلك فنحن الأبناء المُفضلون، لأننا صدقنا بالرب دون أن نستطيع رؤيته، دون أن يكون أمامنا جرح نضع فيه إصبعنا. ليس لدينا أي شيء لنضغط عليه في يدنا، إلا أن هذا لا يضعفنا، لا يجعلنا نتشكك، ولا يمكننا أبدًا أن نُلحد، أليس كذلك يا أولاد؟

وأومأنا جميعًا برؤوسنا، أو على الأقل اعتقدت أنا هذا، إلا أنه من بعيد يُسمع صوت ضعيف وخفيض يقول: معذرة يا أبي. كان

صوت صبي يُدعى مارشيللو، شعره أشقر وناعم، أحقد عليه كثيرًا جدًّا: من هم الملحدون؟

- مارشيللينو، كيف ذلك، ألم تسمع عنهم قَط؟ الملحدون هم أشخاص، وأولئك الأشخاص يعتقدون أن الله غير موجود.

قال الأب هذا، وظل وجه مارشيللو ساكنًا، ومعوجًا في الوقت ذاته، وكأنه شيء تجمد بطريقة سيئة.

- كيف هذا يا أبتِ، بأي معنى لا وجود لله؟

- لا يوجد معنى لهذا يا مارشيللو، فقط هم يقولون هذا.

- ولكن كيف خطر هذا في عقلهم؟ هل هم مجانين يا أبي؟ لماذا إذن لا يضعونهم في مستشفى الأمراض العقلية، أولئك الملحدين؟

- دعونا لا نبالغ، ليس لدرجة مستشفى الأمراض العقلية.

- لا يا أبي، ليست مبالغة! إذا قلت إنني يوليوس قيصر أو الرجل العنكبوت، فسوف يضعونني في المصحة العقلية. كان يعيش رجل قريب من منزلنا يعتقد أنه حصان، ويجري في الشارع وهو يصدر صوت الحصان، حتى جاءوا في أحد الأيام وأخذوه إلى المصحة العقلية. أليس الأخطر من هذا أن ينفي أحدهم وجود الله؟ أنا لم أسمع عن هذا الأمر قَط، ولم أفكر فيه حتى! شيء عبثي ومجنون. أليس هكذا يا أبي، أليس هكذا؟

عندئذ تدخل جوفاني، معلم التربية المسيحية:

- بالتأكيد يا مارشيللو، ولكن في العالم يوجد أشخاص أقل روحانية، أقل حساسية، إذا لم تكن لديهم أدلة ملموسة يقولون هذا. في نهاية الأمر الرب لا يظهر، وعادة ما تحدث في العالم أشياء بشعة تجعل المرء يفكر في هذا أحيانًا، لأنه إذا كانت تحدث أشياء بشعة بهذا الشكل، فهل هذا معناه أنه لا وجود للرب يا مارشيللو؟

«لا!» أجاب هو، «لا!» وعيناه جاحظتان إلى حد أنني استطعت أن أرى بداخلهما كل الفزع، وكل التوتر، بينما ينظر حوله وكأنه لم يعد يتعرف على أي شيء. وإذا كان وجهه في البداية بدا متجمدًا، فالآن يسيح ويسقط قطعة تلو الأخرى، الأنف، والفم، وكل شيء، كان يذوب ويختفي في اللا شيء.

- أي أنني لم أفكر في هذا قَط. إلا أنني الآن، حسنًا، لم أعد أعرف أي شيء. كيف يمكن إذن هذا، أن الله غير موجود!

- لا يا مارشيللو، في الواقع هذا ليس ممكنًا! هو موجود بالتأكيد، موجود حتمًا! وهذا ما كنت أقوله بالتحديد، كم هو جميل أنك تصدق ولا تشك.

- إلا أننا ليس لدينا دليل واحد يا أبي، ولا واحد.

- وهذا أفضل! الله لا يقدم لنا دلائل ملموسة لأنه يريدنا أن نصدق به دون أن نتبع عيوننا ولا أيادينا ولا رأسنا، بل بأن نتبع قلبنا.

- أجل، ولكن في العالم لا يوجد أي شيء على الإطلاق يخبرنا بأن الله موجود.

حاول معلم الدين المسيحي مرة أخرى:

- دعنا لا نبالغ. توجد الطبيعة على سبيل المثال، ألا ترى روعة هذا المنظر الطبيعي المحيط بنا؟ ألا تفكر في أنه معجزة حقيقية؟ الطبيعة هي معجزة الله يا مارشيللو. كيف يمكن أن يكون العالم موجودًا، ومن خلق هذا المنظر، إذا لم يكن الله؟

- لا أعرف.

قال هذا وهو يرفع عينيه نحو شعلة الأمل الضئيلة تلك.

- أولئك السادة الملحدون ماذا يقولون؟ من في رأيهم خلق العالم؟

- مم، كما تعرف فهم يلجأون دائمًا إلى معبودهم العلم. بالنسبة إليهم كل شيء نشأ نتيجة انفجار يسمى البيج بانج، و...

صرخ هو مرة أخرى بيأس:

- أجل بالتأكيد البيج بانج، شرحوه لنا في المدرسة، هو شيء حقيقي! آه يا إلهي، يا إلهي المبارك!

أخذ يناديه بصوت مرتفع وهو ينظر إلى أعلى، إلى أبعد، ولم يجبه أحد.

حاول الأب أن يضيف أن تلك التفسيرات العلمية، على كل حال، لا تفسر كل شيء، بل ظلت بعيدة عن الأشياء الأكثر أهمية: مثل كيف بدأ كل شيء، من الذي قال: جاهزون، هيا، انطلق، من الذي منح الهزة الأولى للمحرك؟

وكان هذا بلا فائدة، توقف مارشيللو عن الاستماع. تركتهما نظرته ومرت فوقنا جميعًا في الدائرة، ثم تزلجت حتى اختفت داخل «العدم» الضخم الذي انتشر فجأة حوله.

عندئذ نهض الأب وذهب ليجلس بجوار مارشيللو، وجعله يتلو الصلاة الربانية، وقال: «وجبة هنية يا أولاد»، فأُطلقت في الغابة ضوضاء حقائب الظهر والأكياس التي تُفتح، بينما كل واحد منا يصطاد شطيرته الجاهزة التي أعدتها له أمه.

أخذت أنا أبحث قليلًا، وأنا أبعد الأشياء الكثيرة التي بالتأكيد وضعها أعمامي خفية: بصلة، علبة كبريت، سكينة صيد طويلة كالسيف. ثم أخيرًا أخرجت شطيرتي، كبيرة ولامعة في رقائق القصدير الفضية التي كنت على وشك أن أنزعها وأصنع منها كرة كالعادة. إلا أن الأمر الآن ليس كالمعتاد، لأنني لم أكن في المنزل، بل وعندما عثرت على هذا العمل الفني الذي جهزته وغلفته أمي جيدًا جدًّا جعلني أفهم كم أنا بعيد، في الجهة الأخرى من العالم، بعيد جدًّا عنها.

بدأ شيء مر وحاد يخنقني، عندئذ أمسكت بالورق الفضي بإصبعين، ونزعته بحرص حتى لا أمزقه، وكأنه كان بالفعل ورقًا

من الفضة. طويته ووضعته بعناية في حقيبة الظهر، ثم نظرت إلى الشطيرة عارية في يدي، جميلة جدًّا ومصنوعة بعناية، إلى حد أنني لم أستطع أكلها. ولكنني كنت أتضور جوعًا، وأمي لن تكون سعيدة إذا عاد إليها ابنها إلى المنزل ميتًا، عندئذ فتحت فمي وشرعت في القفز على غذائي الشهي، مثلما هجم الآخرون على طعامهم.

جميعهم، فيما عدا ريكاردو، الذي كان جالسًا بجواري، يده لا تزال في حقيبته، يبحث ببطء، وبدا كأنه يخلط الهواء بالداخل.

قالت لي أمي أن أعامل ريكاردو دائمًا معاملة حسنة. كان لا بد أن أعامل الجميع معاملة حسنة، وهو أكثر من الجميع، لأن أباه رحل مع سيدة أخرى، وأمه تشرب كثيرًا من النبيذ ولا أحد يفكر كثيرًا فيه.

وقد أدركت ذلك في حفل ثلاثاء المرافع والذي كنا جميعًا فيه متنكرين، وهو لم يكن لديه سوى ملاءة فوقه. كان يقول إنه شبح، وعندئذ كان يمكنهم أيضًا أن يضعوا سلسلة في يده، أو يصنعوا ثقبين لعينيه، دون أن يتركوه يتخبط في كل لحظة، والأهم كان يمكن أن يعثروا له على ملاءة بيضاء، لأنني لم أرَ قَط شبحًا مربعات. إلا أنني لم أقل أي شيء، تركته يمشي متخبطًا في الممر ويصطدم بالأساتذة والمدافئ، كما يحرك يديه الآن داخل الحقيبة، ومن عينيه كان الموقف واضحًا، أن الأمر مرعب بالداخل أكثر من ألف شبح مربعات أو بخطوط موضوعة معًا: لقد أرسلته أمه فوق الجبال بلا طعام.

فهمت وشعرت بالألم، وحيدًا ومُهملًا وسط غابة كثيفة من المخاطر حيث يمكن أن أموت دون أن يهتم أحد. وإذا كنت أنا، الذي لا دخل لي، شعرت بهذا، فمن يدري كيف حال ريكاردو بتلك اليد الممتدة في الفراغ. عندئذ، هذه المرة لم أستطع أن أسكت، لم أتحمل هذا، وقدمت له جزءًا من شطيرتي، والذي كان يكفي فمين أو ثلاثة.

أجابني: «لا، شكرًا، لست جائعًا»، وحاول أن يبتسم لي. إلا أنه بينما يحاول ثبَّت فمه في وضع عجيب، واستدارت عيناه وتيبست ذراعه وكأنه من شدة البحث في الحقيبة وجد سلكًا كهربائيًّا ووضع أصابعه عليه. ولم يكن هذا تيارًا كهربائيًّا، كانت هزة أقوى: أخيرًا عثر ريكاردو على الشطيرة، لقد جهزتها له أمه، جهزتها له!

كانت موجودة هناك، مغلفة بالبلاستيك، أخرجها وحركها في الهواء كأنها علم، وضعها على حجره ونزع الغلاف، وكانت قطعتين من الخبز المربع. شعرت أنا بالفضول الشديد لأعرف ما بداخله، شيء نِيْءٌ أم مطبوخ، مورتاديلًا، ربما قطع من اللحم بالمايونيز، والطماطم في شرائح... وبينما في رأسي تتكون قائمة من الخيرات التي يمكن أن تكون أمه وضعتها له، فتح ريكاردو السندوتش، وانطفأ اللمعان من عينيه تاركًا إياهما مطفأتين، بيضاوين، وفارغتين تمامًا. فارغتان مثل السندوتش الذي أعدته له أمه: شطيرتان مربعتان من الخبز واحدة فوق الأخرى بلا شيء بينهما.

خبز ولا شيء.

مكث ريكاردو هكذا، شطيرة في يد وأخرى في اليد الأخرى، وفي الوسط ذلك العدم الذي كان قد لف للتوِّ مارشيللو، عندما كان يتحدث عن القديس توما، خطرت على باله، ربما للمرة الأولى في حياته، أن الله يمكن أن يكون غير موجود.

ولا أنا رغبت في أن أكون موجودًا، لأترك ريكاردو بمفرده بلا متفرجين في تلك اللحظة البشعة والمخجلة. إلا أنني كنت موجودًا، عندئذ حاولت أن أمنح معنى لوجودي بأن سألته إذا كان يريد أن يضع بعضًا من الجبن أو شيئًا آخر من شطيرتي.

قال بعد قليل:

- لا، شكرًا، أنا أحب الخبز هكذا، بلا شيء.

قلت له:

- آه، بالتأكيد الخبز هو أطيب شيء في العالم، بل إن الأشياء التي توضع في داخله تفسد مذاقه. أنا أيضًا عندما آكل الفراولة بالقشدة، إذا وضعت فوقها الشوكولاتة البودرة لا يعجبني طعمها على الإطلاق.

- أجل، الأمر تمامًا هكذا.

قال ريكاردو، وأومأ بالإيجاب، وفعلت أنا الشيء نفسه، وأخذنا نهز رأسينا بقوة أكثر، في محاولة لأن نشعر بالدوار الشديد وننسى أننا هنا لا نتحدث عن فراولة بالقشدة بل عن قطعتين هزيلتين وشاحبتين من الخبز المربع.

تذكر ريكاردو ذلك على الفور بمجرد أن قضم القطعة الأولى، وحاول أن يبتلع تلك القضمة من الإسفنج. نظر إليَّ، ثم نظر إلى شطيرتي.

- أتعلم شيئًا؟ يجلب الجبل الشعور بالجوع، لهذا حتى وإن لم يكن هذا يعجبني، فقد يكون من الأفضل أن أضع شيئًا داخل الخبز!

- هذا أكيد، فنحن بحاجة إلى قوانا.

وفتحت شطيرتي التي تحولت عمليًّا إلى صينية مليئة بالأشياء. أخذ هو شطيرة مورتاديلا، ثم أخرى، ثم قطعة من جبن البيكورينو، وأخيرًا تحول الشيء الذي يمسكه بين يديه إلى سندوتش حقيقي. وضحكنا، وأكلنا، وكنت أنا سعيدًا جدًّا.

سعيد من أجل ريكاردو الذي يأكل شيئًا طيبًا، وأيضًا لأنني فعلت شيئًا جيدًا. بل، جيدًا جدًّا. بل أفضل مما يفعله الأتقياء السوبر، والذين يجلسون في مكانهم يتلون الصلوات، دائمًا فيما بينهم وبعيدًا عن الأشخاص وعن المشكلات الحقيقية، بعيدًا عن الشخص المتألم ومن يحتاج إلى مساعدة. فهم لا يهتمون بهذا، ويقضون الوقت في الصلاة للرب ليمنحنا خبزنا اليومي. بينما أنا، بلا كلمة واحدة، ملأت ذلك الخبز بجبن البيكورينو والمورتاديلا.

* * *

مثل كل الأشياء التي تبدو بلا نهاية، فإن الحقل الممتد الذي كنا نجلس فيه ينتهي عند نقطة ما، بصف من الأشجار وكوخ خشبي مغلق بسلسلة، وكان قد علق لافتة عليها أنواع مختلفة من الآيس كريم، ولكنها كانت قديمة وصدئة وفي الواقع لم نتعرف على الأنواع جيدًا، حتى وإن كان أحدهم قد رسم على كل واحد منها قضيبًا. خلف تلك الأشجار والكوخ، كانت توجد ساحة أخرى أصغر بكثير، بها أرجوحة صدئة بدورها، وزلاقة مكسورة ولعبة ملاءٍ أخرى ملونة لم أرَ مثلها قَط.

أتيت أنا وماسيمو الصغير ومانويل حتى هنا، لأن الآخرين بدأوا يلعبون الكرة، وفي كل مرة يُكوِّنون فريقًا يتشاجرون نصف ساعة لأنهم لا يريدوننا معهم. عندئذ، بمجرد أن ظهرت تلك الكرة الملعونة والمستحيل ركلها بأرجلنا، كان الأكرم لنا أن نختفي.

إلا أن ليفيو وجراتسيانو وصلا بعد قليل أيضًا، وكانا يلعبان جيدًا جدًّا، ونظرًا لضخامة حجمهما فهما يفعلان ما يحلو لهما في المباريات. يبدو أن ما يحلو لهما كان أشياء عنيفة للغاية، لأن الأب دومينيكو، الحكم، طردهما، وكانت النتيجة مثلما الحال عند الرسوب في المدرسة: يسخر الاثنان، وكان العقاب الحقيقي هو ما نتلقاه نحن الأصغر حيث نجدهم فوقنا.

كنت أنا على الأرجوحة، ومانويل يحاول أن يدفعني ولكنه يخطئ التوقيت في كل مرة ولذلك عمليًّا كنت ثابتًا، ويجلس ماسيمو الصغير على آخر الزلاقة المكسورة ينظر إلى الأوراق والسحب في

الهواء وكل عجائب الخالق. وصل جراتسيانو وليفيو ولم يحييانا حتى، ولكنهما قالا لنا أن نغرب عن وجهيهما.

- ولكننا نجلش هنا نلعب!

قال مانويل، ولم يجيباه، ولكنهما نظرا إلينا بعيونهما الضيقة والشريرة التي أمسكت بنا وقذفتنا بعيدًا، حتى اللعبة الثالثة التي كانت شيئًا غريبًا بأربعة مقاعد مُركبة في دائرة على قاعدة مستديرة، وإذا دفعت بنفسك تدور حولك. تدفع وتلف، وتلف وأنت تدفع، في دقيقة، وعادت شطيرة أمي لتظهر في حنجرتي، وأندم على الأرجوحة، حيث كان يلعب الآن ليفيو وغراتسيانو. وكانت لعبتهما هي تحطيمها بالركلات.

ولكنهما توقفا أيضًا مثلنا، عندما من وسط الغابة تعالت تلك الضوضاء التي تزداد قوة حتى بدا منشارًا كهربائيًّا يتشاجر مع هراس داخل خلاط معطوب. إلا أن ذلك كان صوت دراجة بخارية مزينة جدًّا وصلت من حيث لا ندري، ونظرًا لأنها قاعدة ثابتة، أنه كلما عاش الصبية في مناطق نائية زادت ضوضاء دراجاتهم، فإن ما يأتي الآن من نهاية الغابة هو الجحيم موضوع على عجلتين وتم بصقه خارجًا من كاتم صوت ممسوس.

كان يمتطي الدراجة شيطانان أكبر منا قليلًا، ذهب ليفيو وجراتسيانو نحوهما، وبعد دقيقة من الفحص، ها هم يثرثرون ويدخنون معًا ويلفون حول الدراجة، مثل الذئاب التي تتقابل وتتعرف وتُكوِّن على الفور قطيعًا. ولم يرَ أحد قَط قطيعًا من الذئاب

يقضي وقته في التحدث عن كواتم الصوت والشكمانات، في الواقع بعد دقيقة نظروا نحونا وحدقوا فينا: ثلاثة حملان على لعبة دوارة تصرصر، والتي تلف وتلف ولكنها للأسف لا تؤدي إلى أي مكان.

اقتربوا، الأضخم منهم كان يمسك بالدراجة البخارية وشعره الطويل يتدلى خلفه في ذيل حصان، وأخذوا ينظرون إلينا ويضحكون، ضحكوا كثيرًا. وفي الكنيسة يقولون لنا دائمًا أن نبتسم، لأن الابتسامة جميلة ومعدية، وإذا ابتسمت يبتسم العالم كله معك. ولكنني أعلم أنهم في الأبرشية لم يروا قَط هذه الابتسامة، لأنها كانت تمنح التأثير العكسي تمامًا، وإذا كان أحدهم يحملها على فمه بينما يقترب منك، كن واثقًا أنك بعد ثانية ستبدأ في البكاء.

عندئذ، وبما أن حتى الحملان لها غريزتها، ودون حتى أن أقرر ذلك، ألقيت بنفسي بعيدًا عن اللعبة الدوارة. تدحرجت على الأرض ونهضت بجوار ماسيمو الصغير الذي فعل الشيء نفسه. وظل مانويل جالسًا فوقها، كان مستمتعًا جدًّا، يدفعها فتلف، ويطلق أصواتًا منفعلة من حنجرته.

كنت أريد أن أخبره بأنه لا يوجد ما يلعب به، وأنه لا بد أن ينزل فحسب، فنظر ذا الشعر الطويل إليَّ نظرة سيئة جدًّا، وأشار إليَّ بإصبع أكبر من ذراعي ومشعرة أكثر. وصلوا إلى اللعبة الدوارة وبدأوا يدفعون المقاعد الفارغة، ويجعلونها تدور أسرع ومانويل يضحك ويصرخ سعيدًا، بينما يحتفظ على رأسه بالبيريه الأزرق هدية الأسقف.

وأقسم إنني أردت أن أفعل شيئًا ما، كنت أريد بالفعل، ولكن ماذا؟

كنت أنا أيضًا فوق تلك اللعبة، ولكنني كنت أنظر حولي، وبمجرد أن رأيت الخطر هربت. هكذا تنجو الحيوانات، وهكذا وصل الإنسان من العصر الحجري حتى يومنا هذا، فرار طويل الأمد من التزلج بين الماموث والنمور ذات الأسنان الحادة، وضربات السيوف وطلقات السهام والقنابل النووية، بل وألعاب دوارة قاتلة مثل تلك. هل هو خطئي أن مانويل لا يعرف هذا؟ لماذا يجب أن أدفع أنا الثمن عنه؟

لا أعرف، لم أستطع حتى أن أفكر في الأمر جيدًا لأن الهواء كان قد امتلأ من صرخاته التي أخذت تتصاعد في دوائر وتشبه أقل صوت الضحك. طارت قبعته الزرقاء وتدحرجت نحونا، وبينما ينفخ إحساس بالذنب أنفاسي ويتشعب بطوال ذراعَي وساقَي ويدعوني لأن أفعل شيئًا. إلا أنني لا أفعل أي شيء، بينما يحاول ماسيمو الصغير أن يصرخ، وبصوته الرفيع والمكسور أسمعه أنا، هنا بجواره، بصعوبة، دون أن أفهم إذا كان يقول توقفوا، أو أنه قد بدأ بالفعل يصلي من أجل نفس مانويل المسكين!

ولا أفهم حتى ماذا قال الذئاب فيما بينهم للتوِّ، لأن الابتسامة أصبحت أكثر كثافة بينما توقفوا عن دفع اللعبة بأياديهم، وأداروا المحرك الصاخب ورفعوا العجلة الخلفية، واضعين رافع السرعة إلى أقصى حد وبدأت العجلة تدور بأقصى سرعة في الهواء.

وتمنيت في هذه اللحظة أن يصعدوا جميعهم على مقعدها ويختفوا إلى الأبد، وليس هذا ما حدث. بل عكسه تمامًا: أنزلوا العجلة التي أصابها الجنون على القاعدة الدائرية للعبة، وبمجرد أن لمس المطاط الحديد أسفله، بدأت اللعبة فجأة تدور بجنون، مثل عجلة الدراجة الضخمة المزينة جدًّا والتي يقودها الشيطان.

إلا أن الراكب هو مانويل، والذي توقف عن الوجود في تلك اللحظة، لم يعد إنسانًا بل مجرد شريط من الضوء يدور ويدور بسرعة شديدة جدًّا حتى تحول إلى حلقة، وتصاعد صراخه القوي حتى السماء وكانت تُسمع صرخاته: *بش! بش! شفى! شاعدوني! من فشلكم شاعدوني!*

ولكن المساعدة يمكن أن نمنحها نحن فقط، فهي لا تأتي من السماء. ألتفت نحو ماسيمو الصغير ولا أجده، أرى فقط ظهره بعيدًا يتموج معوجًا بينما يحاول أن يجري بعيدًا، نحو الأشجار والحقل الآخر، حيث يوجد الآخرون الذين يلعبون ويوجد حكم وربما ظلت بعض القواعد. أعرف أنه لا يهرب، وأنه ذهب لطلب النجدة، ولكنه أحدب وأعرج كما هو، فلن يصل إلى خلال أسبوعين. إذا ذهبت أنا فسأصل أسرع بكثير، وربما ينبغي أن أذهب. بل وسيكون هذا بالتأكيد الشيء الأصح. من السهل جدًّا معرفة الواجب عمله، وإذا كان هذا يكفي لكان هذا العالم قد أصبح كاملًا، ونظيفًا ومعطرًا، فالأصعب هو تنفيذه. وبالتالي لا أفعل هذا.

بل إن ذا الشعر الطويل يشير إليَّ مرة أخرى بإصبعه العملاقة، وأجلس أنا متسمرًا أمام اللعبة الدوارة الممسوسة. يضحك الذئاب الأربعة ويهزون أذرعهم وهم يكيلون السباب للسماء ويصيحون دوووري! دووووري! ويستمتعون بألم مانويل الذي لم يعد يقول أي شيء ويرسل فقط أصوات الأشياء التي تتكسر. وعندما يبعدون نظراتهم من فوقه، يغرسونها جميعًا فوقي.

ولكنها عيون مختلفة، وبعد لحظة أفهمها أنا أيضًا: لا ينظرون إليَّ نظرة الحمل التالي ليمزقوه، لا يريدون أن يأخذوني ويحشروني للطيران في تلك اللعبة الجهنمية. لا، لأول مرة في تلك الظهيرة، وربما في حياتي كلها، أقسم إنهم ينظرون إليَّ كواحد منهم، واحد يمكنه المكوث أمام مسكين عاجز يتألم ويستمتع بالمشهد، مثل ذئب بين الذئاب.

ربما أنحف منهم، ربما أقل شجاعة، ولكنها فقط مسألة وقت، ونمو وتعلم كيف يمكن القفز على الفريسة، كيف يمكن أن تُعقر الرقبة، وتُثبت الفريسة في الأرض حتى تتوقف عن الارتعاش. لأنه ربما هكذا تسير الأمور، الحياة تجري من ناحية ولكي تلحق بها لا يمكنك أن تتردد أكثر مما ينبغي، بل يجب عليك أن تكز على أسنانك وتتقدم، دون أن تقلق من أنك في أثناء تقدمك ستدعس شيئًا.

وأنا كنت بالفعل في مرحلة متأخرة جدًّا. منذ الأزل، منذ اليوم الأول من المرحلة الابتدائية حتى هذا العام، مع المدرسة الإعدادية وغابة الاستمناء، وأمسيات أيام السبت بلا حفلات صغيرة. بل،

ومؤخرًا أضيفت إليها أيضًا أيام الآحاد في السينما، والتي كانت مكانًا عامًا وبالتالي يمكنني الذهاب أنا وماسيمو والجلوس في الصف الأول لنتلقى فوقنا كل روائع الفيلم، إلا أننا في السينما أيضًا نجد أنفسنا بمفردنا. لأن كل الزملاء والزميلات يجلسون في الخلف، فهم لا يهتمون بالفيلم، ويعيشون انفعالات خاصة بهم، مباشرة، بين أصوات الاحتكاك والصرخات الخفيضة والضحكات المكتومة التي تتحول إلى أنات.

في كل الأحوال، لم يعد يهم أين وكيف، القصة هي نفسها دائمًا، الحياة تجري مباشرة في طريقها، ونحن نمكث ملتفين ننظر إلى الناحية الأخرى. وكان الخطأ خطئي، ماسيمو الصغير له ما يبرر موقفه منذ تلك الصاعقة التي سمرته في مكانه إلى الأبد، وانتهت الليلة. أما أنا فسمرت نفسي بنفسي، فيلم الحياة يسير إلى الأمام بآلاف من المفاجآت الدرامية، ولست أنا البطل، ولا حتى أقوم بدور ثانوي، فأنا مجرد متفرج لا يفهم أي شيء في الحبكة.

والآن، في هذا الشيء الشبيه بمتنزه الألعاب المهجور، ها هي فرصتي. في الفيلم ظهر دور من أجلي ويمكن أن أنضم إلى طاقم العمل، حيث بالتأكيد سأعثر من جديد على الدعسوقة، والتي تعيش في بلدتي نفسها، إلا أنني لم أقابلها قَط. لأنني لا أوجد أبدًا في المكان الصحيح. والمكان الصحيح كان هذا، لأدخل إلى الفيلم، لأنقذ نفسي من لعنة عائلتي تلك، لأتوقف عن أن أكون ما أنا عليه: شخص عجيب لا يعجب أي واحدة.

عندئذ، ومع كل تلك الأشياء التي كانت تدور بسرعة في رأسي كدوامة، أو مثل مانويل على اللعبة الدوارة، رفعت عيني إلى الذئاب الأربعة الواقفين أمامي، وحدقت فيهم كما يحدقوا فيَّ، بينما هم مستمرون في الضغط على بنزين الدراجة ويصرخون دووووري! دووووري!

وأقسم إنني لم أقرر هذا، ولا حتى أدركته على الفور، إلا أنني سمعت هذا الصوت القوي في أذنَي ولم أتعرف عليه. احتجت إلى أن ألمس شفتَي لأفهم أنه صوتي، وأنه يندفع خارجًا من فمي المفتوح على اتساعه الأكبر من المعتاد، الممتلئ بأنياب جديدة حادة، ويملأ الهواء بصراخ وحشي وشرير والذي في آذان الذئاب كان عواء حيوان بري ينضم إلى القطيع، وفي الأذن الإنسانية يتنغم في كلمة واحدة، صحت بها مرات عديدة، وفي كل مرة كانت تزداد قبحًا:

دووووري! دوووووري! دوووووووري!

أصيح بهذه الطريقة، أصيح معهم، ولم أعد أفكر في أي شيء. أصرخ فقط وأرفع يدَي في الهواء والذي هو الآن ملك لنا كله، في تلك اللحظة الرائعة التي لا تنتهي أبدًا، لأننا نصرخ فيها إلى الأبد، ولأن اللعبة ستدور إلى ما لا نهاية، ولأن الشمس ستظل في السماء في مكانها، وستطيعنا بألا تغرب أبدًا.

إلا أن مانويل لا يطيع، فهو لا يستطيع أن يتماسك ويهبط، يطير بعيدًا عن اللعبة نحو الأشجار، ثم يتدحرج على الأرض مثل كيس قمامة مغلق بطريقة سيئة، تاركًا خلفه أثرًا لا أفهمه على الفور

ولكنها بقع من القيء على فمه، على العشب وعلى الهواء النقي للجبل.

بل انتهت أيضًا إحدى تلك البقع فوقي، على كُم التيشيرت. أحاول أن أخفيها بأصابعي وبلعابي، أدعك وأتفل، وأتفل وأدعك، ولكنها لا تزول. أريد أن أصر على ذلك حتى أستهلك أصابعي، حتى أدعك التيشيرت بعظام يدي، القاسية والخشنة، والتي ستنجح في أن تكشط بعيدًا تلك البقعة الصغيرة جدًّا والعميقة جدًّا، والتي سقطت في عمق النسيج وكل شيء آخر.

ولكنني أتوقف، فجأة، عندما تبدأ الأشجار البعيدة تصدر ضوضاء رياح تصعد وتأخذ معها كل شيء. إلا أنها لم تكن الرياح كان الأب دومينيكو. يصل وماسيمو الصغير خلفه، عيناه جاحظتان ولا زالت صفارة الحكم في فمه. يجري نحو مانويل ويركع بجواره، ينظر إليه، ثم يرفع عينيه نحونا. يتفل الصفارة، ويطرح علينا السؤال الأصعب والذي في أي لحظة، سيئة أو جميلة بل وأيضًا عادية في الحياة، يمكن أن يطرحه على أي إنسان: ماذا حدث؟

ولا يمكنني أن أجيب على الأب، لا أستطيع حتى أن أنظر إليه. أترك عينَي متسمرتين في الأرض، بل أحاول أن أدفنهما في الأسفل ما استطعت، حيث تعيش الحشرات والديدان، الديدان أمثالي. يمر الوقت في صمت يستمر بضع ثوانٍ، وربما عام ونصف، لا أعرف، ثم شيء ما يحطم ذلك الصمت. إنه صوت مانويل. يقول، وهو ينزع العشب من فمه، ويسعل:

- لا شيء يا أبي. لم يحدث أي شيء، لقد شقطت بمفردي. إنها غلطتي.

أقسم إن هذا ما قاله، لا أستطيع أن أصدق هذا، ولكنه قاله. ولم يصدقه أيضًا الأب دومينيكو، أعرف ذلك، حتى وإن لم أكن أستطيع أن أنظر إلى وجهه، لأن عينَي انتُزعتا بقوة من عمق الأرض وانتهتا داخل عينَي مانويل، الممدد أرضًا ينظر إلينا. بل وينظر لي أنا وحدي. ولم يكن في نظرته أي شر، ولا حتى غضب، كانت بحيرة نظيفة من الصلاح، حيث تتلألأ روح قديس. قديس حقيقي، وليس مثلي، ذو نفس نقية بالفعل، والذي ربما يفكر في الأمر هكذا، إن الأمر صار كما قال هو، وأنها غلطته.

إلا أن الأمر لم يكن هكذا، وإذا لم يكن مانويل يعرف هذا، فأنا أعرف من أجلنا نحن الاثنين، بل من أجل الجميع في ذلك الشيء الشبيه بمتنزه الألعاب على قمة الجبال، التي قال لي أعمامي أن أحترس منها لأنها كلها حيوانات متوحشة، ولكنهم لم يكونوا يتخيلون أن الأكثر وحشية من كل الحيوانات هو حفيدهم الوحيد.

حتى أنا لم يكن في إمكاني تخيل هذا. بل، حتى ساعة الغداء كنت أعتقد أنني شخص صالح جدًّا، بينما أساعد المحتاجين وأنا أملأ الخبز اليومي للجائعين بالمورتاديلا والبيكورينو. وها أنا هنا الآن، بينما الأب يساعد مانويل على النهوض ونعود جميعنا إلى الحقل الآخر، مع الصخب الشيطاني للدراجة البخارية التي تبتعد بعيدًا، وليفيو وجراتسيانو مستمرين في الضحكات، وأريد أنا أن

أبتعد عنهما، ولكنني لا أستطيع أن أقترب من الأب ولا مانويل ولا ماسيمو الصغير، فأظل بمفردي.

لم تكن هذه مشكلة، فلقد اعتدت على البقاء بمفردي، وأعرف جيدًا هذا الشعور. ولكنني لم أعد كما كنت من قبل، لأن شري ظل بداخلي. لقد تعرفت عليه وقد علمني للتوِّ كيف يمكننا أن نتوقف عن أن نصبح وحيدين ومختلفين، وماذا يجب أن نفعل لنصبح مثل الآخرين، وكم هو سهل أن نصبح مقرفين مثل كل الآخرين.

نصل إلى باقي المجموعة وحتى السيارات، يعود الأتقياء السوبر ومعهم الدعسوقة إلى السيارة القنبلة، ويحتاج مانويل، الذي تؤلمه ساقه، إلى أن يتركها ممددة، لذلك لا يوجد مكان لي. ولذلك أصعد إلى الحافلة، ولا أعرف إذا كان ذلك أراحني أم ضايقني، ربما الشيئان معًا، وربما لم أشعر بشيء. أو أن هذا الشيء لا يحدث بداخلي. فأنا ما زلت في دوامة اللعبة الدوارة المهملة والصدئة، والتي تدور وتدور وفي كل مرة بسرعة أكبر، حتى لا تستطيع أن تحتويك وتفلتك في الهواء بلا سنادات داخل اللا شيء. لا شيء مظلم ومرعب، مثل ذلك الذي تشعر به أسفل قدميك عندما تجد نفسك في عمق البحر حيث لا تُلمس الأرض، مثل ذلك الذي تجده داخل شطيرتَي خبز مربع فارغتين، أو في عمق رحلة الأبرشية متدحرجًا بعيدًا جدًّا وربما لا يمكن لهذه الحافلة الصغيرة أن تعيدك مرة أخرى إلى حيث كنت.

في الواقع لم تختلف طرق الرجوع، ولم تختلف البلدة، ولا حتى ساحة الكنيسة، وانتهت عندئذ الأشياء العادية. لأن أمي لم تكن في

الساحة في انتظاري بل الأعمام ألدو آتوس وآراميس وأديلمو. ربما عرفَت ماذا فعلت، لا أعرف كيف، ولكنها عرفته، وربما لم ترغب في رؤيتي. فكرت في هذا وارتعبت بينما أنزل آخر شخص من الحافلة، ثم قفز الأعمام فوقي، عيونهم مستديرة وأياديهم مفتوحة وكأنها كلابات، ليأخذوني ويعاقبوني بطرق لا يمكنني حتى تخيلها.

أمسكوا بي جميعهم ورفعوني من على الأرض وانطلقوا:

- لا، اتركوني في حالي، أتوسل إليكم!

- عليك اللعنة يا صبي، نحن في انتظارك من ساعة!

- أرجوكم لا تؤذوني، خذوني إلى المنزل، خذوني إلى المنزل!

- ماذا تقول؟ سنأخذك إلى المستشفى!

- لا، لا تأخذوني إلى المستشفى! اضربوني وبعدها خذوني إلى أمي، ستعالجني هي!

- أمك أيضًا في المستشفى.

- ماذا؟ لماذا؟ هل أصابها مكروه؟ ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

- لم يحدث لها أي شيء، أبوك هناك، ويريد رؤيتك.



الجزء الثالث

يوجد عصفوران يتعلمان الغناء

كيف يفعلان هذا؟ لم يعلمهما أحد.

تعلماه في حلم.

فريق Elephant Micah

(١٨)

اليوم الذي يعود فيه كل شيء

- أي!

ووضعت يدي على عيني التي، من حين لآخر، يكاد فرع شجرة أن يقتلعها.

كما سبق ونزع فرع آخر خصلة من شعري، وجزء بارز من سقيفة يكاد يشق رأسي. وفي الفوضى العامة لم يكن أحد يسمعني، ولا أحد يهم، ولا حتى أنا.

إنها مخاطر تقع عندما يحدث أمر جلل، مدهش، والمكوث في هدوء أمر مستحيل، بل وليس عادلًا أيضًا، لا بد من الاحتفال والصياح والقفز مثلما نفعل. وأنا هنا فوق كتف العم آراميس أمسك بها أحيانًا وأحيانًا أخرى أرفع يدَي للسماء التي فجأة أصبحت قريبة جدًّا، بالقرب من الأغصان، قريبة إلى درجة أنني يمكن أن أصدم رأسي بها، والأمر يسير هكذا بطريقة جيدة: لم يكن في وسعنا قطع الطريق إلى المستشفى في هدوء، حيث استيقظ أبي أخيرًا وينتظرني.

ذهبنا سيرًا، حيث يبعد عن الكنيسة لحظة واحدة. تشاجر الأعمام من يحملني على كتفيه، وفي النهاية دفع ألدو كرسي أديلمو المتحرك، وحمل آنوس حقيبة ظهري واستطاع آراميس أن يمسك بي. إلا أنني لم أكن أكثر حيوية من حقيبة الظهر.

لأنني بالفعل أنتظر تلك اللحظة منذ عامين وشهرين، كل صباح أستيقظ وأعتقد أن ذلك هو اليوم الموعود، ثم يمر اليوم ويحل الليل وأنا أقول لنفسي: ليس هو، بالتأكيد لم يكن اليوم، اليوم الموعود هو غدًا. والآن، وبالتحديد بعد هذه الظهيرة المقرفة التي كنت فيها أريد أن أعود من الجبال وأن أنزل من الحافلة وأختبئ في المنزل بكل ذلك العار والذنب للشيء البشع الذي ارتكبته لتوِّي، أصل إلى الساحة وأجد الأعمام يقيمون حولي عاصفة من الاحتفالات. يرفعونني في الهواء ويهزونني، وأنا في الهواء أمر من يد ليد وكأنني كأس ربحها فريق من النصابين، في وسط استاد مليء بجمهور من الرهبان ومعلمي التربية المسيحية، وزملائي في الفصل وأهاليهم، وماسيمو الصغير ومانويل المسكين، والأب دومينيكو، وبالأخص الدعسوقة. وبينما أقفز من يد عم لآخر كنت أشعر بالعيون تنظر إليَّ، تدينني، وتعرف ماذا ارتكبت.

لأنني بعد أعوام اجتهدت فيها لأكون ماهرًا وربما ماهر جدًّا، الأعوام التي فيها كنت أدرس لأصبح قديسًا، وفي بعض اللحظات خاطرت وكدت أصبح ملاكًا، وها هو أبي يستيقظ الآن، في تلك الظهيرة التي أصبحت فيها شيطانًا. كيف يحدث هذا؟ وما معناه؟

تساءلت عن ذلك كثيرًا، والأسئلة هي العدو الأول للسعادة. مثل تلك البذور الصغيرة والقاسية في حبة الرمان، تلك الحلوة والعذبة بحيث يمكنك أن تبتلع منها مليونًا في مرة واحدة، إلا أن كلًّا منها في داخلها ذلك الشيء الصغير جدًّا الملعون، الذي ينحشر بين أسنانك ويدمر لك كل شيء.

ولم يكن هذا عدلًا. كان ما حدث للتوِّ أمرًا رائعًا بشدة، إذا كانوا طلبوا مني أن أخترع شيئًا أجمل منه كان لا بد أن أدرس الموقف ليلة كاملة، وربما استسلمت في فجر اليوم التالي، لأنه لا يوجد شيء أجمل من ذلك في الكون كله. ولم أكن أريد سوى أن أفكر في هذا، دون بذور وبلا أي شيء مُر. إذن تشبثت بكتفَي عمي وحاولت أن أتفادى الأغصان والسقائف والأفكار السيئة، ورفعت عيني نحو السماء، وحتى إن كنت لا أفهم جيدًا فإنني كنت أشكرها بشدة.

ثم كيف لك أن تفهمها جيدًا، السماء؟ إنها عملاقة للغاية ومضيئة ولا يمكن أن تجمع كل شيء بعينيك، ولا حتى بعيون الناضجين، فلنتخيل إذن في عيني التي لا بد وأن ترى أشياء أخرى كثيرة، إذا لم تقلعها لي الأغصان والسقائف.

ثم إنني، إذا توقفت للحظة لأفكر في الأمر ونظرت حولي، فسأفهم على الفور لماذا استيقظ أبي اليوم بالتحديد. كانت الإجابة في كل مكان، على قمة تلك الأغصان المليئة بالبراعم، والزهور الجديدة التي تملأ الحدائق هنا وهناك، في الهواء الذي يلقي عليك

فجأة بآلاف العطور: اليوم كان أول أيام الربيع، عادت الحرارة وعادت الألوان وكل جمال في العالم. إذن عاد أبي أيضًا.

بالتأكيد، كان الأمر كذلك بالفعل، كنت أبتسم وأومئ بالإيجاب برأسي، وكلما قفز العم آراميس أسفل مني وغنى تأكدت من ذلك. لأنه هو أيضًا عاد اليوم ليكون أخيرًا بيننا.

ربما لم تكن عودة صاخبة مثل تلك التي لأبي. كان العم قد توقف عن الوجود في لحظة ما من الخريف الماضي.

يحدث كل عام، وبالتحديد في غروب يوم ٣١ أكتوبر، يودعنا العم آراميس ويدخل في الاكتئاب. الآن أصبحنا جميعًا نعرف ذلك، هو أولنا، في الواقع عندما يقترب ذلك التاريخ يتنهد ويردد عبارات من نوع: *خسارة معرض العصافير في مونسومانو الذي سيكون في نهاية نوفمبر، وسأكون بلا رغبة في الذهاب إليه*، أو *خسارة أنني في غداء عيد الميلاد لن أكون جائعًا*. لأنه في الحادي والثلاثين من أكتوبر تغرب مبكرًا آخر شمس مقبولة قبل الشتاء، وفي صباح اليوم التالي ستبرز فقط كرة شبه بيضاء، تصلح فقط لتضيء المقابر اللامعة في يوم عيد الموتى. وكان العم آراميس يموت هو أيضًا قليلًا. وكان يستعد لذلك في المساء تمامًا مثلما يستعد أحدهم للرحيل في رحلة طويلة، ويقضي اليوم في حدائق زبائنه لينظم كل شيء قبل البرد. طلبت مني أمي أن أصحبه هذا العام، لأنه في العام الماضي قضى وقتًا أكثر مما ينبغي في تغطية أشجار الليمون حتى فاجأه الغروب بعيدًا عن المنزل وعثر عليه باقي الأعمام في العاشرة مساء، ممددًا في

إحدى الحدائق يحدق في الظلام الرطب والمثلج وهو يردد: ولـ... لـ... كن، مـ مـ ما مـ معنى الشـ شـ تاء؟

ولكنني لم أكن أرغب في الذهاب معه، لأن الهالوين كان في ذلك اليوم وكانت أم ماسيمو الصغير اشترت له لعبة جديدة عجيبة تسمى «البروجكتور»، وتحول جدار غرفته عمليًّا إلى سينما، عندئذ كنا سنشاهد ثلاثة أفلام رعب متتالية ومعنا الكثير من الفشار: لا توجد طريقة أروع من ذلك لقضاء الهالوين، بل ولم تكن الحفلة التنكرية في بيت سيرجو تجذبنا كثيرًا، حتى إن كانت الأزياء مرعبة جدًّا، وحتى لو كنا مدعوين.

قالت أمي:

- أفهم ذلك يا فابيو، ولكننا جميعًا نعمل، ولا بد أن تصحبه أنت.

- ولكنني لا أريد!

- بلى تريد. ثم إنه حتى الربيع لن يكون العم هو نفسه العم، ستفتقده، وأنت تعلم هذا.

ولم يكن هذا عدلًا، لم يكن عدلًا على الإطلاق، إلا أنه كان حقيقيًّا جدًّا. عندئذ حدث ما يلي، ذهبنا أنا والعم بالشاحنة ذات العجلات الثلاث، وكان كل من يقابلنا يحييه تحية تشبه الوداع. كان هو يجيب: *سـ سنتقابل فـ فـ ـي ما ما رس، اعـ اعتـ نوا بأنـ ـفسـ سكم، وتغـ طوا، أوصيـ كم*، ثم يصعد على الأشجار ليشذب

الأغصان ويصفر جيدًا جدًّا، حتى إن طيور الشرشور كانت تقف حوله تستمع إليه والشحارير تحضر صغارها لتتعلم منه.

أما أنا في الأسفل فكنت أجمع الأغصان الرفيعة جدًّا، والتي كان العم يقطعها كلها ما عدا واحد، ذلك الأعلى الذي يشير نحو السماء. كان يترك هذا، مع ورقة معلقة في القمة. في الشجرة الأولى فكرت في أنه ربما نسي أن ينزعه وقلت له، ولكنه ابتسم فحسب. في الشجرة الثانية لم أقل شيئًا. وها هو يفعل الشيء نفسه، كيف يمكنني أن أسكت؟

- هل تفعل هذا عمدًا يا عمي؟

نظر إلى أسفل نحوي، وابتسم مرة أخرى.

- إنه شيء كالتوقيع، أليس كذلك؟ تترك تلك الورقة في أعلى الشجرة لتقول: *هذه الشجرة شذبها آراميس مانشيني*؟

- جـ جـ جميل، اا الآن وأنت تقـ قولها تـ تـ عجبني. وو لكـ كن لا.

نزل ووقف بجواري، وهو ينظر إلى تلك الورقة الباقية وحدها في الهواء.

- إذن لماذا هذا؟

- لـ لـ لـ كل شـ شـ شـ ج... لـ لـ لـ كل شـ شـ شـ ج... لـ لـ لـ كل شـ شـ شـ.

ثم هز رأسه ووضع يده على قلبه، وبدأ أغنية:

لكل شجرة أترك ورقة،

ورقة لتصبح مثالًا هناك فوووق

هكذا في مارس تقلدها الشجرة

وتصنع منها مائة جديدة، أو ألفًا أو الوووف

نظرت إليه لوهلة، ربما يمزح. يقترب الغروب وتتخطط الأرض بظلال طويلة وسوداء وكأنها قضبان سجن، ولم يعد للعم أي رغبة في المزاح. كان جادًّا، ولديه العديد من الأشجار ليشذبها والعديد من الأغصان ليترك عليها ورقة. يبدو الأمر عجيبًا، أعرف هذا، ولكن يصل الشتاء ويصفع كل شيء بعواصف وصقيع وأعاصير هوائية تكحت كل شيء حتى دهان المصاريع، ولكنني أقسم إن تلك الورقة كانت تقاوم، فتجدها مرة أخرى في الربيع في القمة، وهكذا تقلدها الشجرة وتملأها بألف ورقة جديدة.

ومع الأوراق كانت تعود الحياة بأكملها، وحياة العم آراميس أيضًا والذي الآن يغني ويقفز طول الطريق. وخاصة الآن وقد عاد أبي الذي ينتظرني الآن، وأنا أنتظره مائة ألف مرة أكثر منه، لا خلاف على ذلك. كما لم يحدث أي خلاف مع السيد الواقف في مدخل المستشفى، الذي رآنا ونحن قادمون بعدد كبير وبسرعة، جاء ليقابلنا خارج الكشك، ليقول لنا إن مواعيد الزيارة انتهت.

ولكنه لم يوقفنا ولم يبطئنا حتى، وقف أمامنا وهو يحرك يديه، وتكفي حركة الهواء لتبعده. ثم عاد العم آتوس للخلف، عانقه

بقوة ورفعه من الأرض وتركه مكانه، غير قادر على الكلام بشعر معكوش، وكأنه حاول أن يوقف الرياح الشمالية عندما رغبت في رؤية البحر، فهي تلقي بنفسها من فوق الجبال بكل قوتها، وما لا تجذبه معها تطرحه أرضًا.

هكذا جذبت رياحنا نفسها مباشرة حتى الباب والنوافذ وتوقفت فقط أمام المصعد. لأنه لا يتسع لأكثر من ثلاثة في المرة. عندئذ نظر أحدنا للآخر للحظة، ثم قررنا الصعود على الدرج. أنا في وضعي على كتفَي العم آراميس، بينما ألدو وآتوس يحملان ثقل أديلمو وكرسيه ذا العجلات. كان الأمر متعبًا، بالتأكيد، ولكننا كان لا بد أن نصل هكذا، شيئًا واحدًا لا يُقاوم، جميعنا معًا. مثل الرياح تمامًا، وكما هي عائلة مانشيني.

بينما نصعد، انشغل رأسي بألف شيء على أبي الآن أن ينظمه، إذ تراكم في أثناء أعوام نومه. كانت أشياء عديدة وكلها عاجلة، وفي رجرجة السلالم كانت تتدافع لتقرر من منها سيكون الأول: بدالات دراجتي تصر بصوت مرتفع جدًّا حتى إن كلاب الشارع تهرب منها. الشبكة فوق مزرعة الديدان يجب تغييرها، وإلا ستكون طعامًا للشحارير، وكانت كثيرة جدًّا مما سيؤدي إلى موت الشحارير من عسر الهضم، فراشي يعرج كل ليلة أكثر مما قبلها، والآن إذا استدرت في نومي يلقيني أرضًا... هذه وأشياء أخرى كثيرة لم تُكسر إلا أنه لا بد من إصلاحها.

يمكن ليد أبي المعجزية أن تعمل على كل هذه الأمور بسرعة

وبمفردها، بينما ينظم رأسه الأشياء الأخرى الأكثر تعقيدًا، والتي ربما ليست من الحديد أو من الخشب، وبالتالي لا يظهر عليها شيء، ولكنها كانت بدورها مكسورة.

على سبيل المثال كان لا بد وأن يعلمني كيف أعجب الآخرين، كل الآخرين، ذكورًا وإناثًا، وكيف أجعلهم يدعونني إلى حفلاتهم الصغيرة، ويعلمني الرقص والتحدث مع الفتيات، وماذا أقول عندما أتحدث، وماذا كان يفعل الآخرون في الصفوف الأخيرة من مقاعد السينما، ومعاطفهم مُكومة على أقدامهم، وماذا يجب عليَّ أن أفعل إذا وقفت أمام فتاة يومًا ما، وماذا يجب أن أفعل إذا لم تكن الفتاة موجودة وبدلًا منها وقفت أمام شجرة في غابة الاستمناء، وكيف يتفوق المرء في تلك الأشياء وفي أخرى كثيرة، وكيف يتفوق المرء بصورة عامة، وماذا أفعل لكي لا أكون سيئًا ولا شريرًا كما كنت في ذلك اليوم على الجبال، تمامًا في اللحظة التي فتح أبي فيها عينيه وعاد إليَّ.

عندئذ وبينما تنتهي السلالم ويظهر بالفعل باب غرفته، كنت أتمنى أن يكون أبي في تلك الأعوام على الفراش قد استراح بما يكفي، لأنني الآن لن أتركه ولا ثانية واحدة في سلام. بداية من عناق شديد القوة ربما يكسر ذراعي. على كل حال، الآن وقد أصبح أبي هنا من جديد، سيصلحها هي أيضًا بسرعة.

كنت أفكر في كل هذا من على كتفَي عمي وأومئ بالإيجاب برأسي، ثم خفضته فجأة لأمر أسفل الباب دون أن يُقطع، حيث إن

موتي الآن سيكون أمرًا غير عادلًا بالمرة، وأبي على بُعد خطوة مني. إلا أننا ندخل وأنا ما زلت على قيد الحياة، ورأسي في مكانه، ولكن أبي لا.

لم يكن هناك شيء ولا أحد في غرفته. كان المكان الذي أتيت لأزوره فيه تقريبًا كل يوم، لأقرأ معه وأحكي له الأشياء وأنظر إلى الشمس من النافذة، والتي مع مرور الشهور تنزل من هنا وهناك بين الأشجار؛ فارغًا. الشمس لا تزال في مكانها، والأشجار أيضًا، ولكن أبي لا. كان فراشه فارغًا. ذلك الفراغ الأسود والعملاق الذي تتركه الأشياء المهمة عندما تختفي، فراغ مثل ذلك الصمت في أذنيك عندما تحتاج بشدة إلى أن تسمع لصوت ما، لعبارة، بل ولمجرد كلمة. صمت يصُمك، فراغ يملأك.

وفي لحظة كهذه، يمكن فقط للعم آتوس أن يجد في الأمر شيئًا مضحكًا، قال وهو يتسلى جدًّا:

- آه جورجو وحركاته المعتادة، من المؤكد أنه في الجوار يصلح شيئًا ما!

ثم استمر في ضحكته الطويلة والمجنونة.

وهذه المرة لم تكن مجنونة، بل، في رأيي كان العم على حق.

قلت: بالطبع.

بينما آراميس يجذبني لأسفل من على كتفيه، وقفت على الكو-مودينو بساقَي مخدرتين.

- لقد مكث عامين محبوسًا هنا، الآن وقد استيقظ هرب إلى الهواء الطلق!

وافق الجميع، حتى العم ألدو، والذي كان أول من خرج من الحجرة وقال:

- والآن لنستخدم المصعد.

ولكن في الردهة قابلنا ممرض، شرح لنا أن أبي لم يخرج، ولكنهم فقط نقلوه إلى قسم آخر، *بناء على التطورات الأخيرة*.

قال هذا بالتحديد: «بناء على التطورات الأخيرة». إنه أمر حقيقي بالفعل، ستفهمه إذا ركزت، إذ توجد طريقة لقول الأشياء تنجح في إفساد حتى أروع الأمور. ولكن لا يهم، تلك الكلمات الباردة للمرض خرجت من فمه وتبخرت في الهواء، مثل مكعبات الثلج الملقاة على حريق.

ثم إن القسم الجديد لم يكن بعيدًا، وصلنا في لحظة ودخلنا إلى تلك الردهة، والتي حتى إن لم يكن فيها من يقول لنا ألا نصيح ولا نصرخ، كانت صامته وقاتمة فتوقفنا بمفردنا.

صفان من الأبواب، من هنا وهناك، كثيرة وجميعها مغلقة، والجدران بيضاء بلا صورة جبال ولا ورود، لا يوجد أي بوستر لأمهات وآباء ومعهم أطفال وابتسامات عريضة تخرج من الإطار. لا يوجد أي شيء، فقط الجدران البيضاء والأبواب المغلقة وعجلات كرسي أديلمو التي تصفر على الأرضية بينما نسير عشوائيًا. ثم بمجرد

أن عبرنا الزاوية، بجوار باب آخر كانت تجلس جدتي وتلعب السوليتار وساقاها مغطاتان بالأوراق.

قالت: فابيو!

بتلك الطريقة التي تخرج من الحلق والحبال الصوتية التي تحدث لك عندما تصرخ بصوت منخفض. نهضت وجريت أنا نحوها، وتعانقنا بقوة حتى لم يوجد بيننا مكان ولا حتى لأوراق السوليتار التي سقطت جميعها أرضًا.

- بابا، بابا.

قلت من داخل صوف كنزتها. كنت أشعر بشعرها القاسي وجلدها الناعم الذي يتحرك من أعلى إلى أسفل ليقول نعم، ثم:

- بابا هنا يا فابيو، بابا هنا.

وإذا كانت كلمات الممرض في البداية من الثلج، كانت كلمات جدتي رائعة إلى حد أنها استطاعت أن تجعل تلك الحقيقة الرائعة مدهشة أكثر، حتى وإن كان هذا يبدو أمرًا مستحيلًا مثل إلقاء القنابل على قنبلة أو إشعال النار في حريق.

ومن الواضح أن كل المستحيلات في الكون اتفقت على أن تتقابل في هذا اليوم وفي هذا المكان، لأنه بينما نتعانق أنا وجدتي بشدة، شعرت بذراعين أخريين تمسكانني من كتفي، ونزعتا عني أنفاسي. توقفت رئتاي ولم يعد قلبي يدق، كل جزء مني توقف عن العمل وأردت فقط أن أمكث هكذا، ثابتًا وواقفًا بين ذراعَي أبي.

عاد أبي، أبي الذي كان الدكتور المجنون يقول إن عودته مستحيلة، وإنه الآن أصبح في حالة إنباتية. أجل، وكيف لا، إذا كانت النباتات قوية مثل هذا العناق لخنقت الجنس البشري بحيث لا يعود يستطيع إزعاج العالم. لوهلة تخيلت ذلك الكوكب المذهل، حيث الغابات تحكم وكل شيء يعود جميلًا ونظيفًا كما كان في البداية. ونحن أيضًا نعود إلى البداية، قبل ذلك الاحتفال بعيد الميلاد، وذلك الطيران من فوق السلالم في منزل الرب، الرب الذي قرر أخيرًا أن يفعل شيئًا من أجلنا.

أجل، هذا هو بالتحديد، وكان هذا هو العدل، وكان رائعًا، كان ما يجب أن يحدث.

ولكن لم يكن هذا حقيقيًا.

كانت أمي هي من يضمني من الخلف، وليس أبي. وربما من إحدى زوايا عقلي كنت قد فهمت هذا بالفعل قبل أن أسمع صوتها. من ذراعيها الناعمتين، من العطر، ومن كل تلك التفاصيل التي ستتوالى بعد ذلك عندما تعرف أن كل تلك الأشياء موجودة بالفعل، من السهل أن تقول: «آه، ولكنني كنت أعرف ذلك بالفعل» إلا أن هذا ليس حقيقيًا على الإطلاق، إنها فقط طريقة لتشعرك أنك أقل حماقة، عندما تفاجئك الحقيقة وكأنها بالون مياه مثلجة.

ولكن أمي كانت في غاية السعادة وهي تضمني، وفي لحظة أعادت السعادة إليَّ أنا أيضًا. ولأن أبي موجود على بُعد خطوة،

خلف ذلك الباب الذي أريد أن أفتحه الآن لأصافحه، لأقول له إننا هنا في الخارج، لماذا بالتحديد! لا أعرف، الخلاصة أن أبي مستيقظ وموجود خلف تلك الطبقة الرفيعة من الخشب، كيف لا أذهب إليه؟

وأمسكتني أمي بقوة أكبر، وقالت لي:

- لا يا فابيو، لا يمكن، يجب أن ننتظر أن يفتحوا هم.

وحتى إن كان الانتظار أمرًا لا يعجبني فإن الكلمات من فمها كانت تربت على تجاعيد شعري وتهدئ رأسي بأفكار ناعمة ودافئة وطيبة.

مختلفة تمامًا عن صوت العم ألدو، الذي نعق:

- أوه، الخلاصة، هل يمكننا أن نعرف ماذا يحدث؟

عندئذ انفصلنا بالتدريج. وحكت لي أمي أنها اليوم كانت في حجرة أبي، والممرضات لم تكن تمر، ولذلك استغلت الفرصة لتنظف قليلًا. كانت الحجرة نظيفة بالفعل، لكنها تنظفها في كل الأحوال، لأنها تنظف منازل البلدة كلها، وبدا لها سيئًا ألَّا تفعل ذلك في حجرة زوجها.

- وفي حين أمرر قطعة التنظيف على الزجاج، أنظر إلى الخارج حيث الشمس ساطعة، فقد عاد الربيع بالفعل. فكرت في ذلك وقلته: «جورجو، انظر، عاد الربيع». ثم التفت وكان هو هناك بعينيه مفتوحتين.

- بعينين مفتوحتين؟ وكان ينظر إليكِ؟

- لا، كان ممددًا كما كان، وينظر إلى السقف. وعيناه كانتا مفتوحتين. فكرت في أنني ربما لم أرَ جيدًا، وغشت الشمس عينَي، ولكنه كان حقيقيًّا. حاولت أن أناديه. ثم جريت نحو الخارج وكانت إينيس موجودة، أتت معي ولكن عندما عدنا من جديد كانت عيناه مغمضتين. خشيت أن أكون قد أخطأت، ولكنه فتحهما مرة أخرى. واستدعت إينيس الممرضات الأخريات، وفي لحظة كانت الحجرة قد امتلأت بالأطباء وقالوا لي إنني يجب أن أخرج، وإن عليَّ الانتظار في الخارج. مر وقت ولم يقولوا لي شيئًا، فقط إن عليَّ الانتظار. سألت إذا كنت سأنتظر أكثر من ربع ساعة، قالوا لي أجل، أكثر من ربع ساعة بالتأكيد. عندئذ، أعلم أنني حمقاء، ولكنني نظرت إلى نفسي للحظة وجريت لأغير ملابسي.

في الواقع كانت أمي هي أمي ولكنها مختلفة. ترتدي فستان المناسبات الجميل، وكان غريبًا لأنها في تلك الأعوام لم تضعه قَط، ولا حتى في عيد الميلاد. ربما لم يكن هذا غريبًا على الإطلاق، لأنه إذا كان في تاريخ العالم يوجد عيد، فهو اليوم بالتحديد.

- ومشطت شعرك أيضًا.

أومأت بالإيجاب وعيناها على الأرض.

- ووضعت أيضًا العطر.

- أجل، وأحمر الشفاه أيضًا والقرط. أنا حمقاء يا فابيو، لقد قلت هذا بالفعل، لا تقل لي هذا أنت أيضًا.

نظرت إليها مرة أخرى، ثم توقفت لأنني خجلت مما كنت على وشك أن أقوله لها: «لست حمقاء يا ماما، بل أنتِ جميلة»، وعندما استطعت أن أعود بعيني نحوها، كان فمها في نصف ابتسامة، مثلما تكون على وشك البكاء.

- هـ هـهذه لـ... لـ... لحظة جـ... جـ... جمـ... جميلة جدًّا.

قال العم آراميس، وآتوس أيضًا وهو يتكلم بالتجزئة مثل أخيه، لأنه كان منفعلًا.

لم يكن هو فقط، كنا جميعًا منفعلين. وعندئذ مكثنا هكذا ثابتين، وصامتين، يحيط بنا الهواء ذي النوافذ المغلقة ورائحة المطهرات، ولحظات أكبر بكثير من قدرتنا. جميعنا بعيون مخدرة، منتظرين، منتظرين بشدة.

ولم يكن مهمًّا أننا لم نكن نعرف متى سيحدث أو كيف: إلا أنه أروع شيء في العالم، أروع شيء، مما جعل ما يليه في التصنيف هو وجودنا هنا، جميعنا معًا، في الانتظار.

إلا أنه، بعد بضع دقائق بلا كلمات، داخل صمتنا، دخلت تلك الخطوات الخفيفة والبعيدة، والتي في البداية اعتقدنا أنها خطوات شخص يصل من الممر، لكنها كانت قادمة من خلف الباب المغلق حيث يوجد أبي.

دار مقبض الباب، وانخفض وانفتح الباب، وجحظت عيناي بشدة حتى تنافست مع فمي المفتوح. وانتهت المسابقة عندما وقعت على بياض قميص يرتديه طبيب خرج من الحجرة وأغلق الباب خلفه على الفور.

لم أرَه من قبل، كان أصغر من الآخر، لديه لحية وعيناه أكثر قتامة، ولكن في رأيي في ظلام الردهة لا يمكن رؤية أي شيء. إلا أنه على الأقل رآنا نحن، لأنه حيانا بـ«مساء الخير».

أجاب الآخرون «مساء النور» بينما تشبثت أنا بأمي وسألتها بصوت منخفض إذا كان هذا طبيبًا حقيقيًا، أو مجنونًا آخر من الطابق العلوي. وضعت هي يد على خصلات شعري، ونظرت لحظة، ثم بصوت منخفض أكثر قالت لي: لا أعلم. لنسمع ماذا سيقول.

- مساء الخير، قبل كل شيء لا بد من توضيح أمر على الفور.

قال العم أديلمو:

- بالضبط يا دكتور. هنا يمكن التدخين، أليس كذلك؟

خلع الطبيب نظارته ليراه أفضل، أو أسوأ:

- أريد أن تلاحظوا أننا في قسم لن تكون الزيارات فيه مسموحة للمرضى، وحتى إذا كانت مسموحة، فنحن الآن في وقت متأخر وخارج مواعيد الزيارة.

- أجل، حسنًا، هل يمكن التدخين أم لا؟

كانت الإجابة فقط هي أن الطبيب توقف عن النظر إليه، والتفت نحو أمي وجدتي ونحوي. بالنسبة إليه كان هذا كافيًا، ولم يستطع العم أديلمو التدخين، فقط لأن الولاعة سقطت أرضًا ولم يعطها له أي من أعمامي، عندئذ بدلًا من التدخين نفخ شحنة من السباب بصوت منخفض.

بدأ الطبيب من جديد:

- إذن، لا بد من توضيح أمر في البداية. لأنكم تشاهدون الأفلام، وفي الأفلام يجعلونكم تتخيلون أشياء كثيرة. ويجعلونكم تشاهدون مشاهد عبثية لا تحدث لا في السماء ولا على الأرض، وأنتم تصدقونها. إذن، قبل كل شيء، تذكروا أننا هنا لسنا في فيلم.

قال هكذا، ولم أستطع أن أصدق هذا: هذا ما حدث بالفعل، مع كل ذلك الذي حدث، مع ملايين الأشياء التي يجب أن يشرحها لنا، يتحدث هذا الشخص بسوء عن الأفلام! إن الأفلام مدهشة، رائعة، أشاهد منها العديد، بل إنها لو كانت بسكويتًا لأصبح وزني الآن ثلاثمائة كيلو، دون أن يذهب جوعي عني أبدًا: ماذا فعلت من سوء الأفلام؟ إذا كانت المشكلة أنها جميلة ومليئة بأحداث رائعة، والحقيقة أحيانًا كثيرة تكون أسوأ، إذن فما ذنبها؟ بل إنه الواقع هو من يجب أن يخجل ويمكث في الزاوية بعينين خفيضتين. ثم ما دخل هذا الحوار، الآن وقد استطاع الواقع أن يشبه أخيرًا أحد الأفلام العظيمة؟

- الغيبوبة ليست هكذا، ليست مصباحًا يُشعل ويُطفأ ثم يُشعل ويُطفأ. هذا يحدث فقط في هوليوود، هل تفهمونني؟

لا، أنا على الأقل لم أفهم. وخاصة لم أفهم قَط، كيف إذن، بدلًا من ذلك المستشفى، لم نأخذ أبي على الفور إلى هوليوود، وهكذا تسير الأشياء ببساطة وسرعة أكثر. ولكنني لم أسأله هذا، لأنه في نهاية الأمر، مع بعض الصبر يحدث هذا أيضًا في إيطاليا. ثم أيضًا لأن هذا السيد الذي يرتدي القميص الأبيض على بنطال مخملي وخف، يبدو لي طبيبًا أقل، ويبدو لي أكثر أنه مجنون آخر هرب من الطابق العلوي.

- الخلاصة، الواقع أكثر تعقيدًا بكثير. فلن يستيقظ حبيبكم الآن ويحتسي القهوة ويأتي ليتجول معكم. هل تفهمونني؟

عندئذ قالت أمي:

- أجل يا دكتور، بالتأكيد نفهم هذا، وهذا الأمر نعرفه بالفعل بمفردنا. فلا تؤاخذني، نحن لسنا حمقى إلى هذه الدرجة.

أقسم إنها قالت له هذا، وشعرت بالغرابة لأنها لم تكن كلماتها. ثم إنني في الحقيقة لم أكن أعرف هذا الشيء بمفردي، بل عرفته الآن، وعندئذ من الواضح أنني أحمق بالفعل كما يعتقد الطبيب.

- اعذريني يا سيدتي، فلم أقصد أي إهانة، ولكنني أتمسك بأن تكون الأمور واضحة.

- اعذرني حضرتك يا دكتور، إنني أريد أن أعرف فقط كيف حال زوجي.

- بالتأكيد، بالتأكيد. والإجابة ليست بسيطة. ما زال الوقت مبكرًا لنعرف هذا، وتوجد العديد من العوامل التي يجب تقييمها.

وعاد الطبيب للحديث من جديد، ولم أستطع أن أمسك نفسي، وكدت أزفر. وحتى إن كان بإمكاني أن أفعل ذلك بهدوء، لأن جدتي زفرت في تلك اللحظة بقوة، وكانت ستغطي على صوتي. ثم قالت:

- حسنًا، استيقظ جورجو، هذا على الأقل حدث، صحيح؟

- حسنًا، نعم ولا يا سيدتي. «الاستيقاظ» مصطلح يمكننا النقاش حوله.

وقال العم ألدو وعم آخر من الأعمام: «يا للملل- يا للقرف».

وقالت أمي:

- ولكن يا دكتور، أنا رأيته وهو يفتح عينيه، وتركهما مفتوحتين لوهلة. كانتا مفتوحتين وكان ينظر.

- بالتأكيد يا سيدتي، وهذا مهم للغاية. وهي علامة لا يمكن إنكارها، وبكل صدق، أنا لم أكن أتوقع ذلك مطلقًا بعد كل تلك الفترة. لقد فتح عينيه وهذا كثير، ولكنه لا يكفي. يمكن تعريف ذلك باستيقاظ ظاهري، نموذجي في الحالة الإنباتية.

إنباتية كيف؟ منذ عامين وثلاثة أشهر، وأبي نائم وهم يقولون

إنه نبات، الآن وقد فتح عينيه، بحق الجحيم، منذ متى ونبات يفتح عينيه؟ بل إن النبات ليس له عينان حتى!

إلا أن أبي قد فتحهما واستيقظ، هل يمكن أن هذا السيد والذي ربما يكون طبيبًا لا يصدق هذا بعد؟ متضايق جدًّا من الأفلام، إلا أنه يشبه تمامًا تلك الشخصية في أفلام الخيال العلمي التي لا تصدق وجود سكان الفضاء لأنها لم ترَهم، ومثل القديس توما مع يسوع في تلك القصة التي حكاها لنا اليوم الأب دومينيكو على الجبال. ثم في لحظة ما يصل طبق طائر، ويقف فوق منزله، وتنزل أشعة غامضة تأخذه على متنها هو وعائلته، ويجدون أنفسهم في قلب سفينة فضاء مليئة بالآلات الغامضة والأضواء التي تسطع. وتقول له زوجته: «هل صدقت يا عزيزي أن الكائنات الفضائية موجودة؟»، ولكنه ينظر حوله بتعبير دقيق وسخيف: «حسنًا يا عزيزتي، لم نرَها حتى الآن وجهًا لوجه، إذن فاستنتاجك الآن متسرع بعض الشيء».

ثم لحسن الحظ يصل الفضائيون، ويطلقون أشعة محللة على وجه ذلك العالم ببواطن الأمور، ووداعًا. هذا فيلم فعلًا. والأفلام رائعة. إلا أننا لسنا في فيلم، والطبيب قال هذا على الفور، وبالتالي ننظر له جميعًا بكل جدية، والابتسامة الوحيدة هي تلك الثابتة على فم العم آتوس. والذي يقول:

- الخلاصة يا دكتور، وباختصار، جورجونا الحبيب، استيقظ وعلى وشك العودة، وعلينا التحلي بالمزيد من الصبر. أليس كذلك؟

- لا، أقصد، لا يمكننا معرفة هذا. مسار المريض هو أمر يجب متابعته. يمكن أيضًا أن يتخذ اتجاهًا مختلفًا، أقصر، وغير مستحب. ربما فقد بالفعل قدرات حركية ودماغية كثيرة، ولا يستطيع استعادتها. بل، ونظرًا للمدة الكبيرة التي قضاها، أعتقد أن هذا احتمال كبير. فلنقل إننا نحتاج إلى الانتظار، ليس إلا، ولكن يؤسفني أن أقول أنه لا يجب أن تتوقعوا عودة الشخص نفسه الذي عرفتموه.

هكذا قال الطبيب، وأنا أتساءل كيف هذا، إذا وصل أحدهم من اللا شيء وطعنك بخنجر، فهو أمر بشع وسيتحدثون عنه أيضًا في نشرة الأخبار، وسيشاهد الناس التلفاز ويقولون: «هل ترى ما حدث؟ يا للبشاعة! هل تدرك هذا؟»، إلا إن أحدهم يمكن أن يصل إليك ويقول لك شيئًا في غاية البشاعة، أسوأ ألف مرة من الطعنة، ولا أحد يقبض عليه، بل وهو مقتنع أنه كان ماهرًا، جادًّا ومحددًا. كيف يمكن لشخص أن يكون بهذا الشر؟ كيف يمكن لشخص أن يكون بهذه الحماقة؟

إن أبي قد استيقظ، وبالتالي الآن الأمر واضح؛ أنه سيعود. إن الطبيب لا يعرف أن طيور السنونو، بلا خرائط وبلا معرفة قراءة اللافتات، تطير كل خريف حتى أفريقيا، ثم تعود مرة أخرى بدقة إلى المكان الذي فيه بنت عشها في العام السابق؟ ألا تعرف أن الأنقليس ترحل من حفرها خلف منزلنا، وتعبر الحقول وتلقي بأنفسها في الأنهار ومنها وصولًا إلى المحيط، وبناتها بمجرد أن تولد تعود إلى

هنا، إلى الحفرة نفسها التي منها رحلت أمها؟ ألا يعرف أن الكلاب عندما يأخذها أصحابها الأشرار لتضييعها، مرات كثيرة تعود من تلك الأماكن البعيدة مرة أخرى إلى منازلها، وتجد شخصًا مقرفًا جدًا لا ينتظرها؟

إن الطبيعة تعرف كيف تفعل أشياء عديدة جدًّا، وأفضل ما تفعله، منذ الأزل وإلى الأبد هو هذا بالتحديد: الذهاب والإياب. تعود طيور السنونو، وتعود أسماك الأنقليس، تعود الكلاب، وتعود الأوراق على أشجار العم آراميس. فكيف إذن لا يستطيع أبي العودة!

أجل، إن الأمر كذلك تمامًا، وأكز بقوة على أسناني في فمي وعلى قبضتي داخل جيبي، بينما أفكر بقوة شديدة في هذا الأمر. ولكنني أعرف أنني لم أفكر فيه فقط، بل وقلته بصوت مرتفع: تعود طيور السنونو، وتعود أسماك الأنقليس، والكلاب، والأوراق، وسيعود أبي أيضًا! لأنني رفعت عيني وكان الجميع صامتين يحدقون فيَّ، وانتابني الخوف من أنهم بدلًا من أن يُخرجوا أبي من المستشفى فسيحبسونني أنا أيضًا هنا في الداخل، في الطابق العلوي، مع الأطباء المزيفين والمجانين الآخرين.

ولحسن الحظ عادت أمي لتتحدث:

- على كل حال، نحن ننتظر منذ أكثر من عامين، هل تريد أن تقول لي أنْ لا شيء تغير اليوم؟ وإن علينا فقط أن ننتظر ولا شيء آخر؟

وعاد الطبيب ليتحدث بنبرته المسطحة والمملة، إلى حد أنني كدت أتوقف عن الإصغاء إليه، ولكن تلك كانت ستكون خطية مميتة، لأنه حتى إن كان يغني بطريقة سيئة، فجأة خرجت من فمه أغنية رائعة الجمال: «لا، هذا لا يا سيدتي. اليوم فتح عزيزكم عينيه، حضرتك رأيت هذا ونحن أيضًا رأيناه. إنها علامة غاية في الأهمية، وتعني أنه بدأ في تأسيس، ما نطلق عليه، قناة تواصل. والآن لا بد أن نحث هذه القناة، لا بد أن تؤسس نوعًا من الاتصال، بها نادي على جورجو حتى يصل إلى هنا حيث هو. جورجو استيقظ، ولكنه في وسط ضباب شديد الكثافة، كثيف إلى حد أنه لا يرى أي شيء، ولا يعرف إلى أين يذهب. وإذا كان يوجد شخص يمكنه مساعدته، ويمكنه أن يستدعيه نحو الاتجاه الصحيح، فهذا الشخص هو أنتم».

هكذا قال الطبيب، عبارات رائعة جدًّا حتى بدا لي أنها ليست له، بل هي كلمات أغنية رائعة، في كل مرة أشعر بالتعاسة أو باليأس يمكنني أن أعيد الاستماع إليها لأشعر بتحسن. لأنه في نهاية الأمر، أحيانًا يسير الكون بطريقة معوجة، ويتسلى كل شيء بأن يحدث ضدك، ولا يكون الأمر بهذا السوء، إذا كانت توجد أغنية مثل هذه.

عندئذ أومأت، وأومأت مرة أخرى بقوة أكثر، ثم قلت ذلك الشيء الذي إذا احتفظت به في داخلي فسينفجر قلبي: «أنا أنادي دائمًا على أبي، دائمًا! آتي إليه ونقرأ العديد من الكتب المثيرة جدًّا معًا. أقسم لك أيها الطبيب إنني أفعل ذلك منذ سنتين وثلاثة أشهر».

وهو:

- خير، أحسنت. من اليوم، يمكن لهذا أن يكون له معنى.

هكذا قال، وابتسم أيضًا، لأنه في رأيه قال شيئًا جميلًا. إلا أن ابتسامتي مكثت هكذا، مثل علامة على فمي، قاسية ومعوجة، وكأنها حفرية، شيء كان حيًّا وبريًّا ومنذ مليون عام مضت. إلا أنها عادت لتحيا من جديد بعد دقيقة. لأنه ربما كان سيئًا اكتشاف أنني فعلت شيئًا لفترة طويلة بلا معنى، ولكن الآن أخيرًا أصبح له معنى. الآن يمكن لأبي أن يسمعني، وكنت مستعدًّا لأن أنادي عليه حتى يضيع صوتي. وعندما لن يتبق لدي أي صوت سأبدأ في التصفير، وأستمر هكذا حتى أراه يعود وأجري نحوه وأضمه بقوة.

وفي أثناء ذلك أخذت أشد على يد أمي، وهي تشد على يدي، وقبلتني جدتي على جبهتي. أما الأعمام فقد اقتربوا وبدأوا يلطمون خصلات شعري وكتفي، وكانت هي طريقتهم في عناقي، عندئذ أريتهم أنا كيف يمكن العناق بطريقة جيدة، مكثنا جميعًا متعانقين ولم يقل أحدنا أي شيء آخر، ولم نسأل عن شيء آخر.

لأنه ماذا يعرف هذا الطبيب، وماذا نعرف نحن، وماذا يعرف كل من في الكون؟!

نحن هكذا، مبعثرون في وسط الضباب، ننظر حولنا لنفهم إذا كان من الأفضل أن نسير في هذا الاتجاه أم الآخر، أو أن نمكث

حيث نقف لمدة أطول. وفي الوقت نفسه نتحدث ونغني بل ونصفر في أحيان أخرى، لندرك مكاننا، حتى إن كنا نحن أنفسنا لا نعرفه. إلا أننا هنا، وننتظرك.

(١٩)
أكثر غباءً من الحاسوب

«في العصر الحجري كانت كل قبيلة لديها كاهن، وكان مهمًّا جدًّا لأنه كان يعرف كيف يشعل النيران ويحفظها للجميع. في مصر القديمة كانت تعيش جماعة محددة من الخبراء تعرف كيف تبني الأهرامات، وكانت تعرف كيف تجعل مومياوات الفراعنة أبدية. وقلة وغالية أيضًا كانوا الرهبان في العصور الوسطى الذين باستطاعتهم قراءة النصوص الكلاسيكية ونسخها لتركها للاحقين. وأنتم، أنتم مثل الأشخاص النادرة والأساسية، لأن ما كان في زمن ما النيران والكتب والأهرامات، هو الحاسوب في يومنا هذا، وأنتم خبراؤه وحراسه. ربما ليس هذا هو الوضع الآن، ولكنني أعدكم بأن هذا ما ستكونون عليه خلال ثلاثة أشهر، في نهاية هذا المساق».

ارتفع صوت السيد جوفاني في الخاتمة وملأ قاعة الأبرشية. حيث بدا لي غريبًا جدًّا أن نظل ثابتين وجالسين هكذا، نظرًا لأنه على بُعد خطوة منها كانت توجد طاولة بلياردو وطاولة بينج بنج

جاهزتين للعب. والأغرب هو أن نصبح خبراء في الحاسوب في ثلاثة أشهر، وخاصة أن السيد جوفاني قضى الحصة الأولى في قص تاريخ الإنسانية علينا.

«في المستقبل سيصبح الحاسوب أكثر قدرة وبالتالي أكبر وأصعب في الاستخدام، وفقط خبراء قليلون ستكون لهم القدرة على تشغيله. أولئك الخبراء سيكونون أبطال التاريخ العالمي، الذي سيتغير بسبب الحاسوب كما تغير في الماضي بسبب... العجلة على سبيل المثال. أجل، العجلة، والتي بمجرد أن ظهرت حدثت ثورة في العالم، ولم يعد في الإمكان لأي شعب الاستغناء عنها».

إذن شرحت أنا نفسي لماسيمو الصغير الجالس بجواري، وبصوت خفيض قلت له: «فيما عدا الهنود». وبصوت منخفض جدًّا، أقسم، وهو الشيء الذي لم يكن أحد سيدركه في المدرسة. إلا أننا هنا لم نكن في المدرسة، كنا ستة أشخاص جالسين أمام السيد جوفاني، الذي لم يكن أستاذًا ولكنه أحد يحب جدًّا نبرة صوته، ولا يتحمل تلك التي للآخرين. وبالفعل توقف وأشار بإصبعه فوقي:

- فابيو، ما الذي قلته بهذه الأهمية إلى حد أنه لا يمكن تأجيله حتى نهاية الدرس؟

- معذرة يا جوفاني، لم يكن أي شيء.

- لا لا، كان شيئًا بالتأكيد، وأتخيل أنه أمر أساسي. إذن، هيا، قُله للجميع، حيث إننا جميعًا متشوقون.

- لا، لا شيء، كنت أقول إن الهنود لا.

- الهنود لا، ماذا؟

- لقد قلت إن كل الشعوب كانت تستخدم العجلة، ولكن الهنود لا.

- الهنود الفعليون أم هنود أمريكا؟

- هنود أمريكا. لم يستخدموا العجلة، بل لم يعرفوها حتى.

- متأكد؟ حسنًا، الأمر مفهوم، لأنها لم تكن لتخدمهم، كان لديهم العديد من الخيول وكانوا يتنقلون بواسطتها.

مكثت في صمت، وأقسم إنني أردت أيضًا أن أمكث ثابتًا. ويبدو أن هزة نفي برأسي فلتت مني، لأن جوفاني قال لي: لا؟ لماذا لا؟

- لأن الهنود لم يكن لديهم حتى الخيول. فلم تكن موجودة في أمريكا. أحضرها معهم البيض من أوروبا.

- آه، إذن... ولكن أترى أنك تؤكد رأيًا؟ نحن الذين أحضرنا الخيول والآن ها نحن نحضر الحاسوب، وقدمنا لهم التطور. يكفي الآن، إذا كنتم اليوم قد جئتم إلى هنا للاستماع إليَّ فهذا لأنكم تريدون أن تصبحوا خبراء في الحاسوب، إذن انتبهوا.

وهذه المرة استطعت أن أمكث في صمت بل وثابت أيضًا، دون أن أجادل في أن الرجل الأبيض في الحقيقة أحضر للهنود أمراضًا

مميتة، ومن استطاع أن ينجو منهم شنقوه وقتلوه رميًا بالرصاص. وأنني هنا اليوم لأستمع إليه، فقط لأن الأب دومينيكو طلب مني هذا.

مر شهر على ذلك اليوم في قمة الجبال، عندما اكتشفت أنا والأب الكاهن أنني يمكنني أن أكون شريرًا. ولأثبت له أن الأمر كان مجرد حادث، وأنني على مستوى البحر صالح جدًّا، كنت سأوافق حتى إذا اقترح عليَّ مساقًا لمن يتذوقون حامض الكلوريدريك. إذن فإن تلك الدروس الخاصة بـ«البرنامج الأساسي»، والتي لم أكن أعلم حتى بوجودها، أفضل بالتأكيد من الحامض.

ثم إن المهم لم يكن تعلم شيء ما، وضع الأب هذا الكورس فقط حتى يشغل معلم مدارس الأحد جوفاني في هذه الفترة البائسة.

منذ أعوام كانت عائلته تملك محل آيس كريم، كان دائمًا شديد الازدحام إلى حد أنك يجب أن تقف في الصف حتى وإن لم يكن لديك أي رغبة في تناول الآيس كريم، لأنه عندما يحين دورك سيكون قد مر وقت طويل، وستكون لديك الرغبة الشديدة في تناوله. إلا أن الأم قد تركت كل شيء لجوفاني منذ شهرين، ونفَّذ هو على الفور مشروعًا كان في رأسه طوال حياته: الألف مذاق في محل الآيس كريم أصبحت كلها خالية من السكر.

لم يضع فيها ولا ذرة سكر واحدة، كان آيس كريم مرًّا مثل السم، رأيت أطفالًا صغارًا يتذوقونه ويبكون. حتى أنا عندما تذوقته للمرة الأولى أخرجت لساني خارجًا وأنا أنظر إلى نفسي في وجه ماسيمو

الصغير، لأنه أيضًا قد عبَّر عن القرف بالتعبير نفسه. بل لا، كان التعبير عن الفزع، والرعب أنه لا يوجد شيء في العالم أبشع من هذا. وكانت تلك المرة الأولى هي أيضًا الأخيرة، لنا وللبلدة بأكملها. في الواقع كان جوفاني قد استدعى صحيفتَي «التيرينو» و«لا ناتزيونى» ليشرح اختياره ويحمي الصبية من السكر الذي كان شرًّا عظيمًا من شرور القرن العشرين، وعندما نُشرت تلك المقالات كان محل الآيس كريم مغلقًا بالفعل.

لا يوجد أي فم أراد الاقتراب من الآيس كريم الجديد؛ اختراعه، ولم يرغب هو في التراجع. وهكذا، وداعًا للمحل، وكان جوفاني يقضي أيامه وهو يسير على شاطئ البحر ويجمع الأخشاب ليلقيها في المياه ويتحدث مع نفسه، بتعبير على وجه شبيه بذلك الذي يمكن أن يرتسم على وجهك إذا تذوقت الآيس كريم الذي أعده.

عندئذ ليشغله، طلب منه الأب دومينيكو أن ينظم كورس الكمبيوتر هذا. وأنا، لأثبت للأب دومينيكو أنني صالح، سجلت فيه على الفور. في نهاية الأمر لم تكن تضحية كبيرة: كان الكورس يوم الأربعاء ويوم الأربعاء بالنسبة لي يوم لا فائدة منه، لأنه أحد تلك الأيام التي لا يمكنني فيها الذهاب إلى أبي.

مر شهر منذ أن فتح عينيه، ونزعوا عنه بالفعل جهاز التنفس، وبدأوا في فطامه عن الأنبوبة التي كانت في بلعومه لإطعامه. *فطام*، كلمة للأطفال، في الواقع هكذا كان أبي، مثل طفل مولود حديثًا،

يفتح عينيه وينظر إلى العالم حوله بفضول شديد، دون أن يفهم أي شيء.

اللحظة الوحيدة التي كان يغلق فيها عينيه وينتبه كانت، في رأيي، تلك التي كنت فيها أقرأ معه الكتب الإرشادية. ولذلك كان أمرًا مؤسفًا أن ينقلوه من العيادة القريبة من منزلنا إلى «لوكّا»، في مكان يطلقون عليه اسم «مركز الاستيقاظ». كان أمرًا غريبًا، في حين يقترب أبي بالتدريج منا، ينقله الأطباء إلى مكان أبعد.

بعيد إلى درجة أنني لأذهب إليه لا بد أن أنتظر أمي، التي كانت تعمل دائمًا، وأنا في المنزل أُستنزف، لأن القراءة معه الآن أصبحت رائعة بالفعل. الآن يفتح عينيه، وأقسم إنه في لحظات معينة يبدو وكأنه يسمعني، عندئذ أنفعل ولا أستطيع أن أفهم ما أقرأه، ويصبح صوتي مجرد ضجيج، بينما أفكر *«هيا يا بابا، هيا، تعالَ فأنا هنا. أتراني؟ أتسمعني؟ أنا هنا»*.

ولا أريد أن أتوقف أبدًا، ولا بد وأن تعمل أمي، وأيضًا قال الأطباء إننا لا بد وأن نحدد المحفزات، وإلا سيعتاد عليها أبي ولن يصبح لها أي تأثير. وبالتالي أصبح يوم الأربعاء أحد تلك الأيام التي لا شيء لدي فيها، لذلك كان يمكنني أن ألقي به هكذا، في كورس البيسيك.

كنت مع ماسيمو الصغير والعضوين الآخرين للأتقياء السوبر، مانويل ويولاندا، والذين تخلوا بدورهم عن ساعة من الصلاة فقط لكي لا يتحدث جوفاني أمام صالة فارغة. بالإضافة إلى صبي أصغر

سنًّا، ولكنه لم يكن يُحسب لأنه ابن جوفاني ويعرف بالفعل كل شيء عن الحاسوب. في الواقع بينما يتحدث أبوه كان هو يومئ بأجل قوية برأسه، وينظر حوله بابتسامة غاية في السخافة. المسكين؛ يبدو لي من المستحيل أن يكون المرء لطيفًا إذا كبر دون أن يتذوق السكر أبدًا.

وأخيرًا كان يوجد السيد «بيني»، شخص مسن يشعر بالملل كثيرًا، لذلك أتى ليرى ما هي تلك الحواسيب الشهيرة. حتى وإن كانت الأشياء الحديثة بالنسبة إليه تسبب اشمئزازه، وكان كل شيء أفضل في السابق، والأشياء الأفضل من تلك الأشياء السابقة هي السابقة عنها. وبينما كان ابن المعلم يومئ بنعم مع كل كلمة، كان السيد بيني يشير بلا بقوة شديدة حتى إنني الجالس خلفه لم أنزع سترتي، لأنه بقوة هز رأسه ارتفعت برودة الجو.

إلا أنه، وهكذا من اللا شيء، اندفعت ريح أخرى أقوى ألف مرة، والتي ربما هبت فوقي أنا فقط في لحظة قلبت يومي كله. عندما فُتح الباب الألومنيوم باندفاع، وتوقف المعلم، والتفتنا جميعنا لننظر إليها؛ الدعسوقة.

كانت تصل هكذا دائمًا إلى حياتي: من اللا شيء، متأخرة، وتقسم كل شيء.

إذن، إذا كنت من لحظة سابقة أكاد أنام، فالآن أرتعش من الإثارة، وأيضًا من الخجل لأنني كنت أرتدي ملابسي بطريقة سيئة، بسروال البدلة الرياضية وتلك الكنزة البشعة عليها بطوط يرقص ويرسل قبلات. ولم يكن الخطأ خطئي: من كان يتخيل أنني اليوم

بالتحديد سأقابل الدعسوقة، التي لم تظهر قَط في المدرسة ولا في الأبرشية، ولا في أي مكان، في هذا الكورس العبثي؟

وهذا ما حدث، ولم يكن في استطاعتي حتى التفكير في الأمر. يجب أن أقلل الخسائر، وأن أنزع من عليَّ ذلك الوجه الأحمق وأن أخفي بطوط أسفل سترتي وأغلقها حتى النهاية، حتى وإن كانت موجة حرارة جديدة وغريبة انطلقت من أنفاسي وأشعلت كل جزء في جسدي. بدأت أعرق بالفعل عندما حيت مارتينا الجميع، وطلبت المعذرة على التأخير وجاءت لتجلس بجواري.

«والآن وبعد تلك المرة الألف التي تتم فيها مقاطعتي، لنستعيد ما كنا نقوله، يستطيع الحاسوب أن يفعل كل ما نفعله لكن بطريقة أفضل. لأنه يفعله أسرع ولا يخطئ أبدًا، ولا يتعب. ينفذ الحاسوب كل ذلك الذي نطلب منه عمله، إذا عرفنا لغته، وهي لغة جديدة وأساسية تسمى basic. ولا بد أن نشكر مخترعيه: السيد كيميني، والسيد كورتز. كيميني وكورتز: سجلوا هاتين الاسمين على دفتركم».

أطعنا جميعًا، فيما عدا السيد بيني إذ لم يكن معه دفتر، وبدلًا من أن يكتب تمتم:

- وكن هذين الاثنين من أين؟ ليسا من الألمان أيضًا، فعل الألمان بالفعل ما يكفي من خراب.

- لا، إنهما أمريكيان.

- آه، ماهرون أولئك! يا لوطننا المسكين، في أي أيدٍ نحن!

- أجل، موافق، اكتبوا Kemeny وKurtz، الاسمان يبدآن بحرف K. مفهوم؟

عندئذ قال السيد بيني:

- آه بالتأكيد، K، حرف ألماني تمامًا.

توقف جوفاني عن النظر إليه، ثم تنفس بقوة:

- بالنسبة لحرف K لا بد أن تعرفوا أن كل حاسوب لديه قدرته الخاصة، وتسمى *ذاكرة*، ووحدة قياس تلك الذاكرة هي بالتحديد الـK. في أحد الأيام أعلن هذا مخترعا الـ Basic.

ثم رفع إصبعًا، وحركها وكأنه يكتب في الهواء:

- كل صباح نستيقظ ونشعر بالدهشة من الاحتمالات اللا نهائية التي تمنحها لنا فقط K واحدة من الذاكرة.

ثم حدق فينا واحدًا واحدًا بعينين غاية في الجدية:

- وفكروا يا أولاد أن حاسوبكم في المنزل، به على الأقل أربع من تلك الـK.

قال جوفاني هذا، بانفعال شديد، في رأيي لم يكن هذا أمرًا جيدًا: هناك أفلام كثيرة عن الروبوت والحواسيب التي تتمرد وتبدأ في السيطرة على الإنسانية، وعندئذ فمن الخطورة أن تكون بهذه القدرة. حتى وإن كنت في الواقع لم أستطع رؤية كيف يمكن أن تكون بهذا القدر من الخبث الذي يتحدث عنه المعلم.

والذي منذ عشر دقائق شغل حاسوبه، هنا أمامنا، والآن فقط أصبح جاهزًا للاستخدام. بدأ جوفاني يدق على الأزرار وهو يكتب أرقامًا غريبة جدًّا ورموزًا غامضة مختلطة بكلمات قصيرة وإنجليزية. وعلق السيد بيني أننا الآن لا نستخدم سوى كلمات أجنبية، والإيطالية على وشك أن تموت والإيطاليون معها، *ووطن مسكين، وطن مسكين*.

لم يُجب جوفاني بل التفت نحونا بنظرة متحمسة:

- ها هو يا أولاد، أضمن لكم خلال ثلاثة أشهر، عندما ستصبحون أساتذة في لغة البيسيك، ستتمكنون أنتم أيضًا من أن تفعلوا هذا!

وبينما تسقط سبابته على لوحة المفاتيح، يومئ ابنه ليرينا أنه يعرف بالفعل المعجزة التي ستتحقق الآن. ولكننا لم نكن نعرفها ولذلك مكثنا في سكون لننظر، منحنين إلى الأمام حتى لا نفقدها، ولكننا في الوقت نفسه مستعدون للهروب إذا أرسل الحاسوب أشعة مُدمرة وأسقط القاعة والكنيسة كلها، أو ربما اتصل بأمريكا وروسيا وتسبب في إطلاق كل الصواريخ النووية معًا، عندئذ لن مكانًا لنهرب إليه لأن العالم كله سينتهي، بمجرد أن يضغط معلم التربية الدينية على زر معين.

ولكن في الواقع كانت أكثر من زر، ثمانية بالتحديد: كتب بها المعلم حرفًا بعد حرف اسمه، وعلى الشاشة ظهر المكتوب GIOVANNI. ثم التفت نحونا من جديد، وبجدية، وبكل جدية،

ضغط على OK، وعقد ذراعيه على صدره المنتفخ جدًّا وبعدها ببضع ثوانٍ أسفل اسمه ظهرت كلمة جديدة، مُكررة في عمود مرة، مرتين، ألفًا...

BELLO
BELLO
BELLO
BELLO
BELLO
BELLO
BELLO
BELLO

وهكذا إلى ما لا نهاية، أو حتى نهاية العالم، اليوم الذي ستنجح فيه الحواسيب في أن تطلق الكارثة النووية. وفي هذه اللحظة كانت فقط قادرة على أن تردد أن جوفاني جميل، بينما يمكث هو بذراعيه معقودتين بجوار تلك الآلة المدللة، وابنه يبدأ في التصفيق.

انحنت مارتينا نحوي، وبصوت الرجل الآلي قالت لي: جوفاني -جميل... حاسوب-أعمى!

كادت تفلت مني ضحكة، ومعها أصابتني انفعالات أخرى عديدة تشابكت جميعها في ارتفاع أنفاسي، وهكذا إذا نُظر إليّ من الخارج كنت أمكث ثابتًا وهادئًا أصفق للحاسوب وللسيد جوفاني.

والذي أخيرًا أوقفه، وسأل ماسيمو الصغير إذا كان يريد أن يعرف رأي الحاسوب فيه. أجابه ماسيمو «أفضل لا»، ولكن جوفاني

كتب على الرغم من ذلك «ماسيمو»، وبعد قليل على الشاشة انطلق العمود المليء بـ«جميل، جميل، جميل».

الشيء نفسه حدث معي ثم مع مانويل، الذي ظل متوترًا بينما يكتب المعلم اسمه، ثم قفز فرحًا على مقعده عندما بدأت سلسلة «جميل» تنطلق.

ثم جاء دور الدعسوقة، التي لم يكن يعرف اسمها، وقالته له هي على مضض. كتب جوفاني مارتينا، وفكر الكمبيوتر في الأمر للحظة ثم مرة أخرى: جميل، جميل، جميل.

عندئذ توقف جوفاني، وبالابتسامة التي ترتعش الآن على فمه:

- آه يا شباب، آه! ها نحن أمام خطأ! خطأ حاسوبي. هل يعرف أحد منكم هذا الخطأ؟

رفع ابنه يده، وهز جوفاني رأسه نافيًا، ونظر نحونا نحن الآخرين، الذين لا نعرف عن الحاسوب شيئًا سوى أنه كان مثل النار والعجلة والمومياوات. إلا أن السيد بيني أجابه بأن هذه الآلة تشبه الأجيال الجديدة، بلا نزعة رومانسية ولا تستطيع التمييز بين الذكور والإناث، اللاتي يتجولن الآن مرتديات مثل الرجال ولم يعدن يعملن أشغال البيت، ولكن...

في حين استمر هو على هذا المنوال، أشار جوفاني بإصبعه تمامًا نحوي، وسألني:

- فابيو، هيا، الأمر سهل، ما هو الخطأ؟

- أنا... مم، لا أعرف.

- كيف لا، إنه سهل، هيا.

- حسنًا، ربما الخطأ هو جميل. أي أنني أقصد أن مارتينا جميلة.

قلت هذا، وأفلتت من مانويل ضحكة جعلتني أشعر بالخجل أكثر. بدا لي أنني أسمع مارتينا وهي تقول «شكرًا»، فقد غطى صياح السيد بيني على كل شيء: أحسنت يا صغير! واحد صفر لصالح الإنسان ضد تلك الآلة التي لا تعرف الذوق! أحسنت، تستحق بالفعل أن تكون حفيد الإخوة مانشيني!

للأسف، أعرف أن السيد بيني على حق: كنت بالفعل مثل أعمامي، ملعونًا مثلهم، غريبًا وأحمق ومحكومًا عليَّ بأن أعيش في عالم بعيدًا عن النساء. ومثل أعمامي لا أرى الألوان جيدًا، والأشخاص الآخرين يرونها، وبالفعل تعرفوا جيدًا على اللون الأحمر الذي انفجر في وجهي وصعد حتى طرفَي أذنَي.

وبينما يشرح المعلم جوفاني أن هذا لم يكن الخطأ، وأن الخطأ لم يكن خطأ الآلة ولكنه خطأه: في البرنامج كان لا بد أن يأمر الحاسوب بأن يجيب بجميل أو بجميلة حسب الاسم الذي يكتبه.

- أعلم يا صبية، يبدو الأمر لكم معقدًا، ولكنه سيصبح أسهل بالنسبة إليكم أيضًا، أضمن لكم هذا، الأربعاء القادم.

وبهذه العبارة أنهى الحصة، جرى ابنه ليمسك بيده، ونهضنا نحن بسرعة وأخف، تمامًا مثلما يحدث يوم الأحد صباحًا عندما

يقول الأب دومينيكو: القداس انتهى، اذهبوا بسلام. ثم لا أعلم إذا كنا نمضي بسلام، والمؤكد هو أننا نجري سريعًا نحو الهواء الطلق.

إلا أنني الآن لم أكن أريد الذهاب إلى أي مكان، كنت أريد أن أمكث هنا، مع مارتينا لأتحدث معها، وربما أستطيع أن أقول لها شيئًا ذكيًّا. وسُحر قلبي مثل حاسوب جوفاني، ونظرت إليها ولم أستطع أن أفكر في شيء سوى: جميلة، جميلة، جميلة.

عندئذ، ولحسن الحظ، تحدثت هي:

- هل ضاع مني الجزء المثير، أم كان الدرس كله بهذا الغباء؟

سألتني هذا، وليس بصوت منخفض. في الواقع التفت لأرى إذا كان جوفاني قد سمعها، إلا أنه كان منهمكًا في نقاش مع السيد بيني.

- لا، كان كله هكذا. فقط في البداية تحدث عن المومياوات.

- آه، وماذا قال عن المومياوات؟

- إننا خلال ثلاثة أشهر سنصبح مثلها. بل لا، إننا سنصبح مثل من صنعوها.

- حسنًا، ربما هذا أفضل من التحدث عن الحاسوب.

وافقت على كلامها، وفي الوقت نفسه أجبت بنعم على ماسيمو الصغير، الذي كان ذاهبًا إلى الناحية الأخرى لنصف ساعة مع مانويل

ويولاندا ليُصلوا. ربتُّ أيضًا على كتفه، سعيدًا لرؤيتهم راحلين ولأنني سأمكث بمفردي مع مارتينا.

والتي سألتني لماذا أتيت إلى هذا الكورس الممل جدًّا.

كان لا بد أن أجيبها: *حتى أثبت للأب دومينيكو أنني صالح*، ولكنه كان شيئًا غبيًّا للغاية لم أستطع أنا حتى قوله. عندئذ رفعت كتفي وقلت: لا أعلم، وأنتِ؟

- مجبرة.

- ممن؟

- من أمي. قالت إنني وحيدة أكثر مما ينبغي، عندئذ أرسلتني إلى هنا. إلا أنني أردت جدًّا أن أحضر كورسًا لدق الطبول.

- الطبول؟

- أجل. تعجبني كثيرًا. بل وبدأته أيضًا. أمي لم تكن ترغب فيه، قالت لي وما فائدة الطبل؟ وفي النهاية أرسلتني، بشرط أن آتي أيضًا إلى هنا، بالنسبة إليها كان أفيد لأن الحاسوب هو المستقبل.

الشيء نفسه ردده جوفاني لمدة ساعة. كانت كل الحوارات عن المومياوات ورجال العصر الحجري والعصور الوسطى، وجعلتني أتساءل إذا كان الحاسوب هو المستقبل أم الماضي، وربما الشيئان معًا.

قلت:

- أمي أيضًا تقلق لأنني بمفردي أكثر مما ينبغي.
- فعلًا؟ على الأقل أنت في المدرسة مع كل الآخرين.
- بالتأكيد. إلا أنني لم أرَكِ قَط في المدرسة.
- بالتأكيد، فأنا لا أذهب إلى هناك.

قالت مارتينا ومكثتُ أنا مصدومًا.

وكيف هذا؟ هل من الممكن ألا نذهب إلى المدرسة؟ وإذا كان هذا الاختيار موجودًا فلماذا لم يبلغني به أحد؟ أي، إنني أعرفه لأن الأعمام كانوا يرددونه دائمًا، *لماذا تذهب إلى المدرسة وماذا تفعل هناك؟ امكث هنا مع أعمامك، فسنعلمك نحن الأشياء المهمة في الحياة*. إذن، بالتفكير جيدًا، فإن البقاء في المنزل لم يكن خطوة جيدة، ويناسبني أكثر الاستمرار فيها.

ثم اتضح بعد ذلك أن مارتينا أيضًا تذهب إليها:

- أوه، ليس معنى هذا أنني لا أدرس، أو أنني أمية أو شيء من هذا القبيل. أنا أذهب إلى المدرسة، لدى الراهبات. نحن عشر فقط في الفصل، وجميعنا من الفتيات. ولهذا تقلق أمي، تقول إنني لا بد ألا أمكث كثيرًا معهن في سني، أي ليس مع الفتيات فقط بل مع الفتية أيضًا.
- أجل، ولماذا إذن أدخلتك تلك المدرسة؟

- إيه، هذا هو الجزء الأبشع، تمسك. لم تجبرني هي، أردت أنا الذهاب! لا يمكن حتى أن أقول *إنني سيئة الحظ*، وكم هي *شريرة أمي*. لا، لا، لم ترغب هي في هذا، بل أصررت أنا.

- ولكن لماذا؟

- حسنًا! أقسم إنني لا أعرف. دراستي الابتدائية كانت في لوكًا، ثم عدنا لنعيش هنا، وفي صباح أحد الأيام مررت أمامها، وكان هناك سياج مرتفع جدًّا ومليء بالزهور، وداخله لم يكن يظهر أي شيء، ولكنني سمعت أصوات غناء جميلة في جوقة. ومن كثرة سماعي لها حفظتها عن ظهر قلب، كلها، وشعرت أنني ماهرة. إلا أنني لم أكن ماهرة، لم أكن سوى حمقاء، وفي النهاية حبست نفسي هناك، خلف السياج.

كنت أريد أن أقول لها إنها ليست حمقاء. على كل حال الذهاب لتحبس نفسها بمفردها في مدرسة مع الراهبات، بدا لي فعلًا أحمق بعض الشيء. عندئذ التزمت الصمت بينما نخرج من الباب، أنا وهي، نحو ساحة الكنيسة.

للأسف خلفنا أتى السيد بيني، الذي كان قد توقف عن سب جوفاني والحداثة، وكان يصفر على دراجته. نظر إليَّ وهو يشير إلى مارتينا ويغمز بعينه، وصفق لي في صمت. ثم بدأ يبدل وهو يغني بكل حنجرته:

افتحن النوافذ، أيتها الفتيات العاشقات، إنه الربيع

أزهرت الوردة الحمراء الأولى

وتختبئ زهور البنفسج خجلا

عاد الآن أول طائر سنونو

في السماء اللامعة وبدأ يطير

ليعلن أن الجو الجميل قد بدأ

إنه الربيع، الربيع

افتحن النوافذ للحب الأوووووول.

أغنية مدتها ثلاثون ثانية، دقيقة على الأقصى، إلا أنها كانت في الوقت نفسه عذابًا أبديًّا. ثم أخيرًا دار خلف الكنيسة واختفى صوته معه، تاركًا فوقي خجلًا ثقيلًا جدًّا حتى إن عينَي اشتبكتا في سلاسل الدراجات، ولم تستطيعا العودة إلى مارتينا.

حتى عندما سألتني هي، من لا شيء:

- هل ستأتي يوم السبت؟

- السبت؟ الكورس ليس السبت. إنه الأربعاء.

- لا أقصد الكورس، بل عيد ميلاد سونيا.

سونيا بيريني، التي كانت تأتي إلى مدرستي ولكنها لم تكن رفيقتي في الفصل. هذا الأمر، الخاص بأنه يكفي أن تكونوا في الفصل نفسه حتى تكونوا «رفاقًا» لم أفهمه قَط: في الفصل كان يوجد

أشخاص لا يتحدثون معي حتى، وإذا فعلوا ذلك يكون السبب الرغبة في السخرية مني، إذن ما معنى أنهم «رفاق»؟ معارف، أجل، معارف الفصل يبدو لي أفضل. في الواقع، إنني لم أكن حتى أعرف بوجود عيد ميلاد يوم السبت، وبالتأكيد لم أكن مدعوًّا.

أجبت، وعمليًّا لم أكن أكذب:

- لا، أنا لا أذهب أبدًا إلى حفلات.

- أحسنت! ولا أنا! أقول دائمًا إنني لا أستطيع، وإنني لست على ما يرام. إلا أن تلك المملة دعتني بالتحديد أمام أمي، وأجابت هي بكل سعادة: بالتأكيد ستأتي، بالتأكيد! والسبب هو دائمًا أنني لا بد أن أمكث مع من هم في نفس عمري. قلت لها إنني لا أريد هذا، وإنها إذا لم ترسلني فسأغسل لها صحون الأسبوع كله، الشهر كله... لم يفلح أي شيء. تقول إنني يجب أن أذهب إلى الحفلة، أو أن أذهب معها، حيث إنها تذهب دائمًا أيام السبت إلى لوكًّا لتزور خالتي. وربما يكون هذا هو الأمر الوحيد الأكثر مللًا من الحفلة. شيء يُميت من الملل. حقيقي، أقسم لك، المرة الأخيرة جلست على الأريكة وتناولت الشاي، واستمعت إليهما وهما تتحدثان عن ألم السيقان، والأدوية، والآثار الجيدة والسيئة لتلك الأدوية، وأقسم إنني شعرت بأنني أموت. لم أعد أتحمل تحريك ساقَي ويدَي، ولا حتى الابتلاع ولا التنفس. أقسم لك، في رأيي كنت أحتضر بالفعل من الملل. لحسن الحظ سقط مني

الفنجان، وهزني الشاي الساخن بسقوطه فوقي وأيقظني، وإلا لكنت الآن تتحدث مع ميتة.

يؤسفني سقوط الشاي فوقك يا مارتينا ولكنني سعيد أنك لم تموتي. وأنك في كورس البيسيك. وأننا الآن هنا معًا، أمام دراجتينا وأنك على قيد الحياة. تلك هي الأشياء التي أردت أن أقولها، كلها أو على الأقل واحدة منها. والأشياء الجميلة مثل تلك القبيحة، من الصعب إخراجها من أفواهنا، تمكث لتنفخ حنجرتك فلا تقول سوى الأشياء المتوسطة. فأفضل حواراتنا تظل دائمًا محبوسة في داخلنا، لتموت في الظلام.

ظلام مثل ذلك الذي يتسع فجأة على جدار الكنيسة، ظل يكبر باستمرار، ومعه خطوات ثقيلة خلفي وآلاف من الشتائم. لوهلة ظننت أنه الشيطان الذي أتى ليأخذني، أو لعنة العائلة التي أدركَت أنني أتحدث مع مارتينا وعندئذ أتت بسرعة لتدفعني بعيدًا. لأنني لا يجب أن أخطب أي فتاة، ولا حتى أن أثق بهن، وهكذا أصل إلى سن الأربعين وحيدًا وأخرج عن صوابي مثل التقليد.

فكرة غريبة، أعرف هذا، ولكنني لم أخطئ كثيرًا جدًّا. لأنها لم تكن اللعنة، ولكنها كادت تكونها: كان العم ألدو.

- بحق الأرض الملعونة، ألن تتحرك؟ إنني أنتظرك منذ ثلاث ساعات، لا بد أن نذهب إلى غابة الصنوبر، بعد هذا ستغرب الشمس ولن يتمكن أحد من رؤية الكمأة ولا حتى أنت!

- آه، أهلًا يا عمي، معذرة، كنت أتحدث مع.. مع.. مع شخص.

قالت مارتينا مبتسمة:

- أهلًا، أنا الشخص.

- أجل، حسنًا، أهلًا.

همس هو وهو يطوح يدًا في الهواء، كنوع من التحية وأيضًا ليطرد ذبابة. ثم نظر إلى مارتينا، وتوقفت يده، وتوقف عمي كله وعيناه تحدقان فيها.

قالت مارتينا من جديد:

- مساء الخير.

وهي تنظر إليه ثم إليَّ.

وكنت أنا أتمنى أن يسترخي العم، ربما لكي يستدير ويرحل ويتركنا بمفردنا. إلا أنه عندما استعاد حركته من جديد، كان فقط ليرتعش بقوة، ويشير إلى مارتينا بإصبعه، ويحدق فيها بعينيه المفتوحتين على مصراعيهما واللتين كان يمكن أن أرى منهما ماذا يوجد في مخه. وبدا الأمر كأنك تشاهد غسالة ملابس تخلط وتخلط كمية من الأشياء المبتلة وبلا شكل، أخذ يتمتم:

- ولكن... ولكن أنت... أنت لا... أنا... أنت لا... ولكن كيف؟ ولكن لا...

ثم أشار إليها أكثر ووضع يديه على رأسه، وهو يضغط حتى لا

تهرب منه الأجزاء الأخيرة من حالته الطبيعية. أعلم أن الوقت قد تأخر لذلك، في الواقع، التفت عمي وهرب حتى نهاية الساحة وهو يقفز في الشاحنة. أغلق الباب بقوة، والنافذة حتى آخرها، شغل المحرك وجرى سريعًا.

مكثت أنا والدعسوقة لننظر إليه، لحظة مليئة بالصمت، ثم سألتني هي، من كان هذا؟ وماذا حدث؟

- كان هذا عمي، ولكنني لا أعلم ماذا حدث.

- ولا أنا. إلا أن عمك غريب.

- غريب جدًّا جدًّا. واليوم أغرب، اليوم أغرب بكثير.

- هل فعلتُ شيئًا سيئًا؟

- أنتِ؟ بالتأكيد لا! إنه هو الغريب. ثم إنه يشرب أيضًا، يشرب كثيرًا.

أومأت مارتينا بالإيجاب، ثم أنزلت عينيها على دراجتها، أمسكتها، وقالت لي إنها يجب أن ترحل. وأنا أيضًا. حتى وإن كنت في الواقع يجب أن أذهب مع عمي الذي هرب، والآن لم أكن أعرف بالتحديد.

قالت:

- إذن سنتقابل يوم الأربعاء، إذا لم أمت يوم السبت مللًا عند خالتي.

- ألن تذهبي إلى حفلة سونيا؟

- لا، لا أعتقد. أعتقد أن تلك ستكون أسوأ، تقريبًا سأذهب إلى لوكًا.

أشرت أنا بالإيجاب وقلت:

- شيء جميل، ليتني أستطيع أن آتي أنا أيضًا.

أقسم إنني قلت هذا، دون أن يكون وراءه خطة ما أو شيء من هذا القبيل، لم أكن أتمنى أن تدعوني الدعسوقة أو من يدري ماذا. فقط إنني يوم السبت لا يمكنني أبدًا أن أذهب إلى لوكًا لأزور أبي، لأن سادة الفيلات حيث تعمل أمي يصلون جميعًا، ولا بد أن تمكث هناك. ولهذا فقط قلت لمارتينا إنني يوم السبت أحب جدًّا أن أذهب إلى لوكًا، لهذا السبب البسيط، والأقوى في العالم: لأنني سأحب جدًّا أن أذهب. هذا كل ما في الأمر.

وبالبساطة الصاخبة نفسها، أمسكت الدعسوقة بالدراجة وصعدت على مقعدها، وأجابتني:

- حسنًا، إذن سنذهب يوم السبت معًا.

لم أُشر بأجل أو بلا، لم أستطع أن أتحرك في أي اتجاه.

- هيا يا فابيو، هكذا تُقدمني لأبيك!

- أجل، ولكن... أي، ليس الأمر أنني إذا قدمتك له فسيجيب. فهو لا يقول أي شيء، لا يتحدث. ربما لن ينظر حتى إليكِ.

- حسنًا، لا توجد أي مشكلة، بعد عمك لم يعد أي شيء يدهشني.

- لا، ولكنه ليس مثل عمي هه، أبي مختلف جدًّا. كان طبيعيًّا وكان يعرف أن يعمل كل شيء، فقط إنه استيقظ لتوِّه، ولا بد أن يتعلم من جديد، وفي أثناء ذلك لا يعرف أن يفعل أي شيء.

- فهمت، إذن ماذا تفعل عندما تذهب لتزوره؟

- أقرأ. عندما أقرأ أقسم إنه يسمعني، ولذلك أقرأ له طوال الوقت. هذا يفيده، الآن يقول ذلك حتى الأطباء، إن هذا يحرك شيئًا ما بداخله.

- جميل، وماذا تقرأ له؟

- كتبًا إرشادية. كتب مثيرة جدًّا للاهتمام تُعلم العديد من الأشياء المفيدة. مثل تربية الديوك والحمام الزاجل، وبناء منظر طبيعي مُصغر للقطارات الصغيرة الكهربائية، و...

وكان يمكنني أن أستمر لمدة طويلة في هذا، وقاطعتني مارتينا لتسألني إذا كان يمكن لأبي أن يفعل تلك الأشياء.

- لا. أقصد أنه في السابق كان يمكنه أن يفعل كل شيء. وأيضًا بعد قليل، بالتدريج، سيعود كما كان ويمكنه أن يفعل أي شيء.

- أجل، فهمت، وماذا عن الآن؟

- الآن لا. الآن يفتح عينيه، ويلتفت وينظر إليك. في مرتين أيضًا ابتسم، ومرة بكى. ولكن لا يعرف كيف يسير، ولا يعرف كيف يتناول الأشياء بمفرده، لا بد من أن نعطيه الشراب والطعام.

- هذا إذن، معذرة يا فابيو، سامحني إن كنت أتدخل، بالنسبة لي تربية الديوك وبناء مناظر طبيعية للقطارات اللعبة يمكن أن يشعرني بالملل المميت، تخيل هو الذي لا يمكنه حتى عملها.

- حسنًا. الأمر مثير، وفي يوم من الأيام إذا استمررنا على هذا المنوال، يمكنه أن يفعلها من جديد.

- أجل، يومًا ما. ولكن الآن لا. الآن في رأيي تهمه أشياء أخرى أكثر، أشياء أكثر بساطة، مثل كيف يسير الشخص، وكيف يأكل وكيف يشرب. الخلاصة، أعتقد أنه من الأسهل إثارة انفعاله هكذا، بدلًا من المناظر الطبيعية للقطارات اللعبة. وإلا سيكون الأمر مثل... حسنًا، مثلما فعل السيد جوفاني عندما أراد أن يحمسنا بشأن الحاسوب فحدثنا عن المومياوات. المومياوات جميلة، أجل، ولكنها الآن لا تفيدنا في أي شيء، وإذا حدثتني عنها فلن تبقيني مستيقظة، بالعكس، ربما أخاطر بأن أنام أكثر. ولكنني يمكن أن أفهم هذا من جوفاني، ماذا يمكنك أن تتوقع من شخص يصنع آيس كريم مُر؟ ولكن منك أنت، لا.

مكثت بلا كلمات، فقط أجزاء حاولت أن أخرجها بطريقة ما:

- أ... أجل، ربما عندك حق، ولكن... بل أن الكتب الإرشادية ... أقصد الكتب الإرشادية التي تعلم تلك الأشياء البسيطة مثل... مثل الأكل والشرب، أعلم أنها غير موجودة.

وهي:

- حسنًا، ما المشكلة؟ إذا لم يكن لها وجود فهذا يعني أن عليك أن تكتبها أنت. إنها أشياء تعرف عملها، وبالتالي يمكنك أن تعلمها لأبيك.

هكذا قالت الدعسوقة، بينما تتأرجح بهدوء على الدراجة، بالنبرة نفسها التي كانت تحكي بها منذ قليل عن خالتها. لأنه بالنسبة إليها كان أمرًا عاديًّا أن تقول الأشياء الحقيقية والعميقة هكذا، كانت معتادة على ذلك. أما أنا فلا، بالنسبة إليَّ كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بهذا الشعور الغريب، أن أمكث أمام شخص أذكى مني، أذكى مني بكثير. أذكى مني ومن كل الناس حولي، بل ومن أولئك الذين أعرفهم فقط على الورق، لأنهم كتبوا كتبي الإرشادية الثمينة.

إلا أن ما قالته للتوِّ أمر هائل، استغرق بعض الوقت ليدخل إلى ذهني. ومنذ تلك اللحظة اهتز العالم وسقط أرضًا في سقطة أثارت الكثير من الأتربة، التي عندما اختفت مكثت أنا بمفردي، أحمق يقف على قدميه وسط الأنقاض.

لأنني منذ سنتين وثلاثة أشهر وأنا أستهلك صوتي وأقرأ كتبًا إرشادية لأبي، وكان الشيء الأهم الذي أقوم به في حياتي. ولم تخطر على ذهني قَط تلك الفكرة البسيطة جدًا، وفي الوقت نفسه، الصحيحة جدًّا، التي ألقت بها مارتينا هكذا بسرعة، دون أن تعرف أبي ولا المستشفى ولا أي شيء، وهي مبتسمة بينما توشك أن تبدل عجلتها وترحل. وفي ومضة رأيت كل أمسياتي في المستشفى، المليئة بالديوك والحمام والقطارات الصغيرة، وعيناي اللتان ترتفعان عن الصفحة لتقولا: *هل فهمت يا بابا؟ تكفي بكرة وورق صحي داخلية ويمكننا أن نبني نفقًا صغيرًا للقطار، هل فهمت*؟ وأنا أفكر أنني أنقل إليه انفعالي إلا أن أبي لم يكن ينفعل، ولا حتى يجيبني. ربما فهم شيئًا واحدًا على الرغم من كل هذا، وفهمه بوضوح: أن ابنه كان أحمق.

لذلك هأنذا، بجوار الكنيسة، وفي وسط أنقاض عالمي، الذي دمرته مارتينا للتوِّ بكلمتين.

إلا أنها أيضًا شرحت لي كيف أبنيه أفضل مما سبق: لا بد وأن أعثر على موضوع الانطلاق وأكتب كتابي الإرشادي لأبي، صفحات مليئة بالأشياء البسيطة والمثيرة والأساسية، والتي ستفيد أبي بالفعل. وهكذا عندما يتعلمها يمكنه أن ينتقل إلى الأشياء الأكثر تعقيدًا، ثم إلى أعلى وصولًا إلى فردوس القطارات الصغيرة والأنفاق المصنوعة من الكرتون والحمام الزاجل. وكالعادة، هكذا تسير الأمور بشكل صحيح، كل شيء واضح الآن، إلى حد أنني أشعر أن عليَّ الاعتذار لأبي عن كل الوقت الضائع.

ولم يكن عليَّ إضاعة المزيد من الوقت، لا بد أن أبدأ العمل حالًا. ولكن حالًا-حالًا لا يمكنني: لأنني ما زلت جامدًا وثابتًا مثل التمثال، تمثال من الأسمنت، ويمكن للراهبات يومًا ما أن يضعن حولي مصابيح صغيرة ويشرحن للأطفال أن القديس فابيو وُلد هنا، وكان صالحًا جدًّا ومحبًّا جدًّا، ولكنه للأسف كان أحمق جدًّا جدًّا.

ثم قالت لي مارتينا: «إلى اللقاء يوم السبت إذن!»، ورحلت، بدلت حتى نهاية الساحة، ومكثت أنا لأنظر إلى شعرها الذي يرقص بخفة في الهواء. فقط عندما اختفت خلف الكنيسة، فقط عندما لم يكن في استطاعتي أن أقول لها أي شيء، أدركت أن موعد السبت كان مستحيلًا لأنني لم أسألها في أي ساعة، ولا حتى أين.

جريت إلى هناك، ولكنها كانت قد اختفت. عندئذ لا، ربما لم أكن ولا مجرد تمثال، ربما كنت حاسوبًا. حاسوب بطيء وغبي مثل ذلك الذي لجوفاني معلم التربية الكنسية، القادر على أن يفعل أمرًا واحدًا فقط. أنت تكتب له حرفًا حرفًا اسمي فابيو، وهو يجيبك بانهيال:

أحمق... أحمق.... أحمق.... أحمق... أحمق... .أحمق... أحمق.... أحمق... أحمق....أحمق... أحمق... .أحمق... أحمق... .أحمق... أحمق .... أحمق... أحمق....أحمق... أحمق... .أحمق... أحمق....

(٢٠)

تربيتات قاذفة اللهب

مكثت هكذا لمدة عشر دقائق، ربما لم تكن كثيرة، ولكنها زمن لا يُلقى هباءً وأنا أقف في ثبات أمام كنيسة، للتحديق في اللا شيء، أنعت نفسي بالغباء. فلم يكن لدي قَط، وخاصة الآن، ألف شيء مهم جدًّا لا بد أن أفعله.

كان لا بد أن أقابل مارتينا، وهي تنتظرني يوم السبت، وكان هذا رائعًا، ولكن لا بد أن أفهم أين وفي أي ساعة، أو سأجعلها تنتظر إلى الأبد. وفي الوقت نفسه لا بد أن أعيد بناء عالمي، الذي قامت هي بالتحديد بتسويته بالأرض، وأن أقرر أول شيء بسيط عليَّ تعليمه لأبي.

ربما يمكنني أن أكتب كتابًا إرشاديًّا موجزًا حول كيف يمكنه غسل وجهه، وارتداء حذائه، واستخدام الهاتف. ثم تذكرت أن أبي هذا الشهر تعلم كيف يتنفس وأنهم نزعوا عنه جهاز التنفس، وقال الأطباء إنهم قريبًا سينزعون أيضًا أنبوبة التغذية، إذن كان من الواضح أن أكثر درس مفيد الآن هو كيف نتناول الطعام ونجلس إلى المائدة.

أجل، هذا هو بالتحديد، ولا بد أن أنكب على هذا فورًا. بل، تقريبًا حالًا، لأنني قبل هذا عليَّ واجب مؤلم، وهو العودة سيرًا على الأقدام إلى قرية مانشيني، وأن أخبر أمي وجدتي وأعمامي أن ألدو لم يعد موجودًا.

أتى ليأخذني، ولكنه رأى مارتينا وشيء ما أفقده عقله تمامًا، هرب مبتعدًا ومن يدري إلى أين ذهب، ومن يدري إذا كان سيعود أو لا بد أن نعد مكانًا آخر فارغًا على المائدة بجوار ذلك المخصص للجد أرولاندو. فكرت في الأمر وحزنت حزنًا مميتًا، وأفتقده منذ الآن كثيرًا، كثيرًا جدًّا إلى حد أنني عندما شعرت بتلكما الكماشتين تمسكانني وتأخذانني فجأة بعيدًا، حتى وإن كادتا تنتزعان عني عنقي، شعرت بسعادة شديدة وشكرت الرب، لأنهما كانتا يدَي عمي الذي عاد من أجلي.

حملني على ظهره حتى الشاحنة وألقى بي على المقعد المجاور له، وأشعل المحرك، امتص السيجارة بقوة شديدة إلى حد أن طرفها اشتعل. ثم التفت نحوي وعيناه جاحظتان مثلما كانتا من قبل أمام مارتينا:

– من تكون تلك بحق الجحيم، وما اسمها؟!

لم أكن أرغب في أن أقول له اسمها، كنت أريد أن أحتفظ به لنفسي. كان يبدو لي أنني سأفسده إذا تركته يخرج في تلك الشاحنة القذرة والمتعفنة. وكان العم يخيفني بعينيه تلكما الجاحظتين للخارج وحركاته كلها الملتوية والمفاجئة. لم يعد هو، وكأنني أرى أمامي لأول

مرة لعنة عائلتي، هنا أمامي، منفلتة إلى أقصى حد لها، بينما تنتهي من تدمير عمي المسكين.

عندئذ قلت له إن اسمها مارتينا.

- لا أقصد اسمها بل اسم عائلتها!

فكرت للحظة ثم «ولكنني لا أعرف اسم عائلتها».

- وكيف لا؟ يا للجحيم، لا تعرف اسم خطيبتك؟

- لا، ليست خطيبتي، إنها... تأتي إلى كورس الحاسوب معي.

وضع العم الدفع الخلفي للعجلة وهو يغير مقبض السرعة بغضب، وعاد إلى الخلف بالشاحنة بدفعة كادت تقلبنا:

- ولا تعرف اسم عائلتها؟

- لا يا عمي، أقسم لك.

- ولا حتى مكان منزلها؟

- لا!

ولا أعرف حتى رقم هاتفها، لا شيء على الإطلاق. كنت أعرف فقط أن الشاحنة تهتز وكأننا في لعبة ملاهٍ، وإذا أردت أن أراها من جديد لا بد أن أتشبث جيدًا بمقعدي.

قال:

- حسنًا، حسنًا، حسنًا. و... حسنًا، حسنًا.

خمس مرات، وبالنظر إليه لم يكن الأمر حسنًا على الإطلاق، ولا حتى مرة واحدة. أشعل سيجارة أخرى، ولكنه أدرك وجود واحدة بالفعل في فمه. مكث لوهلة هكذا، ثم بدأ يدخن السيجارتين معًا.

- حسنًا. والآن لا بد أن تسمعني يا صبي. اسمعني جيدًا، سأقص عليك حكاية لا يعرفها أحد، إلا أنني سأحكيها لك. واستعد، لأنها قصة رومانسية جدًّا، يا للشقاء!

هكذا قال عمي، وكانت مجرد فكرة أنني سأستمع إلى قصة لا يعرفها أحد كانت تشعرني أنني أحترق من الداخل مثل السيجارتين الموضوعتين بين شفتيه. أما الاستماع إلى قصة رومانسية بفم العم ألدو، فهذا بالفعل أمر لا يمكن تصديقه. مثل أن تصدر موسيقى فجأة من منشار كهربائي، أو مثل أن تضغط على قاذفة اللهب فتبدأ في إطلاق تربيتات.

لم يكن أمرًا في طبعه. ولم تكن أيضًا عادته أن يتوقف عند لافتة الوقوف عند الخروج من ساحة الكنيسة، إلا أنه فعل هذا. ولحسن الحظ، لأن ماسيمو الصغير ومعه مانويل مرا على دراجتيهما أمام الشاحنة، وحياني، ثم استمرا في التبديل نحو المستقبل الذي مُنح للتوِّ لهما.

ثم قال العم وهو ينطلق في الطريق:

- إذن، إذن، إذن، هذا الأمر لا يعرفه أحد. ولا أعرف حتى إذا كنت أريدك أنت يا صغير أن تعرفه، ولكنني سأحكيه

على الرغم من ذلك. اسمعني جيدًا والتزم الصمت ولا تقاطعني نهائيًا. أوه، هل فهمت؟

- أجل يا عمي.

- لقد قلت لك ألا تقاطعني، بحق السماء!

أخذ نفسًا من السيجارتين، وانحرف نحو اليمين:

- إذن. كانت الحرب تدور. وأنت لم تكن موجودًا وقت الحرب وبالتالي لن يمكنك أن تفهم أي شيء، ولكن اسمعني. الحرب خاطئة، أجل، غير عادلة وغير إنسانية، وكل تلك الترهات التي يقصونها عليكم في المدرسة، ربما تكون حقيقية، ومن يهتم بهذا الهراء! الشيء المهم أن الحرب مخيفة. بمعنى أن الحرب تتسبب في الخوف، في الخوف فحسب. فأنت نائم في منزلك، وفي كل ثانية تمكث فيها هناك، يمكن أن تصلك قنبلة على رأسك، ووداعًا. وإذا حالفك الحظ فستصل إلى الصباح، وستنهض وتخرج من المنزل، وفي كل ثانية تمكث فيها يمكن أن يطلق أحدهم عليك النار في رأسك ووداعًا مرة أخرى. وهكذا كل الأيام وكل الليالي، كل نفس، وكل دقة قلب، يمكن أن تصبح الأخيرة. وأنت تعرف هذا الشيء، تعرفه في كل لحظة، وليس معنى هذا أنك بعد برهة لا تفكر فيه. الشيء الوحيد الذي تستطيعه هو أن تشد نفسك للأمام بهذه الفكرة الراسخة في ذهنك. هل تدرك ذلك يا صغير، هل تدرك ذلك؟

كنت أريد أن أجيب، ولكن ربما يعد العم ذلك نوعًا من المقاطعة، عندئذ قلت نعم فقط برأسي.

- لا، أنت لم تكن موجودًا وبالتالي لا يمكنك أن تُدرك هذا، فاسمعني وصدقني. عندما تندلع الحرب، تعيش وكأن لحظة موتك على وشك الحدوث. إذا حالفك الحظ فلن تموت، والحرب ستنتهي، عندئذ بعد تلك الفترة الأكثر بشاعة من كل الفترات تبدأ المرحلة الأروع، أي عندما تنتهي الحرب. لأنك في أثناء الحرب يبدو لك أنك يمكن أن تموت في كل لحظة، بمجرد أن تنتهي الحرب تشعر أنك لن تموت أبدًا، وأن موتك أمر مستحيل، حتى وإن ألقيت نفسك من سطح بناية، ستنهض وتبدأ بهدوء في التمشية بين الحقول مع السماء الزرقاء والشمس فوقك.

وصلنا إلى الإشارة الواقعة على شارع البحر، واتجه العم يمينًا، ثم انطلق مرة أخرى بالشاحنة وبالكلمات.

- بالتأكيد، كل شيء حولك مدمر، وليس لديك أي نقود، ولا بد من أن تعيد بناء كل شيء، بل لا توجد مشكلة لأنك قوي ولأنك حي، ولأنك ستظل على هذه الحال إلى الأبد، وبالتالي فأنت لديك كل ما يلزمك. وفي الواقع كانت لدي المعدات لشغل الخشب ودراجة، وكانت لدي أيضًا خطيبة. سحقًا.

قال العم هذا، ولكنني كنت متأكدًا أنني سمعت خطأ. لأن

شفتيه مليئتان بالسجائر فلا يمكن أن تخرج كلمة خطيبة. سحقًا! يمكن، *اللعنة!* أيضًا، ومجموعة أخرى من السباب المناسب لأي ظرف، أما خطيبة! فلا. وإذا كان بالفعل قد قال هذا، إذن فهي طريقة يستدعي بها أمرًا آخر، مثلما كان يقول «الشقراوات» على السجائر، وعندما كان يقول «لنذهب إلى الحقول مع صديق» وكان يقصد أنه ذاهب بالبندقية.

إلا أن الأمر لم يكن كذلك، كانت كلمة «خطيبة» مقصودة بها خطيبة فعلًا:

- كان اسمها فيرنا، وهو أجمل اسم في العالم. اسم قصير ولا يستهلك الوقت، ومع ذلك كان يقول كل شيء: ما اسمك؟ اسمي فيرنا. هل ترى كم هو جميل؟ إلا أنني عندما سألتها ما اسمكِ ردت عليَّ: وأنت ما دخلك؟ عندئذ فهمت أنها المرأة المناسبة لي. بل، لا، ليتني فهمت ذلك على الفور! لقد فهمته ولكنني لم أكن أريد أن أفهمه، عندئذ انتهى كل شيء.

توقف العم لحظة عن التحدث، انحرف بالشاحنة مرة أخرى إلى اليمين، وألقى السيجارتين من النافذة وأشعل أخرى.

- تذكر هذا يا صغيري، تذكره جيدًا. الأشياء المهمة في الحياة لا يمكنك أن تفسرها لأحد، لأنها بسيطة إلى حد أنك ستفهمها بمفردك على الفور. والمشكلة هو أنك لن ترغب في فهمها. هل فهمت؟

أومأت بالإيجاب، حتى وإن لم أكن فهمت الكثير، بينما أُضيق عينَي في الدخان لأرى إلى أين نحن ذاهبان. وأعتقد أننا لم نكن متجهين إلى أي مكان، مع كل تقاطع كان عمي يتجه دائمًا يمينًا، وأخذنا ندور وندور، مبتعدين دائمًا في ذلك الزمن البعيد والعجيب، الذي أخذ يعود بأكمله فوقنا.

- الخلاصة، إذا كنت قد أدركت على الفور أن فيرنا كانت امرأة حياتي لكانت القصة اختلفت. كان عمرها ستة عشر عامًا، وأنا ثمانية عشر، أبوها وأبي كانا صديقين، أسسا معًا مقر الحزب الاشتراكي، تخيل، كان كل شيء أملس كالزيت. إلا أن هذا لم يحدث، قررت أنني أريد أن أذهب بعيدًا بالشاحنة لأرى أماكن أخرى وكيف هي. إلا أن تلك الأماكن كانت تشبه كل الأماكن الأخرى في العالم، مجرد أماكن، وفقدت أنا مكاني هنا. من حين لآخر كنت أراها في الطريق، حتى اليوم الذي رأيتها فيه مع فريدو مارياني، الأكثر حماقة من الجميع. أقسم إنني كدت أنزل من الشاحنة وأقول لهما شيئًا ما، له أو لها، لهما معًا، لا أعرف. إلا أنهما كانا زوجًا وزوجته، وكانت لديهما أيضًا ابنة. وأدركت أنا كم ابتعدت، ولم أكن أعرف المدة بالتحديد، وبالتأكيد كانت فترة طويلة. وخلال تلك الفترة تزوجت هي من فريدو مارياني، الذي لم تعرفه أنت ولكنني أضمن لك أنه أغبى من وُجدوا في تلك الأزمنة وحتى الآن. في الواقع بعد فترة وجيزة أرسلوه

إلى الحرب، ومات في ثلاثة أيام. إلا أنه لم يمُت في مهمة بطولية، تخيل! لم يمُت لينقذ صديقًا ولا طفلًا ولا كلبًا. لا، لا، بل في مساء أحد الأيام ووجبته مليئة بقطع كثيرة من الخبز بداخلها، ابتلع كل شيء مرة واحدة دون أن يتنفس، ووقفت قطعة خبز في القصبة الهوائية ومات فريدو ماریاني هكذا، في الحرب، مختنقًا من الحساء. تخيل! تخيل!

أومأت بنعم، وكنت أتخيل بالفعل، لأن رائحة الشاحنة كادت تخنقني أنا أيضًا.

- وظلت فيرنا وحيدة، وحيدة مع طفلة صغيرة وسط الحرب. عندئذ كان يمكنني أن أساعدها، إذا وجدت لها شيئًا لتأكله، إذا رأيت أن جزءًا من سقف منزلها سقط، وهكذا. في إحدى الأمسيات بعد فترة، قالت لي هي: «ألدو مانشيني، يكفي هذا، أنت تفعل أشياء كثيرة في منزلي، الآن لنمارس الحب». قلت لها إن الأشياء التي في منزلها كنت أفعلها بسرور من أجلها، وليس لهذا الغرض. إلا أنها قالت: «أعرف هذا. وماذا عن الحب؟ ألن تمارسه بسرور؟». أجبتها بلى، وعندئذ مارسنا الحب، بل ومارسناه بطريقة جيدة جدًّا يا صغيري، أتعرف!

هكذا قال لي، وشعرت أنا بالخجل بعض الشيء وأنا أسمع تلك المواضيع من عمي الذي في رأيي لم يكن يعرف حتى التفكير في الحب، ولكنني الآن اكتشفت أنه عرفه بل وعرفه جيدًا.

- وفي الواقع، الحب، إليك، حتى الحب هو شيء إذا لم تكن موجودًا في أثناء الحرب فلن يمكنك فهمه. أحدهم قال إنك في الحرب تتعلم أن تموت أو أن تقتل، وهذا حقيقي، والأهم أنك تتعلم أن تمارس الحب. وهو شيء مختلف تمامًا عندما تمارس الحب في أثناء الحرب. فهو مثل أن تشرب كوبًا من الماء: أنت تعرف أن الماء يقرفني ولا أشربه أبدًا، إنما شرب الماء في الصحراء وأنت تموت عطشًا شعور رائع. الشيء نفسه وأنت تمارس الحب وسط القنابل والموت. إنه شيء أقوى ألف مرة، تتمسك به بشدة. لا وجه للمقارنة بما تمارسه أنت اليوم، وسط الملل.

لحظة صمت، انحناءة أخرى لليمين ثم:

- بالمناسبة يا صغير، أنت مارست الحب، أليس كذلك؟

- أنا لا!

أجبته بسرعة، وأيضًا لسبب ما، صحت.

- لا؟ كم عمرك؟ اعذرني.

- اثنا عشر.

- آه، حسنًا، في عمر الثانية عشرة ربما لا يكون المرء قد مارسه. ثم لتتخيلك أنت بالتحديد، وأنت حتى لا تعرف اسم عائلة خطيبتك.

- ليست خطيبتي.



- حسنًا، الأمر سيان. ولكننا كنا نمارس الحب، بقوة، وعندما انتهت الحرب استمررنا في ممارسته. إلا أننا كنا نفعل هذا سرًّا، لأنها كانت أرملة منذ فترة وكانت لديها ابنة، وبالنسبة لي كان الأمر مناسبًا هكذا. وانتهت الحرب، وكان شهر مايو، والأمسيات كانت حارة ومعطرة، عندئذ تركت فيرنا الطفلة عند أمها وطلبت مني أن نتقابل في الحقول، لنمارس الحب هناك. وأتذكر تلك الليلة بالتفاصيل وكأنها تحدث الآن، تمامًا. بل أكثر من الآن، حاليًّا كل شيء ممل وشاحب ولا أتذكر حتى ما أكلته اليوم على الغداء. كان يوجد حقل القمح الجميل والصحيح المرتفع جدًّا والذي لم تعد ترى مثله الآن، دخلت بداخله، كان يخدش ذراعي، ولكنه كان شيئًا جميلًا، ملاطفة قوية من الطبيعة، دخلت إلى منتصف الحقل، حيث توجد ساحة صنعناها أنا وإخوتي لنصطاد طيور الزرزور في أثناء مرورها. بعدها بقليل ستصل فيرنا ونتعانق هناك، وكان القمر هلالًا، وأتذكر أنني كنت أحدق في القمر من بين السنابل في قمة القمح، وأفكر في أنه شهر مايو، وأننا بعد قليل سنمارس الحب، وأنني بعد ذلك أريد أن أمارسه أيضًا في يونيو ويوليو وكل الأشهر الأخرى، هنا في الحقل، أو في مكان مغلق إذا كان الطقس باردًا، أو حيثما يحدث. وكانت لفيرنا ابنة بالفعل، وكانت هذه مشكلة، لأنه في تلك الفترة كانت تلك مشكلة، ربما نستطيع أن نذهب إلى مكان آخر، حيث لا يعرفنا أحد وبالتالي يعتقد الجميع أنها ابنتي، لأنها

إذا كبرت معي فستصبح ذكية وماهرة ولن يتخيل أحد أنها كانت ابنة فريدو مارياني. هكذا أخذت أفكر في حقل القمح وأنا أنظر إلى القمر وأعد قائمة بالأماكن التي يمكننا أن نذهب لنعيش فيها، وكنت أتنفس بصوت منخفض لأنني كنت أريد أن أسمع الليل جيدًا، كنت أريد أن أسمع حفيف النباتات التي تتحرك عند وصول فيرنا. كنت أمكث بأذنين منتبهتين، وذراعاي جاهزتان لضمها، وابتسامة على فمي لا يمكن لأحد نزعها عني حتى إن أردت، ولم أكن أريد على الإطلاق. وبدلًا من حفيف القمح انفجر لغم. وظهر ضوء قصير لكنْ قوي جدًّا في نهاية الحقل. ووداعًا فيرنا.

قال عمي هذا، ثم أشعل سيجارة أخرى، شدها جيدًا، وفقط عندما أخرج الدخان دون أن يعود للتحدث، فهمت أن الحكاية انتهت هكذا.

- كيف؟ ولكن... ولكن ماذا حدث؟

- لقد قلت لك. لغم. كان الألمان قد وضعوا ألغامًا في المنطقة. نزعناها كلها، ولكن يبدو أنه ظل واحد هناك، وكان هذا يكفي.

- وماذا حدث؟ وهي...

- ماتت يا صغيري. ماذا يحدث إذا صعدت على لغم؟ تموت. في الحرب، وأيضًا عندما تنتهي الحرب، لا يعرف اللغم أنها

انتهت، اللغم يعرف فقط أنك عندما تصعد فوقه لا بد وأن ينفجر. ووداعًا فيرنا.

هكذا قال عمي، وخرجت الكلمات الأخيرة كلها ملتوية. ثم بعدها مكث صامتًا لمدة كبيرة. لمدة منعطفات يمين كثيرة، بينما نمر مرة أخرى أمام الكنيسة وحتى شارع البحر، وفي جولتنا المدخنة الدائرية، أنا وهذا السيد المجهول الذي يومًا ما كان اسمه العم ألدو.

ثم فجأة انحرف يمينًا، واتخذ طريق المنزل وصولًا إلى الشارع الضيق الذي نملكه بالكامل، بلافتة قرية مانشيني. وعندما اعتقدت أن القصة انتهت بالفعل، أوقف العم الشاحنة أمام منزلي وحدق فيَّ وقال:

- وصديقتك مارتينا، أنت لا تعرف لقبها، لكن لقب أمها هو مارياني، مثل فريدو الغبي. لأن تلك الطفلة هي حفيدة فيرنا، ويا للعنة! فهي نسخة منها.

قال العم هذا، وأقسم إنني وقتها فقط فهمت كل شيء. كنت قد نسيت كيف بدأت القصة، وكيف شحب واختفى أمام مارتينا، والآن عاد كل شيء ليسقط فوقي وكأنه ضربة وسط مخي.

- نسخة متطابقة من جدتها يا صغيري. أنا لا أملك صورة لها، لأننا في تلك الحقبة لم نعتد هذا، وبالتالي مع مرور السنوات اعتقدت أنني نسيت بعض الشيء كيف كانت فيرنا تبدو.

ولكن لا، كانت تمامًا هكذا، نسخة من صديقتك. بمجرد أن رأيتها بدا الأمر كأنني أراها أمامي. ولكن بالتأكيد هي حفيدتها. وأنت حفيدي، وعن تلك الأشياء لا يمكنني أن أعلمك أي شيء، يؤسفني هذا، لأنني بعد ذلك اللغم، لم ألمس أي امرأة أخرى، أقسم لك، لم أستطع على الإطلاق. لا أعلم حتى إذا كانت النساء كما كن في زمن ما، ولا يهمني هذا. ولكنني أعرف شيئًا واحدًا وسأقوله لك يا صغير: كن حذرًا، لأنه في مكان ما سيكون هناك أيضًا حفيد فريدو مارياني. بل من هؤلاء يوجد الكثيرون، لأن العالم مليء بالحمقى. إذن افتح عينك جيدًا ولا تترك أحدًا يخدعك. واضح؟

وأنا بعينَي مفتوحتين، بل على مصراعيهما، نظرت إلى عمي الجديد وأومأت بنعم. لم يكن الأمر واضحًا فعلًا، وهذا حسن أيضًا. لا شيء واضح في العالم ولا شيء بسيط. فقط ضربة لغم، جافة وبلا حوارات، شعلة في السماء ثم لا شيء.

- حسنًا.

قال العم ألدو، وأشار لي بيده لأنزل من الشاحنة:

- الآن اذهب، هيا، فالآن يجب أن أبكي.

(٢١)

الرعد يحييك

رجال العصر الحجري، كانوا على سبيل المثال يأكلون بأيديهم، وهذا كان ممكنًا لأنهم لم يكن لديهم نار وبالتالي كانوا يأكلون الأطعمة كلها باردة، يتسبب هذا في الاتساخ قليلًا، وحتى وإن اتسخت فلم يكن أحد ينتبه لهذا. ثم أصبحنا جميعًا أقل شعرًا وأكثر نظافة، واخترعنا أدوات السفرة. والتي ربما كانت نوعًا ما وقتها أمرًا غريبًا ولكن اليوم لا، بل إن اليوم إذا أكلت دون أن تستخدم أدوات السفرة ينظر الناس الذين بالقرب منك إليك بطريقة سيئة، ويتحـ... ويتحـق... ويحتـ-قرو-نك.

وتوقفت لوهلة عن القراءة وتظاهرت بالسعال، لأنني خجلت من خطئي في نطق تلك الكلمة. في الحقيقة كنت أشعر بالخجل في الفترة كلها. أبي كان أمامي كالمعتاد، لكن الدعسوقة اليوم كانت بجواري، وكانت تنصت إليَّ باهتمام، ويبدو صوتي لي غبيًا ومرتعشًا مثلما تسمع صوتك في المسجل وتقول: *لا، هذا لست أنا بالتأكيد! لست أنا بالتأكيد، أليس كذلك؟*

بخلاف صوتي، يوجد أيضًا ما أقرأه، وكنت أنا الذي كتبته وكنت أعرف أنه لم يكن أفضل أعمالي. ولكن، في كل الأحوال، كانت مارتينا هي التي نصحتني أن أشرح لأبي الأشياء الأكثر بساطة، تلك التي يحتاج إليها الآن لينطلق من جديد، وعندئذ كان يمكنني أن أختار بين كيف يمكن أن يأكل وكيف يمكن أن يستخدم الحمام. وقد ركزت على الطعام فقط لأنك إذا أردت أن تستخدم الحمام يجب أن تأكل شيئًا ما، وكان اختيارًا جيدًا، وإلا كنت سأجد نفسي الآن أحكي لها كيف نرفع غطاء المرحاض وكيف يُستخدم الورق الصحي.

إذن، الخلاصة، من الأفضل أن نقرأ عن الناس التي تأكل بأيديها.

توجد أنواع غريبة من أدوات الطعام، ولكن تلك التي نحتاج إليها بالفعل هي ثلاثة: الشوكة، والسكين، والملعقة. من السهل التعرف عليها واستخدامها لأنها مثل النماذج الصغيرة للمذراة، والسيف، والجاروف، وتقريبًا تُستخدم بالطريقة نفسها. ليس الأمر سيان في الصين، فهم غرباء ويستخدمون عصوين من الخشب، غير مريحتين بالمرة، ولا تشبهان أي شيء، ومن يدري كيف خطر ذلك ببالهم، لأنه لم يرَ أحد قَط فلاحًا في حقل يحاول أن يحصد الأرض أو يقطع شجرة باستخدام عصا. ولكن ذلك الذي يفعلونه في الصين ليس مشكلة، لأنه قبل كل شيء يجب أن تنهض من الفراش وتعود إلى المنزل. لدينا وقت للذهاب إلى الصين، وإذا لم تذهب فلن تخسر الكثير، لأنهم أيضًا في الصين يأكلون أشياء بشعة بالعصي مثل قنديل البحر والنمل.

قلت هذا فضحكت مارتينا وقالت «يع». نظرت إليها بطرف عيني وابتسمت أنا أيضًا وعدت للقراءة.

توجد أيضًا بعض الأطعمة التي يسهل أكلها، ويمكن أن نبدأ بها. على سبيل المثال البيوريه، وهو طيب المذاق جدًّا وتكفي ملعقة ثم بالتدريج يمكن الوصول إلى الأطعمة الأكثر تعقيدًا، والتي هي الطيور والحيوانات البرية، ذات اللحم القليل والملتصق كله بمليون عظمة صغيرة وملتوية. وربما يقول أحدهم، لا بأس، ولكنها أشياء خاصة، متى يحدث وتأكلها؟ لا، إن هذا يحدث كثيرًا في قرية مانشيني. ربما حمام صغير أو يمام، السمان والشحارير، ربما الأرانب أو الخنازير البرية، أو الغرير والنعام، القنافذ والنورس.

سألت مارتينا:

- النورس؟

ثم وضعت يدها على فمها لأنها لم تكن ترغب في المقاطعة، ولكن أفلتت الكلمة منها بالفعل.

أجبتها:

- أجل، لمرة واحدة فقط، ولكننا لم نكن نعرف أنها طيور النورس. إلا أن العم ألدو قال لنا في النهاية.

- وكيف كانت؟

- كانت سيئة جدًّا. قاسية بعض الشيء ومالحة جدًّا.

- وكيف اصطادها، هل ذهب إلى البحر وأطلق عليها النار؟

- لا، وإلا كانت ستراه أو ستسمعه.

- إذن كيف فعل ذلك؟ اعذرني.

نظرت إلى مارتينا، وكنت على وشك أن أحكي لها. وفي لحظة، وبدلًا من عينيها، رأيت الطريقة التي اصطاد بها العم ألدو النورس، الرجل نفسه الذي في شبابه أحب جدتها فيرنا حبًّا شديدًا، إلى حد أنه بعدها لم يرغب في أحد سواها ومكث وحيدًا. ودفع هو ثمن وحدته تلك، ودفعتها أيضًا معه طيور النورس وكل العصافير والحيوانات البرية في المقاطعة. عندئذ قلت:

- أتعرفين؟ في رأيي من الأفضل ألا أقولها لكِ.

وعلى الفور قالت مارتينا:

- لا، لا، من الأفضل ألا تفعل.

وعدنا مرة أخرى لننظر إلى أبي، الذي كان عليه التعبير نفسه، أي بلا تعبير، ولكنه كان يسدد عينيه المفتوحتين نحونا. تركت ثلاثة أسطر مليئة بحيوانات أخرى نقدرها على مائدة قرية مانشيني وانطلقت في القراءة.

وفي حين أقرأ، كان أبي يحتفظ بعينيه مفتوحتين أكثر. حقيقي، لم يكن مجرد انطباعي، من حين لآخر كان يحرك أيضًا رأسه بعض الشيء وكأنه يقول أجل. وأعرف أن بعض الأطباء المجانين قالوا إن هذا رد فعل غير إرادي، والأمر لم يكن كذلك، لا يمكن أن يكون

هذا ما يحدث، لا يجب. لكنه كان أمرًا أكبر وأهم وأكثر روعة، ومن حين لآخر تكتفي الأشياء الرائعة بأن تكبر لتشيخ في عالم الخيال، عندئذ تنهض على قدميها، وتختار يومًا من أيام حياتك بطريقة عشوائية وتلقي بنفسها في داخله.

في الواقع في ذلك اليوم حدث بالفعل الشيء الجميل: استطعت أن أتقابل مع مارتينا، حتى وإن لم أكن أعلم الموعد ولا المكان. ولكنني فكرت أنه بالتأكيد بعد الغداء، لأن قبل ذلك توجد المدرسة، والموعد لا بد وأن يكون أمام الكنيسة حيث كنا نتحدث أو ربما أمام منزلي. مارتينا لم تكن تعرف أين أسكن وبلدتنا صغيرة وقرية مانشيني معروفة للجميع، في الخير وفي الشر (وخاصة في الشر). بالتأكيد يمكنها أيضًا أن تنتظرني في منزلها، ولكنني لم أكن أعرف أين كان، ولا أمي ولا حتى العم ألدو عندما سألته، قال لي إن فيرنا حبيبته كانت تسكن في مزرعة هدموها منذ فترة والآن توجد مكانها ورشة إصلاح سيارات، ولا يجب أن أذهب إلى هناك لأن صاحبها لص. ولكنني كنت صغيرًا جدًّا لتكون لدي سيارة أصلحها، وشعر هو برغبة شديدة في البكاء وهكذا انتهى حوارنا.

الخلاصة، قفزت على دراجتي وبدأت أدور من منزلي إلى الكنيسة ومن الكنيسة إلى منزلي، دون أن أتوقف قَط. المسافة نحو خمس دقائق، وهكذا عندما تصل مارتينا وأمها، في مكان أو الآخر، في لحظة ستريانني وأنا أظهر بهدوء في الموعد. أجل، رائع، كنت أمسك بالمقود، وأشير بالإيجاب بمفردي، كنيسة ومنزل، منزل

وكنيسة، وقررت أن أدور بينهما حتى الليل إذا استدعى الأمر، وأنا أبدل ضد الريح وضد الخوف من أنْ -نظرًا لأننا لم نتفق على موعد ومكان محددين- تكون مارتينا قد ذهبت لحال سبيلها ووداعًا.

عندئذ ابتسمت بقوة شديدة، عندما وصلت إلى الكنيسة في المرة العاشرة أو الحادية عشرة، كانتا تقفان لتحيياني من خارج السيارة. كنت متعرقًا، متقطع الأنفاس وفي أثناء الرحلة في السيارة استعدت قوتي. كنت أجلس في الخلف أجيب عن أسئلة أمها عما يعجبني وما لا يعجبني، بينما الأماكن في الخارج تجري وتتلامس مع النوافذ حتى تحولت إلى لوكًا.

توقفنا أمام العيادة، وبينما أنا على وشك أن أحييهما حتى نلتقي، قالت مارتينا شيئًا لأمها وأجابتها الأم:

- لا، لم يكن هذا الاتفاق، العمة أنريكا تنتظرك الآن.

قالت مارتينا ولكنها إذا أتت معي فستجلس مع شخص من سنها، بل وصبي أيضًا، وعندئذ ترجلت من السيارة لأنه بدا لي من السيئ أن أسمع، ومن الأفضل أن أمكث لأتمنى هنا في الخارج. ونجح الأمر، لأن بعدها بقليل كنت أنا ومارتينا على حافة الطريق ننظر إلى سيارة أمها الراحلة، والآن ها نحن هنا مع أبي الذي ربما كان في طريق عودته إليَّ.

وربما لا يكون طبق النوارس المشوية نداء مغريًا للغاية، هذا كان مجرد الفصل الأول من الكتيب الإرشادي الذي كنت أكتبه

له، ولكنني سأخترع أشياء أفضل في الفصل التالي. وبفضل تلك الفصول، إن عاجلًا أم آجلًا، سيعود أبي، وفي أثناء ذلك سأكتب كتيبًا إرشاديًا حقيقيًا مثل تلك التي كنت آخذها من السيدة ستيلًا، وسأصبح خبيرًا معروفًا لدى الجميع. أجل، خبير، خبير كبير. من يدري متى! من يدري في ماذا!

السكين صعبة الاستخدام بعض الشيء، في البداية يمكننا نحن أن نقطع لك الطعام إلى قطع كثيرة. لا شيء يسوء في هذا، ماما كانت تفعل هذا لي حتى...

ثم تذكرت أن مارتينا تسمعني، سعلت وعدلت المعلومة على الفور.

أمي كانت تفعل هذا من أجلي عندما كنت صغيرًا جدًا، ولكنني أعرف الآن كيف أقطع اللحم وكل شيء، وسأفعل هذا بكل سرور من أجلك. الشوكة صعبة فقط إذا كنت تأكل معكرونة إسباجيتي، لأنها تهرب كأسماك الأنقليس، ولكنها مهمة جدًا لأن المعكرونة الإسباجيتي بالمحار هي طبقك المفضل. ولا يمكن تقطيع معكرونة إسباجيتي إلى قطع صغيرة، لأن الأعمام سيبدأون في الصياح والسباب وكأنك تقطع كلًا منهم إلى قطع صغيرة. وخاصة العم أديلمو يتضايق جدًا. ليس شريرًا، ولكنه يتضايق بسبب العديد من الأشياء التي لا دخل لي فيها. على سبيل المثال عندما تأكل اللحم المقدد النيء وتبدأ في نزع الدهن من حوله يبدأ هو في الصياح «اللعنة ماذا تفعل؟»، وعندئذ تجيبه بأنك تنزع الدهن

لأنه لا يعجبك، وهو: «إن الدهن هو أجمل ما في اللحم المقدد!»، وأنت تقول له: «ليس لي، فأنا لا أحبه!»، عندئذ يجيبك هو وينهي الحديث «كنتم تحتاجون إلى بعض الحرب، بعض الحرب كانت ستفسر لكم كيف تسير الأمور». إلا أنك يمكنك ألا تقلق يا أبي، لأنه لا توجد أي حرب الآن، وإذا أردت فسأنزع أنا لك الدهن من على اللحم المقدد، وهكذا يغضب العم مني أنا وهذا لا يهمني. بالنسبة لي يكفيني أن تعود يا بابا.

قلت هذا، وبدأت حنجرتي تخزني، وحتى إن كنت كتبت المزيد لما استطعت الاستمرار. أغلقت الدفتر، وامتلأت الحجرة بصمت ضخم إلى حد أنه كان يضغط على النوافذ. الصمت نفسه كان يخرج من العينين المفتوحتين على اتساعهما، والآن يحدق فيَّ بلا تعبير ودون حتى أن يومئ برأسه. فعلت أنا ذلك بدلًا منه، ولم يكن الأمر سيان.

ثم، دون أن أقصد، شعرت أنني لا بد أن أطلب المعذرة من مارتينا.

- نعم. المعذرة على ماذا؟

- حسنًا، لا شيء. في الحقيقة يؤسفني أن الأمر كذلك، وأنني لا يمكن حتى أن أقدمه لكِ جيدًا، أي أنه لا يستطيع عمل شيء أكثر من النظر إليكِ. بل أن هذا كثير بالفعل، إذا فكرت في الشهر الماضي، فهذا كثير جدًّا. ولكن أقسم لكِ إنه في يوم ما كان يفعل مليون شيء، يبني ويُصلح كل شيء، لا وجود لأي

شيء قَط معطل في المكان ما دام أبي يقف على قدميه. أنابيب، مقابس كهرباء، مبانٍ، جدران للنقاشة، بل والبناء أيضًا. كان يمكنه عمل كل شيء. في منزلنا لم يدخل قَط كهربائي ولا بنَّاء، أو أي عامل. بل إنني لم أكن أعرف حتى أنهم موجودون. لم أفهم أن أشخاصًا يذهبون لعمل هذه الأشياء في منازل الآخرين، وأن هذا عملهم. أي أنها كانت مهنة أبي، وأيضًا أعمامي، ولم يحدث لي أن احتجت إلى هذا قَط، وبالتالي لم أفكر جيدًا. ثم في أحد الأيام كنت لدى ماسيمو الصغير وكانت أمه يائسة حين انقطعت المياه، وأمسكت الهاتف وقالت: «لا بد أن تأتي حضرتك لتصلحها على الفور، هل يمكن أن تفعل ذلك في أثناء النهار؟». وبالنسبة لي كان كل شيء عجيبًا، وسألت ماسيمو الصغير كيف عندما تتحدث أمك مع أبيك تستخدم صيغة الاحترام. أجابني هو، بأنها لم تكن تتحدث مع أبيه لأنه مات، وأنها تتحدث مع السباك. وأقسم إنني أعرف أنه يوجد سباكون، أي أنها بالتحديد مهنة أبي، إلا أنني لم أكن أفهم بالفعل أن الأشخاص عندما يتعطل لديهم شيء ما لا بد أن يتصلوا بأشخاص آخرين لأنهم لا يقدرون على إصلاحه. لأن أبي كان يصلح كل شيء، أقسم لكِ، شيء لا يصدقه عقل، كان يستطيع أن يعمل ألف شيء، بل عشرة آلاف، بل...

- كفى يا فابيو، فهمت. فهمت، وكل شيء على ما يرام.

بل كل شيء على أحسن حال الآن أيضًا، في رأيي. إنه لا يتحرك لأنه لا يستطيع، على الأقل أبوك هنا. وبالتدريج سيعود كما كان، وحتى إذا كنت لا ترى من الخارج فإنه يتمسك بذلك كثيرًا، وبداخله يصارع ليعود إليك. أما أبي، حسنًا، من يدري أين هو، ومن يدري من هو. بالتأكيد يمكنه السير، ويمكنه أيضًا الجري إذا كان الشيء يهمه. ولكنه لم يأتِ إليَّ قَط. والأمر على ما يرام هكذا، من ذا الذي يهتم! أنا بخير مع أمي ولا أحتاج إلى شيء. الخلاصة، أبوك ها هو أمامك، وربما لا يفعل الكثير إلا أن عينيه مفتوحتان وينظر إليك، يسمعك حتى وإن كنت تتحدث عن النمل والنوارس المشوية. وإن عاجلًا أم آجلًا سيعود إلى المنزل معك ويصلح كل ما خرب. وفي ذلك اليوم أرسله أيضًا إليَّ قليلًا، من فضلك، لأنني عندما آخذ دُشًّا يغرق المطبخ أيضًا.

قلت:

- بالتأكيد.

بل إنني صرخت، حتى وإن لم أكن أعرف بأي أنفاس، لأنني كنت أستمع إليها دون أن أتنفس.

- سأرسله إليك، حقيقي، وهو في كل الأحوال يذهب بكل سرور. لا يجب أن تدفعي له، ولا يجب حتى أن تقولي له عن الدُّش. يكفي أن تدعيه لتناول القهوة، وهو قبل أن تجهزي

القهوة سيكون قد سمع أن شيئًا ما معطوبًا في المنزل. وفي خلال دقيقة سيذهب بكل الأدوات الغريبة، يفعل أشياء عجيبة، وخلال دقيقة أخرى سيعمل كل شيء من جديد. أجل، أجل، بمجرد عودة أبي سأرسله إليك يا مارتينا، أقسم. يكفي أن تعدي القهوة، وإذا دعوتني فسآتي أنا أيضًا معه.

أشارت مارتينا بالإيجاب، وفكرت للحظة:

- حسنًا، وعندئذ لا بد أن تصلح أيضًا ماكينة القهوة، فهي أيضًا معطوبة.

ونظرت إليَّ بشفتيها ترتعشان مثل الأشياء البعيدة على الطريق في الصيف، وتلسعك الشمس بقوة. وربما بدأت أنا أيضًا، وربما معًا، ومرت ثانية، وانفجرنا بعدها في الضحك. كيف حدث هذا؟ لا أعرف، وأعرف أن مارتينا أيضًا لا تعرف، وهكذا هي الأشياء الجميلة. من السهل للغاية أن تضحك بدافع محدد، عندما يدغدغونك أو في نهاية نكتة ألقيت جيدًا. والأجمل هو الضحك هكذا، لأنه يأتي بلا دافع، مثل العطسات التي تطرد الأتربة من الأنف، تلك الضحكات تطرد المرارة من القلب.

ضحكنا بقوة، بقوة شديدة، وكثيرًا جدًّا حتى وصل ممرض من الممر بإصبعه أمام فمه، وقال لنا أن نخفض صوتنا، وأن ساعة الزيارات قد انتهت. اعتذرنا، ونظر كل منا للآخر، ووضع كل منا يده على فمه، لأنه ما زالت تفلت منه بعض الضحكات.

التفتُّ نحو أبي، وربما بقطعة مجنونة في رأسي تمنيت أن أجده هو أيضًا يضحك. ولكن هذا لم يحدث، وكان هذا أيضًا حسنًا. نهضنا، وتأكدت أن الأنبوبة الصغيرة موضوعة جيدًا في فمه، وأن الكومودينو قريب بما يكفي من فراشه حتى وإن لم يكن في استطاعة أبي استخدامه. لأنه، من يدري، أحيانًا كنت أفكر أنه ربما كان مثل الألعاب التي في تلك الحدوتة المعروفة، تنهض في الليل عندما ينام الجميع وتبدأ في الحركة والمشي في المنزل، وكانت لها حياتها التي لا يعرفها أحد. أبي ليس لعبة، هذا حقيقي، وربما تكون هذه مجرد حدوتة خيالية، لذلك كنت ألقي دائمًا بنظرة على الكومودينو.

ثم، حتى مع وجود مارتينا، انحنيت فوقه وأعطيته قبلة على وجنته، وقلت له: «إلى الغد».

ذهبنا نحو الباب، وتوقفنا لنحييه مرة أخرى، وقلت له «سلام يا بابا»، وقالت هي «سلام يا والد فابيو»، ولوحنا بيدينا نحوه. ثم خرجت مارتينا، لأنها كانت معتادة أقل على المستشفيات ولم تكن تعرف أنه عندما يقول لك الممرض إنك يجب أن ترحل، وأنت تجيب بنعم، ما زالت أمامك خمس دقائق أخرى يمكنك أن تستغلها.

في الواقع توقفت ثانية أخرى أمام الباب، لأنني من هنا بدا لي أنني قرَّبت الكومودينو أكثر مما ينبغي، وماذا إذا استدار في الليل واصطدم فيه! نظرت إليه جيدًا، وكان الكومودينو حيث يوجد دائمًا، ساكنًا مثل أبي، وكل شيء كان عاديًّا هكذا. وأنا على وشك الرحيل، قبلها بلحظة واحدة، لم يعد هناك أي شيء عادي في الكون كله.

لأن ذراع أبي تحركت. ليست حركة فجائية عشوائية، رعشة مثل تلك الحركة الكهربائية: لا، لا، رفع أبي ذراعه ولوح بيده لي إلى هنا وهناك مرتين، تمامًا مثلما لوحنا له نحن.

تحرك أبي، تحرك بالفعل، وتجمدت أنا أمام الباب.

عادت مارتينا، ونظرت إليّ. إلا أنني كنت أنظر إليه، وعندما استطعت صافحته من جديد ملوحًا بيدي، ولم يحدث شيء.

مكث كما هو، عينه عليّ ولكنه ساكن. عندئذ ربما كنت أتخيل ما حدث، أو ربما كان رد فعل غير إرادي وعشوائيًّا، أو تفسيرًا آخر من تلك التفسيرات الجامدة التي يجدها الأطباء على الفور.

ولكن تبخرت كل تلك التفسيرات في ثانية، بمجرد أن رفع أبي ذراعه وحياني مرة أخرى. حدث هذا بوضوح شديد إلى حد أن أفلتت من مارتينا صرخة رعب.

لوحنا له نحييه مرة أخرى، نحن الاثنان معًا، ومن جديد لا شيء لوهلة. الدقيقة نفسها، ثم رفع أبي ذراعه ولوح مودعًا. وهكذا، وهكذا، وفي كل مرة توجد هذه الدقيقة في المنتصف، وكأن المكان الذي يرسل منه تحيته بعيد جدًّا، وأنه يستغرق بعض الوقت ليصل إليه. كما يحدث عندما ترى البرق في وسط الليل، وتشعر بالكهرباء في الهواء، وتعرف أنه بعد قليل سيصل فوقك انفجار الرعد. وهكذا كان يحدث في كل مرة نحيي فيها أبي، وبعدها بقليل يحيينا هو.

كنت ألوح بيدي وأبتسم، وأبتسم جدًّا، وربما كان أبي يبتسم هو أيضًا أخيرًا. ولكنني لم أستطع رؤيته جيدًا، لأن عينَي، دون أن تطلبا إذني، بدأتا في الامتلاء بالدموع. إلا أنني لم أخجل، لأن الشيء نفسه حدث لمارتينا، وكنا نبكي ونضحك، ونلوح لنحيي أبي هناك.

لأنه توجد أشياء تحدث لتضحكك وأخرى تحدث لتبكيك، وتوجد أشياء عملاقة إلى حد أنها تعصف بكل شيء، وأنت تطير بعيدًا معها تضحك وتبكي في الوقت نفسه، ولتلوح بيديك بطريقة عشوائية في الهواء المشبع بالبرق والرعد، والرعد والبرق، في أحضان عاصفة تُسمى السعادة.

(٢٢)

ناس البقعة

إذا كان هناك أمر مستحيل بالفعل في العالم، فهو وجود أشخاص يصدقوننا حتى إن كان هذا أمرًا مستحيلًا. إلا أن أولئك الأشخاص موجودون، بل إنهم كثيرون، ولهذا فإن هذا يعني أن كل شيء في هذا العالم ممكن، وكيف يمكن لأولئك ألا يدركوا هذا! أنا لا أعرف.

أعرف أنهم سيغيرون رأيهم على الفور، إذا قاموا بجولة في أيام مايو تلك التي نعيشها نحن، حيث الأشياء المستحيلة كانت كثيرة جدًّا حتى إنها عمليًّا كانت الوحيدة التي تحدث.

في لوكًّا، حيث مر شهر من عصر يوم السبت الذي حياني فيه أبي بيده، والآن كان يستخدم الاثنتين ليمسك بالأشياء ويفحصها، ليشد على يديك، وليجذب نفسه إلى أعلى بجذعه ويلمس بهما قدميه اللتين لا ترغبان في الاستيقاظ بعد، حتى هنا، في يوم الأحد بعد الظهر، الذي كان يبدو كأي يوم صيفي، وأمام الصواني المذهبة من الكرتون، والضخمة كأنها الجراجات، بين العجائن والحلوى

المستلقاة، وسط الموسيقى والرقصات وضحكات الصبية والصبايا في نفس سني.

عندئذ لا بد لأولئك المُشككين أن يستسلموا لفكرة أن كل شيء ممكن، لأنني اليوم، مع ماسيمو الصغير بل ومانويل ويولاندا أيضًا، نحن هنا، رسميًّا مدعوون إلى حفل عيد ميلاد حقيقي.

بل إنه الحفل الأكبر في منزل بياتريتشى التي كانت الأكثر ثراءً في المدرسة وربما في البلدة كلها، نظرًا لأن أباها هو السيد ماركوني صاحب شركة خدمات الجنازات «ماركوني»، وعندما تموت لا يعرف أحد إذا كنت ستذهب إلى الفردوس أم الجحيم، ولكن بالتأكيد كان هو من يأخذك.

في الواقع كانت الفيلا عملاقة، ومن هنا في الخارج تبدو فندقًا، الحديقة كانت متنزهًا من العشب الطازج والمقطوع لتوِّه، وبالإضافة إلى صواني المعجنات والكنابيه كان المسبح يتلألأ، كان أكبر بكثير من ذلك الذي رأيته منذ زمن بعيد من حقل العم أرنو، في حديقة ذلك الصبي الثري الذي كان لديه بوني. وهنا لا أرى أي بوني، بل متنزه متسع الأرجاء، وبالتالي كان يمكنه أن يكون في مكان آخر، مع بعض الفيلة والزرافات في حديقة سافاري كاملة.

مع كل هذه المساحة التي لديهم، يوم الأحد السابق كان يوم حفل التثبيت، وودعت والدة بياتريتشى الجميع في الكنيسة قائلة: *«سنلتقي الأحد القادم، أوصيكم يا أولاد، جميعكم في عيد ميلاد طفلتي!»*، وصفقنا نحن، ولكننا لم نفهم جيدًا. ثم قال ماسيمو

الصغير «هل تعرفون؟ أعتقد أننا مدعوون إلى حفل»، عندئذ أعدت التفكير في كلمات السيدة ورأيت أنه على حق، وتحمست.

حتى وإن كنت يوم الأحد أذهب أنا وأمي دائمًا إلى أبي، وكان رائعًا أن نمكث ثلاثتنا معًا كما كنا في المنزل، عندئذ يوم السبت مساءً قلت لها إنني ربما أترك الحفل وأذهب إلى لوكَّا معها. كانت تجهز الجزر، وربما كان هذا هو سبب التفاتها نحوي وإشارتها بالسكين، وهي تجيبني:

- فابيو، سأقولها مرة واحدة ولن أكررها. أنت غدًا ستذهب إلى حفل صديقتك مع باقي أصدقائك، وانتهى الموضوع.

- ولكنها ليست صديقتي، لا أعرف حتى...

- الموضوع انتهى.

- وماذا عن بابا؟.

- الموضوع انتهى.

- ولكنني كتبت له صفحة جديدة عن أشياء مهمة جدًّا ويجب أن أقرأها له.

- الموضوع انتهى!

وهذه المرة كانت عيناها جادتين إلى حد أنها ربما تنهي الحديث بضربة سكين، عندئذ لم ألح بعدها.

بدأت أمي تقطع الجزر، ولكنها بعد وهلة:

- أقصى ما يمكن عمله، هو قراءة الصفحة التي كتبتها له، أعطِها لي وسأقرأها له.

صحت «أجلللل»! وجريت إلى حجرتي لأحضر الورقة. أعطيتها لها، سألتها إذا كانت ستستطيع قراءتها أم أنها مكتوبة بطريقة سيئة جدًّا. ألقت عليها نظرة وأشارت بنعم.

- هل أنتِ متأكدة؟ انظري جيدًا، هل تفهمين كل شيء؟ كل شيء؟ لاحظي أنها مهمة، بابا يسمع بالفعل، وهذا يفيده جدًّا.

عندئذ ألقت بالجزرة في الحوض، ولحسن الحظ، وضعت السكين جانبًا، ومسحت يديها بقوة في المريلة، ووضعت الورقة أسفل الضوء، تنفست وبدأت في القراءة بصوت مرتفع، في البداية تعثرت في بعض الكلمات، ثم قرأت بسلاسة أكثر كلما تقدمت في القراءة.

الملابس

إنه موضوع مهم، لأن الملابس لا بد أن يرتديها المرء إذا خرج، ولكن العديد من الملابس غبية وغير مريحة، إذن من يدري متى ستكون مريحة بالنسبة لك وأنت الذي لم تضعها منذ فترة طويلة.

إن الحذاء قبل كل شيء هو قمة عدم الراحة، إما يكون واسعًا جدًّا أم ضيقًا للغاية، قاسيًا أو طريًا جدًّا، وعندما تبدأ تسير فيه جيدًا، يصغر على قدميك وعليك تغييره. وبالنسبة إليك لن تكون

مشكلة، لأن قدميك لم تعودا تكبران، ثم إنك لفترة من الزمن يمكنك أن ترتدي الخف، وهو مريح جدًّا ولكن الناس تجده أقل أناقة، ولذلك لا يخرج به أحد. فيما عدا الأعمام وأصدقائهم، والذين لا يجب أن تحذو حذوهم أبدًا. وفي هذه الحالة هم على حق، لأننا يجب أن نرتدي الخف طوال الوقت، في المنزل وخارجه وأيضًا في الأعراس. في رأيي إذا ارتدى العالم كله الخف فسنكون أكثر استرخاءً وسعادة، ولن تكون هناك مشاحنات أو حروب. ولكن لا، الأشخاص لا يشعرون بأي راحة وعصبيون، ولذلك توجد حرب كل الأيام.

أنا على سبيل المثال، تراني أحضر إليك مرات عديدة بكنزة بطوط، والمرسومة بطريقة سيئة، أعلم هذا، ولكنها مريحة جدًّا، ويبدو لي أنني أرتدي سحابة تحتضنني. ولكنني لا يمكن أن أرتديها أيام السبت، لأنني آتي مع مارتينا وبالتالي أختار كنزات أخرى، ربما الأجمل ولكنها أقل راحة بكثير.

الكبار يفعلون الشيء نفسه، بل وأسوأ من هذا، لأنهم يستخدمون أشياء عجيبة مثل السترة وبالأخص ربطة العنق، والتي في البداية كنت أعتقد أنها تساعد على تدفئة الصدر، وكيف يمكن لخصلة قماش كهذه أن تدفئ؟ في الواقع هي لا تخدم في ذلك، ولا تخدم في أي شيء، ليست سوى عقدة على العنق تخنقك بعض الشيء، إلا أنه كلما زادت أهمية الرجال ساروا هكذا، ليأخذوا القرارات المهمة لنا جميعًا بقليل من الدم الذي يصل إلى مخهم.

ولكنك لا يجب أن تقلق بشأن ربطة العنق، فأنت لم تضعها قَط في حياتك، وبالتالي لا يجب أن تبدأ الآن. ولا حتى السترة. ثم ماذا يهمك أنت يا أبي من الأناقة؟ أنت لديك أمي بالفعل، وتحبك جدًّا جدًّا، وأنت تعجبها كثيرًا كما أنت، في فراشك بالبيجامة. فلنتخيل عندما تنهض وتأتي إلى المنزل معنا.

وعند هذه النقطة، توقفت أمي عن القراءة. كان الباقي سطرين، ولكنني فكرت في أنه ربما كانت يداي متعبتين في الخاتمة فكتبت بخط سيئ جدًّا. إلا أنها التفتت من جديد نحو الجزر، وأخذت السكينة ولكنها لم تكن تقطعها، مكثت هكذا وعيناها منخفضتان، وقالت لي «أحسنت»، ولكنها معوجة ومن الحنجرة، عندئذ فهمت أنا أيضًا، لماذا لم تستطع أمي أن تكمل القراءة.

اليوم هي في لوكًا عند أبي، وربما في هذه اللحظة بالتحديد تحكي له عن الملابس وعن الأخفاف، ويمكنني أن أمكث بهدوء في الحفل. ولكنني لم أكن هادئًا، بل كنت على نقيض الهدوء. كنت حساء من الانفعالات التي تغلي، وبين الأشياء التي كانت تلف في مرقتي، تظهر قطع قائمة من التوتر، وأخرى من الرعب، في وسط هذا الحفل الذي هو أول حفل لي، وفي الوقت نفسه أكبر حفل في التاريخ: مثل شخص لم يمسك قَط بندقية في حياته ويجد نفسه يحارب في الحرب العالمية.

في الواقع كأننا في الخندق، أنا والأتقياء السوبر الثلاثة، الضائعون مثلي تمامًا. ماسيمو يرتدي قميصًا أبيض وضعته أمه عليه بالقوة،

يولاندا ومانويل بالحلة الرياضية كالعادة. لحسن الحظ جاء مانويل فقط بالبيريه الأزرق المكتوب عليه الأتقياء السوبر بالذهبي، ولكننا خلعناه عنه في الوقت المناسب. كنا هنا، بالقرب من الصواني، ولكننا منفصلون عن كل شيء، من جهةٍ بحرُ المعجنات تحت أمرنا، ومن جهة أخرى أمواج من الصبية يرقصون ويضحكون ويتعانقون. فيما وراء المسبح وفي نهاية المتنزه، وفيما وراء الشبكة تبدأ الأغصان المتشابكة التي يسميها الآخرون «غابة»، ولم تكن أي غابة، كانت «بقعة النوتي».

أنا أيضًا أعرفها جيدًا، لأن أعمامي كانوا يمرون عليها في كل المرات التي لا يذهبون فيها إلى بار «الغزالة»، ويقفون داخل أكشاك الصيد الرائعة المبنية على قمة الأغصان وكأنها منازل صغيرة على الشجر، مليئة بطلقات الرصاص والجرابًا والنبيذ. وبينما ينتظر أعمامي وأصدقاؤهم الطيور المنحوسة التي ستمر، على الأرض كانت توجد أماكن غامضة تُدعى «المراقد»، مبنية بين الأحراش بواسطة رجال آخرين لديهم هوايات أخرى، ويستخدمونها ليختبئوا مع نساء، على حسب علمي، لم يكن زوجاتهم، وإلا كانوا رقدوا بكل راحة في منازلهم بدلًا من هنا، بين العليق والقراص، مخاطرين بأن تقرصهم الذبابة القراضية أو -كما حدث بالفعل بعض المرات- أن تصيبهم طلقة بندقية بطريق الخطأ.

وكنت أتساءل كيف يمكن أن يحدث، أي حركات وأي ضوضاء يمكنهم أن يقوموا بها حتى يعتقد أحد الصيادين من فوق

الأشجار أنهم حيوانات! هل كانوا يعتقدون أنهم أرانب أو خنازير برية، أو هل كانت فقط لديهم الرغبة الشديدة في إطلاق النار حتى إنه يكفي أن ترتعش الأحراش ليدوسوا على الزناد؟ حسنًا، لم تكن لدي أي فكرة، والشيء الوحيد الذي كنت أعرفه أنني لا يمكنني التفكير في هذا الآن، لأننا كنا في حالة حرب وأهم شيء هو النجاة.

لا بد أن ننجو بأنفسنا، وربما نتحدث مع شخص ما، بل يا حبذا لو استمتعنا أيضًا. ولكن يبدو لي هذا مشروعًا مستحيلًا، يرقص الآخرون ويضحكون مختلفين جدًّا وبعيدين جدًّا عنا، ومن المؤكد أننا سنمكث كل الوقت في مكاننا ننظر إليهم فحسب.

ولكن، أخيرًا، وصلت الدعسوقة.

وكالعادة وصلت متأخرة، عندما وصل الجميع منذ وهلة، مثل المغنين المشهورين الذين يصلون إلى الحفلات الموسيقية حينما يحلو لهم. أنت لا تراهم على خشبة المسرح قبل موعدهم بالتأكيد، ينظمون الأضواء أو ينظفون الأرض. لا، لا، يكون الجمهور بالفعل في انتظارهم من ساعة، ولا يكونون مستعجلين، ولا حتى خائفين من أن يفقدوا شيئًا: حيث إن العرض يبدأ فقط عند وصولهم.

والمغنيون يعرفون هذا، يصلون ويرفعون أياديهم ويتلقون التصفيق. ولكن مارتينا لا، جاءت جريًا ورأسها منخفض وهي تكرر «آسفة آسفة آسفة، كنت أساعد أمي، اعذروني اعذروني اعذروني». وضعت لفتها على طاولة الهدايا، في جبل لا بد من فك أغلفته، والذي ابتلع بالفعل هدايانا، وأخيرًا ها هي قد وصلت.

- آسفة، آسفة، آسفة. هل ما زلتم على قيد الحياة؟ ماذا حدث؟ ماذا فعلتم؟

نظر أحدنا إلى الآخر لوهلة، وأجابها ماسيمو الصغير بصوته ذي الأعوام الستة:

- وصلنا ومكثنا هنا.

والذي كملخص لحفلنا كان جافًّا جدًّا ولكنه كان أيضًا كاملًا.

أضفت أنا، وفي محاولة لتضخيم المسألة:

- أجل، ولكننا أيضًا أكلنا بعض المعجنات.

قالت مارتينا وهي تنظر حولها:

- حسنًا، اعتقدت أن الوضع كان أسوأ من هذا. أنا هنا لأن أمي أجبرتني. وأنتم؟

أومأنا جميعنا بالإيجاب فيما عدا مانويل الذي ابتسم فقط بعض الشيء.

أكملت هي:

- إليكم، يا للشقاء، كيف يمكن أن يرى والدانا أن هذا الشيء جيد بالنسبة إلينا؟ ما الفائدة في هذا؟

ابتسم ماسيمو الصغير، وهو ينظر إلى بعيد في اتجاهين مختلفين، والذي ينظر إليهما بعينيه المحولتين:

- إيه، سيكون جميلًا إذا كانت أحد تلك الأشياء التي لا نرى

لها معنى اليوم ولكن يومًا ما سنفهمها. إما أن أهلنا أشرار بالفعل ويتسلون بعذابنا فحسب. بل لا، الأمر أسوأ من ذلك. فهم أجبرونا أن نأتي لأنهم يصدقون هذا بالفعل، أن وجودنا في هذا المكان الذي لا يمت إلينا بصلة، جيد لنا. وهذا أسوأ مائة مرة، لأنه يعني أننا في رعاية أشخاص أغبياء جدًّا.

قال ماسيمو الصغير هذا، بصوته الذي لطفل صغير وفي الوقت نفسه حكيم جدًّا، والإجابة الوحيدة الممكنة كانت صمتًا طويلًا، بعض المعجنات المسروقة من الصينية ثم صمت آخر، ضخم جدًّا إلى حد أنه شد كل انتباهنا، مثل الحوت الذي يمر أمامك ببطء بينما تحاول أن تنظر إلى الأفق.

ومن الشرفة المفتوحة هناك، وصل صوت حاد مثل الحربون، ومزق الحوت وهزنا جميعًا:

- مارتينا! وصلتِ! مارتي!

كانت بياتريتشي، صاحبة المنزل، التي كانت تحييها دون أن تتحرك من الشرفة.

- هيا تعالي إلى هنا، هيا، بسرعة، ماذا تفعلين هناك؟

وأيضًا إن لم تكن قد قالتها، كانت العبارة واضحة في نبرتها وكأنني أسمعها، الخاتمة الحقيقية لسؤالها: «ولكن ماذا تفعلين في مكانك مع هؤلاء؟».

فجأة التفت الجميع لينظروا إلى مارتينا، التي لوحت بيدها، وابتسمت وأجابت:

- أهلًا يا جميلة! طبعًا، حالًا!

وشعرت أنا بالضيق، حتى وإن كان الأمر طبيعيًا جدًّا. إن ذهاب مارتينا إلى هناك كان أمرًا عادلًا، لأن مكانها كان هناك، في قلب الحفل، كما أن مكاني هنا في الأسفل، بمرارة في حلقي قوية جدًّا والتي لا يمكن لكل الحلوى في كل تلك الصواني الضخمة أن تزيلها عني.

ونظرت مارتينا إليّ، ثم نظرت إلينا وقالت:

- هيا يا شباب، هيا، لنذهب!

قالت يولاندا:

- إيه؟ أين؟

- عند أولئك. نحن في حفل، إذن هيا لنتعذب إلى النهاية!

لوهلة مكثنا ثابتين، وكأننا لم نكن نعرف الطريق لنصل إلى هناك، إلى قلب الحفلة. ورحلت مارتينا وسرت أنا خلفها والجميع في صف نتبع خطاها، وكأننا في حقل ملغوم، مثل ذلك الذي ماتت فيه جدتها، خطيبة العم ألدو، تلك الليلة في شهر مايو منذ أعوام كثيرة. واليوم أيضًا كان شهر مايو، ولا بأس أن فترة طويلة مرت على الحرب، ولكن الزمن يفيدنا في شيء واحد فقط، في أن نحسب حساب كل شيء، لأن كل شيء، إن عاجلًا أم آجلًا، يعود.

ذهبنا ونحن نتحاشى الراقصين، والمتلويين، والمتعرقين. وفي ذلك الوقت كنت أقول «ليكن من الواضح أنني لا أرقص»، وماسيمو «وأنا لا أشارك في محادثات غبية». وهكذا وصلنا إلى أسفل الشرفة المليئة بالزهور، والتي تقع بالتحديد أسفل بوابة كبيرة حيث كانت بياتريتشى محاطة بكل المدعوين الأكثر التصاقًا والأكثر أناقة: الوحيدون الذين كانت هي ستدعوهم في الحقيقة.

صاحت صيحة رفيعة وعانقت مارتينا، التي عانقتها بدورها بعض الشيء، ثم نظرت إلينا وأشارت بالإيجاب برأسها، ولم أكن أعرف ماذا تعني، ولكنني، متشككًا، فعلت الشيء نفسه. وإذا كانوا حتى تلك اللحظة يتكلمون عن شيء ويضحكون وما إلى ذلك، فالآن لم يفعلوا سوى التحديق فينا، صمتوا هم وصمتنا نحن، فيما عدا مانويل الذي كان يشتكي من أن الفطائر لم تعد موجودة.

قالت مارتينا: ملابسك جميلة.

وأجابتها بياتريتشى: هل هذا رأيكِ؟ شكرًا!

ونظرت إلينا وهي تمسد ثوبها، ذا الكتفين المنفوختين جدًّا وبلا أكمام، وفي رأيي كانت تشبه «سنو وايت».

ليس فقط بالنسبة لي، لأن ماسيمو الصغير أشار إليها وقال بالفعل:

- إن ثوبك يشبه ثوب سنو وايت.

أجابت هي بجفاء:

- آه، شكرًا.

- ولكنه يشبهه كثيرًا.

- فهمت، لا يبدو لي هذا، ولكن شكرًا.

- كيف لا يبدو لكِ هذا؟ أنا اعتقدت أنكِ متنكرة في زي سنو وايت، هل أنتِ متأكدة أنكِ لستِ متنكرة؟

أجابت بياتريتشي: أجل، أنا متأكدة جدًّا.

ثم استدارت إلى الجهة الأخرى.

هز اثنان من المدعوين الأولاد، أكبر منا بعامين، ومعهم سيرجو من فصلي، رؤوسهم، وقالوا لها إن الثوب جميل جدًّا، وهي أيضًا جميلة جدًّا. وكانت هي تجيب «ولكن، لا لا لا»، ويجيبونها هم «ولكن أجل أجل»، وربما كانوا سيستمرون هكذا إلى الأبد. وفي لحظة ما أمسكت بياتريتشي بذراعيها العاريتين برعشة، وهي تقف أسفل البوابة، وسألوها هم إذا كانت تشعر بالبرد.

أجابت هي: أجل، يوجد تيار هواء.

عندئذ انطلق الثلاثة في سباق ليُنزلوا مصراع البوابة الكبيرة. ولكنهم لم يحسبوا حساب مانويل الذي لم يكن سريعًا في التحدث أو في فهم الأشياء، ولكنه كان دائمًا الأول في مساعدة الآخرين. وفي الواقع انقض على حبل المصراع ووصل قبل الجميع، وحتى قبل أن تبتعد بياتريتشي من هناك، أسفله. وهمس *«سأفكر أنا في الأمر!»*، وأسقط المصراع الخشبي شديد الثقل، وكأنه مقصلة على

رأس المُحتفل بها. ضربة جافة جدًّا، ربما سمعها أبوها، من خدمات الجنازات الشرفية ماركوني، وفكر في أن لديه عملًا يقوم به.

واختفت بياتريتشي. أي اختفت عن الأنظار للحظة، ثم وجدناها على الأرض، مستلقية مثل سنو وايت عندما أكلت التفاحة المسمومة. ولكن أيضًا نصف واعية، وبداخلها يوجد بعض غريزة المجتمع العلوي التي تقول لها إنها يجب أن تتماسك، وأن تقف على الفور على قدميها وتصفف شعرها وتعدل من ثوبها. ساعدها سيرجو، الذي أمسك بذراعيها وسألها إذا كانت بخير، وأشارت بالإيجاب بوهن. الاثنان الآخران، من الناحية الأخرى، مكثا بأيادٍ فارغة وكانا يرغبان في عمل شيء ما، أخذا مانويل، وصرخا فيه: ما هذا التخلف الذي تفعله، أيها المتشنج، ما هذا التخلف؟! وجذباه من ناحية إلى أخرى من ياقة بدلته.

أخذ هو يعتذر ولم يفد هذا في شيء، أخذ ماسيمو ويولاندا يقولان: «اتركاه لحاله»، ومارتينا تصرخ «كفى أيها المجرمان!»، وهذا لم يفد أيضًا، لم يفد في أي شيء! عندئذ وفي فوضى كل الأشياء غير المفيدة ألقيت بنفسي أنا أيضًا. أقسم إنني لم أقرر هذا، بل ولم أعرف حتى ولكنني سمعت هذا الصياح القوي جدًّا، الذي بعده بدقيقة أدركت أنني أنا من كان يصرخ:

- اتركاه يا غبيان! لتتعاركا معي أنا إذا كانت لديكما الشجاعة!

عبارة رائعة، تمامًا كما تُقال في الأفلام، وفي الواقع جميعهم توقفوا عن فعل ما كانوا يفعلونه والتفتوا نحوي. إلا أن الوضع في

الأفلام مختلف، يحدث أن يكون هنا متجبرون يعاملون الشخص المسكين الأعزل معاملة سيئة، وتهبط عليهم هذه العبارة ويلتفتون ويفهمون أنهم في مأزق، لأنه في تلك اللحظة كان يمر «ستالوني» أو «شوارزنجر» أو شخص قوي آخر، ولا يكون أمام المتجبرين سوى تمني أن يصلوا إلى نهاية يومهم ببعض عظامهم سليمة. أما الآن، هنا في الحفل، التفت الاثنان ليجداني أنا أمامهما، والذي على الرغم من شعري كله المرتفع جدًّا أصل بالكاد إلى صدريهما، وقدماي أرفع من رسغيهما. عندئذ، عندما سمعا عبارتي «لتتعاركا معي أنا إذا كانت لديكما الشجاعة!»، في البداية فكرا في أنهما فهما خطأ، ومن الواضح أن تلك الشجاعة لديهما، وبالتالي تعاركا بشدة معي.

بل، والأسوأ، أنه كان في إمكانهما الشجار معي، دون حتى أن يتركا مانويل. في الواقع حملانا نحن الاثنان، ووسط كل المدعوين الذين تجمعوا حولنا كأنهم جمهور من الساديين، وأخذونا نحو المتنزه، ونحو صواني الحلوى، وبعدها بقليل، ثم أصبح من الواضح أنهما كانا متجهين إلى المسبح.

وفي عاصفة من الضحكات والتصفيق، والتي بينها صوت مارتينا، وهي تصرخ أن يتركونا في حالنا، هاجمت ذراعَي من يحملني، ولم أعد أسمعها، بل لم أعد أسمع أي شيء، فقط الهواء المحيط بنا، بينما أطير وأنا لا أعلم الأعلى من الأسفل. استمر الوضع لحظة ثم تغير كل شيء، وفجأة عرفت أين المياه: المياه أسفلي، بينما أذهب إلى العمق.

ولا يمكن لمس الأرض، أسفل قدمَي المزيد من المياه، وقوة غامضة تبدو وكأنها تسحبني للأسفل. ولكن الأمر لم يكن كذلك، حدث وللحظة، ثم حركت ذراعي وعدت إلى السطح. لأنه يوجد شيء أجيده وهو السباحة. علمني إياها أبي، في ذلك اليوم عندما أخذني إلى عرض البحر بالطواف، ومثل هذين الاثنين أخذني وألقى بي هكذا، في عمق البحر حيث لا تُلمس الأرض. ولهذا في البداية تشعر بالخوف، تصارع وتشرب وتصرخ وتيأس، وفقط لأنك ما زلت تتمتع بأنفاسك، لأن قلبك ما زال ينبض، لأنك بالفعل على السطح وعلى قيد الحياة.

ربما لم يكن لمانويل أب بارع، في الواقع صرخ وشرب واختفى أسفل المياه. عندئذ سبحت نحوه، أخذته من بدلته وجذبته حتى حافة المسبح، وبالتدريج عاد ليتنفس.

مكثنا في مكاننا متعلقين، مبللين ومثيرين للسخرية، وحولنا ضحكة قوية جدًّا جمدت كتفي. ولكنني أخرج من المياه، ومع برودة الهواء أشعر فوقي بدفء عيني مارتينا، الجميلة جدًّا والمُعجبة.

فقد عامل أحدهم مانويل مرة أخرى معاملة سيئة، ولكنني هذه المرة لم أصبح الذئب، ولم أمكث حتى لأشاهد، لقد دافعت عنه بل وأنقذته أيضًا. إذن فأنا مبتل تمامًا وتؤلمني إحدى كتفَي، وفي المدرسة سيتحدثون لأعوام عن هذا المشهد، ولكنهم لن يتحدثوا معنا أبدًا، وبالتالي هذا لا يهم. المهم فقط كيف تنظر إليَّ مارتينا الآن، وكيف يبتسم لي مانويل، ولهذا كل شيء على ما يرام.

واستمر الأمر هكذا لدقيقة أخرى. ثم، أكثر من الضحكات، ومن السخرية والموسيقى التي ما زالت تصدح، وأكثر من الريح الباردة على جلدي والحبكات المتوقعة في الأفلام العظيمة، تصل خلفي تلك الصيحات الجديدة والمختلفة جدًّا، من كثافة الغابة فيما وراء الشبكة.

بل، سقطت الشبكة أيضًا ومن خلفها يتقدم أربعة رجال ببنادق نحونا، محولين فيلم هذا اليوم إلى قصة رعب. لأنهم يصلون بخطوة أعرفها، ولا حتى أنا الذي يصدق بكل شيء، يمكنني أن أصدق هذا، بينما أحدق في العم ألدو والعم آتوس، وأصدقائهم مارتي، وأورانو، وجينو.

يصرخ ألدو بصوته الخشن:

- أوه، لا بد أن تمكثوا صامتين! إنكم تخيفون الطيور، قرفتمونا.

وعلى الرغم من أنفاسه المتقطعة، يلحق ذلك بسلسلة من السباب الذي لا ينتهي.

لوهلة مكث المدعوون في سكون، فيما عداي الذي بالتدريج أتزحلق حتى اختبئ خلف ظهر يولاندا العملاق، وفيما عدا بياتريتشي، التي تصل من الشرفة بكيس من الثلج على رأسها:

- من أنتم؟ هذه ملكية خاصة.

وأورانو:

- الملكية الخاصة سرقة!

كلمات بلا معنى في أجواء الحفل، فقط صوت أجش تفوح منه رائحة النبيذ.

- وأيضًا هذه حفلة خاصة ولم يدعُكم أحد!

قال العم ألدو:

- في الواقع نحن لا يهمنا أي شيء من حفلتكم تلك. نحن هنا لنفعل ما يخصنا في بقعة النوتي والتي هي ملك الجميع. كان يمر سرب من طيور الزرزور، وهرب بمجرد سماع الضوضاء التي تفلت منكم، لا بد أن تصمتوا!!

كانوا يرتدون الملابس التمويهية، أحزمتهم مليئة بالخراطيش ويمسكون البنادق بأذرعهم وعلى رأسهم قبعات عجيبة مغطاة بالأغصان والأوراق. وأمام أولئك الصبية شديدي الجمال والأناقة بدوا لي أكثر غرابة من المعتاد، تقريبًا بدا وجودهم مستحيلًا في ذلك المتنزه الدقيق جدًّا والنظيف. ولكن هذا هو المقصود، لا شيء مستحيل، والأعمام وأصدقاؤهم موجودون هنا مستقيمون ويصيحون بذلك بقوة أمام العالم. لأنهم هكذا، هذه هي لعنتهم، وصلوا إلى سن الأربعين بلا زواج وبالتالي الوداع. ربما لم تكن تلك رغبتهم، ربما هم أيضًا عندما كانوا في سني صارعوا لكي لا ينتهوا إلى هذه النهاية، فقط لم ينجحوا في ذلك، ربما الذنب هو ذنب بعض الأعمام الذين أتوا ليحولوا حياته إلى فوضى.

بالتأكيد لم تكن لديهم صديقة عملاقة مثل يولاندا، والتي خلف

ظهرها يمكنني الاختباء حتى «يوم الحساب»، أو على الأقل حتى يتوقف أعمامي عن إفساد الحفل ويعودون إلى البقعة ليصفوا حساباتهم مع الطبيعة.

إلا أنه، بالإضافة إلى يولاندا، لدي صديق ليس خبيثًا جدًّا اسمه مانويل، يبدو مبلولًا تمامًا على حافة المسبح. ومن اللا شيء، قال مناديًا، بانفعال شديد، وبصوت عالٍ:

- فابيو! أوه فابيو! هل يمكنني شجربة البنشقية؟ هل يمكنك أن تشأل أعمام إشا كان يمكنني؟

صرخ هكذا، وأنا ماذا يمكنني أن أفعل، أمكث في صمت وثبات، وأتمنى أن يخطئ العالم دورته وينحرف بعيدًا عن هنا.

إلا أنه، بعد صوت مانويل، يصل لي ذلك الصوت الأجش والأكثر انحرافًا للعم آتوس، والذي يراني ويأتي نحوي:

- إيه يا صبي، ماذا تفعل هنا؟ ألدو، تعالَ لترى من هنا، الصغير هنا!

- إيه؟ الصغير كيف؟ أين؟

تستدير يولاندا، وتتحرك، وأمكث أنا هكذا، رابضًا أمام عيونهم وعيون الجميع أيضًا. أشعر بها جميعها نحوي واحدة واحدة، وبينما عيناي ترشقان في عمق العشب بحثًا عن مكان لتدفناني فيه.

- يا صغير، اللعنة، ماذا تفعل هنا؟ هل تمشي مع هؤلاء الناس؟

كنت أريد أن أقول لا، أبدًا، فقط اليوم. وبسبب خطأكم لن يحدث هذا مرة أخرى. إلا أنني لم أُجب، كما أنني لا أرغب في الرد على بياتريتشى التي على الفور تناديني بإصبعها المسددة نحوي:

- اسمع أنت.

ونظرًا لأنها لا تعرف اسمي، بل بالنسبة إليها لا اسم لي، مثل تلك القطط الضالة التي لا يجب أن تربت عليها حتى لا تلتقط مرضًا.

- أولئك السادة هل أتوا ليأخذوك؟ هل تعرفهم؟

أنظر إليها، وأنظر إلى أعمامي بالأغصان والأوراق على رؤوسهم تتأرجح بينما يومئون بالإيجاب بكل اقتناع، ثم لا أنظر إلى أحد وأقول فقط لا.

- أوه! وكيف لا!

يقول العم آتوس، الذي يقترب وينزع قبعته، لأنه يعتقد أنه متنكر تنكرًا جيدًا جدًّا إلى حد أنني لم أتعرف عليه:

- أوه يا صغير، إننا نحن!

- إليك.

قالت لهم بياتريتشى:

- بل أنتم أيضًا كاذبون، هنا لا أحد يعرفكم، ارحلوا من هنا!

ولكن أعمامي لا يجيبونها، لأنهم تضايقوا جدًّا إلى حد أنهم لم يستطيعوا التحدث، استطاعوا فقط التحديق فيَّ.

عندئذ فكر مارتي في شيء:

- كيف لا نعرف أحدًا؟ هذا الصبي هو حفيدهم. بل، عمليًا إنهم آباؤه. قل لهم يا صغير، هيا، هل هذا حقيقي أم لا؟

بدأ حشد المدعوين حولي يتبادل قول أشياء، كلمات لا أفهمها وبالتأكيد كلها سيئة. وأنا هنا، مبلل وأرتجف أسفل عيون الكون كله وتعليقاته.

هذا ليس عدلًا، ولا معنى له: في الحياة يمكن للمرء أن يكون له أب واحد، وعلى أقصى حد جدَّان من الرجال. وهو أمر معروف، والشيء الأول الذي تتعلمه في المدرسة. إذن فأنا لا يمكنني الاختيار، لا يمكنني أن أغير قواعد أسس العائلة، وإلا لسقطت العائلة ومعها المجتمع ثم العالم بأسره. أستطيع فقط أن أجيب بالحقيقة، إذن أبحث عن نفس في أعماق صدري، وأستخدمه لأقول:

- لا، هذا ليس حقيقيًّا، لستم آبائي ولستم حتى أجدادي.

أقول هكذا، وحتى إنني عندما فكرت فيه بدا لي حقيقيًّا، بسيطًا ورسميًّا، ولكن عندما سمعته يخرج من فمي كان صوته بشعًا وشعرت بألم في حلقي.

ولكنه تسبب في إيلامهم هم أكثر، لأن وجه العم ألدو تلوى في تعبير ضائع ولأول مرة منذ أعوام كثيرة فقد فم العم آتوس ابتسامته الثابتة وظل مفتوحًا وممرورًا، بينما وضع اليد الخالية من البندقية على قلبه.

وفي المتنزه ساد الصمت الرهيب، وحاول السيد مارتي تغيير الحديث. قال وهو يشير لبياتريتشي:

- وأنتِ، أنتِ سخيفة جدًّا يا سنو وايت!

- أنا لست سنو وايت!

- لا؟ إذن لماذا أنتِ متنكرة في زي سنو وايت؟

وصل صوت ماسيمو الصغير، غير المرئي في وسط الزحام:

- أجل، بالفعل، لقد قلت لها هذا يا أستاذ، ولكنها تصر على الإنكار!

صاحت بياتريتشي:

- كفى! ارحلوا من هنا! أنت وأنت!

تقصد أنا وماسيمو.

- أنا لم أكن أريدكم في منزلي، أنا لا أعرفكم! إنها أمي، هي التي دعت الجميع ودمرت حفلي!

أومأ ماسيمو بالإيجاب وقال:

- ولا نحن أيضًا كنا نريد الحضور، لقد أرسلتنا أمهاتنا.

إذن ربما مارتينا كانت على حق: الآباء والأمهات، الخطأ دائمًا خطأهم. في الواقع في هذه اللحظة بالتحديد، ها هم يصلون في خطوات سريعة من الفيلا، مستعدين لزيادة الوضع سوءًا.

إنهم والدا بياتريتشي مع بعض الكبار الآخرين. وإذا كان الصبية

قد تمت دعوتهم جميعًا، يتضح على الفور أن الكبار تم اختيارهم بعناية دقيقة، شديدي الأناقة بالسترة وربطة العنق، والسيدات بأثواب جميلة جدًّا تبدو وكأنها ستائر مكلفة، منزوعة من النوافذ وملفوفة على أجسادهن. يمسكون كؤوسًا في أياديهم داخلها شيء ملون، لم أشربه قَط، ولكنني شممت رائحته كثيرًا مع أعمامي، وأعرف أنه يحرق الأنف إلى أعلى حتى يحرق لك الأفكار في ذهنك. وفي هذه الحالة كان هذا آخر ما نحتاج إليه.

بجوار والد بياتريتشى يقف صاحب صيدلية البلدة. لا أعرف الآخرين، وأشار الأعمام إلى أحدهم، أصلع، وقالوا:

- انظر، يوجد أيضًا عضو المجلس.

ثم انحنوا أمامه انحناءة مفتعلة.

توجه السيد ماركوني على الفور نحو ابنته، ضمها وقال لها كلمات عذبة، بينما ينظر إلى الأعمام ومارتى وأورانو وجينو نظرة سيئة جدًّا. سألهم ماذا يريدون وكيف دخلوا.

- كيف دخلتم أنتم إلى بقعة النوقي!

- هذه ملكيتي الخاصة، البقعة تبدأ بعد الشبكة.

- بالتأكيد، لأنك سرقت منها جزءًا وصنعت هذه الحديقة الجميلة! وكيف فعلت ذلك! الأمر الآن واضح.

أشار العم ألدو إلى ذلك الذي دعاه عضو المجلس، والآخر أجابه بأن يحترس في طريقة كلامه.

- أنا لا أحترس أبدًا، ولا لأي شيء!

قال العم، وأنا أريد أن أصمت فقط وربما أن أختفي في ثقب أسفل الأرض، وإلا كنت سأقول لأولئك السادة أن يحترسوا، لأن ما قاله حقيقي جدًّا.

- بابا، إنهم يدمرون حفلي، أبعدهم من هنا، أبعدهم بعيدًا!

- أوه!

قال العم ألدو هذا، بوجهٍ، بالتأكيد شرير حتى وإن كنت لا أستطيع أن أنظر إليه؛ أشعر بخجل شديد جدًّا وأسدد عيني نحو المسبح، وأنا أفكر في كيف ألقوني بداخله من خمس دقائق.

- نحن لا أحد يطردنا، وسنرحل بمفردنا. وعليكم أن تنهوا هذه الفوضى.

- أي فوضى؟

- هذه الفوضى! الموسيقى والصياح وكل شيء آخر.

- هذا طبيعي، إنه حفل.

- لا، ليس طبيعيًّا على الإطلاق، وفي الواقع تهرب الطيور مبتعدة. الطبيعة مقدسة، وعليكم احترامها! وإلا ستهرب الطيور ونحن لن نطلق ولا طلقة واحدة!

ربما يكون حوار الطبيعة ذلك أقنعهم، وربما لأن العم بينما يتحدث كان يلوح ببندقيته في الهواء، لم يجبه أحد. عندئذ ربما ينتهي

الأمر بهذه الطريقة بينما يتلفت عمّاي وأصدقاؤهما، ويعودون صوب الشبكة التي أسقطوها، ويصلحونها بطريقة أو بأخرى، أو يختفون وسط الغابة الكثيفة مع العصافير وباقي الحيوانات البرية.

أو على الأقل هذا ما أتمناه أنا، وأتمناه بكل قوتي. ولكن كان تلك الصرخات الجديدة أكثر قوة، إلى حد أنها قفزت على أمنياتي وخنقتها بلا رحمة. لأنها تأتي هي أيضًا من الغابة، أنا أنظر إلى هناك، وبدلًا من رؤية عميَّ يرحلان ها هما الآخران يصلان.

إنهما أديلمو على كرسيه المتحرك وآراميس يدفعه. إذن ها نحن الآن كاملو العدد. بل لقد قرر القدر اليوم، بالتحديد، أن يمزح، لأن وجود العم أديلمو في رحلة الصيد هو أمر جديد تمامًا: فهو لا يمكنه بالكرسي ذي العجلات أن يخاطر ويسير على الطرق غير الممهدة، ولذلك يجب أن يمكث في المنزل ويسب إخوته في أثناء خروجهم، ثم يسب بمفرده، ثم يمكث وهو ينظر إلى ساقيه وهو في غاية الكآبة والحزن، إلا أنه الآن ها هو هناك، يصل والبندقية في يده، وعيناه تنظران إليَّ، إلى هذا العصفور الصغير الذي لا يجد مكانًا يهرب إليه، في انتظار طلقة تنزعه من الحياة.

ولكن العم لم يطلق الرصاص، بل رفع البندقية بيديه الاثنتين ولوح بها، وناداني بصوت تقريبًا لم أتعرف عليه. لأنني أقسم إنه صوت فرِح، فرح وعذب، عجيب جدًّا أن يصدر من فمه إلى حد أنني اعتقدت أنه شخص آخر، شخص يشبهه كثيرًا في وجهه، ولا يمت بصلة إلى طباعه.

- فابيو، فابيوتو، انظر أين أنا! أنا أصطاد مع إخوتي، بحق السماء!

وتُركت يد البندقية لتلمس الكرسي ذا العجلات، ولتربت على مسند الذراع العريضة والطرية. عندئذ أدركت أنه ليس كرسيه المعتاد.

- قل لأبيك إنه عظيم جدًّا! وإنه يجب أن يعود بسرعة إلى المنزل، لأنني أريد أن أمنحه قبلة! قبلة على فمه، أحذركم يا أولاد أنني سأفعل ذلك فلا تفزعوا، بمجرد أن أراه سأمنحه قبلة على فمه، اللعنة!

أنظر إليه، وأنظر إلى الكرسي المتحرك الجديد، ومثل كل الأشياء العملاقة في الحياة، لا أفهم في البداية. لا، لأن الأمر كبير جدًّا وتلزمه مساحة، وبالتالي لا بد أن يجمع بهدوء كل ما يوجد في رأسي ويلقي به إلى اللا شيء، ثم يأخذ وضعه ويعطس، ويقلب كل شيء ويحملني بعيدًا.

وبالفعل لم أعد هنا، ولم يعد الحفل موجودًا ولا الفيلا ولا حتى المسبح، يختفي المدعوون وتموت الرياح التي تجمد ملابسي على جلدي.

بل إن يوم مايو هذا لا وجود له، لأنني أتدحرج ضد التيار على نهر الزمن وفجأة هأنذا في يوم من أيام ديسمبر منذ ثلاثة أعوام، وتقريبًا في أمسية ما، وتقريبًا في ليلة الميلاد. أقسم إنني حتى لحظة مضت لم أكن أتذكره على الإطلاق، والآن لا يوجد أحد سواه.

هو وأنا، أحدق في دراجتين جبليتين قديمتين، بلا عجلات، خارجتين من ورشة أبي، متمنيًا أن يكون منهمكًا في تركيب واحدة جديدة من أجلي، نموذج سوبر يصعد الحفر بمفرده بقفزات تقترب من الطيران. أدخل، وفي الورشة، الضوء قليل ويكفيني لأن أفهم أن أبي منحني شيئًا، ليس دراجة. أراه على الفور، وبعد قليل يظهر بوضوح، إنه كرسي متحرك. صنعه هو، كله بمفرده، وهو يلحم قطعة بعد أخرى، مقاوِمة، وفي الوقت نفسه خفيفة جدًّا، ملونة بألوان تمويهية وبأربع عجلات كلها متساوية، بالتحديد، عجلات دراجتَي الجبل الموجودتين في الخارج. ومسندا الذراع الطريتان مع مكان لكوب الماء أو على الأرجح لكوب النبيذ، وآنية بلاستيكية أسفل المقعد، والتي يشير إليَّ أبي بأنها تفيد في حالة الحاجة إلى التبول. ثم انتهى لأن يكتب فوقها بقلم عريض اسم تلك العربة الرائعة:

عربة دفع رباعية خاصة جدًّا لأديلمو مانشيني

يرفع القلم وعينيه عن المعدن، وينظر إليَّ ويبتسم ويقول: «هدية عيد الميلاد». وتذهب أنفاسي وأنا أتخيل فرحة العم أديلمو عندما يتلقى تلك المفاجأة الرائعة، إلى حد أنني شعرت برغبة في البكاء، من يدري ماذا سيشعر هو الذي يشكو دائمًا من أن كرسيه المتحرك يجب أن يظل على الطرق الممهدة، «ولا يحدث أي شيء مثير، على الإطلاق، على الطرق الممهدة».

والآن تغير كل شيء، بفضل تلك العربة الخاصة جدًّا التي صنعها أبي، بسبب هذا الاختراع العبقري، مفاجأة صاخبة جدًّا في

عيد الميلاد، ولا بد أن نحترس، لأنه ربما يراها العم أديلمو ويصاب بصدمة من الانفعال.

إلا أن أمامنا يومين على عيد الميلاد، وفي مساء الغد في الكنيسة ستكون الليلة الكبيرة لمسابقة المغارات. ولإطلاق الشلالات لتعمل، لا بد أن يصعد أبي إلى قمة السلم، وأنا أرتدي زي الملاك وأعلق هناك في الأعلى، لأراه ثم يختفي عن نظري، لأراه من جديد على الأرض ثابتًا ومنطفئًا. ومن وقتها لن يكون لأي شيء معنى، لا شيء في العالم، لنتخيل الكرسي الخاص بالعم أديلمو، والذي ظل إلى الأبد مغلقًا ومُخبأ في ظلام الورشة وعن رأسي الفوضوي.

أقصد إلى الأبد حتى اليوم. من يدري عما كان يبحث أعمامي في ورشة أبي، ثم عثروا عليه، وعثر العم أديلمو على السعادة. وينفعل بكل هذه الفرحة، وآراميس خلفه يضحك ويصرخ فيه أن يتحرك بهدوء وإلا سينقلب.

- سأعطي لأبيك قبلة على فمه! قبلة على فمه بمجرد أن أراه!
شيء مقزز؟ وماذا يهمني؟ سأعطيها له في كل الأحوال!

ويبدأ من جديد في التلويح بالبندقية، ويُصوب في الهواء، بينما يصفق له أعمامي الآخرون ويصيحون «أحسنت»، لأن عيد الميلاد لم يعد له وجود، توجد فقط تلك الفرحة المفاجئة والغامرة، وكل الأشياء الموجودة هنا في المتنزه والتي أشعرتني بالتوتر ليست سوى أشياء غبية وزائفة، شحبت أسفل شجاعة أبي وعبقريته وروعته.

وهذا بدا لي عجيبًا الصوت المشتكي لبياتريتشى، التي لم تدرك أنها لم يعد لها وجود، وتصر على أن تنوح لأبيها:

- أبعدهم من هنا يا بابا، أرجوك، أبعدهم فورًا من هنا!

يقول هو بكل جدية وهو يفك قليلًا عقدة ربطة العنق:

- يا سادة، الآن أنا متعب فعلًا، اخرجوا فورًا من ملكي الخاص!

عندئذ يدرك العم آراميس والعم أديلمو وجودهما هما والمدعوون ويتوقف الكرسي، يفحص أديلمو السيد ماركوني، ثم بطريقته هو يحييه:

- ومن تكون أنت؟

- أنا صاحب المنزل، وأنتم لستم ضيوفًا مُرحبًا بكم.

يقول العم:

- آه! فهمت من أنت، أنت ماركوني مدير الجنازات.

وبيده يلمس بين قدميه بقوة:

- ماذا حدث؟ لماذا استدعوا الحانوتي؟

- أنا لست حانوتيًّا، وهذا منزلي، وأنتم لا يمكنكم الحضور إلى هنا.

- أوه يا حامل الموتى، أنا من اليوم، بتلك الجوهرة، يمكنني أن أذهب إلى حيث أريد!

ويربت من جديد على مسند ذراع الكرسي.

- الآن وقدماي توقفتا عن إعاقتي، تفكر أنت أنه يمكنك منعي؟

كز السيد ماركوني على أسنانه، وابنته تحت إبطه، وفي محله يجيب أحد السادة المتأنقين:

- بالتأكيد سنمنعك بفضل شيء بسيط اسمه قانون العقوبات. هل يُذكرك بشيء؟

قال العم ألدو:

- وأنت من تكون، حانوتي آخر؟

- لا، أنا المحامي باليستري. وأنصحكم جميعًا بأن تختفوا على الفور، باسم القانون.

قال هذا، بكل جدية وحنجرته منتفخة بأهمية ذلك الذي أخرجه للتوِّ. ولبرهة ساد الصمت، ثقيلًا جدًّا في الآذان وفي الهواء، برهة بدت لي لحظة خطيرة جدًّا، حيث يجب على أعمامي وأصحابهم الآن ليس فقط الرحيل من المكان بل الهروب بعيدًا. وأنا أيضًا معهم، قبل أن يصل القانون مع الشرطة ويأخذوننا جميعًا إلى السجن.

لم أستطع أن أعرف إذا كانوا قد صُدموا أو أصيبوا بالفزع أو ماذا، لأنني بعد أن قلت إنني لست ابنهم ولا حتى حفيدهم لم أستطع أن أنظر إلى عيونهم. ولا حاجة إلى هذا: مرت ثانية ثم

وصلت تلك الضحكة شديدة القوة منهم جميعًا معًا، بلا تحكم، والوحيد المجهز بينهم كان العم أديلمو بتلك الحاوية أسفل المقعد، بينما الآخرون يخاطرون بأن يضحكوا حتى يتبولوا على أنفسهم.

وبالفعل كان من تحدث هو العم أديلمو، عندما استطاع أن يدس كلماته بين تعالي ضحكاته:

- القانون؟ هل قلت هذا بالفعل أيها المحامي؟ القانون؟ ومن الغبي الذي يهمه القانون؟

وتعالت ضحكات أخرى.

- أحسنتم، اضحكوا إذن ما دمتم استطعتم، ولكن قريبًا ستبكون. القانون مقدس.

وتعالت ضحكاتهم أكثر، وأخذوا يتبادلون النظرات وهم يرددون «القانون مقدس!»، وكأنها خاتمة نكتة رهيبة، وتبادلوا ألف تربيتة على الكتف. وشعرت بالأسف كثيرًا لأنهم لم يعطوني بعضًا منها.

في النهاية قال العم ألدو:

- بالتأكيد القانون مقدس، مقدس نعم، بالنسبة إليكم: أنتم يا من تصنعون به ما بدا لكم! توجد غابة غاية في الجمال، ملك للجميع، والجميع يمكنهم الذهاب إليها للصيد أو للتمشية، أو حتى لممارسة الحب. ولكن أنتم تريدونها فقط لأنفسكم، تأخذون قطعة منها وتقولون إنها ملك

لكم، ويمكنكم عمل ذلك لأن القانون يؤيدكم. تأخذون النباتات وتلقون بها، ووداعًا للأخضر ووداعًا للأعشاش وكل شيء، والقانون يجعلكم تفعلون هذا، بل يجعلكم أيضًا تضعون شبكة حولها لتبعدوا عنكم باقي العالم. ثم تبدأون في الضجيج والصراخ بالموسيقى على أعلى درجة، والقانون يترككم تفعلون هذا أيضًا. وإذا ألقينا نحن بقطعة الشبكة أرضًا، وتقدمنا خطوة إلى هنا، على ذلك المتنزه الذي كان يومًا ما ملكًا للجميع، ها هو القانون يجري ليدافع عنكم ويقول «لا، هذا غير قانوني!»، وربما تكون نتيجة كل هذا القرف هي أننا نحن من خالفنا القانون!

قال المحامي:

- هذا واضح. أنتم بكل وضوح خارجون عن القانون: ممارسة الصيد في مناطق ممنوعة، استخدام غير مناسب لأسلحة الصيد، التعدي على ملكية خاصة... والقائمة لا تنتهي!

يجيبه أديلمو، دائمًا بتلك الابتسامة التي وُلدت اليوم على فمه، والتي لن تموت على الإطلاق:

- القائمة مجرد غباء، بالتأكيد القانون يعجبكم، فأنتم وضعتموه كما أردتم، وبالتأكيد يعطيكم الحق دائمًا. أما نحن فتضعونه دائمًا في مؤخراتنا، إذن، ما معنى أن نتبع نحن القانون؟ بالنسبة إلينا يناسبنا أن نفعل ما يحلو لنا. والقانون يضحكنا، ونتركه كله لكم، وأنتم تضحكوننا أكثر. حانوتي ومحامٍ وصيدلي، وعضو

مجلس... يا لجمالكم، بكل هذا الثراء، بكل هذه الأناقة. نعم نعم، إذا كان هناك شيء مضحك أكثر من القانون، فهو أنتم بالتأكيد!

- المضحك هو حضرتك!

عندئذ ينفجر السيد ماركوني، بصرخة تجعل الجميع يلتفتون. كانت عيناه جاحظتين، ويتحدث مثل شخص يتقيأ، دون أن يوقف ذلك السيل من الأشياء السيئة التي تنطلق من الداخل وتريد الخروج بالقوة:

- حضرتك أتيت إلى منزلي وتنعتني بالمضحك، حضرتك؟ بتلك القبعة وما عليها من أوراق الشجر، وتلك الملابس التمويهية الغبية وتلك العربة العجيبة التي تجلس عليها!

ويتدخل المحامي:

- بالفعل، وهو ليس بالتأكيد موديل مُعتمدًا، وبالتالي لا يمكنك أن تتجول به في الطرقات.

أقسم إنهم قالوا هذا، وعضو المجلس والصيدلي وافقا على كلامه. وجمهور المدعوين حتى إذا لم يكن قد فهم أي شيء، أعطاه الحق.

إلا أن أعمامي وأصدقاءهم لم يجيبوا على الفور، ولكنهم بالتأكيد سيقولون شيئًا وسيستمر الموضوع لوهلة. ولكنها كلها حوارات يمكنني فقط أن أتخيلها، ولكنني لم أعد أسمعها: كانت الأفكار في رأسي تصيح بقوة رهيبة.

لأنني أصدق بكل شيء وأعرف أن كل شيء في العالم ممكنًا، ولكنني لا أستطيع أن أصدق أن يوجد أناس يمكنهم التحدث بالسوء عن ذلك الكرسي. أشخاص لا يستطيعون فهم الروعة التي صنعها أبي، وكيف هو رائع وعبقري وكم من الفرحة جلبها معه، فرحة عظيمة حتى إنه يمكن الشعور بها تنطلق في الهواء. ولكنهم هم لا يشعرون بهذا، هم ليس في إمكانهم أن يصنعوا معجزة مثل هذه، ولا يعرفون حتى إلى من يمكنهم الذهاب لطلبها. وإذا في النهاية عثروا عليها، فسيصنعها لهم هذا الإنسان، أجل، وفي مقابل النقود، ولكن من دون ذلك الشغف الذي ملأ أبي بينما يلحم ويدهن وهو يتخيل العم أديلمو وهو يعود بعد كل تلك الأعوام إلى بقعة النوتي بالبندقية في يده، ويدخل انفعال تلك الصورة كلها في عمله الذي يصبح متميزًا وساحرًا، حتى الضربة الأخيرة للفرشاة، وحتى المسمار الأخير المربوط جيدًا.

هؤلاء الناس لن يفهموا ولا يمكنهم أن يفهموا، لأنهم لا يعملون أي شيء، هم يأمرون فقط. يقررون الأشياء ثم يأمرون بها الآخرين. حتى الحروب، يشعلونها لمصلحة ما لديهم ولكنهم ليحاربوا يرسلون جدي دينو. والذي في النهاية عاد إلى جدتي ماريوتشا، وإن لم يكن قد عاد، كانوا سيصنعون له تذكارًا للساقطين، ويقررون كيف يفعلونه وأين يضعونه، وفي الافتتاح يرتدون الشريط ثلاثي الألوان على صدورهم ليتحدثوا ويتحدثوا ويتحدثوا. لأنهم لا يعرفون عمل شيء آخر، لأنهم لا يعرفون

كيف يستخدمون أياديهم. يعرفون فقط كيف يقررون للآخرين، ويقررون ما هو القانوني وما هو غير القانوني، الطبيعي والغريب، العاقل والمجنون. وأمام شيء عبقري وجديد مثل ذلك الكرسي لا يمكنهم إدراك شيء سوى أنه خارج عن المألوف، وبالتالي ليس جيدًا. ربما كانوا سيقولون هذا أيضًا عن العجلة عندما اخترعها أحد أجدادي داخل مغارته، ربما كانوا سيقولون هذا عن أول من جمع بذور النباتات ووضعها في الأرض ليزرعها. لأن هذا في تلك الحقبة كان أمرًا غريبًا، بل كان عبثيًّا، ولكن كل شيء يكون غريبًا في البداية، بل إن الأفكار الجديدة والجميلة لا تخرج إلا من رؤوس الناس الغريبة. منها تأتي الاختراعات الكبرى بل والقصص العظيمة.

بينما حكايات من يحكمون لا تُعرف على الإطلاق، فهي مليئة بأشياء بشعة جعلتهم يصلون إلى حيث هم، لذلك من الأفضل ألا نتذكرها. وهم ليسوا موجودين في قصصنا رائعة الجمال، أو ربما موجودون كشخصيات ثانوية، سخيفة، لا تثير سوى الغضب. وهم لا يدركون هذا، لا، يعتقدون أنهم موضع احترام لأنهم يدفعون، ولكن لا يعرفون كم من الاشمئزاز يسببون لمن يعدون لهم الطعام أو لمن يخدمونهم، أو لمن يغسل لهم سياراتهم أو يشذب سياجهم، لكل أولئك الأشخاص غير المتأنقين الذين يعرفون كيف يفعلون كل شيء بأيديهم، فيما عدا العقدة لذلك الشيء الغبي الذي يدعونه ربطة العنق.

إذن الأمر حسن هكذا، ربما يكون أعمامي مجانين، وأصدقاؤهم أيضًا، وربما يكون أبي أيضًا كذلك. والأكثر جنونًا من الجميع هو أنا، لأنني أقلق على كل هذا.

إنها هكذا، إنها لعنتنا، وإن كانت اللعنة أن نكون غرباء كما نحن، فلتحيا اللعنات. بل، إنني أنتظر بشوق الوصول إلى سن الأربعين لأكون غريبًا إلى أقصى حد. حتى إن استطعت أن أخطب وأتزوج، أتمنى أن أجد واحدة، تكون مجنونة، على الأقل مثلي، وننجب أطفالًا أكثر جنونًا، إذا كان هذا يعني أننا سنمنح العالم أشخاصًا مثل أبي القادر على صنع معجزات مثل تلك العربة، ومثل أعمامي الذين كان يكفيهم رؤيتها ليفهموها على الفور ويشعروا بكل السعادة في العالم.

إذن ملعونون، أجل، ملعونون طوال الحياة، ملعونون وبعيدون عن تلك الحفلات، والتي أشكركم لأنكم دعوتموني إليها مرة واحدة، هكذا رأيت كيف هي ولن أعود إليها أبدًا. سأذهب مباشرة إلى قريتي مع أعمامي، والذي هم أيضًا أجدادي وآبائي، حتى مارتى وأورانو وجينو، جميعهم. إنهم جميعًا بداخلي، حياتهم وحكاياتهم، إذن فأنا ممتلئ بالروعة. والآن سأذهب بعيدًا معهم، وأنتم فلتمكثوا هنا في حفلكم، كلوا واشربوا وارقصوا، بل والأهم من ذلك لتذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

أجل، كل هذا اجتاح ذهني ولحمي ودمي، وكأنه انهيال من الأفكار والانفعالات معًا. ولا أدري متى تحولت إلى كلمات، ولا

كيف اندفعت من داخلي إلى الهواء. إلا أن هذا ما حدث، نظرت حولي وأدركت من العيون المفتوحة على اتساعها، ومن الأفواه المفتوحة، ثم من قفزات أعمامي وصياحهم وقد أتوا إليَّ وعانقوني، بينما مارتي وأورانو وجينو يحتفلون بإطلاق طلقات بنادق نحو السماء، ويرددون: *ياله من جبار هذا الصغير، ياله من جبار بالفعل!*

أخذوني وضموني ورحلنا جميعًا معًا هكذا، دون أن ننظر إلى الخلف، بينما أنا أدفع الكرسي المتحرك للعم أديلمو، وأذوب وأنا أشعر كم يسير بسلاسة وسرعة.

ولكننا لم نرحل بمفردنا، تبعنا ماسيمو الصغير، ومانويل ويولاندا، بل ومارتينا أيضًا، بل، أتت هي نحوي، وأقسم إنها نظرت إليَّ للحظة، ثم عانقتني وقبلتني. قبلة ربما أرادت أن تضعها على وجنتي، ولكنها نزلت على طرف فمي. عندئذ هأنذا في عمر الثالثة عشرة وقد قبلت فتاة على فمها، كنت أعتقد أنني متأخر، إلا أنني تقريبًا متقدم، حتى وإن كان من الصعب قول هذا حيث إنني لا أعرف وجهتنا. ولكن الأمر على ما يرام هكذا.

أنظر إليها لوهلة، ولكنني أشعر بالخجل فأوجه عينَي تجاه الغابة بينما العم ألدو يبتسم ويؤيدني، ونذهب جميعًا نحو الاتجاه الصحيح. وهو ثقب الشبكة، نحو الأغصان المتشابكة، من حيث أتوا هم، وإلى حيث سنعود كلنا معًا. وعلى الرغم من أننا كنا نصرخ ونطلق النيران، كانت الطيور تأتي لتحيينا، بينما ندخل إلى عالمنا ونترك خلفنا الحفل الذي اختفى على الفور من الوجود.

بل، ظل في مكانه لحظة، لحظة واحدة، تلك الكافية ليفهم جميع المدعوين أنهم ينظرون إلى أغرب وأعظم شيء يمكنهم رؤيته، القصة الأجمل التي يمكن سماعها على الإطلاق.

بينما نحن، بين الغناء والعناق وضربات البنادق وزقزقة العصافير، نعود إلى قلب الغابة ونغوص في كل هذا الجمال الكثيف، والروعة الصاخبة.

(٢٣)

من يُعلِّم العصافير الغناء؟

إنه يوم الثامن والعشرين من أغسطس، توجد شمس تشوي العصافير في أثناء طيرانها، وأبي يعود إلى المنزل.

فقط لعطلة نهاية الأسبوع، ولكنه اليوم يعود إلى المنزل معنا.

مرت ثلاثة أشهر منذ ذلك السبت الذي فيه حيانا بيده، وكل يوم يتعلم شيئًا. في البداية كيف يأكل ويشرب، ثم كيف يرتدي ملابسه ويصفف شعره، وأشياء أخرى كثيرة. أشياء كثيرة جدًّا إلى حد أنني كنت أتعب في أن أكتب شيئًا جديدًا لأعلمه له في كل مرة، ثم لحسن الحظ انتهت المدرسة وتركت لي الوقت للأشياء المهمة، وإلا ماذا كان يمكنني أن أفعل. في الوقت نفسه كان أبي أصلح أقدام الكومودينو، ثم لوح الفراش الذي يصر، ومفصلات النافذة وقابسَي كهرباء لم يشتغلا قَط في حياتهما. وكل يوم عندما يأخذه الممرضون لجلسات العلاج الطبيعي كانت الناس توقفه لتطلب منه إصلاح شيء ما، أقارب مرضى آخرين يحضرون الأشياء من المنزل:

خلاطات -أجهزة تحكم- مذاييع صغيرة، إلى حد أن الأطباء قالوا كفى، لأن حجرته أصبحت تشبه الورشة.

حسنًا، كالعادة الأطباء يبالغون، إلا أنه في الواقع هذا الصباح عندما وصلنا لنأخذه جميعًا، كان أبي يجلس بصعوبة على الفراش، أسفل جبل من أجهزة مفككة، تنتظر لأن تعمل مرة أخرى. وستنتظر بعض الوقت، لأن أبي من اليوم وفي كل إجازة نهاية الأسبوع سيرحل، وسيأتي إلى المنزل معنا.

رفع جذعه لأعلى وتزحلق حتى حافة الفراش ومنه إلى الكرسي المتحرك، لأن ساقيه لم تعودا بعد. ولا حتى صوته، وقال الطبيب إنه ربما يظل أبكم إلى الأبد، وشرحت أنا له أن هذه ليست مشكلة لأن أبي في البداية لم يكن يتحدث كثيرًا. ثم بعد ذلك كتبت صفحة جديدة حيث أخذت أعلمه كيف يتحدث: السر في تنفس الهواء وإخراجه من الفم بدلًا من الأنف/ وفي الوقت نفسه تحريك الشفتين واللسان لتحويله إلى صوت، بل إلى أصوات كثيرة إذا وضعناها معًا تصبح كلمات وحوارات وأيضًا أغاني. وإذا فكرنا في الأمر جيدًا فهو أمر مجنون، وبينما أكتب لأبي كنت أندهش أنا أيضًا أن هذا يمكن أن يحدث، عندئذ بين سطر وآخر كنت أحاول أن أقول آه، آه، آه، ثم بيه، بيه، بيه، وأصواتًا عشوائية متلاصقة أو متسلسلة، ثم إن مسألة التحدث هي واحدة من الأشياء المستحيلة تمامًا إلا أنها تحدث. بل تحدث كثيرًا جدًّا، تحدث كل يوم وللجميع، وأبي قد نسيها والآن سأعلمها له أنا من جديد، ولكن الأشخاص

يتعلمونها في سن صغيرة جدًّا دون حتى أن يعلمها لهم أحد، يولدون فحسب.

مثل العصافير المولودة حديثًا التي يأخذها العم آراميس من الأعشاش، يربيها ويطعمها شيئًا مثل العلف المهروس على عصا صغيرة، وهي في وقت معين تفتح مناقيرها وتنطلق في غناء أغانيها الجميلة. ومن أين تأتي تلك الأغاني؟ من الذي اخترعها، وعلمها أن تغنيها؟ أنا لا أعرف، ولا تعرفه العصافير أيضًا، يستخدمونها لجذب الإناث، والتحدث فيما بينها. بل إن طيور الشرشور تغني أغنيات مختلفة حسب أماكن تواجدها، تتحدث بطريقة تتغير من مكان إلى مكان، يتحدث الشرشور إذن باللهجات.

هذا شيء مستحيل أيضًا، إلا أنه يحدث، مكتوب في *الموسوعة العملية في الصيد، النسخة الأحدث*، والتي أخذتها من السوق في بداية الصيف. ما زلت أشتري الكتب الإرشادية كل أسبوع، والأهم أنني أذهب لأحيي السيدة ستيلًا وأتأكد أنها ما زالت في السوق ولم تذهب إلى هاواي، لأنني في الواقع لم أعد أقرأها تقريبًا. لدي وقت أقل الآن، أتعلم أشياء كثيرة أيضًا هكذا، بينما أساعد أبي على العودة، وأنا أكتب صفحات كتابي الإرشادي له.

وأكتب أيضًا العديد من كروت البوستال لمارتينا، تقريبًا يوم ويوم، واليوم الذي لا أكتب فيه هي تكتب لي. بدأ الأمر من شهر يونيو، وأنا أعرف أنه شيء غبي أن يرسل أحدهم كروت بوستال من بلدته إلى شخص يعيش فيها بدوره، ولكن مارتينا تقضي إجازة

الصيف على قمة جبال الترينتينو مع أمها، ولم أفهم جيدًا أي نوع من الأعمال تقوم به في فندق جبلي بعيد هكذا. ترسل لي كروت بوستال مليئة بصور الغابات والمنازل الخشبية والجبال البارزة والشمس خلفها، وتقول لي أن أرسل لها كروت بلدتنا وفيها البحر وطيور النورس والمظلات، وهكذا لا تنسى كيف هو الصيف عندنا.

ولكنها ستعود بعد قليل، ووعدتني بأننا في يوم عودتها سنذهب على الفور للغوص، لا يهم حتى إذا كانت تمطر أو الرياح شديدة، أو البحر هائج وسيأكل الشاطئ، سنذهب على الرغم من هذا لنغوص في البحر معًا. وأنا أجبتها بنعم، وبأن الفكرة تعجبني كثيرًا، وأن البحر الهائج لا يخيفني على الإطلاق. لأنني أعرف السباحة، إنه الشيء الذي أجيده أكثر من أي شيء في حياتي، ولم أتعلمه من كتب إرشادية ولا من المدرسة، بل علمه لي أبي الذي في ظهيرة أحد الأيام، أخذني بعيدًا، في عمق البحر حيث لا تُلمس الأرض، وألقى بي في تلك الزرقة اللا نهائية، وأنا بمفردي وبفضل حركتي السريعة وتحريك يدي بقيت على السطح، ونجوت، واستمررت في النجاة يومًا بعد يوم.

وإذا فكرت في الأشياء المهمة التي تعلمتها في تلك الشهور، في واقع الأمر تعلمتها كلها بهذه الطريقة، أنني غطست فيها مصادفة، وقمت بهذا بمفردي ومن أجله. شيء غريب: تتوقع دائمًا أن يساعدك أحدهم في تعلم شيء ما، والحقيقة أنك تتعلم الكثير جدًّا إذا بدأت في مساعدة شخص آخر.

أعيد التفكير في الأمر الآن، بينما نسافر بالسيارة وأمي تقودها، أبي بجوارها وجدتي خلفي، وشاحنة الأعمام أمامنا، تفتح لنا الطريق. آتوس بطبيعة الأمر يجلس في صندوق الشاحنة، وكل الوقت من لوكًا ينظر إلينا ويحيينا ويرفع يديه إلى السماء ضاحكًا. وأيضًا أبي ينظر إليه ويبتسم، وينظر إلى الخارج من النوافذ الصغيرة ويبتسم وينظر إليَّ ونبتسم كلانا.

والشيء الوحيد المر هو أن أبي يبتسم مندهشًا، وكأنه أمام شيء جميل جدًّا، ولكنه جديد. لأنه بالإضافة إلى ساقيه اللتين لا تتحركان، ونفسه الذي لا يتحول إلى صوت، هو أيضًا حتى الآن لا يتذكرنا.

فهمت هذا في بداية شهر يونيو، وكان يومًا سيئًا. وصلت إليه وكل مرة يصافحني بقوة أكبر بل ويحضنني أيضًا، وعندما أحكي له عن المدرسة أو حتى عن الكرسي المتحرك الخاص الذي صنعه للعم أديلمو، أرى أنه يتابعني أقل. لأنني بالنسبة إليه مجرد صبي رقيق وظريف، يذهب ليزوره ويقرأ له أشياء مفيدة، وعندما قلت له إنني ابنه، ابتسم لي أبي كما يبتسم الآن في السيارة، مندهشًا بسعادة. وهو في رأيي أمر ضئيل جدًّا. مثل أن يفكر أحدهم في أنه ليس لديه ما يأكله، وأنت تقول له إنك ابتعت دجاجة مشوية وبطاطس من البقالة، وهو يبتسم، بالتأكيد، لأن الدجاجة المشوية مع البطاطس طيبة جدًّا، وفي نهاية الأمر، أن يكون للمرء ابن وزوجة وعائلة ضخمة تنتظره لا بد أن يكون رد فعله أكثر من مجرد الابتسام.

يقول الأطباء إن هذا أمر طبيعي. وهم مجبولون على هذا، بالنسبة إليهم الأشياء الجميلة كلها مستحيلة، أما الأشياء السيئة فكلها عادية. ولكن بالتدريج بدا الشيء أقل سوءًا حتى بالنسبة إليَّ، هذا الشيء أن أبي لا يتذكرنا. إنها فقط واحدة من القطع الحية التي فقدها في الطريق، والتي سيبدأ في استعادتها واحدة واحدة وسرعان ما يصل إليَّ.

بالتأكيد الآن ستفيده رؤية أماكننا، والطرقات المليئة بالمنازل حيث توجد الحمامات والمواسير التي تعمل بفضله. تجري خارج تلك النوافذ الصغيرة، كلما اقتربنا أكثر من منزلنا، ولكنها تبدأ في التباطؤ بالتدريج، حتى نتوقف تمامًا.

يوم ٢٨ أغسطس، بالنسبة لعائلة مانشيني هو اليوم الذي فيه عاد جورجو إلى المنزل، وبالنسبة لباقي البلدة هو عيد القديس إيرميتي. يوجد معرض كبير يأتي إليه الناس من كل المقاطعة، يمتلئ وسط المدينة بالسيارات وتغلق الطرقات. يقفز العم آتوس من فوق الشاحنة ويأتي ليقول لنا إن سيارتين تصادمتا ولا مجال للعبور.

وهذه مشكلة، لأن الجو في السيارة حار جدًّا وبدأ عرق أبي يتصبب. بدأنا كلنا في التعرق، ولكن لا يجب أن يحدث له هذا. ثم إنها ساعة الغداء وفي المنزل كنا سنطهو له طبقه المفضل؛ معكرونة إسباجيتي بالمحار، والذي ذهب الأعمام بالأمس لاصطياده في البحر بأداة مخصصة لهذا بها شبكة أسفلها، ولا بد من زرعها جيدًا أيضًا أسفل الرمال، في المياه القريبة من الشاطئ، وجذبها للخلف

فتجمع واحدة تلو الأخرى من تلك الحيوانات الصغيرة، المنمنمة ذات المذاق العملاق.

لكي نعد المعكرونة نحتاج على الأقل إلى كيلوين، إلا أن الأعمام، متحمسين بسبب خبر عودة أبي، وبوجود العم أديلمو أيضًا سعيدًا جدًّا معهم لأنه استطاع بواسطة كرسيه المتحرك الجديد الخاص أن يذهب أخيرًا حتى هناك، وبالتالي كان يحثهم وهو يصيح «هيا، الهمة، أقوى، تحركوا، وإلا سأحضر أنا لأعرفكم كيف تفعلون هذا!»، وأنا متأكد أنه أخذ يقص عليهم قصة أخرى عن الطريقة التي انتهى بها فوق هذا المقعد ذي العجلات، بينما هم يدفعون ويجمعون، وكانت قصة رائعة وبها تفاصيل عن صيد المحار. وكانوا يسمعون ويجذبون للأمام، واستمروا هكذا حتى غروب الشمس، والآن في المنزل لدينا كمية من المحار يمكننا أن نحاول هضمها من هنا حتى عيد الميلاد.

ولذلك عندما تعود مارتينا يمكنني أن أعطيها أيضًا بعضًا منها، أو ربما أن أدعوها لتناول الغداء في منزلنا. على كل الأحوال هي تعرف كيف هي عائلتي، وتعرفت عليها أيضًا جيدًا جدًّا في ذلك الحفل الشهير بالقرب من بقعة «النوتي»، وفي النهاية أعطتني قبلة على الرغم من ذلك. قبلة بجوار الفم، أو تقريبًا على الفم. وأيضًا إن لم تكن بعد ذلك قد أعطتني قبلات أخرى، وأيضًا إذا كانت على الجبل حاليًّا، فأنا أعتقد أنني عندما سأعود ستعطيني قبلات أخرى بالتأكيد. لا أعرف حتى ماذا نكون، خطيبين، صديقين، صديقَي

مراسلة، لا أعرف. يكفيني انتظارها، والأشياء التي تخصك ستصل إليك.

كان أبي يقول لي هذا دائمًا: سمكك يا فابيو، لن يأخذه أحد منك.

والآن، لا يمكننا الانتظار، الطريق مغلق وأبي يعرق ولا بد من طهو الإسباجيتي وأكلها. عندئذ نركن الشاحنة جانبًا والسيارة وننزل، ودون أن نتناقش، ودون أن نتحدث عن الأمر ونقرر، ببساطة نرحل: نهر الأشخاص الذاهبين إلى المعرض ينشق إلى نصفين ويتركنا نعبر بينما نذهب في الاتجاه المضاد والخاص بنا، نذهب إلى المنزل.

سنذهب إلى المنزل سيرًا لأننا أصبحنا بالقرب منه الآن. أدفع أنا كرسي أبي المتحرك، وأمي تسير بجوارنا وجدتي من الناحية الأخرى، ثم يأتي ألدو وآتوس وآراميس الذي يدفع أديلمو في كرسيه المتحرك الخاص، بينما ينظر إلى أبي بعينَي المحبة.

وربما أيضًا هذا الحشد من الغرباء ينظر إلينا بينما يفتح الطريق أمامنا، ينظر إلينا كثيرًا جدًّا، وهذا لا يخجلني على الإطلاق. بل إنني أفهمهم: متى يمكن أن يشاهد المرء عرضًا كهذا؟

ويستمر عرضنا في التقدم لبضع دقائق أخرى بطوال طرق أقل ازدحامًا وحتى طريق ضيق حيث نتواجد نحن فقط، طريق نهايته مغلقة وصغير جدًّا، وفي الوقت نفسه هو أهم طريق في العالم، وعليه لافتة من الخشب مكتوبة بخط اليد:

مرحبًا بكم في قرية مانشيني

لا يعرف أبي القراءة بعد، ولكنني على الرغم من ذلك أضع يدي على كتفه وأقول له إنه لا يجب أن يقلق، لأنه واحد منا، ونحن يمكننا الدخول. هذه هي قريتنا، هذا هو منزلنا، والآن نحن في المنزل أخيرًا.

يلتفت هو إلى الخلف، يرفع عينيه ويبتسم لي. ولكنه يبتسم جيدًا، أفضل من الأول، عندئذ أبتسم أنا أيضًا أكثر، بينما يعود هو لينظر إلى تلك الأشياء التي بالنسبة إليه جديدة جدًّا حتى وإن كانت الأشياء التي عرفها طوال حياته.

بل هذا ليس حقيقيًّا: تمر لحظة وأمامنا يحدث أمر لا يصدقه عقل، ويطوح بنا جميعًا. لأنه في وسط الطريق، أقسم، كان عمي أرنو ينتظرنا ومعه كلبه بوفيرا. إنها المرة الأولى التي أراه هكذا، خارج حقله، بلا ذرة وبلا نباتات حوله، ويبدو لي هذا أمرًا غريبًا جدًّا. وكأنني أرى حلزونًا بلا قوقعة، أو خنزيرًا بريًّا في الفضاء. إلا أنه ها هو هناك يلوح بيده، ونحييه جميعًا، بل إن الأعمام الآخرين يعانقونه بعد أن رأوا أنه لا يحمل البندقية على كتفه. يقول لنا:

– هل لديكم مكان لآكل معكم، اليوم فقط؟

تجيبه أمي بأن هذا رائع، وجدتي أيضًا، وأن لدينا مكانًا له بالتأكيد، وإذا لم يكن لدينا مكان فليجلس في مكان الجد أرولاندو، الخالي دائمًا، وبالتأكيد كان هو سيتركه له بكل سرور.

تجري الجدة نحو المنزل لتعد معكرونة إسباجيتي، بينما يذهب الأعمام جميعًا ليحضروا اللوح الضخم الذي يضعونه بعد ذلك فوق جذعَي شجرة في الحديقة، فتصبح طاولة ضخمة. أما أنا وأمي فقد دفعنا أبي بعيدًا عن الطريق، على عشب منزلنا وأسفل السقيفة بجوار ورشته، التي تقبع في مكانها في انتظاره هو ومعجزاته.

تجلس أمي بجواره، وأنا أيضًا أريد ولكنني لا أستطيع، لأن قدمَي تدفعانني بالرغبة في أن أفعل ما أنا على وشك عمله، الشيء الوحيد الذي يفيد أبي الآن. أبي الذي يجلس هنا معنا، لقد عاد، وفي الوقت نفسه، يبدو وكأنه وُلد للتوِّ. والولادة شيء غاية في الجمال، إنها بداية مغامرة مجنونة اسمها الحياة، وبين آلاف الأشياء المستحيلة التي يمكن أن تحدث في تلك الأعوام، فهي المستحيلة أكثر من كل شيء.

ومن يدري ماذا ينتظرنا هناك في المستقبل، أنا لا أعرف ولا أحد يعرف، لكننا نعرف ما سبق واختبرناه، ذلك الذي فعلناه يومًا بعد يوم، والذي سيصبح بعد ذلك القصة العظيمة عن كيف وصلنا إلى هنا. وفي كل صباح نستيقظ ونتخذ خطوة أخرى، وقصتنا سحر تُحول كل خطوة قصيرة وحمقاء إلى شيء عملاق، يعمل على إرشادنا. لا أحد يعرف إلى أين، ولكننا مع ذلك نتقدم، وهذا السحر خلفنا لا تراه ولكنه يدفعك، تمامًا مثلما يحدث لك أسفل قدميك وأنت في وسط البحر، وتظن بين لحظة وأخرى أنك ستسقط إلى الأعماق، ولكن لا يحدث هذا، لأن شيئًا خفيًا يجعلك

تطفو، بلا أنفاس ولكنك حي، وعيناك مفتوحتان على اتساعهما نحو الأفق.

وهذا هو ما يحتاج إليه أبي بالفعل. ولهذا آمر قدمَي أن تنثنيا وأجلس، أجلس بجواره هو وأمي، وأضع يده في يدي، أسفل سقيفة منزلنا وأسفل السماء العالية جدًّا، اللا متناهية التي تنظر إلينا. أفتش في جيب بنطالي، وأخرج ورقة مربعة، أفردها فتصبح صفحة، إنها الصفحة التي كتبتها هذا الصباح من أجله.

حاليًا هي صفحة واحدة، ولكن سأحتاج إلى صفحات أخرى كثيرة من أجل هذا الدرس الذي خطر ببالي اليوم فقط، ولكنه هو الأهم في العالم. لأنه من المهم معرفة طريقة الأكل وطريقة الشرب وطريقة السير، بالتأكيد، ولكن لا أحد يمكنه الذهاب إلى أي مكان إذا لم يكن يعرف من أين أتى، وأين يمكث، ومن هم الموجودون حوله والذين يحبونه جدًّا. عندئذ بدأت من البداية، وأقسم إنني يومًا بعد يوم سأحكيها له كلها حتى تلك الأمسية الرائعة، ومغامراتنا الصاخبة.

لأن أبي لا يعرفها، وربما يقول له الناس في الجوار إنها مجرد قصة خيالية، ولكن هذا ما حدث بالفعل. وهذا ما يزال يحدث هنا أسفل السقيفة حتى... لا أحد يعرف هذا، ولا أنا أيضًا أعرفه، ولكنْ لدي اشتياق كبير لأن أراه. وبينما أفرد الصفحة على قدمَي وأملأ أنفاسي بهواء منزلنا، الذي تفوح منه رائحة النباتات التي نمت معوجة، ولكنها تقف على سيقانها الواحدة فوق الأخرى،

وتفوح منها رائحة ملح البحر والزيت بالثوم الذي يُقلى في الشارع الآخر، أبدأ في أن أحكي له قصتنا.

أو على الأقل ما أعرفه أنا عنها، والذي ربما ليس بالكثير، ولكنه كل ما أملك.

كيف بدأت؟ لا أحد يعرف. ربما دَنَّس أحد أسلافنا مقبرة أحد الفراعنة، ربما أغضب ساحرة ما أو قتل غدرًا حيوانًا مقدسًا لدى أحد الآلهة المنتقمة، الشيء الوحيد المؤكد أنه منذ تلك اللحظة حملت عائلتنا على كاهلها لعنة مخيفة.

الأمر سيئ ولكنه كذلك، وكان الشيء الأول الذي تعلمته من المدرسة.

بل لا، الشيء الأول الذي تعلمته بمجرد دخولي إلى الفصل، هو أنه في العالم يوجد أطفال آخرون كثيرون في سني، وأولئك الأطفال لديهم فقط ثلاثة أو أربعة أجداد لكل منهم. أما أنا فلدي عشرة.

لأن جدي من جهة أمي كان لديه الكثير من الإخوة العُزَّاب، الذين لم يتزوجوا قَط، ولم يقبضوا قَط على يد امرأة، ولهذا من هذه العائلة الضخمة لم يخرج سواي، وكنت أنا حفيد الكل.



هكذا أخذت أفكّر في حقل القمح وأنا أنظر إلى القمر وأعدّ قائمةً بالأماكن التي يُمكننا أن نذهب لنعيش فيها، وكنت أتنفس بصوتٍ منخفضٍ لأنني كنت أريد أن أسمع الليل جيدًا، كنت أريد أن أسمع حفيف النباتات التي تتحرّك عند وصول (فيرنا). مكثت بأذنين منتبهتين، وذراعاي جاهزتان لضمّها، وابتسامة على فمي لا يمكن لأحدٍ نزعها عني حتى إن أردت، ولم أكن أريد على الإطلاق.

***

بلغةٍ بسيطةٍ تتمتع في الآن ذاته بعمقٍ وحساسيةٍ شديدة، وعلى لسان الطفل (فابيو) الذي يصحبنا معه لنسافر في أفكاره وحياته من سن الخامسة وصولًا إلى مرحلة المراهقة، نعيش صفحات هذه الرواية العذبة والمجنونة في آنٍ واحد. (فابيو) يسكن مع عائلةٍ غريبة الأطوار، تلاحق رجالها لعنة ما، تصيبهم في سن الأربعين، وتؤثر على ما تبقى من حياتهم. يعرف (فابيو) هذا، بالصدفة، فتبدأ محاولاته ليفلت من ذلك المصير. إلا أن حدثًا يطيح بحياة الأسرة كلّها، يقلبها رأسًا على عقب، فنعيش نحن أيضًا معه تلك التقلبات، نعيش تلك الحياة الغريبة والعجيبة، نعيش تلك الحياة اليومية العادية من خلال ما يراه ويدور في ذهنه وما يحدث له، ومن خلال حكايات يختار أن يقصها علينا. نضحك بشدةٍ أحيانًا في أثناء القراءة لنجد أنفسنا بعدها بلحظات نبكي تأثرًا.

المترجمة

فابيو جينوفيزي

في عمق البحر حيث لا تُلمس الأرض




9 789921 723632



www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com